



This is a digital copy of a book that was preserved for generations on library shelves before it was carefully scanned by Google as part of a project to make the world's books discoverable online.

It has survived long enough for the copyright to expire and the book to enter the public domain. A public domain book is one that was never subject to copyright or whose legal copyright term has expired. Whether a book is in the public domain may vary country to country. Public domain books are our gateways to the past, representing a wealth of history, culture and knowledge that's often difficult to discover.

Marks, notations and other marginalia present in the original volume will appear in this file - a reminder of this book's long journey from the publisher to a library and finally to you.

Usage guidelines

Google is proud to partner with libraries to digitize public domain materials and make them widely accessible. Public domain books belong to the public and we are merely their custodians. Nevertheless, this work is expensive, so in order to keep providing this resource, we have taken steps to prevent abuse by commercial parties, including placing technical restrictions on automated querying.

We also ask that you:

- + *Make non-commercial use of the files* We designed Google Book Search for use by individuals, and we request that you use these files for personal, non-commercial purposes.
- + *Refrain from automated querying* Do not send automated queries of any sort to Google's system: If you are conducting research on machine translation, optical character recognition or other areas where access to a large amount of text is helpful, please contact us. We encourage the use of public domain materials for these purposes and may be able to help.
- + *Maintain attribution* The Google "watermark" you see on each file is essential for informing people about this project and helping them find additional materials through Google Book Search. Please do not remove it.
- + *Keep it legal* Whatever your use, remember that you are responsible for ensuring that what you are doing is legal. Do not assume that just because we believe a book is in the public domain for users in the United States, that the work is also in the public domain for users in other countries. Whether a book is still in copyright varies from country to country, and we can't offer guidance on whether any specific use of any specific book is allowed. Please do not assume that a book's appearance in Google Book Search means it can be used in any manner anywhere in the world. Copyright infringement liability can be quite severe.

About Google Book Search

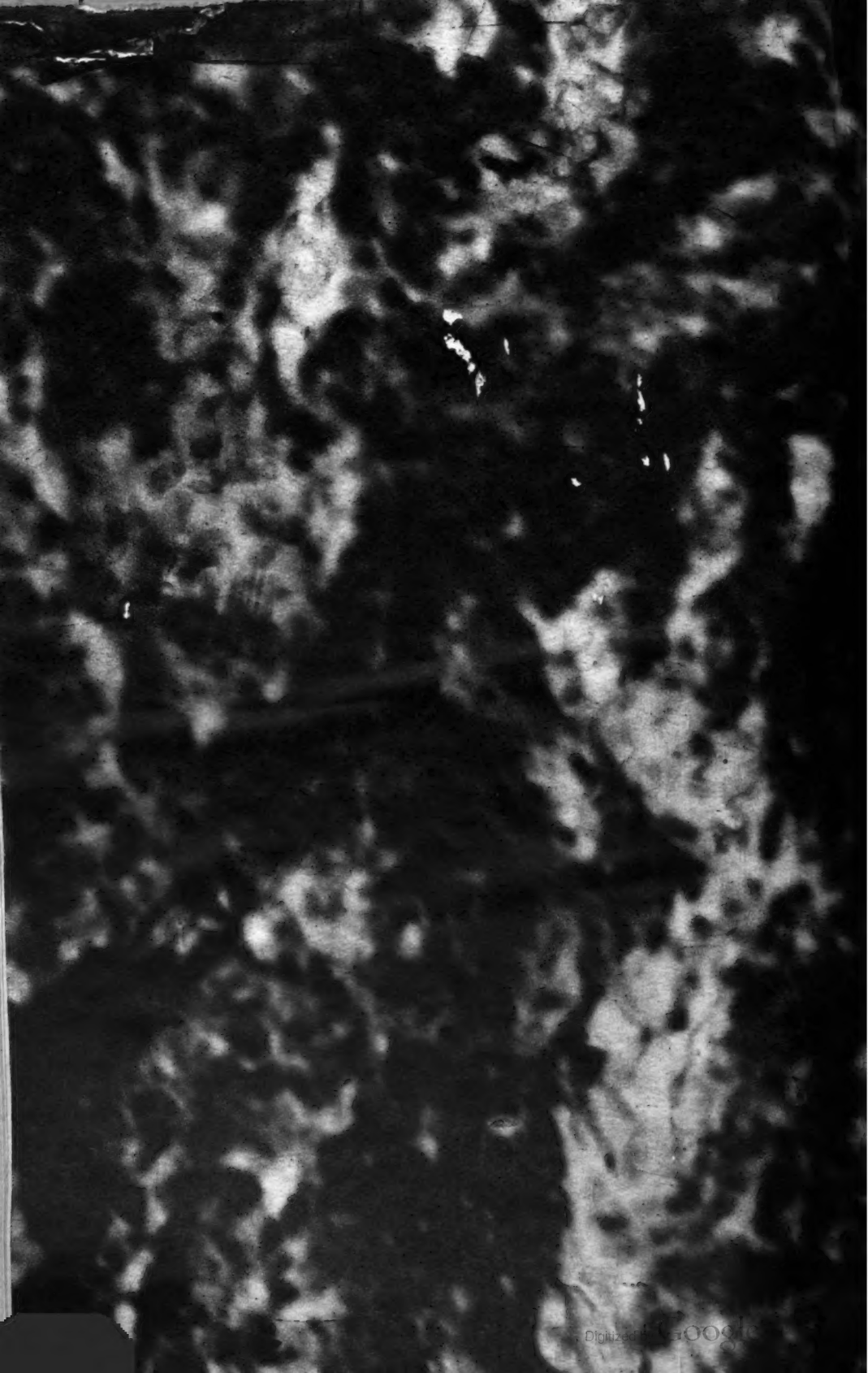
Google's mission is to organize the world's information and to make it universally accessible and useful. Google Book Search helps readers discover the world's books while helping authors and publishers reach new audiences. You can search through the full text of this book on the web at <http://books.google.com/>



HDI



HW 72K1 -



#104

فأ

كتابہ الروض الازھر

فی تاریخ بطرس الاکبر

ایمپراطور المود فخر ترجمہ

احمد افندی عیید

بقلم الترجمة

۴

فهرست كتاب الروض الازمرق تاريخ بطرس الاكبر

صفحه

٢

الخطبة

٤

المقدمة

٤

الفصل الاول في الكلام على تخطيط دولة روسيا

الفصل الثاني في بقية تخطيط دولة الموحق وفي اهلها وبيت مالها

وجيوشها وعوائدها ودينها والحالة التي كانت عليها قبل بطرس الاكبر ٣١

الفصل الثالث في الكلام على سائق بطرس الاكبر وجدوده ٤٧

الفصل الرابع في الكلام على ايوان واخيه بطرس والفنعة التي

احدتها وبقا الاسترليج ٥٥

الفصل الخامس في استيلاء الاميرة صوفية وفي المشاجرات الدينية

الغريبة وفيما حصل من التعصبات والفتن ٥٩

الفصل السادس في الكلام على استيلاء بطرس الاكبر على المملكة

واوائل ما حصل بدولته من النقض والابرار والتغيرات العظيمة ٦٦

الفصل السابع في الجمعية المعينة في حصن نيكول لعقد مجلس مرخص

اربابه من الموسقوية والصينيين وفي بيان ما وقع بين السلطنتين

من المشارطات ٧٣

الفصل الثامن في الكلام على الغزوة التي ارسلت جهة بحر ازاك

والاستيلاء على بحر ازاك وعلى ارسال بطرس غلما تان بالبول

الاجنبية لاجل التعليم واكتساب المعارف ٧٦

الفصل التاسع في سياحة بطرس الاكبر ٨٢

الفصل العاشر في الكلام على عقاب المتعزبين وابطال اوجاق عساكر

الاسترليج وما حصل من التغير في العوائد والاخلاق والدولة والديانة

بالديار الموسقوية ٩٣

الفصل الحادي عشر في الكلام على حرب الموسقو مع الاسوج

وذكر

Coolidge Memorial

وذكر واقعة نزوا

الفصل الثاني عشر في ذكر ماسي في تحصيله بطرس بعد واقعة نزوا من الوسائط والوسائل وجبر ما ترتب على هذه الواقعة من الخلل وفي الفتح الذي اكتسبه قرييما من نزوا وما ابداه في دولته من الاشغال وفي الكلام على المرأة التي اخذت سبيا في اعتناهم بعض المدن ثم تلقت اذ ذلك بلقب الامبراطورة ريحمة وفي ذكر ما حظي به

بطرس من التبحر والظفر وموكبه الحافل بمدينة موسقو ١٠٩

الفصل الثالث عشر في ذكر ما حصل بمدينة موسقو من التغيير والتبديل وما اكتسبه بطرس من النصرات وفي تأسيسه مدينة بتربورغ اي مدينة بطرس واسمته لانه على مدينة نزوا وغير ذلك

١١٨

الفصل الرابع عشر في بيان كون اعظم التقريبا استقرت تحت حكومة بطرس حين كان لكرلوس النصر في غير هذا الاقليم وفي ارتقاء منزله وقوف واطمئنان مدينة بتربورغ وامنها وتجهيز ما ضمته الجبل مع اتصار كرلوس عليه نصرات متوالية

١٢٦

الفصل الخامس عشر في ذكر تمكن بطرس لفتوحاته وايقاع الغنم والتنافس في عمالكة وفي حيازة كرلوس الثاني عشر النصر عليه في عدة وقائع وتغلبه على بعض جهات من مملكة له وسكس وفي كون اغسطوس كانت تجرى عليه اوامر كرلوس الثاني عشر مع لصرة الموقو وغلبتهم وفي فتح اغسطوس عن تحت مملكته وتسلمه بطقول الجي الجبل الى كرلوس وموت بطقول والحكم عليه به قاب الجبل اي دوسه بالجبل الى ان يموت

١٣٠

الفصل السادس عشر في ذكر ما وقع من العزم على انتخاب ملك ثالث لملك له غير استانسلاص واغسطوس وفي ارتحال كرلوس

صحيحة

الثاني عشر من سكس بجيش جزائرومروره بمملكة له برقل
في ثياب القود والنصر وما حصل اذ ذل الثمن القسوة والجبر وفي ذكر
سلوك الجار وبيان حالته وما حلز كركوس الثاني عشر من
التجاح حتى قدم الى جهة الموسيقى ١٤٣

الفصل السابع عشر في اجتيلز كركوس الثاني عشر تهر الدينير
وتوغله في بلاد اوقريينة وعدم حسن تدبيره وهزيمة بطرس
الأكبر لبعض جيوشه وضياع ذخائره ومهماته الحربية وتوغله
في العسارى وذكر ما وقع له في اوقريينة ١٤٤

الفصل الثامن عشر في واقعة بلطاروا
الفصل التاسع عشر في ذكر ما حصل بعد نصرة واقعة بلطاروا
وفي التجاء كركوس الى الدولة العثمانية ورجوع اغسطوس
للملك بعد أن عزله ملك السوج وفي ذكر فتوحات بطرس الأكبر ١٥٧
المقالة الثانية

الفصل الاول في الكلام على واقعة البروث
الفصل الثاني فيما عقب واقعة البروث ١٥٩

الفصل الثالث في ذكر زواج ابن الجار واشهار نكاح بطرس
لكاترينة بموكب حافل وعشور هذه الاميرة على اخيها ١٦٣
الفصل الرابع في ذكر الاستيلاء على مدينة استاتين وما وقع
في قلندة من الاغارة والهجوم وما حصل من الحوادث سنة
١٧١٢ من الميلاد ٢٠١

الفصل الخامس في فتاح بطرس الأكبر ورجوع كركوس
الى ملكه ٢١٦

الفصل السادس في بيان حالة اوروپا حين رجع كركوس
الثاني عشر الى بلاده وفي ذكر محاصرة استرالسوند وغير ذلك ٢٥٢

الفصل

صحيحة

الفصل السابع في اخذ مدينة ويسمار وفي اسفار الجار

الجديدة

٢٢٦

الفصل الثامن في ذكر بقية اسفار بطرس الاكبر ونصب غورطرز

٢٣١

وكيفية تلقي بطرس في فرنسا

الفصل التاسع في رجوع الجار الى ملكه وما صدر عنه من

٢٤٠

السياسة والشغل

الفصل العاشر في الحكم على الامير الكسيس بتروويتر

٢٤٤

(اي ولد بطرس) بالموت

الفصل الحادي عشر في ذكر ما بدعه بطرس من الاشغال والمصالح

٢٧٥

في نحو سنة ١٧١٨ من الميلاد وما بعدها

٢٧٩

الفصل الثاني عشر في التجارة

٢٨٥

الفصل الثالث عشر في الاموال والقوانين

٢٨٧

الفصل الرابع عشر في الكلام على الدين

الفصل الخامس عشر في بيان المفاوضات والمذاكرات التي حصلت

٢٩٤

في جزيرة الاند وذكر موت كرلوس الثاني عشر واصلح نوستاد

٣٠٢

الفصل السادس عشر في فتوحات الجار ببلاد العجم

الفصل السابع عشر في تنويع الاميراطورية كاترينة الاولى

٣١٤

وتبزيك القسيس عليا بالسحة وفي موت بطرس الاكبر

صورة الحكم على الكسيس بالقتل في ١٤ شهر يونية

٣٢٣

سنة ١٧١٨ ميلادية

صورة الامر الصادر من الاميراطور بطرس الاول في شأن تنويع

٣٢٨

زوجته الاميراطورية كاترينة

٣٢٩

ذكر نوادر في مناقب بطرس الاكبر

بيان الخطأ والصواب من كتاب الروض الازهر * في تاريخ بطرس الاكبر

خطأ	صواب	صحيحه	سطر
السابع	الثامن	٤١	٤
الذين قتلوا	الذي قتل	٥	٢٣
الصقالبة	والصقالبة	٧	١٦
هاتين الطائفتين	هؤلاء المتدينين القاطنين	٨	١٧
غير معلوم	حديث بالكلية	١٠	١١
تجارهم	تجارة اهل ايطاليا	١١	٩
صغيرا يسمى	صغيرا حديثا يسمى	٢٠١	١٦
كان يلزم	لزم	٣١	١٧
لا نقده	مستقلا نقده	٣٧	١
هذه	هذا	٣٨	٣
السابع	السادس	٣٩	٤
ومن المعلوم	ومما ينبغي معرفته	٤٨	٧
التيصر	الجنار	٤٨	١٩
قطبت	عرضت	٤٩	١٦
لاحد	على احد	٤٩	١٧
السنة التي بعدها	سنة ١٦٧١	٥٠	٢٢
عمر واهل	عمر	٥٣	٢٠
سنة ١٦٨٦	سنة ١٦٨٢	٥٤	٢٥
من السفارة	مع السفارة	٧٥	١٠
سنة ١٦٧٦	سنة ١٦٩٦	٧٩	٥
الجوية	البحرية	٨١	١٩
الاثني عشر ألفا من غير زيادة	تسعة آلاف	١٠٦	٢٥
اخر	الثاني عشر	١١٧	٧

خطا	صواب	صفحة	سطر
السابع	السادس	١١٩	٥
٣	٣٠١	١٢٠	٤
ملكته	ملكه	١٢٦	١
ستين	اربعة وستين	١٢٨	٦
موسوقين بما	معدتين لضرب اليب	١٢٨	٦
طلبة	ساقه	١٤٤	٢٠
آخر اقتره	آخر يسي سور وباسكي اقتره	١٤٦	٢٥
عليه	على صورته بالشنق	١٤٧	٣
طلبة	ساقه	١٤٧	١٢
بخمسين	بمشرين	١٤٨	١٣
خشية أن يحاطر بنفسه	لطلب ما يقتات به	١٤٩	٣
فهل	فهل	١٤٩	١٨
ظهر	هجم	١٥٦	٦
فهل يقال ان كرلوس	فلذا قيل في حق كرلوس انه	١٥٦	٧
متمردعات	امثال من تعرض لهم { اريوست في اشعاره	١٥٨	٣
<p>ينضموا الى حزب من الاحزاب ويؤثروه على غيره بتعصيده والاخذ بناصره</p>			
<p>بقدموا على فعل اي شئ كان ٢٣ و ٢٢ ١٥٨</p>			
<p>كما انهم اضمحلوا { برسم كونهم اهالي بلدة سابقا وتمزقوا { موسقوية نزع من هذه الدولة سابقا وتمزقت منها</p>			
<p>الطمع فيها او تمكن احد من نفسها او وقوعه في مصائد غرامها ومكائده عشوها</p>			
ستة	عشرة	٢٠٣	٢١

خطا	صواب	صفحة	سطر
غادوبوسك	دستامبوك	٢٠٨	٤
ودن	ودون	٢٦٦	١٩
المبلة	المبلطة	٢٧٦	٢٤
بزنطيا	بيزانطيا	٣١٥	٢٥
كل شيء الا	كل شيء ل	٣١٨	٢٣
اشهادات	الشهادات	٣٢٣	٩
سمعوا	وسمعوا	٣٢٣	١٠
لحقها	حقها	٣٢٣	١٨
للدولة الجارية	للدولة الجارية ومنظوم ايضا في سلك الرعية	٣٢٤	٨
مشتار	مستشار	٣٢٤	٩
اضره من تقديم	اضره من تقويم	٣٢٦	١٧
التنار	اوالتنار	٣٣٠	٢٠
البكار	والبيكار	٣٣٠	٢٥
كان يخالط	وانما كان يخالط	٣٣١	١٨



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ان احسن ما نمر له النجيب ذراعه * ومدح لحيارته الاديب باعه * واجل
ما اقتناه من درر الاطائف * واودعه من غرر الاعمال في يرض الصائف *
الفوز بحمد الله ازلت تنزه عن ان يكون له اول فيؤرخ * او آخر حتى يمر
الدهور وينسخ * وصلاة وسلام على من له في محاسن السير اجل سيرة *
وفي احاسن رياض الاسرار اطيب سريره * وعلى آله واصحابه * وانصاره
واحرابه * ما نسخ شرائع الاوائل قلم نامخ * وروى في علوم الاواخر قدم راسخ *
اما بعد فيقول راجي غفر المساوي * احمد بن محمد عبيد الطهطاوي *
اني لما اغتنت يد الفخار والعز * من الزمان فرصة منهنز * القتنى بمدرسة
الاسن التي انشأها صاحب السعادة * قطب دائرة اهل السماح والسيادة *
الذي ملك رقابنا بالآلته * وامر قلوبنا بتفضله ونعماته * فخر ولاية الامور

الاخر والاوائل * واسطة عقد نظام ارباب القضاة والقواضل * من ثبت له المجد وعن غيره ثلاثي * اقتدي بنا الحاج محمد علي باشا * لازال يرقل في حلق الماخري * ويسمو على الافلاك السبعة الزواهر * فكنت تحت ارشاد مدير اشغالها * وناسج منوالها * حضرة للمولى الذي شهدت برفقته غرر الكواكب * ونطقت بوافر فضله السنة المناقب * المؤيد برعاية الملك المبدى * السيد رفاعة بدوي رافع اقتدى * لابرحت ايامه بسعوده مبهجة * وقلوب العدا الخوس بصولته محتلبة

(شعر)

واحسن القول ما امتدحت به * مولى اقرت بفضل الملل
فاجاد تربيتي كغيري * حتى حسن حالي وسيرى * وتعلت بارشاده
من اللغتين الفرنسية والعربية ما يحتاج اليب الى معرفته *
ويريل به عن عين بصيرته غير رعوته * فبعد ان رأى في التعليم حسن
حالي واجتمعاى في نيل المعالي بين امثالي * اقتضى رايه المؤيد * وحرمه
المعضد * ان ترجم كتابا من كتب التاريخ * فاخترنا تاريخ ملك من ملوك
الافرنج تعلقوه منى بينهم على المريح * وهوتا ريخ بطرس الاكبر * الذي فضله
بين عمالك اوروپا شهر من ان يذكر * فاخذت امره بالطاعة والاعتقاد *
وشمرت عن ساعد الجود والاجتهاد * وشرعت في نقله من الفرنسية الى العربية
مع اعانتى في حل مشكلاته * وما عسر على من غوامضه ومعضلاته *
لاسيا ومولفه من كبار الفلاسفة الافرنجة * وهو الفيلسوف الشهير المسمى
ولتير الذي غاص من بحار الفلسفة اى تلج * ويعتد بين اكابرهم اعظم حجة *
وان كان عن الاديان بعيد المحجة * فجاء التعريب بحمد الله على احسن حال *
واتم منوال * وسميته بالروض الازهر * في تاريخ بطرس الاكبر * وعلى الله
اعتمادى * واليه تفويضى واستنادى

(قال المؤلف)

تاريخ دولة روسيا في زمن بطرس الاكبر

(وفيه مقالتان)

المقالة الاولى وفيها مقدمة وعدة فصول

(للمقدمة)

اعلم ان عامة الناس في السنين الاولى من القرن السابع عشر كانوا لا يعرفون ميلاد الشمال الافرنجية بطلا نجبا عا الا كرلوس الثاني عشر ملك اسوج فان همته الذاتية التي كانت اقرب الى العسكرية من كونه ملكا منوطا بالادارة الداخلية وكذلك روتق نصرانه وسوء حظه كل ذلك اورث العجب للمجباب لمن يأخذ بنظر تلك الحوادث الجسمية ولا يلتفت الى الاشغال العظيمة النافعة وكان الاجانب لا يجوزون بدوام مشروعات بطرس الاكبر ولا بتكميلها مع انها استمرت وتقتوت في زمن الايمراطور تين حانه وايليزايطه ولا سيما في مدة كاترين الثانية التي رفعت دولة الروسيا الى أوج الفخار حتى صارت تلك الدولة منظومة في سلك الدول الزاهرة الفاخرة والممالك المتجددة العامرة

وبطرس المذكور معدود من عظماء مقننى القوانين ومع ان مشروعاته كان يشهد بعظمها واستقرار نظرها اولوا الالباب بمن وقع عنهم في الوقائع السياسية الحجاب من غير ان يستندوا في شهادتهم الى ثبوت شجاعتها فنجاحه قدامه نخره عند ذوى العقول الراجحة وقد حكم اهل عصرنا بان كرلوس الثاني عشر كان جديرا بان يكون اول عسكري في الميدان عند بطرس المشار اليه بالبنان فان كرلوس اباد العباد ودمر البلاد بخلاف الثاني فانه عمر ملكه ومدنه وادخل فيه الرفاهية المستحسنة وقدمضى على ثلاثون سنة من حين الفتح تاريخ كرلوس وانا اقول بذلك في حقه وما وصل الى من اللوائح وقتئذ في شأن دولة الروسيا كسبني قوة على التصدي لبيان احوال تلك الدولة التي اهلها من اقدم الامم وقوانينها واخلاقها وفنونها حديثة جديدة وشتان بين تاريخي كرلوس وبطرس فان تاريخ الاول يتسلى به الواثق عليه وتاريخ الثاني يستفيد منه من التفات اليه

(الفصل الاول في الكلام على تخطيط دولة الروسيا)

اعلم ان اراضي ممالك الروسية اوسع ممالك الكرة الارضية فانها تمتد من
المغرب الى المشرق بمسافة تزيد على التي فرسخ معتاد من القراخم الفرنسية
وعرضها الاعظم ينوف عن ثمانمائة فرسخ من الجنوب الى الشمال وتتصل
بمملكة لته وبالبجر المخدم وكذلك بمملكة اسوج والصين وطولها من جزيرة
داغوز في غربي اقليم ليوونيا الى نهاية حدودها جهة الشرق يستقل
تقريبا على مائة وسبعين درجة بحيث ان وقت الزوال في غربيها يكون تقريبا
نصف الليل في شرقيها وعرضها من الجنوب الى الشمال يبلغ ثلاثة آلاف
وسمائة ورسو وذلك مساو لثمانمائة وخسين فرسخا فرنساويا معتادا
وقد كما في القرن السابق نعرف حدود هذه البلاد معرفة هينة حتى اننا
في سنة ١٦٨٩ كما نعتد في مبداء الامر من قبيل الخرافات ما كان يبالغنا
من ان اهل الصين و الروسيا كانت تقع بينهم الحروب وكان كل من سلطان الصين
كامبيا و الملك الموسقو ايوان و بطرس يرسلون رسالات الى حدود
المملكتين التي هي على البعد من مدينة بكين كرسى مملكة الصين بثمانمائة
فرسخ لايقاع الصلح وانها الشقاق بينهم
وذلك ان الاقاليم المسماة لان ممالك الروسيا هي اوسع مما عاها من ممالك
اوروبا مجتمعة فهي اوسع مما كان في ملك الرومانين ومن سلطنة العجم
في زمن دارا التي تغلب عليها الاسكندر لما ان مملكة الموسقو تستل على
ما ينوف عن مليون ومائة الف فرسخ فرنساوي في مثلها بخلاف ما كان
في ملك الرومانين وملك الاسكندر فكان لاهما لا يستل الاعلى نحو خسمائة
وخسين الف فرسخ مربع وليس باوروا مملكة تساوي نصف سدس المملكة
الرومانية ولاجل ان تكون دولة الروسيا من جهة الاهالي والخصوبة وتعدد
المدن كالبلاد الجنوبية يبلاد اوروا يلزم تداول قرون كثيرة ومولوك عظام مثل
بطرس الاكبر وقال الجي من الجيات الانكليز الذين قطنوا بمدينة بتربرغ
سنة ١٧٣٣ ميلادية وكان قبل ذلك بمدينة مدريد دار مملكة اسبانيا
فيما قرره في سياحته المكتوبة بالقلم انه في اسبانيا التي هي اقل ممالك اوروا

اهلا وعارا يخص كل ميل مربع اربعون نفسا بخلاف بلاد الروسيا فانه
لا يخص كل ميل منها الا خمسة انفس انتهى وسأني في الفصل الثاني ما يظهر به
ما قاله هذا الالجي هل هو من قبيل المبالغة ام لا وفي الكتاب المسمى بالديم
المكذوب على المرشال وويلان ان كل ميل مربع من مملكة فرانس يشتمل
على مائتي نفس تقريبا بمعنى ان ما يتقص من احوالها يوجد في الآخر وهذه
التقاويم غير صحيحة الا ان الغرض منها بيان الفرق الكبير الحاصل بين اهالي
كل بلدة واخرى ولذا ذكر لك هنا انه من مدينة بتربورغ الى مدينة بكنين
دار سلطنة الصين قل ان يجد الانسان في طريقه جبلا كبيرا شاهقا وان القوافل
فسير اليها من طريق بلاد التتار المستقلة في سهول بلاد القلقو وصهرآ كويبا
الكبرى وما ينبغي التفقيه عليه ايضا انه من مدينة ارفنجل الى مدينة
بتربورغ ومنها الى الطرف الشمالي من فرانس اناسك الانسان طريق
دنترقي وهمبرغ وامستردام قل ان يصادف في طريقه تلامرقة ما ولو
يسيرا وهذه الملاحظات ربما اوجبت الشك في صحة المذهب القائل بان الجبال
لم تكن متكوثة الا من دوران امواج البحر على القول بان ما هو الا ارض قارة
كان بحرا في الزمن القديم فيقال لصاحب هذا المذهب لم تكن الامواج
التي فرضت انها كوت جبال الله وجبال البرنات وجبل طورس
ايضا جبالا مرتفعة من اقليم الترمندية الى بلاد الصين في اتجاه
ذي تعاريج قدره ثلاثة آلاف فرسخ فبحث الجغرافيا في ذلك ولمحوظاتها
بهذه المسألة ربما يعود منها على الطبيعة معارف جليلة او توقع الشك
في مباحث الطبيعة المسئلة وكان الفرنسيون يسمون الروسيا سابقا باسم
الموسقوية لان مدينة موسقو التي هي تحت هذه الدولة كانت دار اقامة
كبار دوقات الروسيا واما الآن فغلبت التسمية القديمة على الجديدة
ولا مقتضى هنا اللجث عن تسمية الاقاليم المتعددة من اقليم اسمولنسكو الى
خلف مدينة موسقو بالروسيا البيضاء ولا عن تسمية المؤلف هنيير
بها بالروسيا السوداء ولا عن سبب كون اقليم كيموبا يستحق ان يسمى

باروسيا الحمراء

ولامانع من ان ماديس التتارى الذى اغار على آسيا قبل التاريخ
المسيحى بنحو سبعة قرون اغار ايضا على هذه الاقاليم كما وقع ذلك من الملك
جنكيز خان وتيمورلنك وكما وقع مثل ذلك ايضا قبل ماديس المذكور
بعدة طويلة كما هو الظاهر وليست كل امة قديمة تستحق لان نبضت عنها
بمخلاف اجسل الصين والهند والجم والمصريين في قديم الزمان فلا بأس
بالبحث عن احوالهم لان هذه الممالك فيها من الآثار الشهيرة المرغوبة
ما يدل الباحث عنها على حالها القديم وهذه الآثار تستلزم آثارا اخرى اقدم
منها لانه لا بد لكل امة من ماضى عدة قرون حتى يمكنها تحويل افكارها من
امر الى آخر وتغيير بعلامات ودلائل صالحة للدوام والاستمرار ولا بد ايضا
من ماضى عدة قرون لاجل احداث لغة منتظمة ذات قواعد مرتبة ولكن
مثل هذه الآثار لا يوجد بأوروبا التى هى الآن مهذبة متعذنة فان فن
الكتابة مكث زمانا طويلا مجهولا في جميع بلاد الشمال فقد قال البطريق
قسطنطين الذى ألف تاريخ اقليم كيويو باللغة الروسية ان هذه البلاد
كانت في القرن الخامس من الميلاد لا تعرف فن الكتابة اصلا

وقد تركا لغيرنا من المؤلفين البحث عن كون الهونية المصقالية والتتار ذهب
منهم في سابق الزمان عشائر وحالة تزلزال قد لحقهم السغب والجماعة الى جهة
منبع برستين الذى هو نهر الدنيبر فان الغرض لنا انما هو بيان ما فعله
الملك بطرس لالبحث عما وقع في الاحقاب الخالية منها الحوادث اذ لا طائل
منه وايضا ينبغي للانسان ان يعتقد انه ليس ثم عشيرة من العشائر على وجه
الارض تعرف على وجه الحقيقة اولم جدودها فبالضرورة لا يمكن لامة
من الام ان تعرف مبدء اصلها والى من تعزى وتنسب وقد اطلقنا في كتابنا
هذا اسم الروم على سكان ممالك روسيا العظيمة ثم ان اسم روك لان
الذى كانوا يسمون به قديما انسب في اللفظ غير انه ينبغي لكل مؤلف ان يبالغ
على طبق ما جرت به العادة في اللغة التى يصدى للتأليف بها فان الكازات

واللوائح وغيرها نستعمل منذ مدة طويلة لفظة الروسيان لكن لما كانت
 هذه الكلمة قريية جدا من كلمة پروسيان اخترنا ان نطلق عليهم كلمة
الروس المستعملة عند جميع مصنفي الفرنساوية منعاً للبس بين الكلمتين
 المتقاربتين وقد ظهر لي ان هذه الامة التي بلادها اوسع بلاد الارض يلزم
 ان تكون معروفة باسم تمتاز به امتيازاً كاملاً عن جميع ما عداها من الامم
 ويلزم اولاً لتقاربي هذا التاريخ ان تكون الخارطة الجغرافية بيده ليكون على
 بصيرة من هذه الدولة المنقسمة الآن الى ست عشرة حكومة كبيرة وستقسم
 الى اكثر من ذلك اذا كثرت اهلها بالشمال والشرق

وها هي الست عشرة ولاية التي تشتمل عدة منها على اقاليم عظيمة
 الاقليم الاقرب لمملكة فرنسا هو اقليم ليوونيا وهو احد اقاليم الشمال
 الخصبة جدا وكان اهلها في القرن الثاني عشر عبدة او ثان خفاء اليه جماعة من
 التجار من مدينتي بريمه و لوبك ليجروا فيه وانضمت طائفة من النصارى
 كانت تسمى باسم حاملي السيف الى الطائفة التوتونيكية ببلاد البروسه
 وغلبوا على هذا الاقليم في القرن الثالث عشر حين كان النصارى
 الافرنجيون مشغولين بالغزوات مع سلاطين الاسلام بالشرق وكانت حيتهم
 قمعهم على قتال من لم يكن متمسكاً بدينهم وصار ألبرت وهو حاكم اقليم
برندبورغ ورئيس هاتين الطائفتين ملكاً على اقليم ليوونيا و البروسه
البرندبورغوازية وكان ذلك سنة ١٥١٤ من الميلاد ومن ذلك الوقت
 تنازع اهل الروسيا و اللاهيون هذا الاقليم وبعده بقليل دخل فيه
الاسويجيون فكدت مدة طويلة ميداناً للحروب بين تلك الدول ثم تغلب عليه
 ملك اسوج المسمى غسطاو وادف قترك الاسويجين سنة ١٦٦٠
 من الميلاد بموجب مصلحة اوليو الشهيرة ثم اخذ بطرس الاكبر من
الاسويجين كاسياً في ذلك في محله

واما اقليم كرلند المتصل باقليم ليوونيا فكان دائماً تابعاً للمملكة له يدفع لها
 الخراج ولكن كان له تعلق كثير بدولة الروسيا فهذان الاقليمان هما الحدود

الغربية لهذه الدولة التي باوروبا النصرانية وعلى البعد من هذين
الاطمين جهة الشمال ايامه رويل واسطونيا وقديني مدينة رويل
الانبارقيون في القرن الثالث عشر وتغلب على اقليم اسطونيا
الاسوجيون منذ دخول هذه البلاد تحت حمايتهم في (سنة ١٥٦١)
من الميلاد ثم استولى عليه بطرس ايضا وفي ساحل اسطونيا خليج
فنلندة وفي شرقي هذا الخليج الكبير في محل اتصال نهر نوى ببحيرة
لادوغا مدينة بتربرغ التي هي احدى مدن بلاد روسيا واظرفها بناها
بطرس مع ما كان عليه من العوائق الكثيرة التي كانت تمنع من تأسيسها
وهذه المدينة على خليج كرنستاد في وسط تسعة فروع من النهرات التي
تفصل اخطاطها وبمركز هذه المدينة سراية في جزيرة متكونة من مجرى نهر
نوى العظيم وتجدها سبعة خلجان خارجة من النهرات المذكورة متصلة
باسوار سراية هناك وباسوار ديوان البحرية ورسالة السفن الصغيرة وعدة
معامل ايضا وفي هذه المدينة خمس وثلاثون كنيسة من الكنائس العظيمة
وهي زينة هذه المدينة منها خمسة للغربا سواها كانوا قاتوليكية رومانين
اوقاتوليكية معصمين او متمسكين بذهب لوتير فهذه الخمسة المعدة لعبادة
الغرباء تدل على رخصة التدين واباحته لتكون موعظة لما عداها من الملل
الاجنبية التي لا تبج ذلك وبها ايضا خمس سرايات احداها السراية القديمة
وتسمى سراية الصيف وهي على نهر نوى ويكتنفها دارا برزين عظيم من
الاجار الجيدة وهي ممتدة بطول شاطئ النهر والثانية سراية الصيف
الجديدة بقرب باب هناك يسمى باب النصر وهي من اجبى العمارات بناء
باوروبا ومن زينتها ايضا مباني ديوان البحرية والتلامذة المعدين لأن
يكونوا ضابطا ومباني المدارس السلطانية واكاديمية العلوم ومباني سوق
المعاملة ومخزن البضائع ومخزن ادوات السفن فهي ايضا عمارات فاخرة
وكذلك الضابط خانة والاجراخانة العامة التي جميع اوابتها من الغرفور
ومخزن بيت المال ودكانة الترسانة والقناطر والاسواق وغيرها والميادين

للعمامة والقشلات المعدة للوردان السوارى والبيادة فهذه الاشياء تقيده
 زينة المدينة وانما يوجد بها الآن وقت تأليفنا لهذا الكتاب اربع مائة
 الف نفس وفي ضواحيها بيوت النزهة التي حسنها وروقتها يروق ابصار
 السياحين ومن جملتها بيت نافورة فسقيته اعظم مما في مدينة ورسيليا
 في فرنسا وفي (سنة ١٧٠٢) من الميلاد لم يكن بها شئ من تلك الاشياء
 وانما كانت بطيخة متسعة غير مطروقة فهذه المدينة اى بقربرغ معتبرة
 كأنها تحت اقليم انغريا الذى هو اقليم صغير تغلب عليه بطرس الاكبر
 واما اقليم ويبرغ الذى تغلب عليه ايضا الملك المذكور وجزء فلندة الذى
 خسر الموسقو وتركه الاسوجيون (سنة ١٧٤٢) من الميلاد فهما
 ولاية اخرى

وابعد من ذلك جهة الشمال اقليم ارقنجل وهو اقليم غير معلوم عند الملل
 الجنوبية من بلاد اوروپا وسمى بهذا الاسم نسبة الى الملك ميكايل لانه
 يسمى بالفرنساوية ارقنچ ومعناه ملك رئيس لانه من رؤساء الملائكة الكرام
 وانما نسب اليه هذا الاقليم واشتق اسمه منه لانه كان تحت حمايته بعد ان دخل
 دين النصرانية ببلاد الروسيا بزمان طويل وان لم يتمسكوا به الا في ابتداء
 القرن الحادى عشر ولم يعرف هذا الاقليم عند الملل الاخرى الا في اثناء
 القرن السادس عشر وذلك لان الانكليز في (سنة ١٥٣٣) من الميلاد
 بحثوا عن ممر بصر الشمال وبحر الشرق ليصلوا به الى شرقى بلاد الهند
 فاستكشف كنشور وكان قبطا ناعلى سفينة من السفن التي تجهزت لهذه
 الارسالية مينا ارقنجل فى البحر الابيض الموسقوى وكان هذا الاقليم
 خرابا لا يوجد فيه سوى دير وكنيسة صغيرة للملك ميكايل الرئيس
 فلما ركب الانكليز نهر دوينا من المينا المذكورة وصلوا الى وسط الاراضى
 القارة ثم الى مدينة موسقو واستولوا بالسهولة على تجارة الروسيا
 التي كانت تبث برا الى مدينة نوغرود ونقلوها بحرا الى مينا ارقنجل
 المذكورة ثم هذه المينا وان كان لا يمكن ان يرمى عليها فى مدة سبعة اشهر من

السنة الا انها صارت اكثر نفعلا واعظم فائدة من اسواق مدينة نوغروود
الغظية التي اضعمت بالخراب التي وقعت بين اهل تلك النواحي والاسوجيين
فقال الانكليز من الموسقويين رخصة التجارة في هذه المدينة من غير ان
يدفعوا شيئا من العوايد * وعلى هذا الوجه ينبغي ان تكون معاملة جميع الملل
مع بعضها فاعما قليل الى القليل وتساووا مع الانكليز رخصة تجارة ارفنجل
التي لم تكن معروفة عند الامم كما سبق وقبل ذلك بزمن طويل كان قدر تب
الجنويزيون والبنادقة تجارة مع الموسقويين بواسطة مصب نهر طنايس
حيث بنوا به مدينة تسمى طنا ولكن منذ اغارة تجورلنك على هذا
الاقليم انقطعت تجارتهم من هذه البلاد ومكث الانكليز والقليل من بريجون رجعا
عظيما من تجارة ارفنجل الى ان تغلب بطرس الاكبر على بحر بلطيق
وصارت به مقنه

وفي ايلة اقليم ارفنجل على غريبه لاپونيا الروسية التي هي ثالث قسم من
الدولة الروسية لان لاپونيا ثلاثة اقسام منها القسم المذكور لدولة روسيا
والقسمان الاخران ينتسبان لبلاد اسوج ودانيرقة وارض لاپونيا
كبيرة جدا شاعلة نحو ثمان درجات من الطول وتمتد في درجات العرض
من الدائرة القطبية الى الراس المسماة راس الشمال والامم التي تسكنها كانت
تسمى عند القدماء باسم طرغلوديت (اي سكان المغارات) وبغيات
الشمال (اي يا جوج وما جوج) وهذه التسمية في محلها حيث ان اغلبهم كان
طوله ثلاثة اذرع ويسكنون المغارات وهم الان كما كانوا سابقا الوانم قريبة
من لون الجلود المدبوغه مع ان من عداهم من الامم الشمالية بيض اللون وترى
اغلبهم قصيرا القامة بخلاف مجاورهم من الامم واهل جزائر اسلنده التي
هي تحت الدائرة القطبية فانهم طوال القامات فكان الحكمة في خلقهم
خفاقا قصارا عظام البنية هي كون اراضيهم جبالا فكانت جلودهم صلبة
لتقوى على تحمل البرد وكانت سيقانهم وانفاذهم رقيقة وكذلك اقباعهم
ليكون لهم قوة على سرعة الجري في وسط الصحرات المشهونة بها اراضيهم ولهم

محبة شديدة في هذا الوطن الذي لا يحبه غيرهم بل لا يمكنهم المعيشة في غيره
وقد قيل قلاع اليونان هذه الام اصلهم من فنلندة وانهم هاجروا الى
اقليم لاپونيا وفيه تغيرت قاماتهم وتصاغرنت ولكنه يقال رداعليه لم ينتخبوا
لانفسهم ارضا اقل بعدا جهة الشمال حتى تكون معيشتهم بها رعدوا هنا
ولا ي شيء كانت صورهم ووجوههم والوانهم مخالفة بالكلية لاهل فنلندة
الذين هم اباؤهم على زعم هذا القائل فعلى هذا يلحق ان يقال ان الحشائش التي
تخوف بلاد لاپونيا منقولة من حشائش دانيرقة وان اسماء بحيراتهم
اتية من اسماء اسوج والظاهر ان اهل لاپونيا ليسوا مهاجرين بل
متأصلون كما ان حيواناتهم متولدة يلاذهم لا منقولة اليها وان طبيعة الاقليم
وقفت بينهم وبين حيواناتهم

واما القاطنون جهة فنلندة فقد سرت لهم بعض الفاظ من لغة جيرانهم
كما يقع ذلك بين جميع الامم واذا كان هناك اتمان كلناهما تسبى الادوات
الضرورية والاشياء التي تكون دائما نصاب اعينها باسماء تباين ما سمت به
الاخرى مبينة كلية كان ذلك اقوى دليل على ان احدي هاتين الامتين
ليست متفرعة عن الاخرى وهاجرت عنها وذلك لان الفنلنديين يسمون
الدب **كارو** واللاپونيين يسمونه **موريات** ويقال للشمس بلغة
فنلندة **اورنغا** وبلغة لاپونيا **يروه** فلا تجد في ذلك ادنى مشابهة بين
الفاظهما وكان اهل فنلندة ولاپونيا الاسوجية يعبدون في سابق
الزمان وثنا يقال له عندهم **ايومالاق**

ولما ظهر غسطاوة ادولف وادخل عندهم من دين النصرانية مذهب
لوتير الذي سموه لاجله باللوثيريين سموه سيدنا عيسى عليه السلام بابن
ايومالاق واما اهل لاپونيا الموسويون فانهم الان متمسكون بمذهب
الكنيسة اليونانية بخلاف الامم الهاجرة جهة الجبال الشمالية من رأس
الشمال فانهم اقتصروا على عبادة الواحد على وجه خشني غير مستحسن
كهاجرت به العادة قديما عند جميع الامم

ومثل هؤلاء القبائل القليلة الاهالك عقولهم قاصرة جدا وما اوفر حظهم
 بجهلهم لانهم لو اتسعت آثرة عقولهم لاحتاجوا الى امور جديدة لا يمكنهم
 تحصيلها فتراهم دائما خليي البال لا تعترهم امراض لكونهم لا يشربون
 في الغالب الا الماء مع برودة قطرههم جدا ويعمرون عرا طويلا ولعل ما يقال
 في حقهم من ان لهم عادة غريبة وهي انهم يترجون الغرباء ان يشرفوا
 نساهم وبناتهم بالوقاع ناشئ عن اعتقادهم ان الغرباء احسن منهم شكلا
 وجنسا وبنية فيرون في ذلك اصلاحا لعيوب تركيب نسلهم وهذه العادة
 كانت جارية بين اهلالي لقدمونيا بيلاذ اليونان مع انهم معدودون من
 الامم اولى القضايل فكان الرجل منهم اذا رأى شابا جميلا سأل ان يواقع
 زوجته لتلد له ولدا حسنا يتباهى ولكن الغيرة البشرية والشريعة الالهية
 لا يسوغان لاربهم مثل هذا الامر الذميم غير ان الابونيين لم تكن لهم
 شريعة تزجرهم عن ذلك وكذلك لم يكن فيهم غيرة نحوهم على اجتنابهم
 كما هو الظاهر

واذا ركب الانسل نهر دوينا من الشمال الى الجنوب وصل الى مدينة
موسقو التي مكنت كرسيا لدولة الموسقو زمنا طويلا قبل ان تنسحق المملكة
 من جهة الصين والعجم

وهذه المدينة في الدرجة الخامسة والخمسين ونصف من العرض وارضها
 اقل بردا واكثر خصوبة من مدينة بتربرغ وهي في وسط سهل لطيف
 المنظر على نهر موسكا ونهرين آخرين صغيرين يجتمعان مع هذا النهر
 في نهر اوكة ثم يجري ماؤها حتى يصب في نهر الانل وهذه المدينة لم تكن
 في القرن الثالث عشر الا مجمع اخصاص يسكنها اماس مساكين كان
 يحكمهم ذرية جنكيزخان حكومة ظلمية

واماماهو بمدينة موسقو من خط كريلينا الذي كان دار اقامة كبار
 دوقات روسيا فلم يحدث الا في القرن الرابع عشر لان مدن بلاد الموسقو
 ليست قديمة وهذا الخط بناه مهندسون من ايطاليا كابنوا عدة كنائس على

مقتضى الرسم القديم القوطى - الذى كان العمل عليه وقتئذ في جميع اوربا -
ومن هذه الكنائس كنيسة بناهما مهندس شهير من بلاد له يسمى
ارسطو - كان له صيت في القرن الخامس عشر واما بيوت الاهالى فلم تكن
الا اخصاصا متخذة من الخشب

واوليايوس هو اول مؤلف عرفنا مدينة موسقو فانه سافر اليها
(سنة ١٦٣٣) من الميلاد مع الجى - مرسل من طرف احد دوقات
هولستين بابهة عظيمة مع ان الغرض من لرسالته امرهين ولاغرو فيما وقع
من مثل هذا المؤلف الهلستينى من تعجبه من عظم اتساع تلك المدينة ومن
اسوارها الخسة واتساع الديوان الملوكة وما كان فيه اذ ذاك من البهجة
والرونق الذى على نسق ترتيب ممالك اسيا لان مثل ذلك لم يكن له وجود يلاذ
النيسا التى هى وطنه بل وليس بهامدنة تقرب من تلك المدينة في الاتساع
والعمار بخلاف قوتة كريلسل الذى ارسله اليها كرويس الثانى
(سنة ١٧٧٣) من الميلاد بوظيفة الجى - الى الملك الكسيس فانه قال
بعكس ذلك حيث ذكر في رحلته المكتوبة بالقلم انه لم يجد بمدينة موسقو
شيأ يستميل النفس ويسر القلب ولا منزلة بالطريق ولا شيأ مما يستعين به
الانسان فالاول ذهب في حكمه عليها مذهب رجل غساي من البلاد
الشمالية والثانى ذهب مذهب رجل انكليزى فحكم كل منهما بالنظر لبلاده
فالانكليزى سخط على بلاد الموسقو لانه رأى ان اغلب اكبرها كانت
فرشهم الواح او دكسكان من الخشب يفرش الانسان عليها جلد او حراما كماهى
عادة قدماء الامم فكان معظم بيوتهم من الخشب وكانت خالية عن الاثاث
وللتنازع وكان اغلب سفر الاكل ليس عليه اغطاء من القماش وكانت الحارات
غير مبلمطة وبالجملة فكان لا يوجب فيه شئ يسر الناظر ويروق الخاطر
وكان بها قليل من ارباب الصنائع والحرف ومن كان بها منهم لا يحسن
الصناعة الخشبية ولا يشتغلون الا الاشياء الضرورية التى لا بد منها ولو كانت
هذه الامة ارباب قناعة لقبنا انهم من اهل اسبرطة ولكن ما كان يقع

في ديوانهم

في ديوانهم ايام المواسم من الابهة والزينة كان قريبا مما يقع في ديوان ملك
من ملوك الهنم فقد قال قوتة كرليس انه لا يرى على ملابس ملك الموسقو
وخامته الا الذهب والجواهر ولم تكن مصنوعة في بلاده لكن من المعلوم ان
اهل الموسقو كانت فيهم صلاحية لان يكونوا من ارباب الحرف والصنائع
فانه سبك بمدينة موسقو قبل ذلك بزمان طويل في عهد الملك بوريسغودون
اكبرنا قوس ظهر ببلاد اوروبا وكان يشاهد في كنيسةهم البطرقية انواع
الزينة والزخارف المتخذة من الفضة التي تقضى صناعتها بذل الجهد والهمة
ولكن هذا الاشياء وان كانت من صنع اهل الموسقو تحت ملاحظة
النسايوة والايطاليانية الا انها كانت قليلة جدا بحيث لا تدل على مهارتهم
وتقدمهم فانه انما ثبت تقدم الملة ومهارتها بما يتجدد عندها كل يوم من
الفنون والصنائع وبلاد له اذ ذلك وما جاور بلاد الموسقو من الممالك
لم يكن اعلا من الموسقو ولم تكن الفنون اليدوية اعظم من ذلك في شمال
المانيا وكذلك الفنون المستخرقة لم تكن في اثناء القرن السابع عشر متقدمة
بيلاد المانيا اكبر من بلاد الموسقو

ومع ان مدينة موسقو لم يكن بها وقتئذ من الرفاهية والفنون ما كان يوجد
بالمدين الكبيرة من اوروبا الا انها كانت منظومة في ملك المدن العظيمة باناساع
محيطها حيث كان يبلغ عشرين الف خطوة وبما فيها من الجزء المسعى
بالمدينة الصينية الذي كان يوجد به غرائب بلاد الصين وبخط كرملينا
المسعى الذي به مراية ملوك الموسقو وبعض قباب مذهبة وبروج عالية
غريبة الشكل وكذلك عدد سكانها الذي يبلغ خمسمائة الف نفس فهذا كله
يدل على عظم تلك المدينة وكان لبطرس الاكبر اخا اكبر منه يقال له تيودور
ويسمى ايضا فودور قد شرع في تمدين مدينة موسقو وحسن ترتيبها
حيث بنى فيها عدة بيوت عظيمة بالاحجار وان لم تكن منتظمة البنيان ورغب
اكبر ديوانه في البناء واقرضهم ما يلزم لذلك من الاموال واعطاهم ايضا
المهمات اللازمة وهو اول من اهتم بانشاء اصطبلات للخيول الجياد وبعض

تجسينات نافعة واما بطرس الذي تصدى لجميع الاشياء مع كونه بنى مدينة
 بربورغ لم يعمل مدينة موسقوبل بلطها وزينها وجلب اليها الثروة
 بما احسنه فيها من العمارات والقصور حتى ان بعض حجاب بفته
 الایمبراطورة ايليزابطة انشاء في تلك المدينة متذليل من السنين جمعية
 علماء وهو الذي استفدت منه جميع مواد هذا الكتاب فكان احق منى بتأليفه
 ولو باللغة الفرنسية فان جميع ما افاد في ايامه يدل على ان تركه لى تأليف هذا
 التاريخ انما هو من باب التواضع منه

وفي غربي دوقية موسقو دوقية اسمولنسكو وهي جزؤ من سراسيا
 القديمة الافريقية زمن هاتين الدوقيتين تكونت روسيا البيضاء وكانت
 دوقية اسمولنسكو المذكورة سابقا من حكومات كبار دوقات روسيا
 ثم تغلب عليها دوقية لوتانيا الاكبر في اوائل القرن الخامس عشر من
 الميلاد ثم اخذها اصحابها الاول بعد ذلك بمائة سنة ثم استولى عليها ملك له
 المسمى جيمس الثالث (سنة ١٦١١) من الميلاد ثم ارجعها الملك
 الكسيس والد بطرس تحت حكمه (سنة ١٦٥٤) من الميلاد ومن
 هذا الوقت صارت من دولة الموسقو وقد قيل في مدح بطرس الاكبر وقرئ
 في مدينة باريس بجمعية العلوم ان اهل الموسقو قبل بطرس الاول
 لم يكن لهم فتوحات جهة الغرب ولا جهة الجنوب وقد فهمت مما تقدم
 ان هذا خلاف الواقع وان من ادعاء قد اخطأ

وبين مدينة بربورغ واسمولنسكو اعظم نوغورد الذي قيل انه اول محل
 موطن به قدام السلاو ولكن لا يدري من اين جاء هؤلاء السلاو الذين اتسعت
 لغتهم في الشمال الشرقي باوروبا واصل كلمة سلاو سلا وهي كلمة مولى
 تطلق على السيد وعلى العبد المنسوب للسيد ونهاية ما يعرف في شأن هؤلاء
 السلاو القداماء انهم ارباب فتوحات بنوا مدينة نوغورد الكبيرة على نهر يمكن
 السير فيه من جهة منبعه وقد مكثت زمانا طويلا ناجحة التجارة وكانت لقوتها
 متعاهدة مع المدن التجارية وفي (سنة ١٤٦٧) من الميلاد قلب عليها

الملك ايوان بازيلويتز واخذ منها اموالاً ساعدت في زخرفة ديوان مدينة موسقو الملوكة وزينته وكان الى ذلك الوقت لم يعلم مثل هذه الزينة بتلك المدينة

وفي جنوب اقليم اسمولنسكو اقليم كيوويا الذي هو الروسيا الصغيرة ويقال له ايضا الروسيا الحمراء ويقال لها اكرينا ويشق هذا الاقليم نهر الدنيبر الذي تسميه اليونان بورسطين والفرق بين كلتي دنيبر و بورسطين وهونقل اولاهما على اللسان وخفة الاخرى يفيدنا كغيره من الادلة الكثيرة ببوسة القاطع قدماء الامم الشمالية ورقة القاطع اللسان اليوناني وقاعدة هذا الاقليم هي كييو وكانت تسمى سابقا كيوويا بناها ملوك القسطنطينية وجعلوها محل هجرة لقبائلهم والى الان يرى فيها الانسان آثارا يونانية مضي عليها من السنين الف ومائتان ولا وجود للاثار القديمة اليونانية بغير هذه المدينة من بلاد تلك الجهة حيث ان هذه البلاد مكنت بها الناس عدة قرون ولم يحدثوا فيها جدراناً وكانت هذه المدينة في القرن الحادى عشر داراً قامة كبار دوقات الموسقو قبل استرعاء التتار على هذه الدولة الموسقوية

ثم ان الارانيين ويقال لهم القراق هم اخلاط طوائف متجمعة من قدماء الركسلانيين و السرمايين واخلاط التتار وكان اقليمهم جزءاً من اسقطيا القديمة ولا يمكن ان نسوى مدينتى رومة و القسطنطينية اللتين كان لهما الحكم على كثير من الممالك باقليم اكرينا بالنظر الى الخصوبة فان طبيعة الاقليم قابله للتغير حيث ان ارضهم على غاية من الخصوبة لانهم لا يعتنون بها بل كانوا يقاتلون من محصولاتها التي كانت تخرج منها بدون حراسة لكثرة خصوصيتها وكان اغلب اقتياتهم من السلب والتهب وكان لهم شغل شديد بتحصيل خير عظيم ينبغى ايثاره على غيره وهي الحرية فكانوا يرجعونها على غيرها من الاغراض المرغوبة لكنهم دخلوا بالتعاقب تحت حكومة بلاد له والتركة وكان آخر امرهم ان سلوا انفسهم (سنة ١٦٥٤هـ)

من الميلاد للموسقيين لكن لم يتقادوا اليهم بالكلية حتى ادخلهم بطرس
تحت طاعته وجبرهم على الانتقاد

وكان غير هذه الامة يمتاز بالانقسام الى مدن وقرى ممتازا كرىنا المذكورة
بانقسامها من جهة الاهل الى عشر فرق كان يحكمهم سابقا رئيس يسمى
اتمان ينتخب لهذا المنصب بموجب رأى الجمهور ولم يكن القائد الاهلى مطلق
التصرف فيهم واما الآن فرئيسهم كبير يشبه ديوان ملك الموسقي وهو
في الحقيقة كعمال بعض اقاليم من فرانسالم يرسل اليهم الى الآن بعض من ايا
وخصائص وان كان يقال له اتمان

وفي مبداء الامر لم يكن بذلك الاقليم غير عبدة الاوثان والمسلمين فلما دخلوا
في خدم الالهيين تنصروا ونسكوا بمذهب الكنيسة الرومانية ثم تسكوا
بمذهب الكنيسة اليونانية من حين دخولهم تحت حكم الموسقيين
الى الآن ومنهم القبائل المسماة قزاق الزابورانيين الذين لهم شبه قريب
في حركاتهم وافعالهم بلرباب الصيال البحرية القديمة المسماة بلز منطوط حيث
انهم قطاع طرق اذ باب شجاعة والذي يميزهم عن غيرهم من الامم هو كونهم
لا يطبقون سكنى النساء فينجوعهم وهذا نظير ما قيل ان النسل المسترجلات
في قديم الزمان لا يطبقن احلا الرجال عندهن ولا يقبلتهن في بيوتهن
وامنساوهم اللواتي يلدن منهم فهن قاطنات بجزائر مخصوصة في التهر
المتقدم ولا يعرفون عقدا نكاح ولا عائلة وكانوا ينظمون الذكور من
اولادهم في سلك عساكرهم الغير المنتظمة ويتكون الاناث عند امهاتهن
وكثيرا ما يفتش الاخ باخته وتلد منه وكذلك الاب يفتش ولم يكن عندهم
شرايع ولا قوانين اصلا وانما لهم عوايد تبعثهم عليها الحاجة ومع ذلك قد جاء
اليهم بعض قسوس من نصارى الاروام ومن منذمة من الزمن بنيت قلعة
مارى ايليزا بيطة على نهر الدينير وكان الغرض من بنائها قمع هؤلاء الناس
وادخالهم تحت الطاعة فصاروا يستخدمون في الجيوش وظيفه عساكر
غير منتظمة فالويل لكل الويل لمن يقع تحت ايديهم

واذا

واذا رجعت وصعدت الى الشمال الشرقي من اقليم كيوييا بين نهر
الدنيير ونهر الدون وجدت ولاية بلفورود وهي كولاية كيوييا
في الاتساع وهي احدى الاقاليم الخصبه ببلاد المومقو فانه يخرج منها
لملكة ٤٠ مقدار جسيم من المولني الكبيرة المعروفة باسم انوار مملكة
اكرينا وهاتان الولايتان في امن من اغارات التتار الصغيرة بواسطة ما فيها
من الاسوار الممتدة من نهر الدنيير الى نهر الدون والمحصنة بالقلاع
والابراج

واذا صعدت ايضا الى الشمال واجتازت نهر الدون وجدت حكومة
ويرونيزا وهي ممتدة الى سواحل بحر اوق وبقرق قاعدتها المسماة
ويرونيزا انشاء بطرس الاكبر في مصب نهر يسمى ويرونيزا يصب في نهر
الدون اول عارة سفن وكان الى ذاك الوقت لم يخطر ببال ملك من ملوك هذه
الممالك المتسعة ان يجدد عمارة مثل هذه ثم تجددها حكومة بلفورود
التي هي كثيرة الجبوب وينشقها نهر الاثل

ومن هذا الاقليم تجدد جهة الجنوب مملكة اردراهان وقطرها من الطرف
الاقطار في الاعتدال ومبدأ من الدرجة الثالثة والاربين ونصف من العرض
ومتناه الى الدرجة الخمسين تقرقيا ودرجتها طولها قدر درجات عرضها
تقرقيا ويتصل بها من احدى الجهات بحر الخزر ووجبال الجوكس من
جهة اخرى وهي ممتدة ايضا خلف بحر الخزر على امتداد جبل قوقازة
ويروميانهر الاثلي الكبير وكثانهر جاتي وعدة نهيرات اخرى زعم المهندس
الانكليزي المسمى پري انه يمكن حفر ترع بينها تكون مجارى للمياه عند
فيضاتها فيترتب عليها من الثمرات ما يترتب على ترع وادي النيل من
الخصوبة ولكن كان التناوب يضررون على مينة نهري الاثل وجاتي
وميسرتم ما هذا القطر الظريف عوضا عن كونهم يعمرونه فاقاموا بهذه
الاراضي مدة حياتهم كالا جانب ولم يعتنوا بجمرائه ارض ولا بزراعتها
او كان بطرس الاكبر قد اقام المهندس پري في هذه الاقاليم فوجد بها

صحارى متسعة مشحونة بالمروج والبقول واشجار الكريز واللوز واغناما وحشية معينة تربي الكلا في هذه البرارى وسكان يلزم الاعتناء بهم هؤلاء الناس وتدينهم وتربيتهم ليقوموا بخدمة ما خصهم به القدرة الالهية من الاراضى وتحسينها والقيام بزراعتها لاجل اعانة طبيعة الاقليم كما حصل في مدينة بتربرغ

ومملكة ازدراهان هذه هي جزء من ارض قيباق القديمة التى فتحها جنكيز خان ثم فتحها بعده تيمركن فانسعت حكومة التتار الى مدينة موسقو فلما حكم ملك الموسقو المسحى حنا بازيليدس وهو حفيد ايوان بازيلويتز وكان اعظم فاتح يلاذ الموسقو انقذ وطنه من اسر التتار في القرن السادس عشر من الميلاد وضم مملكة ازدراهان الى بلاده التى استولى عليها وكان ذلك (سنة ١٥٥٤) ميلادية

وازدراهان هذه هي الفاصلة بين اسيا واوروپا فيمكنها ان تتاجر مع كلهما بان تنقل في نهر الائل البضائع التى تأتىها من بحر الخزر وكان ذلك من اعظم ما رُب بطرس الاكبر وقد ادرك بعضه حتى ان بعض ضواحي هذه المملكة يسكنه الهنود الى الآن

وفي الجنوب الشرقى من مملكة ازدراهان نجد واديا صغيرا يسمى اورمبورغ وقد بنى فيه (سنة ١٧٣٤) من الميلاد على شاطئ نهر چابق مدينة سميت باسمه اى الوادى وهو مضرر بشعب كوه قاف المسما بجبل قوقاز وهناك قلاع مشيدة متباعدة تسمى الجبال والنهيرات النازلة من تلك الشعاب ثم ان هذا القطر الذى لم يكن معمورا سابقا يأتى اليه الآن الانعام ويدعون فيه امتعتهم التى تسلم من الحروب الداخلية اتقيها من نهب قطاع الطريق وبذلك صارت مدينة اورمبورغ ملجأ للاعجم ولاموالهم فكانت مصائبهم فوائد لها وصارت مركزا لتجارة اسيا لما ان اهل هندستان وبخارى الكبرى يأتون اليها قصد التجارة

وفي خلف نهري الاثل وجاثن جهة الشمال تجد مملكة فازان التي وقعت
كمملكة ازدهان في نصيب احد اولاد جنكيز خان ثم وقعت في نصيب
احد اولاد تيمراتك ثم تغلب عليها دولة الموسقو في ايام حناباز يلدس
ملك الموسقو وهي معمورة ايضا بكثير من التتار المسلمين وتمتد هذه الولاية
العظيمة الى بلاد سبير ومن المحقق انها كانت سابقا زاوية مزهرة كثيرة الاموال
والثروة ولم يزل اثر ذلك فيها الى الآن وكان بعض اقالييم هذه المملكة الذي كان
يسمى سابقا برمييا الكبرى ثم سليكام مركز التجارة القرس وقرآء التتار
وقد وجد بهذا الاقليم مقدار عظيم من السكة عليها طرة الخطفا الاول وبعض
اصنام للتتار وهذه الآثار الدالة على ثروتها قد يماثر عليها في ايام خراب تلك
البلاد وفاقة اهلها ولم يكن اذذاك للتجارة فيها اثر لان انقلاب الاحوال
في بلدة من البلدان يكثر حصوله مع السهولة والسرعة في البلاد العقيمة كيف
لا وقد حصل في اخصب البلاد

ثم ان الاسويجي الشهير المسمى استرالمبرغ لما صار اسيرا في تلك البلاد
المتسعة اشتغل في مدة اسره بالبحث عن احوالها مع امعان النظر وتدقيق
التفكير فكان اول من قرب للعقول تصديق حكاية تتعلق بتجارة هذه الاقطار
قديمًا كانت تستبعد عنها العقول اولًا وذلك ان بليغياس وبينيوس ميلا
ذكر ان بعض ملوك السويوين بعث الى ميتلوس سليبر في عهد
اغسطوس جماعة من الهنود قد تم الرياح العاصفة على السواحل المجاورة
لجزيرة البه فان كان كذلك في الواقع فكيف ينسر لسكان الهند الملاحة
في البحار الجرمانية فاستغرب هذه الحكاية وهي منظومة في سلك الخرافات
عند جميع المتأخرين من اهل عصرنا لا سيما من عهد تغيير طريق تجارة الدنيا
القديمة عند كشف راس عشم الخبير ولكن كان في سابق الزمان لا يستغرب
مشاهدة هندي يبيع ويشترى بالبلاد الشمالية من بلاد المغرب اكثر من
استغراب مشاهدة روماني يسافر الى الهند من طريق بلاد العرب فان اهل
الهند كانوا يذهبون الى بلاد القرس ويركبون بحر ارفانيا ثم يصعدون

على نهر رها وهونهر الأثل حتى يصلوا الى برميا الكبرى بواسطة نهر
كاما ومنه يمكنهم ركوب البحر الشمالى او بحر بلطق فيعلم من ذلك
 ان الناس من قديم الزمان كان فيهم من يتصدى للمشروعات الجسيمة وعظائم
 الامور فان الصوريين كانت سياحاتهم اعجب من سياحات الهنديين
 واذا نظرت الى الجهة الشمالية بعد اطلاعك على هذه الاقاليم المتسعة وجدت
 حدود بلاد اوروپا مختلطة بحدود بلاد اسيا وكان يلزم أن يسمى هذا الجزء
 العظيم من الدنيا باسم جديد يخصه وقد قسم القدماء الدنيا المعروفة عندهم
 الى ثلاثة اقسام وهى اوروپا واسيا وافريقه ومع ذلك كانوا لا يعرفون
 منها العشر وهذا هو السبب فى كون الانسان اذا جاوز بحر ازاق لا يعرف
 منتهى اوروپا ولا مبدئ اسيا وجميع البلاد التى خلف جبل طوروس
 كانت تسمى باسم سيطيا وهواسم مهم ثم سميت ببلاد التتار واطن
 انه كان الاولى أن يسموا البلاد الممتدة من بحر بلطق الى حدود الصين
 بالاراضى القطبية او الاراضى الشمالية كما سموا بالاراضى الجنوبية
 البلاد المتسعة التى تحت القطب الجنوبى المقابلة للاراضى القطبية
 الشمالية

ثم ان بلاد سير والاراضى التى خلفها تمتد جهة الشمال من حدود اقليم
ارقنجل ودريزان وازدراهان الى بحر ياونيا وتتصل بجنوب بلاد
الموسقو بواسطة جبل قوقازة وبين هذا المحل وبلاد قمجنتا نحو الف
 ومائى فرسخ فرنساوى ومن بلاد التتار الجنوبية التى هى حد تلك المملكة
 الى البحر الجميد الشمالى نحو اربعمائة فرسخ وهذا اقل اعراضها ومنها
 تخرج القراء النفيسة وهذا هو الباحث على كشفها (سنة ١٥٦٣) من
 الميلاد وذلك ان رجلا من اطراف حكومة ارقنجل يقال له انيقا من
 اغنياء اهل بلده رأى فى القرن السابع عشر فى عهد الملك ايوان بازيليديس
 لافدورايانوويتز جماعة من الناس باقليم ارقنجل لهم منحة عجيبه
 وملا بسهم بمجهولة اذذال فى هذه الحكومة ولقنهم لا تقهم وكانوا كل سنة

يخمدون من نهر يصب في نهر دوتا ويأتون معهم الى اسواقها بفرأ
 السعور والتعالب السود ويقايضون عليها بالمسامير وقطع الزجاج كما كان
 يفعل نظير ذلك خشنيو امريقة في اعطائهم الذهب لاهل اسبانيا فامر
 اولاده واتباعه أن يقفوا اترهم حتى يصلوا الى وطنهم فتبين انهم السمويد
 وهم قبائل لهم شبه باللابونيين الا انهم ليسوا من جنس واحد فكانوا مثلهم
 لا يعرفون الخبز ويستعينون على جر عرباتهم الصغيرة بالحيوانات المسماة
 رينة التي تشبه الايل ويسكنون المغارات والاخصاص في وسط
 الثلوج غير ان المولى سبحانه وتعالى جعل بين هذا الجنس واللابونيين فرقا بينا
 فقد اخبرت خبرا صحيحا ان فكهم الاعلى بارز عن اوفهم واذانهم مرتفعة جدا
 وانهم رجالا ونساء لا شعر لهم ماعدا رؤسهم وحلمات ثديهم كخشب الابنوس
 في السواد بخلاف اللابونيين ذكورا واناثا فليس فيهم شيء من ذلك وقد عرف
 من الاخبار المرسلة الى من تلك الجهات المعروفة قليلا غلط من الف كتاب
 التاريخ الطبيعي لانه عند كلامه على كثير من غرائب النوع البشري
 لم يفرق بين اللابونيين والسمويد بما يميز كلا عن الآخر واصناف الناس
 شيء لا يمكن حصرها ويظهر ان السمويد والهونتوت نهايتا الارض
 القارة القديمة فاذا نظر الانسان الى سواد ائد نساء السمويد والى الستر
 اللحمي الذي خلقه الله تعالى في نساء الهونتوت النازل على ما قيل
 الى انصاف اخاذهن اورثه ذلك بعض المام بما في النوع البشري من
 الاختلاف المجهول في مدن القريج التي لا تعرف من الاشياء الا ما كان
 نصب اعينها

وللسمويد غرائب عجيبه في اخلاقهم كما ان خلقهم وبنية ابدانهم من العجائب
 فانهم لا يعبدون الذات العلية وانما يقربون في ديانتهم من الماوية بل ربما يصح
 أن يقال انهم في الغالب لا فرق بين دينهم ودين المجوس القديم حيث يقولون
 بوجود اصلين اصل الخير واصل الشر والتاخر ان هذه العقيدة التي هي
 موجودة من قديم الزمان عند كثير من الامم ولا يقول بها عادة الا الفرق

الجهلة او المصابون بالشقا نشأت لهم من كظمهم الردي المزاج
ولا يعرف عندهم قتل النفس ولا السرقة لما انهم كانوا يكونون متزهين عن
الشهوات النفسانية فلا يعرفون الظلم والاحفاف وليس في لغتهم من الالفاظ
ما يدل على الرذيلة او الفضيلة ولبقائهم على اصل القطرة لا يوجد عندهم
من المعارف ككبر شئ بل حركاتهم وافعالهم انما هي بموجب الطبيعة
الغريزية والبواعث الوجدانية ولعل هذا برهان قاطع يدلنا على ان كافة
الناس يميلون باصل طبيعتهم الى العدل ما لم تحملهم شهواتهم الخبيثة على
العدول عنه

وقد جل بعض الناس جاعة من هؤلاء الامم المتوحشين على الذهاب الى
مدينة موسقو فلما وصلوا اليها صاروا يتعجبون من كل ما رأوه فيها
غاية العجب حتى اعتبروا ملك الموسقو كانه الههم ونذروا انهم يدفعون له
كل سنة فروى سمور عن كل انسان من الالهالى وعما قليل استوطنت منهم
بعض قبائل خلف نهر اوبى ونهر ارتيش بل وبناوا في هذا المثل حصونا
وفي (سنة ١٥٩٥) من الميلاد بعث ملك الموسقو رئيسا من القزاق
مع عدة قليلة من العساكر والطوبجية ليغزوا بلاد السمويد فاستولى عليها
كما ارسل فرديند كوريتز من طرف اسبانيا الى بلاد مكسيك بسفن
هينة وعساكر قليلة لكن لم تكن بلاد السمويد المذكورة حينئذ
في الغالب الاصحارى

واذا صعد الانسان في نهر اوبى ووصل الى مجمع نهري ارتش وطبول
وجد اراض صغيرة صالحة للعمارة عمرت وسميت مدينة طبلسك وهى
قاعدة بلاد سبير وقد صارت الآن مدينة كبيرة ومن ذا الذى يعتقد ان
هذه الولاية مكثت مدة طويلة مقام الامه الهونيين الذين تحروا البلاد
ووصلوا الى مدينة رومة تحت قيادة اتيللا واتوا من شمال بلاد الصين
وقد خلفهم في هذه الاراضى تارا لازبك ثم خلف الروسيون هؤلاء التتار
وقد وقعت المنازعة بين الناس في شأن الاستيلاء على هذه الولاية المتوحشة

كما ذلك الناس بعضهم بعضا في شأن الاستيلاء على الاقطار الخصبه وكانت
هذه البلاد سابقا كثيرة الاهالي اكثر مما هي عليه الآن لاسيما من جهة
الجنوب والدليل على ذلك وجود المقابر بها والرسوم
ثم ان هذا الجزء المستعمل الدرجة الستين او ما يقاربها الى الجبال الجليدية
التي هي حد بحار الشمال لا يشبه في شيء اقطار المنطقة المعتدلة فان نباتاتها
وحيواناتها التي على الارض واسماك بحيراتها ونهراتها مخالفة لما يوجد
في تلك الاقطار

وتجد تحت ولاية السويد ولاية الاستياك على امتداد نهر اوبى
ولامشابهة اصلايين اهل هاتين الولايتين الا في كونهم رعاة وارباب صيد
في البر والبحر كالام القرية العهد بالخليقة وذلك ان السويد لادين لهم
لعدم اجتماعهم وتأنسهم واما الاستياك الذين هم متكئون من قبائل
وطوائف قري عندهم نوعا مخصوصا من العبادة وهوانهم يعبدون ما كان
ضرور بالهم في معيشتهم فيقال انهم يعبدون جلود الضأن لان هذا الحيوان
هو اشده الاشياء لزوما عندهم كان قدماء المصريين الزراعين كانوا يتخبون
لاقتهم بجلا يعبدونه على سبيل الرمز والحكاية بمعنى انهم ينظرون فيه الى
القدرة الالهية التي اوجدته لنفع الانسان وزعم جماعة من المؤرخين ان
الاستياك يعبدون جلد الدب لانه يقيم في الشتاء اكثر من جلد الضأن
هذا ويحتمل انهم لم يكونوا يعبدون شيئا منهما

وللاستياك معبودات اخرى منشأها وعبادتهم اياها وكيفيةها لا تستحق
الالتفات اليها كما ان من يعبدونها كذلك وقد تنصرت منهم طائفة
(س ١٧١٢) من البلاد وهؤلاء النصارى لا يعرفون ما هم عليه كضلالي
الفرج النشئين وزعم جماعة من المؤرخين ان هذه الامة اصل منشأها برسيا
الكبرى ولكن برسيا هذه مصارى قرة فلاي شيء استوطن هؤلاء الامم
في تلك المواضع البعيدة وهي على هذه الحالة الحديثة ولكن مثل هذا الامر
ليس جديرا بالبحث عنه فان كل امه لم تمارس العلوم والفنون ينبغي أن تصاقبه

يجهل الناس بها وعدم البحث عنها .
 ويوجد غالباً مدفوناً تلك الاراضي خصوصاً عند الاستيالك ومن
 يجوارهم وهم المبورات واليا كوت عاج لم يقف احد على حقيقة اصله
 بوجه من الوجوه فذهب بعض الناس الى انه عاج معدني وذهب بعض آخر
 الى انه سن نوع من القيلة قد اندثر ولم يبق له اثر ولا غرابة في ذلك فان لكل بلدة
 من المحصولات الطبيعية ما يبرر العقول ويعجز الحكماء والفلاسفة
 وهذه الولاية عدة جبال مملوءة بحجر القنبيلة وبالكثبان الغير المحترق ويصنع منه
 في بعض الاحيان اقشة وتارة يتخذ منه ورق

وفي جنوب بلاد الاستيالك يوجد البيرات وهم امّة اخرى لم تقتصر الى
 الآن وفي غربي هذه القبيلة اقوام لم يمكن لاخذ ان يدخلهم تحت طاعته
 بالكلية وليس لاحد من هؤلاء الامم معرفة بتقويم السنة وانما كانوا يعدّون
 اعوامهم بالثلوج ولا يعدّونها بسير الشمس الظاهري ولكن الثلج لا يقطع
 من عندهم اصلاً ويمكث مدة طويلة في كل شتاء تراهم يقولون اذا سئل احدهم
 عن عمره انالى كذا وكذا من الثلوج كما تقول كذا وكذا من السنين

ولابأس بان نورد هنا ما حكاه بعض ضباط الاسوجيين المسمى استرالمبرغ
 وكان ممن اسر بمدينة بلطاوى ومكث خمس عشرة سنة في بلاد سير وطاف
 بجميع اكنافها حيث قال انه لم يرزل بها الى الان آثاراً قديمة اجسادها منقطة
 بالوان مختلفة مشوهة وذكر انه شاهد اناساً من هذا الجنس وقد اوقفى على
 حقيقة ذلك جماعة من اهل الموسقو مولودون بمدينة طبلسك والظاهر
 ان اختلاف الانواع البشرية نقص عما كان عليه تقصايها حيث انه يندر الآن
 وجود هذه الاجناس العجيبة التي تغيرت باختلاطها مع غيرها من الامم كما هو
 المتبادر للعقل بمثلها هناك بعض افراد قلائل من المغاربة البيض او الليبيون
 باقية على اصل خلقهم وقد احضر احدهم لديوان العلوم بيارس ودايته
 بعينى راسى ومن هذا القبيل ايضا بعض الحيوانات النادرة الجنس
 واما البورنديون الذين تكرّر ذكرهم في الكتاب المسمى تاريخ بستان ملك

فرنسا المشيع في ذكر المواليدهان اللوانح التي نقلت عنها تنكرو وجودهم
بالكلية

ويسكن جنوب تلك البلاد اقوام عديدة من التتار منهم قدماء التتار الذين
خرجوا من بلاد التتار ليتغلبوا على البلاد التي هي الان بايديهم وكذلك
القلوق والمغول فهم عين السيتيين اى التتار الذين قادمين مديس
واستولوا معه على اسيا العليا وانتصروا على سياكراريس ملك
اذربيجان وهم الذين قادمين ايضا الملك جينكيزخان واولاده بعد ذلك
الى بلاد النيبا واحد نوا سلطنة المغول تحت حكم تيمورلنك وهذه
الامة نعد من العبر العظيمة بالنظر لما عرض لسائر الملل من التغيرات والتقلبات
حيث تغيرت احوال عدة طوائف منها وصارت تابعة لدولة الموسقو
بعد ان كانت مهابة

وهذا ما عليه طائفة من القلوق ساكنة بين بلاد سبير وبحر الخزر
وقد وجد هناك (سنة ١٧٢٠) من الميلاد بيت من الحجر تحت الارض
وبه قوارير ومصاييح واقراط وتمثال امير من امرآء المشرق على فرس وعلى
راسه عصا مملوكة وامرأتان جالستان على سريرين من الاسرة الملوكة
وصرة فيها عدة نسخ مكتوبة بالقلم لرسلاها بطرس الاكبر لا كدمة النقوش
القديمة بياريس واستبان انها بلغة التبت وهذه كلها ادلة غريبة
تدل على ان القنون كانت موجودة بهذه البلدة التي هي الان خشفية
متوحشة وبراهين جلية لما قاله بطرس الاكبر غير مرمية من ان القنون
قد عمت سائر الدنيا

واخر اقليم من هذه البلاد هو اقليم قمجتها وهو ابعد اقاليم الارض القارة
جهة الشرق وفي شماله توجد القراء اللطيفة التي هي لباس الاهلى في زمن
الشتاء واما في الصيف فتراهم مجردين عن الملابس بالكلية وقد تعجب
السياحون حين وجدوا في الاجزاء الشمالية من ابتداء بلاد السمويد
الى مصب نهر امور رجالا لهم ليست اكبر من لحى اهل امريقة

ومن هنا يعلم ان دولة الموصو فيها اجناس مختلفة وغرائب واخلاق شتى
لا توجد بارض من اراضي الدنيا

وقد افادتني اللوائح الجديدة ان هذا الامة الوحشية يوجد فيها علماء لاهوتيون
يقولون بان سكان هذا البحر يجزيرة متولدون من ذات عليّة لهم سمونها باسم
كوتو لكن في هذا اللوائح ما يدل على انهم لا يعبدونها اصلا وانهم ليس لهم
رغبة فيها ولا رهبة منها

فان صح ذلك ساغ أن يقال ان لهم جاهلية وخرافات ولادين لهم وربما كان
هذا القول صحيحا وان استبعده العقل كل الاستبعاد لان الخوف من طبيعة
البشر وقبيل لهم في اعتقاداتهم القاسية واوهامهم الكاسدة يقولون
بتحليل اشياء وتحريم اخرى فما احلوه قضاء جميع شهواتهم وبما حرّموه
من المديّة او الباطنة في السفر واتقاد الغريق وكذلك اتقاد البحار من الهلاك
فهم بذلك مبائون لجميع الامم الذين يميلون بالطبع لاسعاف امثالهم من
الاعميين وانما اتهم ما لم يكن هناك سبب قوي يغلب على هذا الميل الطبيعي
ويرزله من قلوبهم والظاهر ان مثل اتقاد الغريق من الامور الضرورية الواجبة
على كل انسان وجرت به العادة كثيرا حتى لا يبعد من الفضائل ولا من الكبار
الا عند اهل الزيف والبدع والاهام من الفلاسفة حيث يقولون ان في ذلك
معيار لرضة القضاء والقدر وانهم حيث جرت المقادير الالهية بالغرق على انسان
لا ينبغي لاحد ان يعاوض القضاء والقدر بالسعي في اتقاده ونجاته ولكن
مثل هذه الفلسفة وان كانت من قبيل الاحاد والزيغ الا انها بعزل عن مثل
هؤلاء الامم المتبررة الخشنة فلا تصل اذهانهم اليها وليس في عقولهم
صلاحية لادراكها

ولكن قد قيل ان لهم موسما عظيما يقال له بلسا نهم عيد التطهير والى انهم
التطهير حيث يمسحون كل شيء وما الداعي للتطهير حيث لا يجتسئون بهم
كوتو ولا يجسونه

فلار يب ان عقائدهم متناقضة كثيرهم من اغلب الامم غير ان مثالهم ناشئة

عن قلة عقولهم بخلاف الامم المتحضنة فنالهم ناشئة عن تجاوزهم للحدود
لان من تجاوز الحد رجع الى الضد

وكما انهم يعتقدون ان هنالك الهاموجودا يعتقدون ايضا وجود الشياطين
وكذلك يوجد عندهم سمرة كما كان عند اعظم الملل تمدنا وسمرة هذه الجزيرة
هن عجائز النساء كما كان ييلاد القريج قبل ان تشرق فيها شمس علم الطبيعة
ومن هنا يعلم ان من خصوصيات القول البشرية ان يكون لها اعتقادات
خاسدة مبنية على عجز الانسان وتولعه بمعرفة الاشياء التي لا يصل ذهنه الى
ادراكها ولا هل قممها ايضا عرفون يقولون الاحلام كما كان ذلك
ييلاد اوروبيا منذ مدة يسيرة

وقد دخل الدين النصراني الرومي عند هؤلاء الامم من حين ادخلتها دولة
الموسقو تحت حكمها وبواسطة خمس قلاع شيدتها ييلادهم وقد اخبرني احد
يسكن زادات الموسقويين من ذوي المعارف انهم يوردون ايرادات قوية
من جملتها ان ديانة الموسقو لا تليق بهم حيث ان الخبز والتبذ امران
ضروريان للدين النصراني الرومي وهما مفقودان ييلادهم

وبالجملة فهذه الامم ليست جديرة بالتدقيق في البحث عن حقيقتها ولا تذكر
في شأنها الا ملحوظة واحدة وهي ان الانسان اذا نظر الى ثلاثة ارباع
امريقة والى الجزء الجنوبي من افرقة والى بلاد الشمال من بلاد
لايونيا الى بحار ياونيا رآى ان نصف النوع البشري ليس ارقى
من اهل قممها

وايضاً قد سافر بعض ضباط القوزاقين (سنة ١٧٠١) من الميلا من بلاد سبير
برا الى بحيرة قممها باهر من بطرس الاكبر الذي لم يزل بعد
الواقعة المهولة التي حصلت في مدينة غرقة يبذل جهده ويسعى في تحسين
سواحل البرابو ويدع البر الذي فيه بلاد الموسقو ولم يكثر بالمسافة بين
البرين ثم ارسل (سنة ١٧٣٥) من الميلا قبل ان يقبأ الموت ييسبر وهو مشغول
بالمصالح العظيمة والمشروعات الجسيمة القبطان الدانجركي المسمى بهرنق

واصره أن يذهب بحمر قمبقتا الى اراضى امريقة ان امكنه ذلك فلم ينجح
 بهرنغ في هذه الارسالية التي هي اول سفراته البحرية الى تلك الجهة وفي
 (سنة ١٧٣٣) من الميلاد ارسلته الامبراطورة حانة نانيا الى هذه الاراضى
 وكان معه في هذه السياحة القبطان اسيا نجبرغ وكان قد خرج قبله من
 قمبقتا ولكن لم يمكنه النزول في البحر الا (سنة ١٧٣٩) ميلادية لكونه مكث
 مدة طويلة وهو مسافر حتى وصل الى الميناء التي ركب منها وجددها سافنا
 للراحة اليها وجع فيها الاشياء اللازمة والامور الضرورية ثم سافر حتى وصل الى
 شمال ياونيا يوغاز متكون من عدة جزائر متواصلة متتالية ثم رجع
 من هذه الاراضى ولم يستكشف منها غير هذا البوغاز

وفي (سنة ١٧٤١) من الميلاد طاف بهرنغ هذا البحر ومعه القلبي الشهير المسحى
 لبسل دولكروير وهو من عائلته لبسل التي ظهر منها علماء ماهرون في علم
 الجغرافية وذهب قبطان آخر من جهة اخرى لاستكشاف تلك الاراضى
 فوصل كل من بهرنغ وهذا القبطان الى سواحل امريقة من جهة
 شمال بحيرة كاليفرنيا واستكشفا هذا الممر الذي سمي بوغاز بهرنغ
 وكان الناس قد مكثوا يحثون عنه مدة طويلة في البحار الشمالية غير انهما
 لم يجدا بهذه السواحل القفرة ما يقوم بموتهما لما ان الماء العذب قد منهما واهلك
 داء الاسقربوط بعض الرجال الذين كانوا معهم من البحارة ورأوا السواحل
 الشمالية من بحيرة كاليفرنيا وهم بالبعد عنها بمائة ميل ورأوا
 قوارب متخذة من الجلد عليها اناس يشبهون اهالي كندا ولم يترقب على ذلك
 كله ثمرة ومات القبطان بهرنغ بحيرة سميت باسمه واما القبطان الثاني فانه
 لما رأى انه اقرب لجزيرة كاليفرنيا من جزيرة بهرنغ اخرج الى البر
 عشرة رجال من جماعته فلم يعودوا اصلا فخرج على أن يعود نانيا الى بحيرة
 قمبقتا بعد أن انتظرهم مدة فلم يرجعوا اليه واما العالم بالنجوم
 لبسل دولكروير فانه مات بمجرد خروجه الى البر وهذه المصائب هي عادة
 قسمة من يكون اول مخاطر بنفسه في السياحة بالبحار الشمالية والى الان

لا يدري ما تحترق هذه الاستكشافات النافذة الخطرة جدا
والى هنا انتهى جميع ما تركب منه دولة الموسقو عموما من فتلة الى
بحر يابونيا وكانت قد انضمت اجزاء هذه المملكة العظيمة الى اصلها
في ازمنة مختلفة كما حصل ذلك في غيرها من سائر ممالك الدنيا وبها الآن
طوائف من التتار والهوريين والمسا جيتيين والسلاويين والسجريين
والجيتيين والسرماثيين وجميعهم الآن رعايا الملك الموسقو واهل الروسيا
الحقيقيون هم قدماء الركسلانيين او السلاويين
واذا تأمل الانسان رأى ان اغلب الممالك الاخر بهذه المثابة مؤلفة من عدة
طوائف اجنبية كبلاد فرنسا فانها مؤلفة من طوائف غوطيين
ودانيرقيين مموا بالترمنديين ومن جرمانيين شماليين وهم المسمون بالبرغونيين
ومن افرنك وفساويين وبعض رومانيين مختلطين بدماء السلتيين ويوجد
بمدينة رومة وبلاد ايطاليا كثير من العائلات المتولدة من الامم
الشمالية وليس فيها عائلة من قدماء الرومانيين المتأصلين بل البابات
في الغالب من نسل البنادقة اللنبرديين والقوطيين والتوتونيين والسجريين
وكذلك اهل اسبانيا فثمهم عرب مغاربة وقرطاجيون ويهود وصوريون
ووسيفوطيون وونداليون انضموا الى اهالي اسبانيا المتأصلين بها
وصاروا جزءا منهم ولكن الامم اختلط بعضها ببعض على هذا الوجه كان يلزم
لهم زمن طويل حتى تمدنوا وتصور لهم لغة مخصوصة فثمهم من تمدن في اقرب
مدة ومنهم من يتأخر ولا يخفى ان التمدن والفنون مما يصعب انشاؤه ويشق
تجديده واحداه وفي الغالب تحدث تقلبات كبيرة ينشأ عنها تخريب ما شيده
البشر والعجب كل العجب ككون اغلب الملل تمدنت مع ذلك وليت باقية
متبررة كالتتار

(الفصل الثاني)

في حقبة تخطيط دولة الموسقو وفي اهلها وبيت مالها وجيوشها وعوايدها
ودينها والحالة التي كانت عليها قبل بطرس الأكبر

لا يخفى ان عمران البلدة وكثرة اهلها لما يكون على قدر تمدننا فلذا كانت بلاد
الصين والهند اكثر الممالك عمراناً لما كان اهلها بعد التطبيلات الكثيرة التي
غيرت شكل الارض هم اقل من احدث في ممالكهم التمدن والتحصن كما نرى هذه
خاتمة قدمضي على دولتهم من الاقدمية ما ينف على اربعة آلاف سنة وفيهم
منه كليل انهم سعوا واجتهدوا في القرون المتقدمة في التحصن لذلك فاما اهل
الموسقو فانهم جلاوا اخيراً وادخلوا عندهم القنون وهي في درجة كمالها
في ظرف خسين سنة حصلوا بواسطه غيرهم اكثر مما تحصله امة اخرى
ونحدها بدون واسطه في ظرف خمسمائة سنة ومملكة الموسقو قليلة الاهالي
بالنسبة الى اتساعها ولازم مضي مئة مديدة حتى تكون هذه المملكة معمورة
على قدر اتساعها فكيف ما هي عليه الآن فيها من الرعايا بقدر ما في غيرها
من الممالك النصرانية

وقد تحقق عندي بعد الاطلاع على دفاتر فردة الرؤس وعدد البياعين وارباب
الحرف والصنائع والذكور من الفلاحين الزراعيين ان بلاد الموسقو
الآن بها اربعة وعشرون مليوناً من الاهالي لولا كثرة اهلهم ارقاء كلها بل
مملكة له وعدة اقاليم من بلاد النجسا وكما كان سابقاً في اغلب بلاد
اوروپا ولا تعرف ثروة اليكزادة او التقسيس ببلاد الموسقو ومملكة له
بكثرة ابراده من النخود بل يعرف ذلك بكثرة ارقائه

وهذا مجموع عدد الافراد الذكور الموجودين (سنة ١٧٤٧) من الليلاذ
الذين كانوا يدفعون فردة الرؤس

اسماء الطوائف	عدد اهل الحرف
البياعون	١٩٨٠٠٠
الشغالون	١٦٥٠٠
الفلاحون المنضمون الى البياعين والشغالين	١٩٥٠
الفلاحون المسجونون بالادنسك وهم المنوطون بتحصيل	
لوازم الجند	٤٣٠٢٣٠

٢٦٠٨٠	الفلاحون الآخرون الذين ليسوا من وطنهم بذلك
١٠٠٠	شغالون من حرف شقي لم يعلم لهم آثار
	شغالون آخرون ليس لهم دخل في رتبة ارباب الحرف
٤٧٠٠	والصنائع
٥٥٥٠٠٠	فلاحون مشغولون باعمال الملك خاصة فهو
	مستخدمون بمعادن الامبراطور نصارى ومسلمون
٦٤٠٠٠	وعبداء اوثان
	فلاحو الامبراطور الذين يشتغلون في معادن
٢٤٢٠٠	خواص الناس وفريشاتهم
٥٧٠٠٠	المتمسكون بمذهب الكنيسة اليونانية عن قريبتهم
٢٤١٠٠٠	تتار واستياء عبدة اوثان
	مسيحيون وتتار ومريديا وغيرهم ما بين عبدة اصنام
٧٨٠٠	وفونان مستخدمون بالترسانة
	تتار يدفعون الخراج يسمون تارة باسم <u>تبتيرز</u> وتارة
٢٨٩٠٠	<u>بولتر</u>
	ارقاء لعدة تجار وغيرهم من ارباب المزاي الذين
٩١٠٠١	لهم ارقاء وان لم يكن لهم ارض
٤١٨٠٠٠	فلاحو الاراضي المعدة للوازم ديوان الملك
	فلاحو اراضي خصوص الامبراطور بقطع النظر
٦٠٥٠٠٠	عن حق التاج
	فلاحو الاراضي المأخوذة قهرا من الاهالي للتاج
١٣٦٠٠١	الملوك
٣٥٥٠٠٠٠	ارقاء البيكزادات
٣٧٥٠٠	ارقاء القسوس المزمعون بمصاريفهم

١١٦٤٠٠	•	ارقاء الاساقفة
٧٤١٥٠٠		ارقاء الاديار التي تقص عددها بطرس الاكبر قصايتنا
٢٣٧٠٠		ارقاء الكنائس الكبيرة والصغيرة
٤٠٠٠		فلاحون مستغلون بأشغال ديوان البحرية او بغيره من
١٦٠٠٠		الأشغال الميرية
		شغالون في معادن الاهالي وفريقاتهم
		فلاحون يرزعون الاراضي المعطاة لاعيان
١٤٥٠٠		اسطاوات الورش
٣٠٠٠		شغالون في معادن الناج الموكي
٤٠		القطاء الذين يكفلهم القسوس
٢٢٠٠		ارباب المذاهب المسمون باسم راسكنيكي
<hr/>		
٦٦٤١٣٩٠		

فهذه ستة ملايين وستمائة واحد واربعون الف نفس بمحذف الكسور من
الذكور كلهم يدفعون فردة الرأس ويدخل في هذا العدد الصبيان والشيوخ
واما البنات والنساء فليسن معدودات فيه وكذلك الغلمان الذين يولدون منذ
افتتاح مجل العوايد الى عمل مجل آخر فاذا ضاعفت عدد الذين يدفعون
الفردة ثلاثة اضعاف حيث ادرجت النساء والبنات وجدت بهما ينيف
على عشرين مليوناً

ويلزم ان نضم الى ذلك العساكر الذين يبلغ عددهم ثلثمائة وخمسين الفا ولا يدفع
عند الموسقو هذه الفردة ببيكرادات الدولة بتمامهم ولا طائفة القسوس
والجميع يبلغ عددهم مائة الف نفس وجميع من في الدولة من الغرباء معافي
من ذلك ايما كانت حرقة ابلادته واما سكان الاقاليم التي فتحها ملوك الموسقو
وهي اقليم ليوننيا واسطونيا وانغريا وكرابلا وجرمن بلاد
فنلندة واقليم اكرينة وقوزاق نهر الدون والقلوق وغيرهم من
التتار والسويدي واللابونيين والاسنيكيين وجميع عبدة الاوثان

بسير التي هي اعظم من بلاد الصين فليسوا منذرجين في هذا العدد
 وبهذا الاحصاء يتعين ان سكان بلاد الموسقو اربعة وعشرون مليوناً
 فاكثرو هذا بالنظر الى (سنة ١٧٥٩) من الميلاد حين ارسلت الى من مدينة
 بتربرغ اللوائح المنقولة من سجلات الدولة فموجب هذا العدد يخص كل ميل
 مربع ثمانية اقس واما الالجي الانكليزي الذي تكلمنا عليه فيما سبق فلم يجعل
 لكل ميل الا خمسة اقس ولكن لاشك انه لم يكن عنده لوائح صحيحة مضبوطة
 كاللوائح التي ارسلت الى

فحينئذ تكون ارض بلاد الموسقو من جهة الاهالي اكثر من اسبانيا
 اربع مرات فهي تقريبا من جهة العمار كفرنسا والنجسا ولكن اذا
 اعتبرنا عظم اتساعها كان عدد من فيها من الاهالي اقل من هاتين المملكتين
 بثلاث وثلاثين مرة

وهنا امر ينبغي التنبيه عليه في هذا العدد وهو ان ستة الملايين والستمائة
 والاربعين الفا الذين يدفعون القردة منهم نحو تسعمائة الف تجبي فردتهم
 القسوس الموسقو وليس منهم قسوس البلاد المستولى عليها ولا قسوس
 اقليم اكرينة ولا سير فبناء على ذلك يكون لخزينة القسوس
 من كل سبعة اشخاص تدفع الميرى شخص واحد وهذا اى كونهم لهم سبع
 الاشخاص لا يوجب كونهم يحفظون بسبع محصولات الدولة كما هو جار
 في كثير من الممالك الاخرى فان القسوس به الاقل من ان يكون لهم سبع جميع
 الاموال وكيف ذلك مع ان فلاحهم يدفعون القردة للملك واذا نظرت الى
 محصولات كثيرة تلك الموسقو خاصة لا تأخذ القسوس منها شيئاً ثبت لك
 ان ما يصل اليهم لا يصل الى سبع محصولات الدولة

وهذا الاحصاء مخالف بالكلية لاحصاء جميع من تكلم على بلاد الموسقو
 من المؤلفين فان الاجبية الاجانب الذين ارسلوا اللوائح للوكهم وقعوا جميعا
 في الخطا فيلزم مراجعة دفاترهم لملكية والاطلاع عليها

والظاهر ان بلاد الموسقو كانت معمورة سابقا اكثر مما هي عليه الان قبل

أن تخرب بداء الجدرى الذى اتى اليها من بلاد العرب وداء الفرنجى المهور
الذى اتى اليها من امرىقة فان اهلها اخذت في التساقص والقله بعد أن
تمكن من اقلها هذا ان اللذان كان لهما في هلاك العالم مدخلة أكثر
من مصائب الحرب وكان السبب في ظهور واحد هذين الداءين بتلك البلاد
انتشار الحرب الاسلاميين وقصمهم للبلاد والاخر كان سببه كرسف كلب
حين فتح امرىقة واما الطاعون الذى منشاؤه من افريقه فكان ينذر
ظهوره وقتئذ بالاقطار الشمالية وبالجملة فام الشمال من بلاد سرما تيا
الى التتار الذين هم خلف السور الاعظم الصينى شنوا الغارة على جميع الدنيا
هن ذلك نقصت الذرارى القديمة نقصا يينا

وفى هذه البلاد المتسعة نحو سبعة آلاف واربع مائة راهب ويوجد بها ايضا
خسة آلاف وست مائة من الراهبات مع ان بطرس الاكبر كان قد اهتم
بتقليل عددهم ولا يستغرب صدور هذه الهممة من مثل هذا المرتبة للقوانين
في دولة يقل فيها كل شئ خصوصا النوع البشرى

فهؤلاء الثلاثة عشر الف نفس الماكنون في الاديبار الذين لم يعد
على الدولة منهم تقع كان لهم كما مطلع عليه كل قارئ سبعمائة وعشرون
الف رقيق لزراعة اراضيهم ومن المعلوم ان هذا كثير جدا وهذا الافراط
العام المضرب لكثير من الممالك لم ينزع خله الا الايمبراطورة كاترينة
الثانية فانها تجاسرت على الانتقام منهم في رهبانيتهم وشدة جنتهم الدينية
حيث حرمت طائفة القسوس والرهبان من الثروة المضرة التي لا يرضاها احد
وجعلت لهم مرتبات تصرف من خزينة الدولة وصيرتهم فاقعين للدولة حيث
اضعفت شوكتهم ومنعتهم مما يضر بالدولة

وقد عثرت على جدول يتضمن ايراد دولة الموسقو في (سنة ١٧٢٥)
من الميلاد ويشتمل ايضا على فردة قبائل التتار وجميع الغرامات والعوايد
التي تؤخذ نقدا فوجدتها تبلغ ثلاثة عشر مليوناً من الربل وذلك يساوى
خمسة وستين مليوناً من فرنكات فرنسا وهذا غير العوايد التي كانت

تؤخذ

لا نقدا وكان هذا المقابر اليسير يكفي وقتئذ في القيام بضرورات ثلثمائة وتسعة وثلاثين الفا وخمسمائة من العساكر البحرية والبرية وفي ذلك الوقت ازدادت الارادات والجنود

ثم ان العوايد والملابس والاخلاق ببلاد الموسقو كانت دائما اقرب شيها لما في بلاد المشرق مما في دول اوروبا النصرانية فكان من عوايدهم القديمة انهم يأخذون ما على الامم من الخراج من المأكولات ومنها ايضا قيامهم بمصاريف الاجلينة مدة ظعنهم واقامتهم ومنها التجرد عن السلاح عند دخول الكنيسة او عند التخليل بين يدي الملك وهذه عادة مشرقية مباينة بالكلية لعوايد الفرنج الرديئة الخسفية حيث يذهبون الى الكنائس ويقفون بين يدي الله عز وجل وأمام الملوك وعند اصد قائمهم ونسائهم ومعهم سلاح طويل من الاسلحة المعدة للقتال يضربهم الى ماتحت سوقهم وكان من عاداتهم ايضا انهم يلبسون في ايام المواسم والاعياد ملابس طويلة والظاهر انها اشرف من الملابس القصيرة التي تلبسها الملل القاطنة في غربي اوروبا فكانوا يلبسون في تلك الايام الحافلة جبة مبطنة بالسور وفرجيات طويلة مزينة بالجواهر وتعممون بالعمائم التي من شأنها رفع قامة الانسان ولا شك ان مثل هذه الملابس يظهر في رأى العين احسن من الشعور المستعارة والملابس المقطعة واليق منها بالنسبة الى الاقطار الباردة الان هذا الملابس التي كانت مستعملة عند جميع الامم قديما تظهر انها اقل لياقة من غيرها بالنظر الى الحرب واكثر مشقة عند الشغل وما عدا ذلك من عوايدهم كان اغلبه خسفيا ولكن ذلك لا يستلزم خشونة الاخلاق كما زعمه كثير من المؤرخين فقد ذكر المؤرخ البيركنت ان دولة ايطاليا ارسلت مرة الجيا الى بعض ملوك الموسقو فمحررنيطة هذا الجلي على راسه لكونه لم يخلعها حين خاطبه انتهى ونسب بهض الناس هذه الحكاية لبعض التناز وبالجلة فقد ذكرت هذه الحكاية ايضا في شأن الجلي من فرنسا وذلك ان اولياريوس قد زعم ان ملك الموسقو المسيحي ميخائيل فيدورويتز

نقى الى بلاد سير احد امراء اكدوليا وكان الجيا له نرى الرابع
ملك فرنسا مع ان هنرى المذكور لم يرسل قط الجيا الى مدينة
موسقو وما يخطر في هذه السلك القول بوجود ارض بورنديا التى
تكلم عليها السياحون فانه لا وجود لها اصلا وزعموا انهم تعاملوا مع سكان
زبله الجديدة مع انه قل أن كانت معمورة وانه وقعت المخاطبة بينهم وبين
السمويديين كأنهم يعرفون لسانهم فلو خذف من مصنفات السياحة
المظنية ما ثبتوه فيها من الاخبار الباطلة التى لا طائل تحتها كانت هذه
المصنفات مقبولة عامة النفع

ثم ان الحكومة الموسقوية كانت تشبه حكومة الدولة العثمانية من حيث
وجاق عساكر الاسترليج الذين كانوا فى بعض الاحيان يتصرفون
فى ألأنتاج الملوكة ووقعون الخلل فى هذه الدولة على قدر ما يمكنهم كما كان
يفعل ذلك العساكر الانكشارية ببلاد الدولة العثمانية وكان عدد اهل ذلك
الوجاق يبلغ اربعين الفا ومن كان منهم متفرقا فى الاقاليم كان يعيش من السلب
والتهب واما القاطنون بمدينة موسقو فكانوا فى معيشتهم كبقية الاهالى
يبيعون ويشتررون وكانوا لا يخدمون اصلا بل يسيرون الناس كل الاسامة
ويرتكبون من المظالم ما لا يرضاه احد فكان ابطال هذا الوجاق مما يجب
لاجل نشر الامن والاطمئنان ببلاد الموسقو ولكن الاقدام على ابطاله كان
اصعب شئ مع انه اوجب الاشياء ازالة

ولم يكن يراد الدولة فى القرن السابع عشر من الميلاد يبلغ خمسة ملايين من
الربلات (وذلك يساوى خمسة وعشرين مليوناً من القرن ثمانى والقرن ثمانى والقرن ثمانى)
وكان هذا الاراد كافيا لمصر فى وقت استيلاء بطرس على كرسى الدولة
لوقيت على حالتها القديمة من الاقتصاد والتوسط ولكن من حين الخروج
من تلك الحالة ودخولها فى سلك الدول العظام من بلاد اوروبا كان لا ينفى
بالمصاريف وكان اغلب الغرامات المبرية يدفع من المأكولات والملبوسات
على حسب عادة بلاد العثمانية وهى اقل ضررا على الاهالى من دفعهم ذلك

من صنف النقود

ثم ان ملك هذه الدولة يقال له كرار ولعله مأخوذ من لفظة ترار او چار التي هي لقب لكل من تملك على قازان وذلك ان حناباز يليدس المسمى ايضا ايوان وهو ملك الموسقو لما تغلب في القرن السابع عشر على مملكة قازان التي كان جدّه قد تغلب عليها ايضا وضاعت منه لقب بهذا اللقب ثم صار يلقب به من خلفه في الحكم من الملوك وكان ملوك الموسقو قبل ايوان باز يليدس المذكور يلقبون بلقب وليكي كنيس (ومعناه امير كبير او ملتزم كبير او رئيس كبير) وقد ترجمته الملل النصرانية بالدوق الاكبر ثم ان الكرار المسمى مجايل فيدورويتز لقب نفسه في الغزوة الهستينية بـ يلاد دانبرقة بالملتزم الاكبر والكنيس الاكبر محافظ دولة الموسقو وامير ولد امير موسقو وابالة نوغرود و ترار مملكة قازان و ازدراهان و سبير ويؤخذ من ذلك ان لفظة ترار كان يلقب بها ملوك بلاد المشرق والمتبادراتها مأخوذة من لفظة تراس التي يلقب بها ملوك القرس لامن لفظة قيصر التي يلقب بها ملوك الروم ويظهر ان ترارات سبير لم يسموا لفظة قيصر على شواطي نهر اوبى

ثم ان اللقب وان بلغ ما بلغ لا يعدّ شيأ مالم يكن الملقب به عظيم في ذاته فلفظة ايمبراطور التي معناها بحسب الاصل سر عسكر صارت علما على رؤساء الجمهورية الرومانية وتطلق الآن على ملوك الموسقو وهم احق بها من غيرهم نظرا الى اتساع ممالكهم وقوة شوكتهم

ثم ان اهل هذه الدولة كانوا من القرن الحادى عشر متمسكين في ديانتهم بمذهب الاروام المقابل لمذهب اللاطينيين ولكن كان فيها من المسلمين وعبدة الاوثان اكثر مما كان بها من النصارى فمن مبدء بلاد سبير الى الصين كلهم عبدة اوثان وهناك اكثر من اقليم لا يعرف اهله ديناً من الاديان

وقد ذكر لهندس برى والبارون استرالمبرغ اللذان مكثا زمنا طويلا بـ يلاد الموسقو انهما وجدوا في عبدة الاوثان من سلامة الباطن وخلوص

الطوية والاستقامة اكثر مما وجداه من ذلك في غيرهم وهذه القضية فيهم ليست ناشئة عن عبادتهم للآوثان بل لما كانوا هاجين في معيشتهم منج الرعاية مجتنبين معاشره الناس ومخالطهم سالكين في ذلك مسلك الصدر الاول من الخليقة خالين عن الشهوات النفسانية الكبيرة كانوا بالضرورة من اخبار الناس واحسنهم

ولم يدخل الدين النصراني بلاد الموسقو وغيرها من الدول الشمالية الا في الزمن الاخير وقد زعم بعضهم ان اميرة تسمى اولها ادخلته في هذه الدولة في آخر القرن العاشر كان كولوتيدا بنت اخي امير ارياني من التمسكين بجذب اريوس ادخلته عند قدماء الفرنساوية وكذلك زوجة ميسيزلاس دوق بلاد له آتت به عند اللاهيين واخذت الملك هتري الثاني ادخلته في بلاد المجار ولا غرابة في ذلك فان النسا من طبعهن تصديق القدوس وامناء الدين واخذ اقوالهم قضية مسلمة ويدخلن في قلوب الناس ويحملنهم على اعتقادها والعمل بها

وقد قيل ان الاميرة اولها او اولغا تصورت وتعمدت في مدينة القسطنطينية وسميت هيلانة ومن يومئذ شغل بجها الامبراطور حناريسيس والتظاهر انها كانت ارملة لكنها لم ترض بهذا الامبراطور ولم يقتد بها اولا في النصر كثير من الناس حتى ان ابنها الذي حكم بعدها زوسنا طويلا لم يحذ حذوها ولم يخطر بباله ما خطر ببالها ولكن حفيدها المسي ولوديمير وهو ابن حظية قتل اخاه ليستولى على المملكة عوضا عنه واراد مصاهرة امبراطور القسطنطينية المسي بازيل فلم يزل ذلك الابدخوله في دين التصراية حيث شرط عليه ذلك اولا فكان اقل دخول الدين الرومي يبلاد الموسقو في هذا العصر (سنة ٩٨٧) من الميلاد وقد اتفق ان بطرقا من بطارقة القسطنطينية يقال له كريزوبرغ ارسل من طرفه اسقفا ليعمد ولوديمير ليدخل في بطرقيته بلاد هذا الملك التي هي جزء عظيم من اجزاء الارض

وقد انتهى

وقد انتهى ولود غير ماهرة فيه بحدته وأول بطرق تولى يبلاد الموسقو
كان روميا فلذا استعمل الموسقويون في لغتهم حروفا هجائية اخذوا بعضها
من اللغة اليونانية وكانوا يستفيدون من هذه اللغة الاناساس لغتهم
المأخوذ من اللغة السلافية بقي على ما كان عليه ما عدا بعض كلمات تتعلق
بامورهم الدينية ووظائفهم القسسية فانها تغيرت الى اللغة اليونانية وكان
احد بطارقة اليونان المسمى ربما له قضية بدويان القسطنطينية فأتى
الى مدينة موسقو يطلب الاعانة والامداد ثم تخلى بموجب مشاركة
انفقدت اذذاك عن حقوقه في الحكم على كائس الموسقو واقام مطران
نوغورد المسمى يوب بطرقا عليها عوضا عنه وكان ذلك (١٥٨٨ سنة)
ميلادية

ومن وقتئذ صارت كنيسة الموسقو قائمة بنفسها كايبراطورية
الموسقوية وفي الواقع لو بقيت هذه الكنيسة تابعة لكنيسة الروم التي هي
في قبضة العثمانية لاورثها ذلك المعار والفضيحة وكانت به عرضة للخطر
فمن يومئذ صارت تنصيب البطارقة الموسقوية من طرف الاساقفة الموسقوية
لا من طرف بطريق القسطنطينية وصارت رتبته في الكنيسة الرومية
تلى رتبة بطريق بيت المقدس لكنه في الواقع ونفس الامر كان مطلق التصرف
في اموره ذا شوكة وصوله فلم يكن في الحقيقة بطريق سواء ولما بطارقة بيت
المقدس والقسطنطينية وانطاكية واسكندرية فليسوا الاروساء
مستخدمين محترمين وكنيستهم تحت قبضة العثمانية بل بطارقة انطاكية
وبيت المقدس لم يكونوا في الحقيقة معتبرين كغيرهم من البطارقة ولم يكن لهم
من نفوذ الكلمة الا كما كان لخاخامات معابد اليهود هناك

وكان بطرس الاكبر من نسل رجل تولى منصب البطرقية على بلاد
الموسقو تمامها وبعد أن صار بطارقة هذه الدولة قائمين بانفسهم ارادوا
أن يشركوا ملوكها في الحكم ولم يكفهم كون الملك يمشي في يوم من السنة
بين يدي البطرق مكشوف الرأس قائدا فرس ذلك البطرق ومساكينها

ومثل هذا التعظيم البارز الى حيز الوجود لم يترتب عليه الا ازدياد رغبتهم
وشدة ميلهم الى الحكم المملوك ونشأ عن ميلهم الى الحكم المذكور قسما
واقلايات كما حصل في غير هذه الدولة

وذلك ان البطرق نيقون الذي يعقده الرهبان من زمرة القديسين وتقلد
منصب البطرقية في عهد الكسيس والد بطرس الاكبر اواد أن يجعل
تحت البطرقية اعلى مقاما واعز سلطانا من سرير الملك فلم يكفه أن اختات
وجعل لنفسه حقا في الجلوس بقرب الملك في المشورة الملكية حتى زعم انه
لا يمكن عقد حرب اوصلح الا بعد رضائه ولما كانت شوكته معضدة بثروته
ودسائسه وانضمام القسوس والاهالي اليه جعل ملك الموسقو الذي له
السيادة عليه في حالة تشبه أن تكون حالة اسر واسترقاق بالنسبة اليه
حتى انه تجاسر على طرد جماعة من ارباب المشورة توقفوا معه في افراطه
وتجاوز الحد وانتهى الامر ان الملك الكسيس لما رأى انه غير مقيم على عزله
بنفسه جبر على أن يعقد جمعية من الاساقفة فادعت على هذا البطريق انه اخذ
اموالا من اللاهيين على سبيل الرشوة وحكمت عليه بالنفي في دبر مدة حياته
واتخبت بطريقا غيره

ومن حين ظهور دين النصرانية يبلاد الموسقو كان بها مذاهب دينية
متفرقة كغيرها من الممالك الاخر لان تعدد المذاهب في الممالك يكون
في الغالب ناشئا عن جهل اهلها جهلا بسيطا او مر بكا هذه الدولة وان كانت
بفردا هي الدولة الكبيرة النصرانية لم يترتب على ظهور الدين بها
حروب مدنية داخلية كما وقع في غيرها من الدول وانما ترتب عليه بعض
فشل وزراع

ثم ان مذهب القردة الرسك كنيسة التي تبلغ عذوة مقلديه الان نحو النيرجل
كما ذكرناه في الجدول السابق هو اقدم المذاهب لانه ظهر في اوائل القرن
الثاني عشر بواسطة جماعة ذوى سمية دينية كان لهم بعض معرفة بالعهد
الجديد وهم بكافي مقلدى المذاهب الدينية يزعمون انه ينبغي التمسك بهذا

المذهب مع غاية التدقيق وان من عداهم من النصارى الاخر لا اعتداهم
بالديانة وانهم يتساهلون فيها ويرون ان القسيس اذا شرب الخمر لا يصلح
لتحصيد الاطفال ويقولون كما قال عيسى عليه السلام ان النصارى
على حد سواء لا مزلة لاحدهم على الاخر وان للنصارى ان يقتل نفسه
في حب المسيح الذي نجاه واتخذ من الفنى والضلال ويعتدون من المبكر
قول الحمد لله ثلاث مرات فلا يسوغ قولها على مذهب الاخرين قط
ولا يجوز عندهم رسم الصليب الا بثلاثة اصابع ومع ذلك فليس هناك اصعب
من اتباع هذا المذهب في الاخلاق ولا اكثر منهم في الانتظام فهم في معيشتهم
كالقواقرين يلاذ الانكليز الا انهم يخالفونهم في انهم لا يقبلون احدا
من عداهم من النصارى في جمعياتهم وهذا هو الذي حل غيرهم من النصارى
على أن ينسبوا اليهم جميع القبائح التي نسبها المشركون الى قدماء الغالييليين
والغاليليون المذكورون نسبوها الى التوسيتك والآن ينسبها
القاثوليقيون الى البرونستانيين وكثيرا ما قيل في شأنهم انهم يذبحون طفلا
و يشربون دمه وانهم في محافظهم الدينية السرية يختلطون رجالا ونساء
ويقع بينهم من القواحش ما يقع من غير ان يعتبر وادرات القرابة
والسن ولا حال الذكورة والانوثة وقد اتفق ان غيرهم اراد ان يقتبهم
بالتعذيب فاحتجبوا في ضياعهم واضرموا في بيوتهم النيران والقوا انفسهم
في لهيبها وقد سلك بطرس الاكبر مسلكا حسنا يحملهم على العدول
عما كانوا عليه حيث جعلهم في عيشة راضية مع الامن والهدوء فمذا رجعوا
عن حالتهم الاصلية

و بالجملة فليس بهذه الدولة التسعة من التحف الاسقفية الاثمانية
وعشرون تحفا في زمن بطرس كان لايو جديها غير اثنين وعشرين
وربما كانت قلة هذا التحف من الاسباب التي جعلت الكنيسة
الموسقوية في الصلح والاطمئنان ولا يخفى ان هذا الكنيسة كانت قليلة
المعارف جدا حتى ان الملك فودور اخا بطرس الاكبر هو اقل من ادخل

فيها ما يرتل عادة في الكنائس

وكان يستوى عند الملك فودور وكذلك اخوه بطرس في جيوشهما وقوانينهما التمسك بالمذهب اليوناني واللاطيني واللوثراني (اي مذهب لوتير) والكلونيسي (اي مذهب كلوان) حيث رخص كل منهما لكل انسان أن يعبد الله عز وجل على ما تطمئن اليه نفسه ويختار لهها من تلك المذاهب لكن بشرط أن يؤدي ما يجب عليه للدولة حق التأدية فكان لا يوجد في هذه الدولة التي يباغ امتدادها التي فرسخ كنيسة لاطينية غير ان بطرس حين انشأ في ازدراهان معامل جديدة وجذبها نحو سبعين عائلة فاوليقيه يرشدهم جماعة من القابوشيين (وهم قسوس طائفة سنت فرنسيس) ولكن لما اراد اليسوعيون الدخول في دولة بطرس الاكبر صدر منه فرمان بطردهم في شهر نيسان (سنة ١٧١٨) من الميلاد وكان لا يتضرر من اقامة القابوشيين بدولة لانهم كارهين لابطش لهم ولا صولة واما طرده اليسوعيين فلانه كان يراهم ارباب سياسة نخشى منهم على الدولة وكان استيطان هؤلاء اليسوعيين ببلاد الموسقو (سنة ١٦٨٥) من الميلاد ثم طردوا منها بعد ذلك باربعة سنين ثم عادوا اليها ثم طردوا مرة اخرى

ثم ان ارباب الكنيسة الرومية يقتضون بانتشار مذهبهم في هذه الدولة التي تبلغ مساحتها التي فرمخ بخلاف الكنيسة الرومانية فان اراضيها ببلاد اوروبا لا تبلغ نصف ارض بلاد الموسقو

وكان اصحاب المذهب الرومي يحاولون دائماً ابقاء مساواتهم لارباب المذهب اللاطيني في الشوكه وكانوا دائماً يخشون سعي الكنيسة الرومية في توسيع دائرتها لما انهم كانوا يرون ان ذلك من باب الحرص والطمع ولما كانت الكنيسة الرومانية في الواقع وقس الامر ضيقة الدائرة ببلاد اوروبا وكانت تزعم ان دينها مشروع لكافة الناس ارادت ان تحقق هذه الدعوى العريضة

ونستولي

وتستولى على سائر البلدان .

وليس لليهود بلاد الموسقو بيع كالمهم في كثير من ممالك اوروبا من مدينة القسطنطينية الى مدينة رومة لان تجارة اهل الموسقو كانت مقصورة عليهم وعلى الملل القيمة عندهم وقد اختلفت كنيسة الموسقوية من بين الكنائس الرومية بانه لا يوجد بجوارها كالمهم لليهود

وقد جعل بطرس الاكبر لدولة الموسقو شوكة عظيمة في مصالح اوروبا لم تسبق بمثلا من حين دخلها دين النصرانية فانها قبل ذلك كانت تركب البحر الاسود وتفعل بسواحلها ما كان يفعله الترمنديون في الجهة الافريقية بسواحل البحر المحيط الغربي فقد جهزت في عهد هرقل اربعين القامان القوارب الصغيرة لمحاصرة القسطنطينية وألزمت قياصرة الروم بدفع الخراج غيران ولدمير ملك الموسقو لما كان مشتغلا بشؤون النصرانية في ممالكه ولفقه التعب من القتل الذي كان في عائلته ملك في دوله مسلكا عاد عليها بالضعف والاضمحلال حيث مرضها وقسمها بين اولاده فكادت تصير كلها غنمة للتتار لانهم استعبدوا الموسقو بين مدة مائتي سنة وبعد ذلك اقتذها ايوان باز يليدس من ورطة الرق ووسعها لكون خربت باعدده الحروب الاهلية

وشتان بين الحالة التي كانت عليها دولة الموسقو قبل بطرس الاكبر والحالة التي هي عليها الآن من الشوكة والاراضي المزروعة وكثرة الاهالي والارادات فلم يكن لها قبل بطرس الاكبر شيء باقليم قتلندة ولا باقليم بلاوونيا الذي هو الآن بمفرده احسن من بلاد سبير تمامها بالنظر الى حالتها القديمة التي مكثت عليها زمنا طويلا ولم يكن القوزاق ادراكا تحت حكومة الدولة الموسقوية وكان اهل ازدرهان لا يطيعونها حتى الطاعة وكانت تجارتها اذذاك نهينة لاربع فيها لان البحر الابيض الموسقوي وبحر بلطق والبحر الاسود وبحر اراق وبحر الخرز لم يكن لها وقتئذ تقع بالكلية لهذه الدولة حيث لم يكن لها شيء من السفن اصلا بل لم يكن في لغتهم كلمة موضوعة على الدونغا

فان قيل ان اهم الاشياء للدولة المذكورة حينئذ هو فوقاتها على التتار
والقبائل الشمالية الى بلاد الصين قلنا انها نالت هذه المزية وحظيت بها
وانما كان المهم لها اذ ذلك هو ان تساوى ماعداها من الدول المتحدة
وان يكون لها من القوة ما تفوق به ذات يوم عددها وكان يظهر ان ذلك متعذر
لا يمكن حصوله حيث لم يكن لها في الحارثي من السفن ولم يكن لها اصلا
معرفة بالتعليمات العسكرية برًا و كانت فبريقاتها وورشها ساذجية كاسدة
لا اعتناء لها بالشغل وكانت الزراعة التي عليها المعول في جميع الامور بها قوام
الدولة مطروحة في زوايا الاهمال فكان يلزم الحكومة أن تبذل في ذلك غاية
جهدا فان الاتكالية لا اعتنائهم بامر الزراعة اكتسبوا من محصولات غلالهم
من الغنى والثروة ما لم يكنسبوه من محصولات اصوافهم
ثم ان ممارسة الموسقويين للعرف والصنائع الضرورية لما كانت قليلة بهذه
الثابة دلتناعا على انه لم يكن لهم المام بالقنون المستطرفة التي تكون لازمة
للحكومة ايضا بعد اتقان غيرها وكان يمكنهم أن يرسلوا جماعة من الرعايا الى
البلاد الاجنبية ليتعلموا فيها القنون ولكن كانت مخالفة لسانهم ودينهم
واخلاقهم لمن عداهم مانعة من ذلك بل كان لهم قانون من قوانينهم السياسية
والدينية يتمسكون به ولا يخرجون عنه وان كان مضرا بهم حيث كان يمنعمهم
من الخروج من وطنهم فكانت له كان يوجب عليهم ما يقتضى الإقامة على الجهل
على تداول الازمان وكانت مملكتهم اوسع ممالك الدنيا ومع ذلك كانت خالية
عن كل شئ فما كان يقتضيه الحال يحتاج للاحداث والتجديد فلما ظهر بطرس
الاكبر نسخت صورة بلاد الموسقو وانتظمت في سلك الدول المتحدة
المترفهة.

فما ساعد بطرس المذكور حيث افرد من بين مقننى القوانين بمعرفة الناس
لتاريخه حق المعرفة بخلاف تواريخ غيره كالكثير تيزه ورموس
واصراهما بمن كان دونه في الدرجة وكذلك تواريخ مؤسسى الدول الكبيرة
المتحدة فانك تراها مشوبة بالخرافات الفاسدة والتهابات الكاسدة التي يستبعد هذا

العقل أو يحيلها وأما نحن بصدده الآن فهم من اليقنيات التي لو لم تكن
مفصلة بالأدلة الباهرة والبراهين الجلية لعدت من الحكايات الموضوعة
والخرافات والخرافات.

(الفصل الثالث)

(في الكلام على ليف بطرس الأكبر وجدوده)

كان مبدؤ استيلاء عائلة بطرس الأكبر على القسطنطينية (١٦١٣ م)
من الميلاد وكانت دولة الموسقو قبل ذلك قد اعترتها تغيرات واثقالات
منعت من اصلاح حالها وتهذيب اخلاقها وادخال العلوم والفنون بها
على ما جرت به العادة عند جميع الطوائف البشرية غير أن هذه الاثقالات
المهولة لم يسبق مثلها في دولة من الدول وذلك لان الملك المسمى بوريس غودونوف
قتل (١٥٩٧ م) من الميلاد من كان له الحق في ارث تحت المملكة بموجب
القوانين الملكية وهو دمترى الذي تسميه الفرنسيون ديمتريوس
واستولى على المملكة ببعض الاقبيات والتعدي ثم ظهر شاب من الرهبان سمي
نفسه ديمتريوس وزعم انه نفس الملك المستحق للمملكة وأنه فر من ايدي
من ارادوا قتله وعصده دعواه اللاهيون وجم غفير من كان يبغض الظالمين
اولى الاقبيات فطرد بوريس الظالم المذكور عن المملكة ولبس تاجها بمحض
البهتان والعدوان وبجرد استيلائه على الملك ظهر منه التعصب والتحزب
حيث فعل ما اغضبهم قتلوه فتعاقب بعده على الكرسي ثلاثة ملوك يزعم
كل منهم انه ديمتريوس وهذه الدعاوى الباطلة المتكررة تدل على اختلال
هذه الدولة وعدم انتظامها وذلك ان الناس كلما قل تمتعهم سهل اغراؤهم
وغشهم ولا يخفى ما ترتب على دعوى هؤلاء المزورين من ازدياد اختلال
دولة الموسقو وسوء حالها فان اللاهيين الذين هم اقل من اضرهم نيران القن
بقنصيتهم لاقل مدع انه ديمتريوس توصلوا الى أن صلبوا قريبين جدا
من الاستيلاء على بلاد الموسقو وقسم الاسويحيون جزءا من الدولة
للملك كورة جهة فنلندة بل زعموا ان لهم حق في الكرسي الملكي فتطلبوه

فكانت الدولة حينئذ مشرقة على الخراب والدمار
وفي أثناء هذه المصائب انعقدت جمعية من اكابر الموسقيين (٣١٣هـ)
من الميلاد وانتخب شابا عمره خمس عشرة سنة وقلدته بالمنصب الملوكي ولم يظهر
ان ذلك وسيلة كافية في قطع عرق القنبل والشقاق وهذا الشاب هو
مختاريل رومانوف وهو جد الاميراطور بطرس وابن مطران رستو
الملقب بيلاريت وامه راهبة لها قرابة من جهة النساء اعقدما ملوك الموسقو
ومن المعلوم ان هذا المطران كان من الملتزمين اصحاب الشوكة والقوة
وان الطاغية بوليس جبره على التهرب كما جبر زوجته المسماة شرمستو
على ذلك ايضا والبسها قناع التهرب وهي عادة قديمة عند ملوك المغرب
التصاري الاطنيين واما نصاري الاروام فكانت عادتهم في ذلك قسما عيني
من يتهرب ثم ان الملك دمترى ولي فيلاريت مطرانا على رستو
وأرسله الى مملكة له بوظيفة الحى فسجنه اللاهيون لانهم كانوا وقتئذ
في حرب مع دولة الموسقو ولا غربة في ذلك فان هؤلاء الام كانوا لا يعرفون
مال الدول على بعضها من الحقوق والرسوم وكان انتخاب الشاب رومانوف
ابن هذا المطران ملكا على دولة الموسقو في مدة سجن ابيه ييلاد له
فقدى والده باسرى اللاهيين الذين كانوا عند الموسقويين ونجى فلك سجنه
ولامنه بطرقا وكان هذا الشيخ الهرم هو الملك في الواقع ونفس الامر وانما كان
لايته مجرّد الاسم فقط

فاذا ظهر للناس ان مثل هذه الحكومة يعدم من الغرائب فان زواج القيصر
مختاريل رومانوف اغرب من ذلك لان ملوك الروس باوروبا واسيا
كانوا لا يتزوجون نساء الدول الاجنبية منذ (سنة ١٤٩٠) ميلادية
والظواهر انهم من حين اسبيلاثم على قازان وازدراهان كادوا يتخفون
بجميع اخلاق بلاد المشرق لاسيما في العادة الجارية عندهم من ان الملك
لا يتزوج الا من رعاياه

ومما يشبه العوايد القديمة التي كانت ييلاد المشرق شيها تاما هو ان الملك اذا اراد

الزواج يؤتى الى سرايته بابدع بنات الاقاليم في الحسن والجمال فتتلقاهن سيدة
نساء السراية وتنزل كل واحدة منهن في محل على حداثها وتجمعن
عند الاكل على مائدة واحدة فعند ذلك يشاهدن الملك منكر او غير منكر
وكان يعين لعقد النكاح يوما قبل أن ينتخب منهن من يريد زواجهما اذا جاء
اليوم المعلوم خلع على التي وقع عليها الانتخاب سرا خلع العرس ثم تفرق
ثياب اخرى على باقي البنات ويؤمرن بالانصراف الى منازلهن ولم يقع زواج
ملوك الموسقو على هذا الوجه الا اربع مرات

وعلى الوجه المذكور كان زواج ميخايل رومانوف لادكسا وهي بنت
رجل من البيكرادات كان صديرا الحال يقال له استرسنو فينهاو يشتغل
بزراعة ارضه مع خدمه اذ حضر اليه جماعة من الحجاب ارسلم اليه الملك
بالهدايا واخبروه ان بنته تزوجها الملك ولم يزل اسم هذه الملكة محترما عند
الموسقويين محبوبا لديهم ولا وجود لشي من ذلك في اخلاق الفرنساوية
ومع ذلك فلا لوم عليه حيث انه من الرسوم

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا انه قبل انتخاب رومانوف للتولى على المملكة
انتخب حزب عظيم من بلاد الموسقو الامير لادسلاس بن سيمسوند
الثالث ملك له وكانت الاقاليم المجاورة لمملكة اسوج قد تطلبت التاج
الملوكي لاحد اخوة غسطاوة ادولف فن ثم كانت حالة دولة الموسقو
كالحال التي عرضت كثير البلاد له من ان انتخاب الملك كان يترتب عليه
في هذه الدولة حروب داخلية وقيام الرعية بعضها على بعض غير ان
الموسقويين لم يتأسوا لقط باللاهيين في كونهم يكتبون وثيقة على من ينتخبونه
للتملك عليهم فانهم وان كانوا قد شربوا كأس الظلم والعدوان وذاقوا مضارة
الانهم اتقادوا لهذا الشاب من غير أن يلزمه به شيء يعمل بمقتضاه

ولم يكن تنصيب الملك لادسلاس الموسقو انتحيا لئلا يبق احد من ذرية ملوكها
الاقدمين من المذكور وهلك في الفشل الذي حصل بها اخيرا ستة من ملوكها
المستحقين او المتغلبين عليها اقتضى الحال انتخاب ملك آخر كما سبق ذلك قترتب

على هذا الانتخاب حروب جديدة مع اللاهيين والاسوجيين لان كلامهم كان
 يزعم ان له الحق في الاستيلاء على كرسى دولة الموسقو ومن المعلوم ان من
 اراد الحكم على مملكة من الممالك بدون حق لا تساعده الاحوال على ذلك
 مدة طويلة فان اللاهيين بعد ان اغاروا على الموسقو ووغلوا بيادهم
 حتى وصلوا الى مدينة موسقو ولبوا فنهبوا كما هي العادة في الحروب
 وقتئذ عقدوا مهادنة مدتها اربع عشرة سنة وبموجبها صارت مملكة له
 مستولية على دوقية السمولفسكو الخارج منها نهر الدينير
 واما الاسوجيون فانهم عقدوا الصلح مع الموسقويين وصار اقليم انغريا
 تحت قبضتهم وحرموا المسقويين من التجارة ببحر بلطيق فمن ثم مكنت
 دولة الموسقو مدة طويلة منفردة عن باقي ممالك اوروپا
 وبعدها الصلح مكث ميخايل رومانوف ملك الموسقو حاكما مع الراحة
 والاطمئنان ولم يمرض لدولته من التغيرات ما يفسد ادارتها او يصلح حالها
 ولما مات (سنة ١٦٤٥) من الميلاد ورثه في الملك ولده المسحي
الكسيس ميخايلويتز وهو ابو بطرس وابن ميخايل وكان قد بلغ
 من العمر ست عشرة سنة فتقلد الملك بحق الوراثة والظاهر ان البطرق هو الذي
 كان يضع في ذلك الزمن التاج الملوكي على راس ملوك الموسقو كما هو
 مقتضى بعض مذاهب كنيسة القسطنطينية (اي كنيسة الاروام) ولذلك
 كان يجلس البطرق مع الملك في مجلس واحد ويظهر التساوى بينه وبين
 الشوكة الملوكية

وقد سلك الكسيس في الزواج مسلك ابيه حيث انتخب اطرف البنات
 اللاتي احضرن له فتزوج باحدى بنى رجل من اكابر الموسقو يسمى
ملسكي (سنة ١٦٤٧) من الميلاد ثم تزوج في السنة التي بعدها
 بامرأة نارسكانية وتزوج نديمه المسحي مروسو الثانية من بنى الامير
ملسكي فعلى هذا الايلام مروسو المذكور من الالقاب غير تلقيبه
 بوزير لانه كان مطلق التصرف في هذه الدولة حتى انه ترتب على اتساع قوته

عصيان الاسترليج والرعابا كما وقع ذلك غيرة بمدينة القسطنطينية
وفي عهد ألكسيس حصلت قن داخلية وخارجية سفتت فيها دماء كثيرة
وذلك ان استكورازين الذي كان من رؤساء قوزاق نهر طنايس
اراد ان يتكلم على ازدرهان فاقع القزع في دولة الموسقوز مناطويلا لكن
آل امره الى أن انهزم وقبض عليه وقتل كأمثاله بمن يؤل امرهم اما الى الظفر
بمقصودهم واستيلاهم على التاج او الى ضرب اعناقهم ويقال ان نحو
اثنى عشر الفا من اضراب هذا الرجل شقوا على قارعة طريق ازدرهان
ولما كان اهل هذه الدولة قد طبعوا على الخروج وعدم الاقياد وقلة تهذيب
الاخلاق كانوا يزجرون بالقصاص والعقوبات المهولة التي كان يترتب
عليها الاسترقاق والاصرار على اخذ الثار

وقد سارب ألكسيس اللاهيين فظفر بهم واعقب هذا الحرب صلح اكسبه
الاستيلاء على اسمولنسبو وكيوويا وأوقرينه واما قتاله مع الاسوجيين
فكان طالعه نفسا حيث لم يظفر بهم فلم تزل حدود الدولة ضيقة من جهة
بلاد اسوج

وكان وقتئذ يخشى من الدولة العثمانية فانها اغارت على مملكة له وكانت
تهدد بلاد الايمبراطور بطرس الاكبر المجاورة لتتار القرم فاخذت
(١٦٧١ سنة) من الميلاد مدينة كاميدس العظيمة وجميع ما كان لمملكة
له بأوقرينه ولما كان قوزاق اقليم اوقرينه اذ ذاك يستنهكفون
ان يكون لهم رئيس يتقادون اليه كانوا لا يعرفون يومئذ هل هم اتباع الدولة
العثمانية او اللاهيين او المسقويين وقد طلب السلطان محمد الرابع الذي
اتصر على اللاهيين وضرب عليهم الجزية من الايمبراطور بطرس ان يتخلى له
عن جميع ما يملكه من البلاد باقليم اوقرينه وسلط في طلبه هذا مسلك
ما طبع عليه بنو عثمان من الكبر والتعاضم لاسيما وكانت له النصر والغلبة فابى
بطرس ان يجيبه لما طلب وسلط في الابهاء ما سلكه السلطان في الطلب من الكبر
والتعالى وكان الناس يومئذ لم يصلوا الى درجة كونهم يستترون في كبرهم

بما يدل على الاحترام والاعتناء وذلك ان العليان المذكور خاطب امير بطور
الموسقو في الرسالة التي ارسلها اليه في هذا الشأن بما معناه ينهى الى الصلح
النضاري من حضرة صاحب الشوكة سلطان سلاطين العالم وخاقان خواقين
الامم سلطان البرين وخاقان البحرين فما كان جواب الامير بطور بطرس
الآن قال كذا وكذا ما معناه لا يليق بي ان اتفاد لك من كلاب المسلمين
وان حسامى كحسام هذا السلطان حدا وجوها

ثم ان الكيس عزم على نية يتراى منها انه سيكون لدولة الموسقو ذات
يوم شوكة باوروبا النصرانية وذلك انه ارسل رسلا للبابا واغلب اكابر ملوك
اوروبا ما عدا مملكة فرنسا لانها كانت وقتئذ متعاهدة مع الدولة العثمانية
يدعوهم جميعا الى التعصب والتحزب معه على الدولة المذكورة فلم ينجح رسله
في ذلك بمدينة رومة وانما حصل لهم الاكرام بكونهم لم يقبلوا اقدام البابا
وبذلهم منه دعوات صالحة لا تجدى شيئا ولما كان بين ملوك النصراني
يومئذ نزاع وتفاقم لم يمسكهم التحزب على الدولة الاسلامية المعادية للمل
النصرانية وفي (٦٧٤ سنة) من الميلاد امتنع اللاهيون من دفع الجزية
للدولة العثمانية فشرع السلطان في تهديدهم بالتغلب على بلادهم فاعانهم عليه
الامير بطور الكيس والبطرس الاكبر من جهة بلاد القرم وقد طهر
جنرال الدولة المسمى حناسويسقى ما كان قد لحق وطنه من الدنس
بسفك دم الاتراك في واقعة كوكزيل الشهيرة وتلك الواقعة هي التي قعته له
طريقا وصل منها الى المجلس على سرير مملكة له فتنازعه في ذلك
الكيس المذكور وطلب ان يضيف ممالكه المتسعة الى مملكة له كما اضاف
الباجوليون اليها دوقية لاسونيا ولكن لم يفز من مطالبه الجسيمة
الا باليسبرو وكان الكيس جديرا بالاستيلاء على هذه المملكة الجديدة اعنى
مملكة له نظرا الى ما كان يسلكه في حكم ممالكه ومسياستها من الطرق
المستحسنة فانه اقل من وضع دستور للشرائع والقوانين وان لم يف بجمع
الاحكام وأدخل في ممالكه صنائع الاقنعة والحريروان كانت في الواقع

ونفس الامر لم تمكث زمنا طويلا لكن يكفيه فضلا وشرفا كونه انشأ ذلك
وجده وقد عمرو أهل الاماكن القفرة القريبة من نهري الانل وكاما
حيث انزل بها قبائل لسيانية ولاهية وتتارية كان قد اسرهم في غزواته معهم
وكانت العادة في الزمن السابق ان الاسارى يكونون ارقاما لمن وقعوا في اسره
فلذلك جعل الكسيس من اسرهم لزراعة الاراضى وبذل جهده في ادخال
التربية العسكرية في جيوشه وبالجملة فهو جدير بكونه والد بطرس الأكبر
غير انه لم يكن معه فسخة من الزمن يكمل فيها ما بدعه في مملكته بل مات ولم يطل
عمره حيث اخترمته المنية وله من العمر ست واربعون سنة وكان ذلك في اوائل
(س١٦٧٧نة) ميلادية حسبا تقتضيه التقويمات الفرنسية التي تزيد
على التقويمات الموسقوية احد عشر يوما

وبموته اختل نظام الاشياء كلها وكان قد أعقب من اول زوجه له ولدين وست
بنات فتزوج بتاج الملك ولده الأكبر المسمى فدور وكان عمره اذ ذاك خمس عشرة
سنة وكان ضعيف البنية كثير الامراض الا ان فضله كان لا ينزل على ضعف
جسمه وكان والده لكسيس قبل موته بسنة قد جعله ولي عهده وهذه العادة
كانت جارية عند ملوك فرنسا واستمرت من عهد هوغن كاييت الى
لويز الشاب وغيرهما من الملوك

واما ولده الثاني المسمى ايوان ويقال له جان اي حنا فقد نقص
الامر عليه حياته وكثر عيشه اكثر من اخيه فدور فانه كاد يكون اعمى
ابكم ضعيف البنية جدا لانه كان يعتره داء التشنج في اغلب اوقاته وامما البنات
الست فكان اشهرهن باوروبا الاميرة صوفية التي امتازت على غيرها
بفطنتها ووفور عطلها واشتهرت بذلك لكنها اشتهرت ايضا بشهرة اخرى غلبت
عليها وهي انها ارادت اضرار بطرس الأكبر

وكان لكسيس زوجة اخرى غير زوجته وهي بنت احد عماله حاكم
نارسكان اعقب منها بطرس والاميرة تناليا وكانت ولادة بطرس
المذكور في ٣٠ من شهر ايار الافرنجي (سنة ١٦٧٢) من الميلاد

على حسب التقويم القديم واما اذا نظرنا الى التقويم الجديد فتكون ولادته
 في اليوم العاشر من شهر حزيران فعلى هذا يكون عمره وقت موت والده
 اربع سنين وستة اشهر ولكن كان اولاده من المرأة الثانية غير محبوبين عند
 الناس فكان لا يخطر ببال احدان بطرس يتولى مملكة الموسقو
 وكانت عاتلة رومانوف ترغب دائماً في تهذيب اخلاق الدولة وتمتيعها
 كما هو دأب قدور فقد اسلفنا لك عند الكلام على مدينة موسقو انه
 احب ان اهلها على بناء عدة بيوت من الحجر ووسع هذا الخفت ويقال انه ادخل فيه
 بعض قوانين تتعلق بالضبط والربط والسياسة العمومية لكن لما اراد النقص
 والابرام في امر آدولته غضبوا منه ولم يقبلوا منه صرفا ولا عدلا ولم يكن له
 من المعارف والهمة ما يكفي في التصميم على احداث تغيير عام في الدولة لاسيما
 وكان الحرب اذ ذلك الحاصل بينه وبين الدولة العثمانية وفي الحقيقة انما كانت بينه
 وبين تاتار القرم ولم تظهر النصره لهم فكان لا يمكنه التصدي لمثل هذا
 المشروع الجسيم خصوصا وقد كان ضعيف البنية وقد تزوج كسلافه بامرأة
 من رعايه كان اصلها من ضواحي مملكة له فلما ماتت بعد مضي سنة تزوج
 (سنة ١٦٨٢) من الميلاد مرت ماتيونا بنت ابركسان كاتب سره
 وبعده ذلك بعدة اشهر مرض مرضا افضى به الى الموت ولم يعقب ذرية
 وحيث كان ملوك الموسقو يتزوجون النساء من غير ان يلتفتوا لحسبهن
 ونسبهن كان يمكنهم ان ينتخبوا من يتولى على الدولة من غير ان يلتفتوا ايضا
 الى درجات السن (وان لم يكن جرى عندهم العمل بذلك في زمن من الزمان
 فلا اقل من ان يعملوا به في هذا الوقت لتعدد النسل المملوكي) فكانما كانت
 درجات النساء وولايه للعهد عندهم ثمرة الفضل والمعرفة وبهذا كانت دولة
 الموسقو تفوق غيرها من الدول المتحدثة

وفي شهر نيسان (سنة ١٦٨٦) ميلادية حين راى قدور قبل وفاته
 ان اخاه المسمى حنا او ايوان لا يصلح للحكم لما كان قائما به من الامراض
 اوصى بوراثه المملكة لاختيه الثاني بطرس ولم يكن له من العمر لئذ ذلك

الاعشرين ومع ذلك كانت له مقاصد عظيمة وآمال جسيمة
وكان العادة في بلاد الموسقو من ان ملوكها يتزوجون من رعاياهم كانت
ملايعة جدا لمزاج النساء كان هناك عادة اخرى صعبة جدا وهي ان بنات الملوك
كان يندرن في ذلك الوقت زواجهن فكان اغلبهن يقضى حياته بالترهب
في الادبار

وكانت الاميرة صوفية التي هي نائلة بنات اول زوجة للملك الكسيم
ذات قريحة عالية وذات خطر عظيم على المملكة فلما علمت ان اخاها فدور
لم يبق من حياته الا مدة قليلة خرجت من التره ورات ان اخويها لا يمكنهما
الحكم لعدم صلاحية احدهما له ولصغر سن الاخر فعزمت على أن تأخذ
بزملم الدولة وارادت في اواخر عمر الملك فدور أن تصنع باخيا بطرس
ما صنعت به بلشير سابقا مع اخيها الايمراطور تبودور او تاودسيوس
من اثرا كماله في الحكم

(الفصل الرابع)

في الكلام على اوان واخيه بطرس والقننة التي احدثها

وجاق الاسترليج

لما مات فدور وجلس على سرير الملك بطرس وكان عمره اذ ذاك
عشر سنين وحرم الاخ الاكبر من التاج واخذت اخنهما صوفية تضرع
نيران الدسائس والفتن وقع في وجاق عساكر الاسترليج قننة كبيرة سفكت
فيها دماء كثيرة ولم يقع قط قديما ولا حديثا من وجاق الخفر البريطورياني
ولامن الانكسارية من الخسونة والتبرير مثل ما وقع من هؤلاء الاسترليج
في هذه القننة وذلك انهم بعد مضي يومين من جنازة الملك فدور اسعوا
متسلحين الى السراية الملكية المسماة كيرمينا واخذوا يتشكون من تسعة
انخاص من امراء الالات بانهم لم يدفعوا لهم من تبهم على التمام فاختضى
الحلل عزل التسعة المذكورين ودفع الدراهم التي طلبها الاسترليج فلم يكنفوا
بذلك بل ارادوا أن يسلم لهم في هؤلاء الضباط فاجبوا لذلك وحكموا عليهم

بما اقتضته آراء الجمهور منهم وهو أن يعاقبوا بالعقاب المسمى بالوثغ
ولنذكر لك كيفية هذا العقاب فنقول

كيفية أن يجرد المرء عن ملابسه ويلقى على بطنه ويقوم جلادان فيضربانه
على ظهره بالدبابيس حتى يقول الحاكم كفى ولم يكتفوا بمعاقبتهم بذلك بل جبروا
بعد الفراغ على أن يأثوا بما يدل على شكر عساكرهم كما هو العادة الجارية
عند المشرقيين في شأن المذنبين من انهم بعد العقاب يقبلون ايدى حكامهم
وزيادة على ذلك دفعوا مقدارا من الدراهم للعساكر المذكورين وكان هذا
زيادة على العادة الجارية ببلاد الموحدين في ذلك الوقت

وبينما كان هؤلاء الاسترليج قد شرعوا في القاء الرعب في قلوب الخلق كانت
الاميرة صوفية تخرضهم سرا على الازدياد في الذنوب والقبائح وجمعت
عندها جمعية من الاميرات اللواتي كن من العائلة المالكية ومن جنرات
الجيوش والحكام والبطارقة والاساقفة بل ومن اعيان التجار وأبدت لهم
ان الامير ايوان لكبرسنه وفضله هو الاحق بالحكم على المملكة وهي في الواقع
نوذ أن يكون زمام المملكة بيدها ولما انقضت مذاكرة هذه الجمعية وعدت
الاسترليج بزيادة مرتباتهم واتحافهم بالهدايا النفيسة وكان لها رسل
يطوفون على الاحزاب فانار واغضب هؤلاء العساكر على عائلة نارسكان
خصوصا على اخوى الملكة الشابة الارملة والدة بطرس الاكبر وقد بلغ
الاسترليج ان احدهذين الاخوين المسمى حنا اخذ ثوب الملك بطرس
وجلس على سرير الملك واراد أن يخنق الامير ايوان وان بعض اشقياء حكاء
الفلنك المسمى دايال ونقاد قد سم الملك قدور وبالجملة فقد اعطت
الاميرة صوفية للاسترليج دقرا مستملا على اربعين شخصا من المتزمين
وعمت انهم اعدوا لها واعداء الدولة وأنه ينبغي ذبحهم ولا شك ان ذلك افزع
واشد مما وقع من سيلا وقضاة رومة الثلاثة وقد فحما نحوهم في هذا الامر
الشنيع الملك خرسترن الثاني بدانيرقة واسوج ويؤخذ من ذلك
ان مثل هذه الامور المستبشرة قد حصل بجميع البلدان في ازمان القن

والتعكيرات

والنعمكرات وخلق الاول عن يحكمهما ويقوم بادارة مصالحهما
فالتى كل من الاميرين دلفروفي ومافو من الشبايك فتلصقهما
الاسترليج على اسنة رماحهم وجردوهما مما كان عليهما ومحبوهما
الى الميدان الاكبر وبادروا بدخول السراية فوجدوا بها احد اخوال الملك
بطرس وهو انتاز نارسكان اخو الملكة الشابة والدة بطرس فذبوه
وقصوا قهرا ابواب الكنيسة المحاورة للسراية وكان بها ثلاثة رجال ملتجئون
فاخرجوهم من محاريبها وسلبوا ما كان عليهم وصاروا يضربونهم بالمدى
حتى هلكوا

ولشدّة غضبهم وحبيبتهم عبت بصائرهم حتى انه مر عليهم امير شاب من عائلة
سليتكوف التى كانوا يحبونها ولم يكن مكنوفا في دقمة الحكموم عليهم بالقتل
فاعتقد جماعة منهم ان هذا الشاب هو حنا نارسكان الذى كانوا يحبون عنه
فبادروا بقتله ومايدلنا على اخلاق اهل ذلك الزمن كون هؤلاء العساكر
لما تبين لهم خطاؤهم في قتل هذا الشاب وانه ليس هو بجنا نارسكان الذى
كانوا يحبون عنه حملوا جثته الى ابيه ليدفنها فكافأهم والده السيء الحظ
على كونهم حملوا اليه جسيم ابنه الملوّث بالدم عوضا عن كونه يتشكى ويتظلم
منهم فلامته زوجته ببناته وزوجة ولده على هذا الضعف فاجابهن هذا الشيخ
المهرم بقوله لنصبر حتى يأتى زمن الانتقام فلما سمع ذلك جماعة من استرايج
دخلوا عليه اوضته وقبيلغ منهم الغضب منتهاه وجذبوه من شعره وذبحوه
على باب داره

وذهبت جماعة اخرى منهم الى سائر الاماكن يبحثون عن الحكيم الفلنكى
المتقدم فقبلوا ولده في الطريق فسأوه عن والده فاجابهم وقد داخله الرعب
والفرع عبقوله لا ادرى عند ذلك ذبحوه ووجدوا حكيم آخر فساووا قتلوا
لث حكيم فان لم تكن سميت ملكا فدور قد سميت كثيرا غيره فانت مستحق
للموت وقتلوه في الحال وصارى الامران وجدوا الحكيم الفلنكى الذى كانوا
يبحثون عنه وكان متكررا في صفة شحاذا فصبوه أمام السراية فابصره

الاميرات اللواتي كن يحبين هذا الرجل الجليل القدر ويثقن به فطلبن له العفو
منهم واخبرنهم بانه كان في الواقع حكيمًا ما هرا سلك في معالجة قدور اخيه
احسن الطرق فاجابهن الاسترليج بانه ليس مستوجبا للقتل بوصف كونه
حكيمًا فقط بل بوصف كونه ساحرا ايضا وذلك لانهم وجدوا عنده ضغدة
كبيرة يابسة وجلد ثعبان وقالوا ايضا انه لابد أن يسلم لهم الشاب
ايوان نارسكان وكانوا قد بحثوا عنه منذ يومين فلم يبقوا له على اثر وجزعوا
بانه متوار في السراية وانه ان لم يسلم لهم يوقدوا النار بها فقامت اخت
ايوان نارسكان المذكور وقام معها الاميرات الانروهن في وجل شديد
وذهبن الى المحل الذي كان به ايوان المذكور فدنا منه البطرق وتلاعليه
ما يقال في الاعتراف ومسحه المسحة المقدسة ثم اخذ صورة العذراء التي كانت
عندهم بمنزلة خوارق العادات وناولها اياها فتقدم الى الاسترليج وكشف لهم
عن تلك الصورة والاميرات حوله في البكاء والنحيب جاثيات أمام العساكر
ويتوسلن اليهم بالعذراء في العفوعن قريهن فخذبه هؤلاء العساكر من ايديهن
حتى اتوا به تحت السلام مع ونفاد الحكيم وعقدوا في شأنهما مشورة
وكان لاحدهم معرفة بالكتابة فكتب قضيتهمما وحكموا عليهما بانهما يقطعان
بالبلط اربار باراكما هو عادة اهل الصين والتتار فين قتل اياهما ومن له
الفضل عليه ويسمونه عقاب عشرة الآلاف قطعة فبعد أن عوقب
نارسكان وونفاد بهذا العقاب رفعت رؤسهما وارجلهما وايديهما على اسنة
حديد درابزين كان هناك

وبينما كان بعض هؤلاء العساكر يشي عليه أمام الاميرات كان البعض الاخر
مشتغلا بلذيق من كان عدوا له ومن كانت صوفية نسي بهم الظن
وفي شهر حيزران (١٦٨٢هـ) ميلادية انتهت هذه العقوبات الموهولة
بجعل الاميرين ايوان وبطرس ملكين واختهما صوفية شريكة لهما
في الحكم بطريق الوكالة فاستصوبت حيثنذ جميع ما فعله العساكر من تلك
الذنوب والجنايات وكافأتهم على ذلك وضبطت جميع اموال المتولين

واملاكمهم

واملاكم واعطتها للاسترايح بل واذنت لهم بتشييد عمارة يتقشون عليها
جميع اسماء من قتلوا عقابا لهم في نظير خيانتهم لوطنهم واعطتهم مكاتيب مخنومة
تضمن شكر صنيعهم على غيرتهم وامانتهم

(الفصل الخامس)

في استيلاء الاميرة صوفية وفي المشاجرات الدينية

الغربية وفيما حصل من التعصبات والفتن

يؤخذ مما ذكرناه ان الاميرة صوفية استوت على كرسي دولة الموسقو
يلوغها درجات عديدة من غير أن تباع على المملكة ولا يخفى ايضا ما كان نصب
عين بطرس الاكبر في مبدء امره فقد حظيت تلك الاميرة بما يكون للملك
من انواع التشریف والفخار حيث كان تمثالها يرسم على المعاملة وكان
امضاؤها يكتب على جميع اوامر الدولة وكان لها اول موضع في مجلس المشورة
وصار لها الكلمة العليا وبت الاحكام وكانت بمكان من الفطانة والبراعة
وكانت كاتبة شاعرة فصحة ذات منظر جميل ووجه حسن ازدادت به معارفها
بهجة غير أن طمعها كان سببا في ذهاب همتها

وقد تزوجت اخاها ايوان على حسب العادة التي تكلمنا عليها فيما سبق فانه
تزوج بنتا سلتيكوفية اى من عائلة سلتيكوف الذي قتله الاسترايح
وكانت تلك الفتاة بمدينة في وسط بلاد سير لان والدها كان محافظا في قلعة
هناك فانتخبت لتقدم الى الملك ايوان بمدينة موسقو فغلب بها
على سعي اقربائها من البنات في زواج هذا الملك وكان زواجهما (سنة ١٦٨٤م)
من الميلاد فكانتا في تاريخ زواج كل ملك من ملوك الموسقو تقرأ تاريخ

اسم روس ملك العجم اوتاودسيوس الثاني قيصر الرومان

وفي اثناء هذا العرس اثار الاسترايح فتنة جديدة تتعلق بالعقائد الدينية
ومن ذا الذي يخطر بباله ان مثل هؤلاء يقع منهم فتنة في هذا الشأن ولو كانوا
محتردين عساكر لما تيسر لهم أن يجادلوا في الدين لكنهم كانوا ايضا اهالي مدينة
موسقو كابناء البلد فلا غرابة في ذلك فانه من داخل بلاد الهند الى اطراف

بلاد أوروبا كان كل من نجاس من النصارى وألقى هيته في قلوب العوام
 اخترع مذهبا كما هو معهود في سائر الأزمان لاسيما من حين ما صار باب
 الجمعية الدينية سلاحهم الدين وصار اهل الصحافة والغفلة اسرآ التقليد
 فقد حصل عدة قن ومشاكرات يبلاد الموسقو حين وقع النزاع في رسم
 الصليب هل يكون بثلاثة اصابع او باصبعين وكان اذ ذلك رئيس من رؤساء
 القيسيين يقال له ابا كوم احدث مذهبا بمدينة موسقو فاجتهد
 في تفسير روح القدس الذي به تستضي قلوب المؤمنين بعيسى عليه السلام
 وفي مساواة اهل الصدر الاول من ابناء النصرانية وعدم الترجيح بينهم
 وفي تفسير قول سيدنا عيسى عليه السلام في ذلك الوقت يكون لا قول ولا آخر
 (في ١٦ من شهر تموز سنة ١٦٨٢ من الميلاد) فقلد جماعة من الالهالي
 ومن الاسترايج قول ابا كوم المذكور فغظمت احزابه وكثرت اصحابه
 وكان رئيس هذا المظاخرة يقال له رسبوب وكان من امرهم انهم وصلوا الى
 الكنيسة الكبرى التي كان البطرق وجماعته يقومون فيها بالواجبات الدينية
 وصاروا يرمونهم بالحجارة حتى اخرجوهم منها واطعموا فيها بدلا عنهم لينزل
 عليهم روح القدس وكانوا يلقبون بالبطرق بالتب المفتال في الزريرة وكانت
 الطوائف القيسية دائما تلعب بعضها بهذا القلب فيادر بعض الناس
 الى الاميرة صوفية والملكين اخويها واخبرهم بما وقع من الخلل وبلغ باقي
 الاسترايج الذين كانوا يعضدون مذهب الجماعة ان العاتلة الملوكية والكنيسة
 في خطر عظيم فحضروا وانضموا الى الالهالي الذين كانوا من حزب البطرق
 للطرود واخذوا يقاتلون حزب ابا كوم ثم بطل القتال بين الفريقين
 وانحط الرأي على عقد مشورة قيسية في هذا الشأن فاجتمعت القسوس فورا
 في ديوان كبير من السراية الملوكية من غير ان يكون في ذلك عسر لانهم كانوا
 يحضرون بها كل من حادفوه من القسوس فاخذوا البطرق وبعض القسوس
 يشاطرون رسبوب ويجادلونه ويبرهنون على بطلان مذهبهم وانه معتزل
 لا اعتداله به وعند اتهامه ثانی برهان صاروا يرجون بعضهم بالاجار على

وجوههم

وجوهم ثم انتهت الجمعية بضرب الحناق رسيوب وجماعة من اصحابه
الذين كانوا على عقيدته ورأيه وكلن ذلك باوامر الملوك الثلاثة صوفية
وايوان وبطرس

وفي مدة هذا الفصل كان هناك امير يسمى كونسكوا وكان من سعي
في تولية الاميرة صوفية فطلب ان تكلمته على هذا السعي بأن تشركه
معها في المملكة فلم ترض بذلك ونجابه فيها ومن يومئذ دخل في زمرة
اصحاب رسيوب وحترض جماعة من الاسترليج والاهالي على الخروج
بالعصيان زاعما ان ذلك لمحضر وجه الله عز وجل فاضطربت نيران الفتنة
الكثيرة بما كانت عليه مدة حياة رسيوب صاحب هذا المذهب وذلك لان
من المعلوم ان المناقح الطامع يسلك في اموره مسلك الافراط والتغالي اكثر
من الشد في الدين فان كونسكوا لم تنقطع آماله من تطلب الدولة
والاستيلاء عليها وليكون مأمون العياقة بحيث لا يخشى عروض شيء
يعكر عليه في المستقبل عزم على ذبح الملكين واختهما والاميرات الاخر اللاتي
من نخذ المملكة وجميع من كان يلوذ بالعائلة المالوكية فاضطر كل من الملكين
والاميرات الى الالتجاء بدير هناك يقال له دير الثالوث وهو على البعد من
مدينة موسقو باثني عشر فرسخا وكان ديرا وسراية وقلعة في آن واحد
ك بعض اديار بهذه المثابة من اديار نصارى الملة اللاطينية وكان ذلك الدير
معدا لخصوص كبار الرهبان ويكتنفه خنادق متسعة واسوار مبنية بالآجر
وموضوع عليها مدافع عديدة وكان لرهبان هذا الدير حوله من الارض
اربعة فراسخ فلما التجأت اليه العائلة المالوكية صارت آمنة مطمئنة بتحصينه
اطمئنانا عظيما وكذلك بنو قها يبركته وكان ذلك (سنة ١٦٨٤) من الميلاد
وقد تداولت الاميرة صوفية مع كونسكوا المذكور في شأن المصلحة
وهي مقبلة في ذلك الدير وخادعته حتى اذا بلغ نصف الطريق امرت بضرب
عنته وغنق احد اولاده وسبعة وثلاثين رجلا من الاسترليج كانوا معه
فلما بلغ الاسترليج هذا الخبر تسطعوا وتأهبوا للهجوم على دير الثالوث

وكان يترأى من حالتهم وقتئذ انهم يريدون تدمير الدولة عن آخرها ومحو اثرها
بالكلية فحصدت العائلات المملوكية وسلخ اكابر الدولة اتباعهم ونسابق الى ذلك
الاكابر والامراء افواجا فافوا فوقع حرب داخلية مهول سفكت فيه دماء كثيرة
الا ان البطريق اخذ يسكن غضب الاسترليخ لاسيما وكان قد ادى لمقاتلتهم
جيوش عديدة من سائر الجهات فداخلهم الرعب والفرع وفترت همهم
فتبدل غضبهم خوفا ثم آل امرهم الى الطاعة والانقياد ومثل هذا التغيير امر
عادي لا خلط الناس المتجمعة وصورة الانقياد ان ثلاثة آلاف واربع مائة
من الاسترليخ تطوقوا حبلا ونساءؤهم واولادهم خلقهم وتوجهوا على
هذه الحالة الى دير الثالوث مع انهم كانوا قبل ذلك ثلاثة ايام يريدون حرقه
فذهب هؤلاء الاشقياء الى الدير المذكور مرتين اثنتين اثنتين ومع كل واحد منهم
باطة وقرمة من الخشب فلما وصلوا اليه خروا سجدا بظهورون الطلعة والامثال
وصاروا ينتظرون صدور الامر بتعذيبهم ففنى عنهم وعادوا الى مدينة
موسقو ينشون على ملوكهم الثناء الجميل مع العزم على تجديد الخروج
عن الطاعة عند الفرصة

وبعد هذه التقلبات صارت الدولة آمنة مطمئنة لا تخشى سطوة الدول
الاجنبية ولم تزل الامة صوفية الكلمة العليا في الدولة وتحت عن
ايوان لعدم صلاحيته للمنصب المملوكي وقصرت وكالتها ووصيتها على
بطرس وادخلت في الحكم معها الامير بازيل غالتزين طلبا لاردياد
صولتها وتقوية شوكتها وجعلته سر عسكر ومدبر الدولة وامين المهر وكان
ابرع ديوان الموسقو في كل فن وكان مؤتذ باظريفه لا يتشبث الا بالمعالي
وعظائم الامور وكان اعلم اهل الموسقو فاطبة لانه تربى تربية احسن من
تربيتهم بل كان له معرفة باللسان اللاتيني مع انه اذ ذاك كاد يكون مجهولا
بالكلية في بلاد الموسقو وكان دائما شغال الفكرة كثير الاجتهاد فاق اهل
عصره بقرمحه وفضلهم بذكائه وفطنته وكان له اقتدار على تغيير صورة بلاد
الموسقو لو وجد من الفرضة والشوكة ما يكون على طبق مرامه وبغيتهم

وقدمدحه بذلك لانويل وكان اذ ذاك الحيامن بلاد له الى بلاد الموسقو
وقد جرت العادة ان مدح الاجانب لانسان يوثق به اكثر من مدح ابناء جنسه
وملته

وهذا الوزير هو الذي قمع الاسترليج واذلهم حيث وزع اصحاب الفتنة
والعصيان منهم على الجنود التي كانت يومئذ باقليم اوقرينة وقازان
وسبير وفي مدة وزارته نزل اللاهيون للدولة الموسقوية عن جميع حقوقهم
في اقليبي اسمولنسكو واوقرينة الكبيرين وكان ذلك (سنة ١٦٨٦)
من الميلاد وهو اول من ارسل الجية الى بلاد فرنسا (سنة ١٦٨٧)
ميلادية وكانت هذه المملكة قد مضى عليها عشرون سنة وهي في فخار عظيم
بسبب فتوحات لويز الرابع عشر وما لبده فيها من المباني الجديدة وغير ذلك
خصوصا باستكمال الفنون فيها فانها لولا ذلك لكان عظمها خاليا عن
الفخار ومزيد الاعتبار والى ذاك الوقت لم يكن وقع بين دولة فرنسا ودولة
الموسقو تعارف قط بل كان الفرنسيون يجهلون هذه الدولة فاشهرت
جمعية الانوار القديمة بالديار الفرنسية تلك الارشاليات حين قدومها
بشبان فخار على صورة النقود مكافاة لها حتى كاثنتها قادمة من بلاد الهند
القاصية عنهم لكن مع ذلك فالالجي دلغروكي الذي كان رئيس الارشالية
المذكورة خابت آماله ولم يخرج فيما ارسل بصدده بسبب اسامة سلوك خدمه
واتباعه في هذه البلاد وكان الاولى للدولة الفرنسية ان تغضي عما وقع
من هؤلاء الناس ببلادهم من الامور المخلة ولكن كان لا يخطر اذ ذاك ببال
ارباب ديوان لويز الرابع عشر ملك فرنسا ان دولتي الموسقو وفرنسا
يأتى عليهما زمن يكون فيه ايقاع الالفة والتعاهد بينهما يعود عليهما
بالمنفعة

وكانت دولة الموسقو اذ ذاك خالية من الحروب الداخلية وكانت حدودها
لم تنزل ضيقة من جهة بلاد اسوج ومتسعة من جهة بلاد له التي كانت
قريبة عهد جمعاهدتها وكانت ايضا لم تنزل في النزاع والمخاصمة مع تار القرم

وفي القشل والشقاق مع دولة الصين في شأن الضواحي والرساتيق
وبما كانت تأباه هذه الدولة ولا تطيقه مما يدل على انها كانت الى ذلك الوقت
لم تصل في حسن السياسة والانتظام الى الدرجة القصوى هو ان خان تشار
القرم كان يطلب منها جزية سنوية يبلغ مقدارها ستين ألف رطل
كما ان الدولة العثمانية ضربت على مملكة له جزية مثلها
وبلاد تشار القرم هي عين خرسونيز توريك المشهورة سابقا بمخالطة
اليونان وخرافاتهم وهي مملكة خصبة الا ان اهلها لم يزالوا على التوحش
والخشونة وانما اقبوا بالقرم نسبة الى سلف خاناتهم اى ملوكهم حيث كانوا
يلقبون بلقب قريم قبل أن يفتحها اولاد جنكيز خان (سنة ١٦٨٧)
و (سنة ١٦٨٨) من الميلاد وقد ذهب ذلك الوزير الاكبر الذي
هو غالتزين بنفسه يقود جيشا جزارا الى بلاد القرم ليطهر الدولة
الموسقوية مملحتها من الدنس والعار بضرب الجزية عليها وكانت جيوش
تلك الدولة في ذلك العصر لا تشبه في شئ الجيوش التي يبلاد الموسقو
في عصرنا هذا فانها كانت خالية عن التربية العسكرية والضبط والربط وعن
الالايات الجيدة التسليح ولم يكن للعساكر طقوم الاى بل لم يكن عندهم اتحاد
ولا انتظام في الملابس ولما كانوا في الواقع ونفس الامر متعودين على الشغل
ومكابدة مشاق المنجصة والمجاعة لكن كان يرى معهم كثير من المهمات
العسكرية التي لا يوجد مثلها في جيوش عصرنا هذا ذات الزخرفة والرفاهية
ولما كانت عرباتهم التي حملوا عليها مهماتهم ومؤوناتهم الى هذه البلاد الخربة
والبوادي كثيرة جدا اضرت بمشروعاتهم في شأن بلاد القرم المذكورة
وذلك انهم لما وصلوا الى البرارى المتسعة على نهر سامار لم يجدوا مخازن
يضعون فيها ذخائرهم ومهماتهم وقد فعل غالتزين في هذا البرارى بحسب
الظن ما لم يسبق لغيره في اما كن أخرى فانه استعمل ثلاثين ألف رجل في بناء
مدينة على النهر المذكور ليجعلها مخزنا لمواد غزوة اخرى وكان تمام بنائها
بعد مضي سنة وثلاثة اشهر وكانت كلها من الخشب ماعدا بيتين من الآجر

وكان مضرو باحولها اسوار من الخشاش ومع ذلك وضع عليها مدافع وضعا
 جيدا بحيث تمكن المدافعة بها وهذا ما وقع من الامور الغريبة في هذه الغزوة
 التي ذهب من اجلها امور كثيرة ومع ذلك فلم تزل صوفية ملكة ولم يكن
 لا يونان من الاقارب الاكلة چار فقط وكان عمر بطرس آنذاك
 سبع عشرة سنة وكان اهلا لان يكون چارا وفي ذلك الوقت كان رسول
 حاكم له السمي لانوئل قاطنا بمدينة موسقو وكان مشاهدا لما كان
 يقع فيها فزعم ان صوفية والامير غالتزين جبار رئيس الاسترايخ
 الجديد على قتل الجار الشاب لاجلهم ما ولم يتحقق ذلك وانما الحق ان ستمائة من
 طائفة الاسترايخ كانوا مومنين بالقبض عليه وما وصل الى من ديوان
الموسقو من اللوائح السرية يدل على ان الجماعة للذكورة قد كانت متبينة
 لقتل بطرس ولو وقع ذلك الامر الذي كاد أن يقع لحربت بلاد الموسقو
 الى الابد من الخيرات العظيمة التي عرضت لها مدة حكمه فصار بطرس المذكور
 مجبورا على ان يلجئ في دير الثالوث وهو المجلأ الذي جرت العادة بالهروب
 فيه لمن كانت تهدده العساكر الغير المنتظمة من العائلة الملكية وأحضر
 بهذا الدير ارمي آه حربه من الموسقويين وجمع فيه ايضا عساكر غير منتظمة
 وتكلم مع رؤساء من الاسترايخ ودعا اليه جماعة عساوية كانت قاطنة بمدينة
موسقو منذ مدة طويلة وكان كل يميل اليه لذاته ولانه كان يواسي الغرباء
 ويؤدهم ثم تفاوض معهم في هذا الشأن واما صوفية و ايوان فكانا
 مقيمين بمدينة موسقو وتبايعا مع وجاق الاسترايخ على ان لا يتخونوهما
 ومع ذلك فبطرس الذي كان يشك من قصد تعدي الاسترايخ عليه وعلى
 والدته ومنعه حقه اتصر على الاميرة صوفية واخيها ايوان الذي كان
 منظره مستتبعا تفر منه القلوب وعوقب جميع المذنبين باشد العقوبات
 الجارية وقتئذ تلك المملكة كما ان التعدي والاعتصاب كان ايضا جاريا
 ومتواترا عندهم فقام من ضربت عنقه بعد ان قاسى المحن بالضرب بالاسواط
 على ظهره كما فعل برئيس الاسترايخ ومنهم من قطع لسانه وهم الذين كان

يظن ان لهم دخلا في تلك الفتنة
واما الامير غالتزين فكان له قريب بجمعية بطرس فلذا فاز بالنجاة لكن
سلبت جميع امواله الجمة العظيمة ونفي الى محل على طريق ارخبجل وكان
لانويل رسول الالهيين حاضرا ذلك الهول الشديد فقال ان الامر الذي
صدر لغالتزين بالنفي نصه قدامه لاجار الرؤف الرحيم بان تنتقل الى كرغا
وهي مدينة بالقطب الشمال وتتمكث فيها مدة حياتك واقتضت شفقتي
أن رتب لك على سبيل الانعام ثلاثة صليبات في كل يوم (خمس عشرة بارة)
انتهى

وقوله بالقطب غير مسلم فانه لا يوجد بالقطب مدن اصلا واما مدينة كرغا
التي ذكرها فهي في الدرجة الثانية والستين من العرض وابعدها من مدينة
موسقو جهة الشمال بست درجات ونصف قالذي نطق بهذا الحكم
جاهل بعلم الجغرافيا وبمعرفة اوضاع الاماكن وقيل ان لانويل وقع
في الخطا بناء على اطلاعه على عبارة غير صحيحة
وقصارى الامران الاميرة صوفية بعد ان حكمت مدة طويلة اعادوها
الى ديرها بمدينة موسقو وهذا عقاب شديد يكفيها في جزائها ومن هذا
الوقت تولى الحكم بطرس ولم يبق لاجنيه ايوان دخل في الحكومة
الاجمرد ووضعه اسمه في المصالح الميرية وقضى حياته محروما من المنصب الملوكي
ومات (سنة ١٦٩٦) ميلادية

(الفصل السادس)

في الكلام على استيلاء بطرس الاكبر على المملكة واوائل ما حصل
بدولته من النقص والابرار والتغيرات العظيمة
كان بطرس الاكبر طويل القامة معتدل القدر حسن الشكل عليه سيما
الاكابر حاد البصر صحيح المزاج قوى البنية لا يكل عزمه ولا تمل همته موصوفا
باصابة الرأي التي بواسطتها يكون الانسان متجعرا في جميع المعارف الحقيقية
وكانت فكرته دائما مشغالة فكان يتصدى لجميع المقاصد العظيمة والمشروعات

الجسمية وكان يلزم لترتيبه امور كثيرة حتى تكون حاله مطابقة لكمال قريحتيه
غير ان اغراض الاميرة صوفية كانت تقتضي بقاءه على الجهالة والانهمال
على الشهوات والذات التي تستدعيها الشبوية والبطالة والامارة

وفي شهر حزيران (سنة ١٦٨٩) ميلادية تزوج على عادة ملوك الموسقو
بنت احد رعاياه وهي بنت ميرالاي يقال له لابوشين لكنه لما كان صغير السن
ولم يكن للجلوس على سرير الملك عنده مزية الا الانهمال على الذات لم يجد
الزواج معه شيئا حيث لم يرجع عما كان عليه بالكلية وما كان يصدر منه على
المائدة مع بعض الغرباء الذين كان يجلبهم الوزير غالترين الى مدينة موسقو
من انواع الحظ والفكاهة لم يترتب عليه وقوع الاصلاح في الدولة وجبر خللها
ومع ما كان عليه من الحظوظ وغيرها من الامور الذميمة كان متولعا بالقنون
العسكرية وسياسة الدولة فمن ثم وجب الادعان بانه عظيم الشأن جليل المقدر
وكان لا يظن بمثل هذا الامير الذي كان كثير الجزع حتى كان يتصب عرقا
بارداو يعتبره من شدة القزع تشنج الاغصاب حين يركب نهر انه على عمر الزمان
يصير ذات يوم من عظماء المللا حين ومهرة البحارة لاد الشمال وذلك انه اخذ
في معالجة هذا الماء حيث غلب على نفسه وجبرها على التعود على ذلك بقذفه
نفسه في الماء حتى انتهى امره أن صار ركوب البحر احب الاشياء اليه

وكان يلطقه خجل شديد من كونه نشأ في الجهالة فحمله ذلك على أن يتعلم وحده
ما يكتفيه في معرفة اللسان النمساوي والفلسكى من غير كبير احتياج الى معلم
يعلمه ذلك فبلغ فيهما درجة بحيث كان يمكنه التكلم والكتابة بهما على وجه صحيح
مفهوم وكان يعتقد ان النمساويين والفلمنكيين هم اكثر الامم تأديبا وتربية
حيث ان النمساويين كانوا قبله يستعملون بمدينة موسقو جزأ من القنون
التي كان عازما على ادخالها بمملكته وكان للفلمنكيين براعة في فن البحرية الذي
كان يراه من اهم القنون واعظمها

فهذا تأهل بطرس الاكبر في ذلك الوقت مع حدثه سنه ولسكن كان
يتحزب عليه احزاب يخشى عليه منها الخطر وكان مصرا على قمع الاسترليج

وزدوهم عن الخروج عن الطاعة الذي كان دأبهم وعادتهم كما كان مذعنا على قتال تار القرم ومحاربهم فشن عليهم الغارة وكان انتهاء ذلك الحرب (٦٨٩هـ) من الميلاد جهاداً لم يجبر العمل عليها الامدة بسيرة وفي طرف هذه المدة تحصن بطرس وتقوى قاصداً بذلك جلب القنون والمعارف الى موطنه

وكانت مقاصد ابيه الكسيس مثل مقاصده الا ان الدهر والاحوال لم تساعد على ذلك بل كانت قريحة بطرس الموروثة له من والده اوسع دائرة من ابيه وكنانة له في المشكلات شدة عجيبة وقوة عقل غريبة وذلك ان الكسيس كلن قد احضر من بلاد القلنك رجلاً يعرف صناعة انشاء السفن ومذالمراكب يقال له بوتلير وكان رئيس سفينة واحضر معه عدة تجارين وملاحين وصرف عليهم مصاريف حسنة فهدوا على نهر الاثل فرفاطة عظيمة وسفينة اخرى صغيرة وركبوا هذا التهر وساروا حتى وصلوا الى اقليم اردراهان. وكان الغرض من هذين السفينتين وغيرهما من السفن التي يجتذونها بعد ذلك هو التجارة الراجعة والاخذ والعطاء مع العجم بواسطة بحر الخزر فعند ذلك وقع استكورا زين (لعله حاكم اردراهان) اعلام العصيان فدمر هاتين السفينتين ولكن يلزمه حفظهما لنفسه وخرج القبطان وقر من بقي من الملاحين الى بلاد العجم ومنها وصلوا الى محال الجمعية التجارية الفلنكية بيلاد الهند فلم يبق بيلاد الموسقو غير استاخبار ومعمار مكث مدة طويلة مجهول الحال يسمى الاستابران

واتفق ذات يوم ان بطرس كان يتشى في استلخيل اوف وهو احد منازل جده فرأى فيه على بعد من جملة الامور المغربية صندلا انكليزيامهجورا فسال تيرمان النمساوي وكان استاذنه في العلوم الرياضية لم كانت صناعة هذا الصندل مخالفة لما شاهدته في نهر موسكا فاجابه ان هذا المصنل صنع لاجل السير بالشرع والمجاذيف معاً فارد هذا الامير للشطب ان يجرب في الحال هذا الصندل غير انه كان محتاجاً للتعمير والاصلاح

فاحضروا

فاحضر واله المعمار الذي سبق ذكره وهو بران وكان مقبلا بمدينة موسقو
خاملا فاصلح هذا الصندل وانزله في نهر بورزا المتصل بضواحي مدينة
موسقو

ثم ان بطرس امر بنقل هذا الصندل الى بحيرة عظيمة بجوار دير الثاوث
وامر بران المذكور بمذفر قاطنين وثلاثة مراكب وجعل نفسه رئيسا
عليها وبعد ذلك بمدة طويلة (سنة ١٦٩٤) ميلادية ذهب الى ارقفل
وامر بران ايضا با إنشاء سفينة صغيرة في ميناء هذا الاقليم ثم ركب البحر
المفجعد الشمالى ولم يتفق لغيره من الملوك قبله الاطلاع عليه وكان معه في هذا
المشروع على سبيل الخفر غليون حربى فلنكنى لاجل الحراسة يقال لقبطانه
بولسون وكان وراء هذا الغليون جميع السفن التجارية التى كانت راسية
على ميناء ارقفل وكان بطرس وقتئذ مشغولا به علم الحركات العسكرية
البحرية وكان جلساؤه ايضا مجتهدين في الاقتداء به في التعلم ومع ذلك كان
ابرعهم وامهرهم

وكما انه كان يصعب في ذلك الوقت تجديد جيوش قزاة منتظمة كان يصعب
ايضا انشاء دونما حرية واما تجاريه البحرية الاولية التى هدرت منه
قبل رحلته الى ارقفل فانما كانت مجرد حظوظ صادرة عن شاب
ذى قريحة عظيمة وكذلك ما وقع منه في صدد الامر من احدثات الجيوش
والعساكر فانه كان من قبيل الزينة والزخرفة واللعب وكان ذلك مدة نيابة
صوفية ولو استشعروا ان ما فعله من ذلك من قبيل الجد والله صادر عن قصد
نافع لامكن ان يفضى به الى الخطر

وقد استأمن في اموره انسانا اجنبيا وهو لوفورت الشهير وكان من عائلة
قديمة ذات حسب ونسب كانت اوليا باقليم بيومونت بايطاليا ثم هاجرت
منه منذ قرنين الى مدينة جنيوة بايطاليا ايضا حيث حظيت فيها
بأعلى المراتب والسنى المناصب ثم اراد ان يعلمه التجارة التى صارت بها
مدينة جنيوة عظيمة جدا بعد ان كانت دون غير هامة مشهورة بالمشاجرات

الديفية

وكان لوفورت صاحب قريحة عظيمة فعمله على الاقدام على الامور الجسدية
 فمن ذلك انه ترك بيت والده حين بلغ من العمر اربع عشرة سنة وخدم بقلعة
 مدينة مرسيليا اربعة اشهر في العسكرية فترانم انتقل الى بلاد الفلنك
 وخدم مدة في العسكرية متطوعا وجرح في محاصرة مدينة غراوة سولوزة
 اى التى على نهر موزة وهى مدينة حصينة منيعة اخذها امير اورنجة
 من لويز الرابع عشر (سنة ١٦٧٤) ميلادية وذلك الامير المذكور هو
 الذى صار من ذلك الوقت ملكا على بلاد الانكليز ثم سعى لوفورت فيما يكون به
 تقدمه ورفعة مقامه فى سائر الجهات التى كان يرشده اليها امه وقوة زجانه
 فركب البحر (سنة ١٦٧٥) من الميلاد مع ميرالاي تمساوى يقال له
ورستين وكان قد وكله الجار الكسيس والد بطرس فى تحصيل بعض
 عسكر من البلاد الواطية وان يأتى بهم الى ميناء ارفتل فلما وصل الى هذه
 الميناء بعد اقتحامهما اخطار البحار لم يجدوا الكسيس بل وجدا
 الحكومة قد تغيرت بما كان فيها يومئذ من القتل والشقاق وقد ترك حاكم
ارفتل كلام من ورستين ولوفورت وجنودهما فى اسوء حالة حيث هتدهم
 بنقيم الى آخر بلاد سبير فهربوا جميعا الى جهات مختلفة كل على حسب
 ما امكنه فلما انسدت على لوفورت جميع الطرق ذهب الى مدينة موسقو
 وحضر بين يدي الجلى مملكة دانمارقة المسمى هون فجعله كاتب سره
 فتعلم اللسان الموسقوى وبعد ذلك بمدة اغتنم الفرصة فى ان يتنيل بين يدي الجار
بطرس لان اخاه الاكبر وهو ايوان لم يكن على طبق مرامه فاخبره بطرس
 فوجد ملاما حالته فجعله اولافا فابدا للولك من القرابة وعند دخوله فى الخدمة
 لم يكن عالما لانه لم يتمكن من اى فن من الفنون غير انه كان رأى الوقائع
 كثيرا وكان يحسن ادراك ما رآه وسبب ملائمة لبطرس الاكبر انما هو كونه
 صاحب قريحة وعقل بديع زيادة على ما كان له من معرفة لغتى الفلنك
 والتجسا اللتين كان يتعلمهما بطرس لكونهما لغتى اللتين اللتين كان يعول

عليهما

عليهما في تعيين اغراضه ومقاصده فبذلك صار لوفورت مقبولا عند بطرس
محبوبا لديه مسجوع الحكمة وكانت المحبة سبب ابتداء حفظونه عند الجار
ثم تأكدت الحظوة بمعارفه ودرايته فكان امين سره وبلغ في ذلك ان اطلعه
بطرس على اشتدما ربه خطرا حيث اخبره بانه يريد ان يتأهب ذان يوم لابطال
عساكر الاسترايح لما ان تلك الطائفة هي التي كانت تضرم نيران الفتن لكن
يكون ذلك على وجه لا يصير به عرضة للخطر لما ان السلطان عثمان بادشاه
العثمانية لما اراد ابطال العساكر الانكشارية اغضى به ذلك الى القتل ومع
ما كان عليه بطرس من حداثة السن سلك في ذلك مسلكا اضع مما سلكه
السلطان عثمان وذلك انه في مبداء الامر جمع في منزله الذي كان في الخلاء المسمى
بريو بازنسكي بلوكا قدره خمسون نفسا من اعظم شبان غلامه وانتخب جملة
من اولاد امراء الموسقويين وجعلهم ضباطا عليهم ورعاهم بالتدريج
الى جميع الرتب ليعودهم على ما لم يكونوا يعهدونه من الضبط والربط وكان
هو بنفسه قدوتهم في ذلك حيث جعل نفسه في مبداء الامر طرنيطيا
ثم عسكريا ثم جاويزا ثم ملازما ثم وان كان هذا الامر في غاية من الغرابة
الا انه كان من اعظم الاشياء نفعا لان الموسقويين كانوا يسلكون اقوالا
في محاربتهم مسلك الفرنسيين في عهد الحكومة الاتزامية حيث كان الامراء
يقودون الى الحرب اتباعهم من غير انتظام ولا تجربة ولا حسن تظيم ولا ضبط
وربط ولا شئ ان هذه طريقة خسفية تكفي في مقاومة من يكون بهذه المثابة
من العساكر ولا تجدي نفعا في مصادمة الجيوش المنتظمة بل تعجز
عن مقاومتها

وهذه الاورطة التي ابتدعها بطرس بنفسه قد ازداد عددها بعد ذلك يسيرا
وصارت من هذا الوقت الاى خفر ريو بازنسكي وقد اخترع ايضا بلوكا آخر
على هذا المتوال صار فيما بعد الاى المسمى سمونوسكي وتجدد عنده
ايضا الاى كان يركن اليه ويشق به وكان عدده خمسة آلاف رجل جنده الجزال
عردون الانكليزي الايقوسى وكان معظمه من الغرباء واما لوفورت فانه

وان لم يحك في العسكرية الامدة قليلة الا انه كان له استعداد لكل شئ فتمهده
بجمع الاى قدره اثنا عشر الف رجل ونجح في هذا المقصد وصار تحت ياسته
خمسة من امرآء الالايات فلم يشعر الا وهو سر عسكر على هذا الجيش الصغير
دفعة واحدة وكان هذا الجيش معدا لمقاومة الاسترليج وغيرهم من اعداء
الدولة الموسقوية

ومما ينبغي التنبيه عليه ويفيدنا خطأ من زعم ان ابطال مجلس مدينة ننته
الذى كان نصف اربابه برونستانية والنصف الاخر فاوليقيه بمنح فيه مصالح
البرونستانية لم تنحصر فيه مملكة فرنسا من رجالها الا القليل ولم تعد عاقبة ابطاله
بالضرر عليها وان ثلث هذا الجيش الموسقوي بالذى كانوا يسمونه لايا كان يجتمعها
من الفرنسيات الهاربين وقد بذل الجنرال لوفورت جل همته ووسعه في تعويد
هذا الالاي الجديد على التعليمات العسكرية وصرف همته في ذلك حتى كانه
لم يكن اشتغل قبل ذلك طول عمره بغير فن العسكرية

ثم ان بطرس اراد ان ينظر الحرب والمقتال وان يرى عرضيا كالعرضي
التي تجددت في الدولة زمن الصلح فامر ببناء حصن وانا ط فرقة من الجيوش
الجديدة بمحافظته وامر فرقة اخرى بالمهاجمة عليه فكان الفرق بين هذا
العرضي وغيره من العرضي الاخر هو انه عوضا عن ان يكون صورة حرب
ظاهري لتعصدا للفرجة والتعليم صار حرا حقيقيا حيث هلك فيه بعض عساكر
وجرح كثيرون حتى جرح لوفورت جرحا بليغا وكان هورئيس الشرقة
المهاجمة ومثل هذه الالاعات التي ادت الى سفك الدماء لا بد وان يؤول امرها
الى تمرين العساكر وتعويدهم على القنون الحربية غير انه كان يلزم لذلك
اشغال طويلة واخطار متكررة هذا وقد ضم بطرس هذه الالاعات الحربية

الى ما كان مهتاجا به من تجديد البحارة والسفن الحربية فجعل لوفورت
قبطان باشا على البحارة من غير ان تسبق له رئاسة اى سفينة كانت كما جعله
سر عسكر العساكر البرية من غير ان يكون سبق له خدمة ضابط غير ان
بطرس كان يرى فيه صلاحية لم يدين الاخرين فعم انه كان قبطان باشا من غير

عمارة سفن تستحق هذه الرتبة وسر عسكر من غير عساكر الالايه (فليكن له في هاتين الوظيفتين الاسم)
وكانوا قد اخذوا في اصلاح ما كان في العسكريه من الخلل على التدريج وهو استقلال اكبر الموسقو حيث كانوا يجلبون الجيوش عساكر غير منتظمة من فلاحهم وهذا اشبه شئ بمحكمة الفرنك والهنونيين والفوطيين والونداليين وهم امم انتصروا على دولة الرومان عند ضعفها ولو كانت حروبهم هذه مع الالايات الرومانية القديمة المتعلمة للحروب اومع جيوش عصرنا هذا لهلكوا عن آخرهم

وبعد ذلك بمدة صار للقب قبطان باشا عمرة حيث امر القمطنكيين والبنادقة بمذمر اكب طويلة بل امرهم بمذسفينتين تسع الواحدة منهما نحو ثلاثين مدفعا وكان مقدما في مصب ورونيرا وهو نهر يصب في نهر تن صوبي ولم يكن هناك ما يمنع من المحدثا هاتين السفينتين في النهر المذكور لجنعا تنار القرم من التعدي على الموسقو لان العدواة بينهم وبين هؤلاء الامم كانت لم تزل تتجدد بتجدد الايام وكان لبطرس في سنة ١٦٨٩ ميلادية حاجة الى الحرب مع الدولة العلية والاسوجيين واهل الصين وكان مترددا في تقديم الحرب مع اى ملة منهم على الاخرى ولتبين لك هنا ما كان عليه مع اهل الصين ومشاركة الصلح الاولى التي انعقدت بينهم وبينه فنقول

الفصل السابع

في الجمعية المعينة في حصن نيكول لعقد مجلس مرخص اربابه من الموسقوية والصينيين وفي بيان ما وقع بين السلطنتين من المشاركات ينبغي اولا ان يقف الانسان على حدود كل من سلطنتي الصين والموسقو فنقول اذا خرج الانسان من بلاد سبيرالصلية وتباعد الى الشمال عن جهة الجنوب التي بها طوائف التتار والقلوق البيض والقلوق السود واسلام المغول وكفارهم قرب من درجة مائة وثلاثين من الطول ودرجة اثنين وخمسين من العرض وذلك على نهر امور وراى في شمال هذا النهر سلسلة جبال

عظيمة نهاية امتدادها الى البحر المتجمد الشمالى وخلف الدائرة القطبية وطول مجرى النهر المذكور خمسمائة فرسخ يبلاد سبير والتتار الصينية ويصب بعد تعريجات كثيرة وانعطاف وازورار في بحر قزجستان ويقال ان عصب هذا النهر في البحر المتجمد الشمالى يصاد في بعض الاوقات اسماك عجيبة تفوق الواحدة منها فرس نيل مصر وسنها اشد متانة وعظما من سن العاج ويقال ان اهل تلك البلاد كان في قديم الزمان لهم فيه تجارة عظيمة وكانوا ينقلونها الى البلاد الاجنبية من طريق بلاد سبير فلذا وجد منه بعض قطع مدفونة في فلات تلك البلاد وهو عين العاج المعدى الذى اسلفنا الكلام عليه ولكن زعم بعضهم انه كان يبلاد سبير في قديم الزمان فيلة وان التتار الذين انتصروا على اهل الهند جلبوا معهم الى بلاد سبير جملة من هذه الحيوانات التى عظامها باقية مدفونة في ارض تلك البلاد ويقال لنهر امورا المذكور عند التتار المتجور النهر الاسود وعند الصينيين نهر دراغون اى نهر التنين

وكان الصينيون والموسقويون يتنازعون يبلاد سبير التى مكنت مجملها الحال زمانا طويلا حدود ممالكهم فاما الموسقويون فكان لهم بعض حصون على نهر امور على البعد من السور الا عظم يبلاد الصين بثلاثمائة فرسخ فتولد من هذه الحصون عداوة عظيمة بين الصينيين والموسقويين وآخر الامر نظر كل من المملكتين الى قععه ومصلحة بلاده فآثر كامييه فغفور الصين الصلح على الحروب التى لاطائل فتحها وذلك انه ارسل سبعة من السفرا الى مدينة نيكو وهى احدى الحصون المتقدم ذكرها واخذ هؤلاء السفرا معهم نحو عشرة آلاف رجل من جملة حراسهم وخفراؤهم وهذا على عادة بلاد المشرق من المباهاة والافتخار اذ من المعلوم انه لم يسبق لدولة الصين مثل هذه السفارة حسبا تدل عليه تواريخها واغرب من ذلك كون الصينيين لم يسبق لهم عقد مشاركة صلح اصلا منذ تأسيس سلطنتهم لانهم لما غار عليهم التتار وادخلوهم تحت طاعتهم مرتين كفوا عن الحرب مع من عداهم من الامم الا بعض طوائف رحالة نزاله فانهم حاربوها فكانوا تارة يظفرون بها في مدة يسيرة وتارة يتركونها

من غير ان يعقدوا مشاركة بينهم وبينها ويؤخذ من ذلك ان هذه الامة الشهيرة
 بعلم السلوك والاخلاق لم تكن تعرف ما يسمى رسوم الملل والدول اي الاصول
 الغير المستقرة على حال واحدة المرتبة ما يجب للملل بعضها على بعض اعني
 قوانين الحرب والصلح التي ترتب بحسب مقتضيات الاحوال وحقوق سفراء
 الملوك وصيغ الشروطينامة وما يترتب عليهما من الواجبات والالزامات
 والمنازعات في شأن من يستحق الصدارة والتقدم في الشرف

فان قيل كيف انعقدت المشاركة بين اهل الصين والموسقويين في وسط
 الصحارى والفلوات مع ان كلا لا يعرف لسان الاخر قلنا انه كان هناك رجلان
 من طائفة القسوس اليسوعية احدهما برتغالي يسمى بريرا والاخر
 فرنساوي يسمى جربلون سافرا من مدينة بكين من السفارة الصينية
 قترجا بين الفريقين فكانا يعبران عن الشروط باللسان اللاطيني مع رجل
 تمساوي من الارشالية الموسقوية كان يعرف ايضا اللسان الموسقوي
 وكان غالوان حاكم سبير هو رئيس تلك الارشالية فظهر بمظهر عظيم من
 الابهة فضل به على الصينيين حيث ابدى في علوشان بلاده ودولته ما زال به
 وهم الصينيين الذين كانوا يعتقدون انهم اعظم اهل الارض بأسا وشوكة

ثم ان التبرجانيين اليسوعيين المذكورين يتساحدو كل من المملكتين فنصبت
 علاماتها على نهر كريش قريبا من المحل الذي عقدت فيه هذه الجمعية
 فكان الجنوب للصينيين والشمال للموسقويين ولم يخسر الموسقويون
 في ذلك الا حصنا صغيرا خلف هذه الحدود وتحالفوا على دوام الصلح بينهما
 حيث اقسام كل منهما بعد الجدال والمنازعة على ابقاع الصلح وكانت صيغة
 الحين الصادرة من الفريقين تقسم بالله انا لا نتقض هذا الصلح وكل من اضر
 الغدر وقصد اضرار فلنا الحرب فنسأل الله رب العالمين العليم بما في الصدور
 ان يجازي هذا الخائن بموت الفجأة

وهذه الصيغة التي اشترك فيها الصينيون والنصارى تدل على امرين مهمين
 الاول ان الصينيين ليسوا مشركين ولا وثنيين كما اتهمهم بذلك كثير من المؤلفين

في عبارات متناقضة والثاني ان مثل هذه الامة التي تمارس العلوم والمعارف
تعبدا لها واحدا وان اختلفوا في تأدية العبادة بما يرد على عقولهم
من الزيف والضلال وكان تحرير هذه الشروط باللغة اللاطينية في نسختين
واول من وضع امضا لالجية الموسقوية على النسخة التي اخذوها وكذلك
الصينيون في نسختهم كما هي العادة الجارية عند اهل اوربا بين الملوك واجروا
في ذلك ايضا عادة اخرى عليها عمل الامم المشرقية من الصدر الاول وهي
ان تنقش الشروط على قطعتين كبيرتين من الرخام ويجعل احدا بين المملكتين
وبعد ذلك بثلاث سنين ارسل البحار بطرس رجلا دانيارقيا يقال له
لبريد في سفارة الى بلاد الصين ومن وقتئذ صارت المعاملة والتجارة بينهما
مع الحجاج واستمر ذلك حتى تقضت تلك المشاركة سنة ١٧٢٢ ميلادية
وبعد هذا الفسخ رجعت صورة التجارة الى ما كانت عليه واجريت المشاركة
بغاية الدقة والمحافظة

الفصل الثامن

في الكلام على الغزوة التي ارسلت جهة بحر اراق والاستيلاء على بحر اراق
وعلى ارسال بطرس علما نابا بالدول الاجنبية لاجل التعليم واكتساب
المعارف

كان يعسر عقد المصالحة مع العثمان في ذلك العصر لانه كان يظهر اذذاك
ان الدهر كان يعاند هم ولا يريد مسالمتهم بابقاء انتظام دولتهم وذلك ان بلاد
البنادقة التي سلك معها العثمانيون سلك الظلم اخذت تحاربهم حتى
ان نفس الامير مروزي حاكم ونديق الذي كان اعاد لهم جزيرة كريد
اخذ منهم جزيرة موره فمن ثم لقب بالموهه والى التقليد بهذا الفخريه كرنازن
الجمهورية الرومانية وكان ليوپولد امبراطور النانيا قد نظرا لـ العثمان
في بلاد البحار وكان اهل مملكته يدفعون اغارة تثار القرم الذين كانوا تابعين
للدولة العلية فاغتنم بطرس فرصة هذه الاحوال واخذ يعزّن جيوشه على
الحرب والقتال ليأخذ في اسباب الاستيلاء على البحر الاسود اذا تبسر له ذلك

فارسل

فارسيل الجنرال غردون فسار في امتداد نهر تن جهة مدينة - آراق إيسنولي
عليها واثرة على الأي كير يبلغ خمسة آلاف رجل فسار هذا الجنرال إلى تلك
الجهة محاذيا نهر تن وبعث أيضا الجنرال لقورت مع الإيه الذي هو
اثناعشر ألفا وأرسل كذلك فرقة من الاستراخ فأندها شرمتوف
وچان وهما بروسيا الأصل وكان معهما أيضا فرقة من القوزاق وجماعة
من الطوبجية فكل هؤلاء تجهزوا لهذه الغزوة وكان ذلك (سنة ١٦٩٤)
ميلادية

وكان قائد هذا الجيش العظيم السرعسكر شرمتوف فسار في أوائل فصل
الصيف (سنة ١٦٩٥) من الميلاد جهة مدينة آراق عند مصب نهر تن
وعند نهاية بحر آراق وكان بطرس بنفسه في هذا الجيش بصفة متطوع
وكان غرضه من ممتدة أن يحوز فضيلة تعلم العسكرية قبل الامارة وفي أثناء
سيرهم قفلوا عنوة على برجين بناهما الأتراك على شاطئ نهر تن
وكان الأمر المشروع فيه وهو أخذ قلعة آراق لا يدرك إلا بصعوبة ومشقة لما أن
هذه القلعة كانت جيدة التحصين وكان عليها جم غفير من المحافظين ولم تحصل
المبادرة بتجهيز السفن المسقوية المستطيلة التي صنعها البنادقة على شكل
السفن التركمية المسماة بالقايق وكذلك السفينتان الحريتان الصغيرتان
الفلنكيتان المحضرتان من نهر ورونجه وحيث لم تجهز هذه السفن لم يمكن
دخولها ببحر آراق ومن المعلوم أن جميع الأشياء في مبدئها صعبة التحجير
لقيام الموانع التي تعطل أجزائها وكان الموسقويون إلى ذلك الوقت لم تقع
منهم محاصرة منتظمة فمن ثم خاب سعيهم في هذه الغزوة

وكان مسدير الطوبجية يقال له يعقوب وهو بروسي الأصل من أقام من دزريق
وكان تحت حكم الجنرال چان البروسي لأن أغلب كبار الطوبجية والمهندسين
ورؤساء السفن كانوا من الغرباء ثم أن هذا الجنرال حكم على يعقوب المذكور
بعتاب البانوك وقد سبق ذكره ومثل هذا التشديد على أن الحكم يوشد
زادت قوته واشتدت صولته حتى اقتاد إليه الموسقويون وأذعنوا إليه

مع ان دأبهم العصيان والمخالفة فكانوا بعد العقاب الشديد يوفون بخدمتهم
ويطيعون الطاعة الكلية وصار ذلك عادة لهم ولم يسلك يعقوب المذكور هذا
المسلك فانه خطر به خلاف ذلك حيث عزم على الانتقام فسر المدافع ونهض
الى مدينة ازاز ودخل في دين الاسلام ودافع عن هذه القلعة فنجح في ذلك
ولم يقدر الموسوي على اخذها وهذا عماد على ان الشفقة بالعباد والرفق بهم كما هو
الجاري الان ببلاد الموسوي اولى مما كان عليه قدماءهم من القساوة والخبر
وادعى الى طاعة الخلق الذين لحسن تربيتهم تعودوا على المعاملة الجميلة
والصفات الجميلة وصاروا اصحاب عرض وشرف نفس ولكن كان التشديد
اذالك مما لا بد منه بالنسبة الى رعاع الناس فلما تغيرت الاخلاق والعوائد
سلكت الاميراطورة ايليزابيطه في انها كما كان شرع فيه والدها مسلك العلم
والعدل الذي لم يتفق لامة من الامم وذلك لانها اخذت على نفسها عهدا وميثاقا
انه لا يعاقب احد بالموت في مدة حكمها ووفت بذلك فهي اول ململكة احترمت
النفس البشرية وحقت دماءها فكان كل من اقترف ذنبا عظيما او فعل فعلة
غير مرضية يحكم عليه بالشغل في المعادن وغيرها من الاشغال المبرية فكان
في عقوبتهم بهذه المشابة نفع للدولة ولا يخفى ان هذا القانون ملحوظ فيه الشفقة
والرأفة كما هو ملحوظ فيه العدل والحكمة فانه فيما عدا هذه الدولة لا يعاقب
الجاني الا بالقتل على رؤس الاشهاد ومع ذلك فلم يكن في تلك العقوبة زجر
للغير عن الوقوع في المآثم ولعل وجه ذلك ان هول القتل لا يبلغ في التأثير عند
شرار الناس المتكاسلين درجة العقاب بالاشغال الشاقة التي تتوارد عليهم
كل يوم بخلاف الموت فقيه الراحة

وانرجع الى الكلام على محاصرة قلعة ازاز التي كان المغول فيها على الامير
شرمشوف رئيس الجيوش في هذه الواقعة فنقول انهم هجموا على تلك الجهة
ولم يجدوا شيئا بل بعد ان فقدوا كثيرا من العساكر امسكوا عن الحصار
وقد تعود بطرس على اقتحام الاخطار بسبب تجلده وثباته في كل ما يتصدى
اليه من المشروعات وذلك انه قاد جيشا اعظم من السابق وسار به جهة

بحر أزاق في فصل الربيع من (سنة ١٩٧٦) ميلادية وفي ذلك الوقت مات اخوه
الحجار ايوان ولمالم يكن له من المنصب الا مجرد اللقب كانت حياته لانضيق
على بطرس في اطلاق التصرف في شئ وانما كانت الرسوم تقضى ببعض
مضايقة وبعد موته انضمت مضاريف منزله الى ما يصرف في مرتبات
العساكر فكان ذلك اعانة لهذه الدولة التي لم يكن لها وقتئذ ايراد جسيم
كالحال الان فكتب بطرس للامبراطور ليوبولد وللأقاليم المجتمعة
الفنكسية ومنتخب برندبورغ ليطلب منهم مهندسين وطوبجيين وبحارة
واستخدم جماعة من فرسان القلوب الذين كان لهم نفع عظيم في حربه مع تتر
القرم الذين كانوا ايضا فرسانا

واعظم نجاح حصل للبحار بطرس هو نجاح دوننته الصغيرة حيث
كملت على ما ينبغي وصارت على غاية من الضبط والربط والحكم فكان لها
النصرة على السفن التركية الواردة من اسلامبول حيث اخذت جلة منها
ووقعت المحاصرة على وجه منتظم بواسطة الخنادق والاستحكامات
وان لم تكن صناعتها موقعة بالكلية للصناعة الفرنسية حيث كانت اعاق
منها بثلاث مرات واعلى منها اسوارا وطوابق وبالجملة ففي (سنة ١٦٩٦)
سلم المحصورون في ٢٨ شهر تموز على مقتضى التقويم الجديد ولم يخرجوا
بشرف الحرب بل تركوا اسلحتهم وذخائرهم لاعدائهم وجبروا ايضا على تسليم
يعقوب الذي كان التجأ عندهم للموسقو

ثم ان بطرس اراد ان يحصن بحر أزاق حيث احدث فيه قلاع وميناء عظيمة
تسع السفن الكبيرة فاصدا بذلك الاستيلاء على بوغاز كفه الذي هو باب البحر
الاسود والذي هو محل شهير تجهيز مزيادات ملك هذه الناحية السفن فيه
سابقا وقد جعل بطرس امام بحر أزاق اثنتين وثلاثين سفينة وكان غرضه بذلك
تجديد دوننتا لحرب الدولة العثمانية ~~تسعون~~ مائة مائة مائة من تسع سفن تحمل
الواحدة منها ستين مدفعا ومن احدى واربعين سفينة منها ما يحمل ثلاثين
مدفعا ومنها ما يحمل اكثر من ذلك الى خمسين وطلب من كبار المتمرزين واغنياء

التجار بدولته ان يساعدهم في ذلك ولما رأى ان اموال القيسيين والبطارقة
والرهبان ينبغي ان يكون لهم ادخل في المصلحة العامة وان يستعان بها
في مثل هذا جبرهم على ان يساعدوا باموالهم في هذا المشروع الجديد الذي
تصدى له لاجل نفعاروطنه ومصلحة دين النصرانية وقدام القوزاق ان يبنيوا
سفنا كالسفن المستعملة عندهم يكتبها السير بالسهولة قريبا من سواحل
القرم فدخل الدولة العثمانية من هذا الاستعداد رعب عظيم حيث انه اول
استعداد لم يسبق بمثله في بحر ازاك وكان الغرض من ذلك كله طرد التتار
وآل عثمان من بلاد القرم طردا مؤبدا وتسهيل التجارة مع العجم من طريق
كرجستان وهذه التجارة هي عين التجارة التي كانت تتجرها اليونان في قديم
الزمان مع اهل بلاد طرابزان و بلاد القرم التي يترأى من حال بطرس انه يريد
تسخيرها وادخالها تحت طاعته

فلما انتصر على الاتراك والتتار اراد ان يعود رعيته على ان يسلكوا مسلك
الظهور والغفار كما كان يجب تمرينهم على السك والاشغال فدخل مدينة
موسكو بجيشه المنصور مع الابهة والاحتفال ومزبه تحت اقواس النصر
وهم يطلقون البارود من سائر الجهات ويصنعون جميع ما فيه تزيين هذا
الموكب ورواقته وكان في صدر هذا الموكب العساكر الذين قاتلوا آل عثمان
في السفن البندقية وكانت فرقة مستقلة وكان المرشال شرمتوف وغردون
وجان ونومورت قبطان باشا وغيرهم من الجنرالات سائرين في هذا المحفل
امام الجار بطرس الذي كان يقول اني الى الان لم اناهل لان يكون لي
مرتبة في الجيش وكان قصده بذلك ان يفهم اشراف دولته انه ينبغي للانسان
ان يجتهد حتى يصير اهلا لكسب الرتب العسكرية فيجتمع بها

وكان هذا الاحتفال يشبه من بعض الوجوه احتفالات قدماء الرومانيين
لا سيما في كون المنتصرين يأتون الى مدينة رومة بالغلوبين ويحضرونهم
امام الرعايا وربما قتلوهم بمراى منهم فان الموسقويين جاوا ايضا بمن
اسرو في هذه الغزوة وكانوا يعملونهم في السير على اثر الجيش واما يعقوب الذي

خان الموسقو فجعلوه في عجلة ونصبوا فيه اسنقة وعلقوه فيها بعد أن قاسى
العذاب الشديد من عقاب العجلة وهو ان يطرح الانسان على الارض ويداس
عليه بهجل العربات

وفي ذلك الوقت صنع اول نشان الاقتضار لبلاد الموسقو وكتب على احدى
دائرة ما صورته بطرس الاول ايمراطور الموسقو عظيم دأتما على الاخرى
ازاق مع هذه الكلمات منصور بالنيران والمياه اى والضمير راجع
لبطرس في الجهة الاولى

وقد تأثر بطرس من هذا النجاح وحصل له غم شديد حيث رأى ان سفنه
الصادرعة التي يبحر ازاك لم تنسكن من صنيع قومته بل انما هى من صنيع
الاجانب وكان له رغبة شديدة في انشاء ميناء على بحر بلطيق والبحر الاسود
فبعث في شهر مارت سنة (١٦٩٧) ميلادية اثنين شخصين شبان الموسقو
انتخبهم من الاى لوفورث الى مملكة ايطاليا فذهب اكثرهم الى مدينة
البنادقة وبعضهم الى مدينة البخورنا لتعلم الفنون البحرية وانشاء السفن
الصادرة وارسل اربعين شابا آخرين الى بلاد الفلنك لتعلم بعضهم فزيقاتها
والبعض الاخر التعليمات العسكرية في السفن الكبيرة الحربية وارسل ايضا
طائفة الى بلاد النمسا لتعلموا حركات الجيوش البرية وتمرنوا على التعليمات
العسكرية النمساوية وقصارى الامر انه عزم ان يتغرب عن دولته مدة
سنوات قاصدا بذلك ان يتعلم من الممالك الاجنبية حسن الادارة والتدبير
وكان له تولع شديد بمشاهدة التعليمات الجوية والفنون التي كان يريد احداث
مثلها في وطنه ومباني مرتبها بنفسه فعزم على السفر متخفيا الى مملكة دانمارقة
واقليم برندبورغ وبلاد الفلنك ومدينة وياتنة ومدينة البنادقة
ومدينة رومة ولم يعزم على الذهاب الى مملكة فرانسى ولا الى اسبانيا
لان ما كان يطلبه انذاك من الفنون كان مهجولا باسبانيا ومتروكا بالكلية
فاما فرانسى فلان الفنون التي كانت بها انذاك كانت موسسة على الانساع
والزينة ولما ان مملكها لوير الزابع عشر كان فيه من الالهة والكبرماثر

في كثير من الملوك فكانت حالته منازعة لحالة بطرس ومباينة لها بالكلية حيث انه كان مرامه ان يسلك في سفره مسلك السهولة والبساطة والبحث عن الزينة والرفاهية فرأى انه لا يليق ان يرتحل الى هذه المملكة وزيادة على ذلك كان له تعلق شديد وارتباط اكيد باغلب الممالك التي كان عازما على التوجه اليها ماعدا مملكة فرانسا ومدينة رومة وكان لم يفس ماصنعه معه لويز المذكور من عدم قيامه بحقوق السفارة التي ارسلها لها سنة (١٦٨٧) ميلادية حتى خابت آمالها ولم تنجح في ما رجاها مع اشتهار تلك السفارة وكان في نفسه من ذلك شيء وبالجملة فكان قد انضم الى حزب اغسطس منتخب سكس الذي كان يزيد برنس دي كنتي ان يأخذه معه تاج مملكة له وكان برنس دي كنتي من العائلة الملوكية الفرنسية

* (الفصل التاسع) *

(في سياحة بطرس الاكبر)

لما عزم بطرس على السياحة بقصد ان يرى عدة ممالك متخفيا كآحاد المسافرين جعل نفسه من اتباع ثلاثة من الاجنية كما فعل نظير ذلك عند دخوله منصورا بمدينة موسكو حيث تأخر خلف امرأته عساكره وهؤلاء الاجنية الثلاثة هم الجنرال لوفورت و البيكرادة الكسيس غلوفين و كيل عموم الجيوش و حكم دار بلاد سبير وهو الذي عقد مشاركة الصلح المستمرة مع المرخصين من طرف ملك الصين وعين حدود تلك الدولة والثالث هو دووتسين ديك كاتب السر الذي مكث مدة طويلة مستخدما في دواوين الدول الاجنبية وكان معهم في هذه الغزوة اربعة كتاب سر روسا واثنا عشر كشي زادة واثنتان من اغاوات الاندرون لكل الجي وكان معهم ايضا بلوك قدرة جسون قرامع ضباطهم لاجل الخفر و كانوا كلهم من الاي پريو بازنسكي فكان مجموع الحواشي يبلغ مائتي ثمان ولم يكن مع الجار من الخدم الا فراس واحد وقواس ورجل قصير القامة جدا لاجل السخيرية واختلط بطرس مع هؤلاء الجماعة بحيث لم يظهر من بينهم ومثل هذا الامر

لم يسبق

لم يسبق نظيره في تاريخ الدنيا فانه في غاية الغرابة كون ملك بلغ من العمر
خمسا وعشرين سنة يخرج عن ممالكه لاجل حسن الادارة والتمكن
من الاستيلاء فيما بعد وما وقع له من نصرته على الترك والتتار ودخوله منصورا
في مدينة موسكو مع الابهة والاحتفال وكثرة جيوشه الاجنبية التي
في خدمته وكذلك موت اخيه اوان ومجن الاميرة صوفية في الدير وتعظيم
جميع الناس له بالخصوص كل ذلك يوجب ان تكون ممالكه مدة غيبته في هذه
واطمئنان لابلحقتها تعكير ولا اختلال وقد اناب عنه اثنين من كبار الدولة
وهما استركنيف وكيس رومادونوسكي وامرهما ان يتسذرا مع
غيرهما من امراء الدولة في المصالح المهمة

ثم ان الجيوش التي جردها الجزال غردون مكثت بمدينة موسكو
ابقاء للامن والطمانينة بهذا التفت وامعاكر الاسترليج التي كان يخشى
منها التكدير فقد توزعت على حدود بلاد القرم لاجل محافظتها مدينة ازاك
التي تغلب عليها الجار ومنع اغارات التتار ولم يبقهم في المملكة لانه
كان يخشى منهم ايقاع الفتن والشقاق بها وبعد ان دبر ذلك شرع في انجاز ما ربه
من السياحة والتعلم

وقد كانت هذه السياحة فرصة اوتمهيدا للعرب الذي سفكت فيه دماء كثيرة
وعطل ما ربه بطرس الاكبر العظيمة مدة طويلة ثم حصلت به الاعانة على
تتميمها ونشأ عنه عزل اغسطوس ملك له وولية استانسلاس
وعزله ثانيا وصار به كرلوس الثاني عشر ملك اسويج اعظم فاتح ييلاد
الشمال مدة تسع سنين ثم عاد الى كونه اسوا جميع الملوك خطا مدة تسع سنين
اخرى فوجب ان نذكر هنا حالة بلاد اوروپا وقتئذ لانه يكون على بصيرة
في تفاصيل هذه الحوادث فنقول كان المتولى على سلطنة الدولة العثمانية
في ذلك الوقت هو السلطان مصطفى الثاني وكان ضعيف الادارة والسياسة
فلم يكن له بطش ولا حولة على ليوبولد امبراطور النمسا فانه انتصر عليه
ييلاد الجمر ولا على بطرس فانه اخذ منه مدينة ازاك وكان يخشى منه

الاستيلاء على البحر الاسود ولا على بلاد البشادقة فانهم لاستنوا على بلاد
المورة بتمامها من يد الدولة العثمانية

ثمان حنا سويسكي ملك له الذي لاتنسى شهرته بنصرة كوكريم
وباتقاده مدينه بيج اختومه المنية في ١٧ من شهر حزيران سنة (١٦٩٦)
ميلادية فتنازع مملكته كل من اغسطوس منتخب سكس وارمند
امير كننى من العائلة المالوكية القرنساوية وحظى بها الاول واما الثانى
فلم يزل الاشرف كونه صار انتخابه للمملكة ولم يتول عليها

وفي شهر ابريل سنة (١٦٩٧) ميلادية مات كرويس الحادى عشر ملك
بلاد اسوج فلم يحزن عليه اهلها كثير الماله كان اول ملك انظر اطلاق
التصريف حقيقة فيها وخلفه عليها ملك من صلبه زاد عليه فى اطلاق التصريف
وهو ابنه كرويس الثانى عشر وكان عمره وقتئذ خمس عشرة سنة وكان
فى موت ذلك الملك وتولية ابنه بحسب الظاهر اعادة عظيمة الجار على تحصيل
ما عزم عليه فانه كان يظن انه يمكنه اذذاك ان يوسع مملكته من جهة خليج
قيلندة ومن جهة ليونيا ولم يكفه انه كان متبعيا آل عثمان وهريدا
اخذه لاجل البحر الاسود ولم يكف بما كان له من العمارات على بحر اراق
وجهة بحر الخزر فى تيجز اغراضه البحرية والتجارية والمملكة بل كانت
سائر الاشياء الفاخرة التى يرغب فيها لاجل اصلاح الدول وتعينها لاجلها
بما اخذه او جاوره من بلاد الفرس او بلاد الترك وانما كانت توجديلا داوريا
الا فرنجية حيث تخلد فيها اعظم انواع المعارف المختلفة وايضا فيها ثمار
القنون وبالجملة فكان بطرس لا يريد ان يدخل فى ممالك اخلاق الترك
ولا اخلاق العجم وانما كانت رغبته مقصورة على ان يدخل فيها عوايد الممالك
الا فرنجية المتمدنة

وكانت اذذاك دولة النمسا فى حرب مع كل من الدولة العثمانية والدولة
الفرنساوية ومعاهدة لدولة الاسبانول والانكلز والفلانك وكل هذه
الدول متعصبة على لوي الرابع عشر وكانت وقتئذ قد اشرفت على عقد الصلح

مع النمسا واجتمع لهذا الغرض وكلا الدول المرخصون في سرية ريسويك بمدينة هايه

فاتهم بطرس ومن معه هذه الفرصة وسار في شهر ابريل سنة ١٦٩٧ ميلادية من طريق مدينة نوغروود الكبيرة ثم سلك طريق استونيا وليوونيا وكان قد تنازع هذين الاقليمين سابقا الروس والاسوج واللاهية والامر هما أن تغلب عليهما الاسوج بالحرب والقتال

فلما رأى بطرس خصوبة اقليم ليوونيا وحسن موقع مدينة ريغا التي هي قاعدة هذا الاقليم تحركت عنده دواعي الطمع والرغبة في تلك الارض واقل ما هنالك انه رغب في مشاهدة ما في قلاعها من الاستحكامات والتحصينات فحاوله قوته دى ألبرغ حاكم هذه المدينة ولم يمكنه من مرامه بل ظهر منه عدم الاعتناء بهذه السفارة ومع ذلك فلم ير بطرس على ما كان عليه من الطمع في هذا الاقليم ولم تقرب ذلك همته في هذا المطمع بل مازال مؤملا انه يكون ذات يوم صاحب هذين الاقليمين

ثم سار بجماعته من اقليم ليوونيا الى البروسة البرندبرجوازية وهي التي كان قدماا الوندال يشغلون جزءا منها في قديم الزمان واما البروسة اللاهية فكانت من سراسمية اوروبا وكانت بلاد البروسة البرندبرجوازية فقيرة قليلة العمران الا أن منتخب حكومتها الذي كان أولا يلقب بالمنتخب اسلافه ثم لقب نفسه من هذا الوقت بالملك جدد في ديوانه ورتقاورفا هيية واسرف في زينته اسرافا يؤدي الى الاضرار بمملكته ولكنه تلقى بطرس واصحابه بما يليق بالمولود من الابهة والافتخار والزينة في مدينة كنيغبرغ وهادى كل منهما صاحبه بهدايا نفيسة وكان اهل ديوان مدينة برلين دارمملكة البروسة لابسين ملابس فرنساوية مزينة وكانت ملابس الموسقو ثيابا طويلة على شكل ملابس اهل المشرق وقلنسوات مرصعة باللاقي والجواهر وسيوفهم مرسله على اخزمتهم فنشأ عن تفنن هذه الملابس المتنوعة منظر عجيب وروثق غريب وكان بطرس وقتئذ على زى النساوية ومعه امير

كوردجى لابس ملابس العجم فازداد بذلك رونق هذا المنظر وبهجته وهذا
الامير هو الذى وقع اسير ابواقعة نروا عند اهل اسوج ومات به لادهم
وكان بطرس يزدرى مثل هذه الابهة ولا يعتنى بشأنها فياليته كره
ما كان عليه اذ ذاك اهل النيسا من التفاح والثلثائق في الموائد والاطعمة
فقد اتفق ذات يوم انه كان يأكل على مائدة من الموائد التى جرت بها العادة
وقتشذ وكانت مضرة بالصحة والاخلاق فسل خبجره على خصيصه
لوفورت ولـكن تأسف بعد ذلك غاية التأسف من هذا الغضب الوقتى
كما وقع مثل ذلك لاسكندر الرومى فى قتل كلوتوس واستسجج بطرس
لوفورت وقال له انى ارجب فى اصلاح رعيقتى مع انى لم استطع اصلاح نفسي
الى الآن ومع ذلك فقد اطلب هذا الجزال اعنى لوفورت فى مدح بطرس
فى كتابه المسطر بخط اليد حيث اثنى على اخلاقه وطبيعته اكثر من لومه
على عيب حدته وغضبه

ثم قصد اهل السفارة طريق اقليم بوميرانيا وبرلين ثم اقرقوا فذهب
بعضهم من طريق مغدبورغ وبعضهم من طريق همبرغ وهى مدينة
كانت يومئذ قوية بسبب تجارتها العظيمة الا انها لم تكن اذ ذاك ذات ثروة وسعة
ولا تأنس وتعدن كما حدث فيها ذلك كله فيما بعد ثم انعطف الجماعة الى
مدينة مندان واجتازوا اقليم وستفاليا حتى وصلوا الى مدينة
امستردام من طريق مدينة كايوه

وكان بطرس قد سبقهم الى هذه المدينة قبل وصولهم اليها بخمسة عشر يوما
فزل اولاد اركبانية الهند ومكث بها يسيرا ثم انتقل الى منزل صغير اتخذه لنفسه
فى الترسانة البحرية وتزيا برى رئيس مركب وذهب بجماعته الى قرية سردام
حيث كانوا ينشئون بها سفنا اكثر من وقتنا هذا وكانت هذه القرية كبيرة
عامرة ذات ثروة ونظافة ككثير من المدن ذات الثروة فتعجب من كثرة ارباب
الاشغال بها ومن مواظبتهم على اشغالهم وسرعتهم فى انشاء السفن ونطقهم
بجميع موادها ولوازمها فى اقرب وقت وتعجب ايضا من المخازن العديدة

التي يستبدها العقل ومن الاكاث التي بواسطتها يسهل العمل وتكون بها
الصناعة في غاية من الاحكام والاتقان فبادر بشراء مركب وكان صار بها
مكسورا فاصلمه بنفسه ثم اخذ في تعلم صناعة اجزاء السفن وصار يشتغل
بذلك وسلكت في معيشته مسلك الشغالين بهذه القرية فكان مثلهم في المأكل
والملبس واشتغل معهم في ورش الحديد والحبال والطواحين الكثيرة التي كانت
محيطه بالقرية المذكورة وكانت هذه الطواحين معدة لنشر اخشاب الراتنج
والصنوبر ولعصر الزيت وصناعة الورق وعمل السلوك من المعادن
المتطرفة بل تقيد في دفتر الترسانة في جملة الشغالة مسجلا نفسه بطرس ميخايل
وكان معروفا عندهم بالاوسطه بطرس ولم يكن للشغالة به في مبدأ الامر
مخالطة بل كانوا يهابونه لكونهم رؤا وملكان الملوكة قد صاحبه في اشغالهم
ثم آل الامر الى أن تعودوا عليه وتأنسوا به وصاروا واحد منهم
ويخافونهم ومشتغل في قرية سردام بصناعة السفن علما وعمالا اذ بلغه خبر
صحيح بأن مجلس حكومة له قد انعقد ووقعت المذاكرة على انتخاب ملك فافترق
اهل الجاس فرقتين احدها اختارت اغسطوس منتخب سكس والاخرى
اختارت الامير دوكونتي الفرنسي فبعجرت ما بلغه هذا الخبر
وعد اغسطوس أن يمدّه بثلاثين الفا من العساكر وكتب وهو في الورشة
امرا الى جيوشه بالتوجه لاعانة اغسطوس وكانت يومئذ مجمعة في اكرينة
لقصدة قتال العثمانية

وكانت تلك الجيوش في شهر يولييه سنة ١٦٩٦ ميلادية
قد حازت النصر على التتار بقرب بحر ازاقي وكان قائدها في ذلك
الجنرال شين والامير دلفروكي بل واتصروا ايضا على فرقة
من الانكشارية كان قد ارسلها السلطان مصطفى هذا ولم يزل بطرس
مستترا على تعلم فنون عديدة بقرية سردام وذهب منها الى مدينة
امستردام لتعلم فن التشريح على رويش وكان من مشاهير علماء هذا
الفن فعمل عمليات جراحية صار له بها استعداد بحيث ينفع نفسه اوضباطه

عند الحاجة وكان يتعلم علم الطبيعة والموليد في منزل برغمستروستان وهو رجل من الاهالى حاز الشهرة بسبب حبه لوطنه وبذله للاموال الجسيمة في تحصيل ما يكون به النفع العام وبارساله في جميع الاطوار رجالا من ارباب المهارة والنجابة يتفق عليهم الاموال الجمة للبحث عما يوجد فيها من الغرائب وبارساله سفنا يدفع اجرتها من ماله لاجل استكشاف اراض جديدة وما زال بطرس مستترا على الاشغال حتى سافر الى مدينتي اوترشت وهايه بغير احتفال يليق بمنصبه الملوكي فاصدار رؤية غليوم ملك الانكليز ورئيس جمهورية الاقاليم الفلمنكية المجتمعة فلما تلاقيا لم يكن لهما ثالث الا الجفزال لوفورت فشاهد بطرس وهو بغير المظهر الملوكي كيفية دخول الحيتة الى الديوان ورسوم تلقيهم وما يصنع لهم من التشرى فلت والاحتفال وكيفية معاملته الملك اياهم وبعد تمام التشرى فبات لهم اهد والارباب بمجلس الجمهورية من طرف الجار بطرس ستمائة كرك من السجور النفيس فاهدى اليهم ارباب الجمهورية زيادة على الهدايا المعتادة لكل واحد منهم وهى كسيتيك من الذهب وتمثال علامة على الشرف ثلاث عربات قيسة وكان اول من حضر اليهم لاجل الزيارة والتهنئة بالقدوم جميع وكلاء الدول المفوضين الذين كانوا اذذاك في جمعية رسويك ماعدا وكلاء دولة الفرنساوية فانهم لم يحضروا لعدم تحرير الجمية بطرس لهم اشعارا بقدومهم حسبما تقتضيه الرسوم الجارية وليس عدم اعلامهم لمجرد كون الجار بطرس كان منتصرا للملك اغسطوس على الامير دوكتي الفرنساوى بل هنالك سبب آخر وهو أن الملك غليوم الذى كان بينه وبين الجار وقتئذ الصداقة التامة كان لا رغبة له في الصلح مع مملكة فرنسا اصلا ولم يرجع الجار الى امستردام عادالى ما كان عليه من الاشغال وتقم بنفسه سفينة ذات ستين مدفعا وكان قد شرع في عملها قبل سفره ثم ارسلها الى ميناء ارفنجل لانه وقتئذ لم يكن له ببحار الاوقيانوس غير تلك الميناو كان يدخل في خدمته الهاربين من الفرنساوية والسويسية والنمساوية ولا يقتصر

على ذلك بل كان يبعث ايضا الى مدينته موسكو كثيرا من ارباب الصنائع المختلفة ولكنه كان لا يرسل منهم احدا الا بمن عاين شغله بنفسه وقلما فاته شيء من دقائق الصنائع والحرف الابحرفيه لانه كان يشتغل بجميع الاشياء لاسيما اصلاح خارطات علماء الجغرافية الذين كانوا يرسمون بمجرّد الخدس والتخمين حسبما اتفق اوضاع مدن دولته وانهارها لانهم لم تكن وقتئذ معروفة لهم حق المعرفة وقد حفظت الخارطة التي رسم عليها بطرس ما كان عزم عليه من وصل ببحر الخزر بالبحر الاسود وكان قد اُلزم باجراء ذلك مهندسا منساويا يقال له براكيل وكان وصل هذين البحرين ببعضهما سهل مما وقع في مملكة فرانسوا من وصل البحر المحيط الاطلنطيقي بالبحر الابيضسمى بحر سفيد واما وصل ببحر ازاقي ببحر الخزر الذي كان قد قواه بطرس فكان يستبعدة العقل ولا يصدق باجرائه احد وكان بطرس يستحسن انشاء محال جديدة في تلك النواحي لان النجاس كان حليفه في كل مشروع قصدي اليه فوافوا كان ذلك يقوى امله ويحقق رجاءه

وفي الحادي عشر من شهر اغسطس سنة ١٦٩٧ ميلادية انتصرت جيوشه على التتار قريبا من بحر ازاقي وغلبوا بعد ذلك بعبدة أشهر على مدينة الذهب المسماة ار ككاييا ويقال لها عند الفرنسيين بريكوب فصار له بذلك موقع عظيم ومزيد اعتبار عند من كان يلومه على ترك دوله ومكته في مدينة امستردام ليتعلم فيها الصنائع والحرف لانهم كانوا يرون أن مصالح دولته لا تقبل أن يشتغل عنها بالفلسفة والسياحة وتعلم الصنائع والفنون

ولم يرزل بطرس على ما كان عليه في مدينة امستردام من عمل السفن وتعلم الهندسة والجغرافيا والطبيعة وعلمياتها حتى ارتحل الى بلاد الانكليز يقفوا اثر اصحابه وجماعته ارباب السفارة في اثناء شهر يونيو سنة ١٦٩٨ من الميلاد فلما وصل الى تلك البلاد ارسل له غليوم ملك الانكليز سفينته الملوكية مع سفينتين من السفن الحربية واستقر بطرس على ما كان تعود به بمدينة

امستردام في الماكل والمشرب وسكن خريسان الترسانة الكبرى بمدينة
 ديتوفور ولم يشتغل هناك بغير التعلم الا نادرا لانه لم يكن يتعلم على صناع
 السفن الفلنكيين باستردام الاطرقهم الخاصة بهم في تلك الصناعة وهي
 طرق قاصرة فاقن هذا الفن ببلاد الانكليز لانهم كانوا يمدون السفن على مقتضى
 القياسات الهندسية فتقوى في هذا الفن حتى صار عمال قليل عالما ما هرا يصلح
 لأن يكون استنادا وشرع في مدسقية على منوال سفن الانكليز فجات من
 اعظم السفن السريعة السير ورأى صناعة الساعات قد تكاملت بمدينة
 لندره فاشتدت رغبته في تعلمها فتعلم قواعدها واصولها وقد قال القبطان
 المهندس برى وكان قد قدم مع بطرس من لندره الى بلاد
 الموسقوان بطرس لم يترك شيئا من الصنائع البحرية عظيمها وحقيرة هان سبيل
 المدافع الى قتل الحبال الا باشره بيده كلما دخل الورش والمعامل
 وقد رأى من الصواب لاجل ايقاع المحبة بينه وبين الانكليز أن يدخل
 في خدمته ارباب الصنائع والحرف منهم كما فعل ذلك ببلاد الفلنك بل وجد
 عندهم زيادة على ذلك مع السهولة من كان يعسر عليه تحصيله باستردام
 من ارباب العلوم الرياضية فقد ادخل في خدمته المهندس الماهر فرغسون
 الايقوسى وهو الذى رتب العمليات الحسابية بدواوين المالية في بلاد الموسقو
 وكانوا قبل ذلك لا يعرفون في هذا المعنى الا طريقة التتار وهى العذب محبوب
 مستديرة ينظمونها فى سلك من الخناس وهى وان كانت تسد مسد الكتابة
 الا انها تشوش الذهن وتوقع فى الحيرة وربما تطرق اليها الخطا لانه بعد العتبه
 لا يمكن للانسان أن يعلم هل اخطأ فى عدده ام لا هذا ولم يعرف الفرنسيون والاروم
 الهندية المستعملة عندهم الا الآن الامن العرب فى القرن التاسع وامادولة
 الموسقو فلم تعرفها الا بعد الف سنة كما هو شأن جميع الفنون حيث لم تنتشر
 فى اقطار الارض الا مع غاية البطى والتراخي وقد صاحب فرغسون شابان
 انكليزيان من كتب الرياضيات وكان هذا الاجتماع بعد الافتتاح فى انشاء
 المدرسة البحرية وكان بطرس يرصد الكواكب ويحسب كسوف الشمس

والقمر

والقمر مع فرغسون وكان المهتمس يرى يشهد له بمعرفة علم الفلك مع انه كان في حلق شديد منه لكونه لم يكافئه حق المكافأة وقال ان بطرس كان يعرف حق المعرفة حركات الاجرام السماوية وقوانين تناقلها وتجاذبها وسيرها وقد كانت هذه القوانين والنواميس التي بها تتقارب النجوم السيارة وتتناذب وتبقى على تماسكها في افلاكها مجهولة قبل فوطون فما خرجت من حيز الجهالة والظهور واليقين الاوصارت من المألوفات لملك الموسقو مع أن الناس في غير هذه الدولة كانوا لا يزالون يقبلون كلما سمعوه من الخرافات والالوهام ويعتقدون بحمته وكان بعض من يدعى العلم في وطن غاليلة يأمر العامة باعتقاد أن الارض ثابتة

ثم ان يرى سافرا لا اشتغال بوصول بعض الانهار ببعض وانشاء بعض قناطر وجسور لما أنينة البحار بطرس انما كانت وصل كل من البحر المحيط وبحر الخزر والبحر الاسود ببعضها بواسطة خلبان

ومما ينبغي التنبيه عليه أن بعض تجار الاتكيز الذين كانوا تحت رياسة الماركين دوكرمرتان وهو قبودان باشا دفعوا الى بطرس خمسة عشر الف جنيه اتعطى لهم رخصة بيع الدخان ببلاد الموسقو وكان بطريق الموسقو لشدّة قسوته قد منع هذه البضاعة في تلك الديار لان الديانة الموسقوية كانت تحرم شرب الدخان ونعته من المائثم كان بطرس يفوق هذا الطريق تمدنا ومعرفة وكان من جملة ما عزم عليه معارضة الكنيسة في احكامها فاستحسن نسخ هذا الحكم ورضخ في دخول تلك البضاعة في دوله

وقد امر غليوم قبل خروج بطرس من اتكيزة بعمل صورة حرب بحري تشرى فيا لحضور هذا الضيف العظيم وكان الناس اذ ذاك يجزمون بأن بطرس لا بد أن يفعل ذات يوم مثل هذا الحرب مع الاسوج وانه يفوز بالضرورة عليهم في بحر بلطيق وآخر الامر أن غليوم اهدى الى بطرس سفينة كان من عادته ركوبها اذا اراد الذهاب الى بلاد الفلنك وكانت تسمى

روبال ترنسبورت اى السفينة القرالية وكانت محكمة الصناعة ظريفة
الشكل فركب فيها بطرس وعاد الى بلاد الفلمنك في غاية شهرمايه سنة
١٦٩٨ ميلادية واخدمعه ثلاثة من قباطين السفن الحربية وخمسة
وعشرين من رؤساء السفن يلقبون ايضا قباطين واربعين ضابطا من الملازمين
وثلاثين جراحا ومائتين وخمسين من الطوبجية واكثر من ثلاثمائة من ارباب
الحرف والصنائع فجميع هؤلاء الرجال الماهرين في صنائعهم ركبوا البحر
في هذه السفينة وساروا من بلاد الفلمنك الى ميناء ارفنجل ومنها توزعوا
الى محال لزومهم واما الذين كانوا دخلوا في خدمته باستقدام فاخذوا
في السير على طريق مدينة نروا وكانت وقتئذ في حكم الاسوج

وايضاحين كان بطرس ينقل العلوم والفنون من بلاد الانكليز والفلمنك
الى ممالكه دخل في خدمته كثير من ارباب الصنائع من مدينة رومة
ومملكة ايطاليا بواسطة الضباط الذين كان قد ارسلهم الى تلك الجهة وكان
الجنرال شرمتوف الذى كانت له الرياسة على جماعة بطرس بايطاليا قد
ارتحل من مدينة رومة الى مدينة نابلي ثم ذهب منها الى البنادقة ومنها الى
جزيرة مالطة واما بطرس فسار الى مدينة بيج كرسى النيسا مع من بقى من
اتباعه وكان مرافقه مشاهدة ما عند النيساوية من الضبط والربط العسكريين
بعد أن شاهد الدونمات الانكليزية والورش الفلمنكية وكما كان غرضه
من الاسفار تعلم الفنون والعلوم كان مرافقه ايضا معرفة الامور السياسية وكان
ليوبولد اميراطور النيسا متعاها معه على محاربة الدولة العثمانية فذهب
اليه بطرس لايلى الملوك بل كالاتحاد وتقابل الاتحاد فاعين اجتنابا للتكليف
وبعدا عن سلوك تلك المضايق

وفي مدة اقامته عنده بمدينة بيج لم يشاهد من الامور الغربية والالعب
المجبية الا الموسم المسمى موسم المضيف والمضيعة اى صاحب المنزل وصاحبة
المنزل وهو موسم قديم عندهم الا أنه لم يقع في ايام ليوبولد فجدده تعظيما
لبطرس ويسمى بلسانهم ويرتشف وكيفيته أن الامبراطور

والامبراطورة

والايمراطورة تشكلا بشكل رب المنزل وربة المنزل وابنه الاكبر الملقب ملك
الرومانيين وسائر اولاده وبناته وعائلته ذكورا وابائناهم عادة المساعدون لهما
فيتملقون في المضيعة كل من تزييا برى قدما الملل * وكل من دعى لهذه الوليمة من
الضيوف يأخذ بالقرعة قبل الدخول ورقة من جملة اوراق مكتوب على كل
واحدة منها اسم الله وما يلزم آخذها من التزيي برى الطائفة المعينة من طوائف
تلك الملل على اختلاف درجاتهم فخرج ورقة بالتزيي برى امراء الصين
ومنهم من تخرج ورقة برى امراء التتار او العجم او ارباب مشورة السنت
برومة فعلى ذلك قد يتفق أن الاميرة تزييا برى يستأنف اولبانه وكذلك الامير
قديكون فلاحا ومن انقار الجهادية ثم يحصل الرقص بينهم في المضيعة على
حسب اختلاف العوايد فيه واما صاحب المنزل وصاحبة المنزل وعائلتهما
فيقومون بخدمة الضيوف على المائدة فهذه هي كيفية الموسم القديمة وقد
اتفق في هذه المرة أن ابن الملك المسعى يوسف وقوتيجة دى ترون كانا على
هيئة قدماء المصريين والارشدوق كرلوس وقوتيجة دى ولستين كانا على
هيئة الفلنك في عهد شريكان والارشدوقه مارية ابليزايطة وقوتية
دوترون كانا على هيئة التتار والارشدوقه يوسفينا وقوتية دوور كلا
كانا على هيئة العجم والارشدوقه ماريانا والامير مكسميليان دوها نورة
كانا على هيئة فلاحى شمال الفلنك واما بطرس قترزيا برى فلاحى اقليم
فريرة فكانوا يخاطبونه في شأن چار الموسقو الاكبر بما يخاطب به هؤلاء
الفلاحون الذين تزييا برىهم وانما ذكرنا ذلك وان لم يكن من الامور المهمة لانه
يذكرنا العوايد القديمة

ويتمكان بطرس في مدينة بيج متأهبا للسفر الى البنادقة ليمتع التعلم
اذ بلغه وقوع قسنة اضطربت منها ماله

* (الفصل العاشر) *

في الكلام على عقاب المخزيين وابطال اوجاق عساكر الاسترايج وما حصل
من التغير في العوايد والاخلاق والدولة والديانة بالديار الموسقوية

لما عزم بطرس على الرحلة من بلاد وكان قد تبصر في العواقب فرتب جميع ما يلزم لدولته حتى انه رتب طرقا لقطع من شير القننة ويخرج عن الطاعة ولكن ما صنع من الامور المهمة النافعة لدولته كان سببا في وقوع الفتن والاضطراب

وكان اول من أثار القننة والعصيان في هذه الدولة بعض امرآ البلاد الطاعنين في السن الذين كانوا لا يميلون الا الى العوايد القديمة وكذا بعض القسوس الذين كانوا يعدون العوايد الجديدة من قبيل الكفر والاطحاد فعاتت بذلك عصبية الاميرة سوفية ويقال ان احدى اخواتها التي كانت معها في دير واحد كان لها مدخلية عظيمة في اغراء الاهالي وتحريرهم على الخروج فوقع في قلوبهم خوف شديد من قدوم الاجانب الى ديارهم لاجل التعليم وهل مثل ذلك يصدر من عاقل وكان من اقوى الاسباب الباعثة على ايقاع الفتن في المملكة ترخيص الجزار في بيع الدخان بها قهرا عن القسوس ثم ان الاوهام الفاسدة التي هي داء عضال في جميع اقطار الارض ويميل اليها جهلة الاهالي سرت من الموسقوالى اوجاق عساكر الاسترليج وكانوا اذ ذاك منتشرين في ضواحي اقليم لوثيانا فاجتمعوا وساروا جميعا الى مدينة موسقو عازمين على تولية سوفية على سرير الملك وضع بطرس من الاياب الى دولته حيث تجاسر على هتك حرمة العوايد القديمة بذهابه الى البلاد الاجنبية ليتعلم علومها وفتنونها وكان العساكر الذين تحت قيادة كل من الجنرال جين وخردون امهر منهم في فن العسكرية فهزموهم على البعد من مدينة موسقو بخمسة عشر فرسخا فازداد غيظ الملك الروسية من نصرة هذين الجنرالين الاجنبيين على عساكر الاسترليج لاسيما وقد كان معهم كثير من اهالي تلك المدينة

ثم ان الجار سافر سرتامن مدينة بيج في شهر ايلول سنة ١٦٩٨ من الميلاد لاجل اطفاء نار تلك القننة ومر في سيره بمملكة له واجتمع فيها بدون احتفال ولا مظهر بالملك اغسطس ودبر معه ما يكون به اتساع ممالكه من جهة بحر

بطلق ثم سار حتى دخل مدينة موسقو على حين غفلة فتعجب جميع اهلها من
وجوده بين اظهرهم وكافأ العساكر الذين كانت لهم النصرة على اوجاق الاسترليج
وكانت الجيوش مشعونة بهؤلاء الاشقياء الذين حق عليهم الهزيمة فعاقبهم
عقابا شديدا بقدر جسامة ذنوبهم فقتل رؤساهم وعدة من الضباط وبعض
القسوس وقتل آخرين بالوطئ عليهم بالعجل حتى ماتوا ودفن امرأتين بالحياة
واهلك منهم ألفين فعلق بعضهم على اسوار المدينة وقتل بعضهم قتله اخرى وترك
جثثهم ملقاة مدة يومين في الشوارع العامة لاسيما حوالى الدبر الذى كانت به
الاميرة سوفية واختها الاميرة ادوكسة واقام اعمدة من الحجر ونقش عليها
جناساتهم وعقوباتهم وبدخل من كان معهم بمدينة موسقو من اولادهم
ونسائهم فانتشروا ببلاد سبير ومملكة ازدرهان وازاق فكان اقل غمرة
ترتبت على معاقبتهم ونفيهم لتلك الجهات هو ارتفاع الدولة من حيث تعمير
الاراضى الخالية من الاهل والعمران فتجدد فيها الخصب بعد أن لم يكن
ولولأن الحار جبر على ما فعله مع هذا الاوجاق من العذاب الشديد لقصد
العبرة لغيره لادخل طائفة منهم في الاشغال الميرية فانه قد خسرهم هو ودولته
مع أن النفوس البشرية تحترمة معصومة بحقن دمها ما امكن لاسيما في مثل
هذه المملكة التى كانت محتاجة وقتئذ لأن يعتنى مقنن قوايتها بـ كثير
اهلها لكنه قصد بما صنعه من تعداد العقوبات ايقاع الرجة في قلوب اهل
دولته وادعائهم له دائما فان اوجاق الاسترليج الذى لم يمكن لاحد من الملوك
السابقين أن يتعرض له فى شئ ولو فى تقليل عهده اباده بطرس عن آخره
وقطع دابره ومحاسنه وسيرته من غير أن يعارضه فى ذلك احد لانه تدارك هذا
الامر واستعد له قبل وقوعه وقد وقع فى هذا العصر أن اوجاق الانكشارية
خرجوا على السلطان عثمان وخلعوه ثم ذهبوه ولم يكن لذلك مقتضى الاجترار
توهمهم فيه أنه يريد تقليل عددهم بخلاف بطرس فانه كان له فى ذلك الحظ
الاوفر حيث احكم تدبير هذا الامر واتقنه ولم يبق من الاوجاق المذ كور
الايات قليلة ضعيفة لا يخشى بأسها فى شئ ومع ذلك لم ير الواعى اوهاهم

القديمة فخرجوا عن الطاعة في ازدياها ان سنة ١٧٠٥ ميلادية
لكنه اسرع بقمعهم واذلالهم

وعلى قدر ما حصل من بطرس من المساواة في هذه القعلة المهمة فعل بعد
ذلك بمدة في شهر اذار سنة ١٦٩٩ من الميلاد ما يقضى بانسانيته
ومروته وذلك ان نديمه الجنرال لوفورت اختطفته المنية في عنف وان شبابه
حيث كان عمره يومئذ ستاوار بعين سنة فصنع له جنازة عظيمة تليق
بعظماء الملوك تشرىفاله حيث حضر فيها بنفسه قابضاً بيده على رمح وتأخر
في تشييع الجنازة عن صف اليوزباشية الى صف الملازمين لانه كان
في رتبتهم وكان قد حاز هذه الرتبة وهو في الاى هذا الجنرال المتوفى
وكان الباعث له على ذلك شرف نفسه وتعظيم ذوى المعارف واحترام الرتب
الجهادية

وبعد موت لوفورت ظهر للناس أن التغيير الذي حصل في الدولة لم يكن بسببه
وانما هو من الجدار نفسه وفي الواقع أن لوفورت لم يكن له في ذلك دخل
الا كونه يتر الجار على ما يديه له من الاغراض حين المذاكرة فيع او اما تميزها
واجراؤها فليس الامن صنع بطرس

ولما دمر بطرس اوجاق الاسترليج رتب الايات منتظمة تضاهي
في الهيئة عساكر النمساوية حيث البسهم جميعا ملابس قصيرة على نسق واحد
بدلا عن الملابس الطويلة التي كانوا يلبسونها قبل ذلك ورتب لهم طرق تعليم
الحركات العسكرية وجعلها على غاية من الاحكام والانتظام

وكانت عساكر الوردان الذين يقال لهم پريوبازنسكى موجودة في ذلك
الوقت وسميت بذلك لانها بنيت على بلوك قديم كانت عدته خمسين رجلا وكان
الجار قد باشر تعليمه في صفه بمجدا پريوبازنسكى حين كانت اخته سوفية
هى التي تحكم الدولة وكان الاى الاخر من الوردان ايضا موجودا

وكأن بطرس ترقى في الرتب الجهادية الصغيرة بالتدريج اراد أن ابنا امرأه
دواته وحكم داراتها يكونون بهذه المشابه بحيث لا يترقون الى درجة الضباط

الابعد جعلهم افضلا في الجهادية وقتلهم في رتب الصفوف وهكذا ثم جعل
جماعة منهم في دوننا وبيرونية وجهة بمرزاق فاخذوا ولا يتعلمون
ما يتعلمه الاقارب البحرية ولم يجسر احد من الموسقو على مخالفة هذا الملك الذي
كان اسوة لهم في مثل ذلك وكان الانكليز والفرنك المقيدون في خدمته
مهمين وقتئذ بتهيئة الدوننا باقامة الجسور وانشاء الدكاك لاجل اصلاح السفن
في اليبس ومشتغلين بمصلحة اخرى جسيمة وهي وصل نهر الطون بنهر الانل
وكان براكيل النيساوى قد شرع في ذلك ولم يتمه ومن يومئذ اخذ
بطرس في تنظيم مشورته الملكية والخزائن المالية وتحرير القوانين الدينية
بل وشرع فيما يكون به نظام الاهالى ويكسبهم التمدن والتأنس والتربية

وكانت ادارة المالية سابقا على منوال ما في الدولة العثمانية تقريرا فكان كل
ويودود اى امير ويقال له ايضا بويار يدفع على خراج اراضيه قدرا معلوما
يجمعه من فلاحيه المستعبدين له فرتب الجارلجي هذا الخراج جباة من الاهالى
ومشايج البلاد الذين لا قدرة لهم على ادعاء أن لهم الحق في كونهم لا يدفعون
الامايرون دفعه وقد كابد الجارلج في هذا الترتيب الجديده مشاق فادحة حيث
اقتضى الحال اختبار ذلك أولا بعدة طرق قبل الاستقرار على طريق مقررة

واما التغيير في الاصول الدينية الذي كان يظن جميع الناس أنه يشق على الجار
ويكون به عرضة للخطر فكان على خلاف ظنهم حيث لم يحصل فيه اذى مشقة
وكان البطازقة كالاسترليج ينزعون بعض الاحيان في الحكومة
ويطلبون أن يكون بايديهم ما هو مخصوص بالتاج الملوكن من الحل والعقد
قد وقعت المنازعة في ذلك من البطرق فيقولون مع الجسارة والوقاحة وكذلك
فعل يواشيم احد من تخلف بعده الا أنه كان يسلك في ذلك مسلك التحيل
والخداعة وكان الاساقفة يزعمون أن لهم حق السيف وهو حق الحكم في الحدود
والجناسيات وذلك مخالف لما تقتضيه الديانة والسياسة فمنعهم بطرس من
هذا الاقتيات الذي تعودوا عليه من قديم الزمان وذلك أنه أعلن حين مات
البطريق ادريان في آخر هذا القرن (اعنى القرن السابع عشر من الميلاد)

بإبطال منصب البطرقية رأسا فبطل من يومئذ هذا المنصب بالكلية وصار
نسيا مفسيا وضبط على الاموال الجسمية التي كانت معدة لهذا المنصب وضمت
لجانب الميرى لان الدولة اذذاك كانت محتاجة لها نعم وان كان الجار لم يتول
رياسة الكنيسة الموسقوية بنفسه كما فعل ملوك الانكليز حيث تولوا رياسة
الكنيسة الانكليزية الا أنه كان عليها سيدا مطلقا التصرف لان القسوس
لم يجاسروا على عصيان مثل هذا الملك المطلق التصرف ولا على معارضته
ومناظرته لانه كان يفوقهم علما ومهارة

هذا وينبغي الاطلاع على مقدمة قوانين بطرس الدينية التي رتبها سنة
١٧٢١ من الميلاد ليعلم الواقع عليها أن هذا الملك كان جامع بين صفى تقنين
القوانين والسيادة الملوكية على رعيته ونصها الذي نعتقده أننا بعد أن رتبنا
القوانين الجهادية والملكية لا تبرأ ذمتنا عند الله تعالى اذا نحن اهملنا القوانين
الدينية وغيرها اقتداءا بأسلافنا السابقين والملوك الماضين الذين كان يمنعهم عن
ذلك الديانة والتقوى فالترمنا أن نشمر عن ساعد الجذو والاجتهاد في تقنين قوانين
دينية مستحسنة ووضع اصول محكمة متقنة انتهى نعم وتب جمعية من
القسوس لاجل اجراء ما رتب من القوانين الدينية الا أنه لزم ارباب هذه الجمعية
أن يؤثوه قبل الشروع في تلك الخدمة موثقا بحملتهم بمينا بصيغة مخصوصة
وضعها الجار وهي صيغة المبايعة وكتب عليه امضاءه وكن غرضه منها الطاعة
والاقتياد وصورتها انى قد التزمت وتعهدت أن اكون امينا طائعا خادما تحت
استرعام ملكي الحقيقي ومن يعينه ويستنسبه للخلافة بعده من اماجد الناس
واخيارهم بحاله في ذلك من الحق والقوة التي لا تقاوم واقر واذعن أنه هو الحاكم
المطلق التصرف في هذه الجمعية واقسم بالله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية
انى غير مور في هذه الالية بل قصدت منها المعنى الصريح المتبادر لكل من نطق
بها وجمعها انتهت وهذا الميثاق أكد واقوى من الميثاق الذي يؤخذ على
رياسة الكنيسة ببلاد الانكليز وفي الحقيقة لم يكن الجار من اعضاء هذه
الجمعية القسيسية وانما كان يرتب لهم القوانين ويمليها عليهم وكان لا يباشر

امور الكنيسة وانما كانت له ادارة معيا شري ذلك
وقد رأى بطرس أن الرهبانية اى عدم زواج الرهبان في عماله المحتاجة
للعمران وتكثير الالهالى مباينة للطبع البشرى والمصلحة العامة وكانت
اعادة الموسقو قديماً أن قسوسهم غير المترهين يتزوجون ولومرة في العمر
بل كانوا مجبورين على ذلك وعند فقد الزوجات يخرجون من العصابة القسيسية
غير المترهبة فرأى بطرس أن مكث كثير من البنات في الاديوار لاجل الترهيب
ومعيشتهن على طرف غيرهن من المفاسد فامرأتهن من الآن فصاعداً لا يدخل
احد ديرا الا اذا بلغ عمره خمسين سنة لان هذا السن غالباً تضعف فيه الشهوة
وامرأياً أن لا يقبل في الاديوار من مكان مستخدم في الخدم الميرية ولو بلغ
في العمر ما بلغ

ولكن لم يستمر هذا الترتيب بل سمح بعد بطرس لكونهم رأوا أن مراعاة
الاديوار والاعتناء بشأنها من الحقوق الواجبة عليهم وامان منصب البطريقية
فلم يعد الى اصله بل لا زال يصرف ابرام الجسيم في ماهيات العساكر
ومرتباتهم

وقد وقع اللغظ بين الناس في مبدأ هذا التغيير فكتب بعض القسوس في رسائله
ان بطرس هو المسيح الدجال حيث لا رغبة له في البطارقة وصار فن الطباعة
الذى كان بطرس يسعى في تقويته وتقدمه معيناً على طبع ما قيل فيه من
القدح والذم وقد رد على القسيس المذكور قسيس آخر قائلاً ليس هو الدجال
اذ ليس في حروف اسمه ما في اسم الدجال من عدد الستمائة والستة والستين
وكذلك لفقده علامات الدابة ثم بطل اللغظ والتشكي بعد ذلك يسير واذا فطرت
الى الواقع ونفس الامر وجدت بطرس قد رتب للكنيسة اموراً نافعة اكثر
عما سلبه منها فانه جعل الطائفة القسيسية بالتدريج على غاية من الانتظام
والمهارة والمعارف حيث انشأ في مدينته موسقو ثلاث مدارس لتعليم
اللغات وألزم كل من كان معه الا انتظام في سلك تلك الطائفة أن يتعلم فيها
وكان من جملة الاشياء اللازمة تغييرها بالابطال والتعسين لزوم ضروريا

هو الصوم الكبير الذي كان عندهم اربع مئدة معلومة وهي عادة قديمة عندهم اوجبها عليهم الكنيسة الرومية وهي مضرة باصحاب الاشغال لاسباب العساكر فهو في ذلك كبدة اليهود القديمة من تحريم القنال يوم السبت فكيف يقرها بطرس ولا يعافى منها ولو العساكر وارباب الاشغال فان هذا الصيام كان لا يباح فيه الاكل بل السكر قط وورخص لهم ايضا في ترك الصوم الذي يجتنبون فيه تعاطى كل ذى روح وألزم بذلك اول رؤساء السفن والجيش ليكونوا اسوة لغيرهم فامتثلوا ذلك بدون اشتزاز ولا نفور

ولا يخفى أن التقويم السنوية معدودة من الامور المهمة والعادة الجارية في ذلك من قديم الزمان بسائر الاقطار والبلدان أن المنوط بها هم رؤساء الاديان دون غيرهم وليس ذلك لجرد الاعياد والمواسم الدينية بل لندرة معرفة غيرهم بعلم الميقات وكانت عادة الموسقو أولا أنهم يجعلون اول اشهر السنة شهر سبتمبر فابطل ذلك بطرس وجعل اول شهرها شهر يونيو كما هي عادة ممالك اوربا المتقدمة وكان هذا التغيير في ابتداء سنة ١٧٠٠ وهي اول القرن السابع عشر الذي اشهره بطرس بالعفو العام والمواسم والاحتفالات العظيمة وقد تجبب العامة من هذا التغيير كيف امكن فيه لبطرس أن يغير كيفية سير الشمس وانتقالها واستتر بعض المعاندين على الطريقة القديمة زعمائهم أن الله سبحانه وتعالى خلق الدنيا في شهر سبتمبر واما الدواوين والمحاكم فصار العمل فيها على الترتيب الجديد وعماتليل جرى العمل عليه في جميع الدولة وكان بطرس لا يرضى بتقويم اغرغوار الرومى الذي اهمله علماء الرياضة من الانكليز مع أن الواجب اجراء العمل عليه في جميع اقطار الدنيا

ولم يعرف للموسقو طريقة المكاتبات والمراسلات الا في اوائل القرن الخامس فصاروا من يومئذ يكتبون في بطاقات من ورق الاشجار اوراق الغزال وبعد ذلك بمدة كتبوا في الورق فلزم الجار أن يضع قانونا يأمرهم فيه أن لا يسلكوا في الكتابة الا على نسق الفرنسية

وقد اتسعت دائرة الاصلاح بالتغيير والتبديل وانتشر حتى عم النكاح وذلك
أن الزواج في الدولة الموسقوية كان أولا على منوال ما يفعل في بلاد الترك
والعجم فكان الرجل لا ينظر مخطوبته الا بعد عقد النكاح ولا يجوز له فسخ
العقد وهذه العادة انما تليق بمن يرى تعدد الزوجات وحل الطلاق وعدم
خروج النساء من البيوت دون من لا يرى ذلك ويقتصر على واحدة ويمنع
الطلاق الا في صور نادرة

فاراد الجار أن يعود رعيته على عوايد الامم الذين ارتحل الى بلادهم واتى منهم
باناس يعلمون اهل مملكته

وكان من جملة الامور النافعة أن يحذو الموسفو في ملابسهم حذو معلمهم
والا فالانسان بطبعه يغبض الاجانب لاسيما اذا كانوا يخالفونه في الملابس وكانت
ملابس المحافل والمواسم شبيهة بملابس اللاهيين والتتار وقدماء الجمار وكانت
على ما يقال مقبولة مستحسنة واما ملابس الاهالي ورعاع الناس فكانت شبيهة
بالدلق وبالثياب ذات الانكمشات والطيأت مما يحاذي الوسط التي تعطى الى
الآن لبعض الفقراء في بعض المارستانات بفرنسا وبالجملة فقد كانت
الثياب الطويلة سابقا لبالساجع الملل لانها لا تحتاج لكثير مصرف ولا صناعة
وكان الموسفو لا يحلقون لحاهم بل يتركونها تسترسل لهذه العلة بعينها
ولم يشق على الجار تعويد اهل ديوانه ودائرته على الملابس الفرنسية
وحلق اللها بخلاف تعويد الاهالي على ذلك فكان من اشق الاشياء عليه حتى
انه اضطر الى أن يضرب مغرما على كل من لبس ثيابا طويلة ولم يحلق لحينه
وعلق على ابواب المدينة اتمونج الملابس الضيقة التي يلزم الاهالي لبسها
وكل من امتنع من دفع هذا المغرم حاكم عليه بقطع ثيابه وحلق لحينه وكان
اجراء هذه الاوامر وتنفيذها مع الملاطفة ولين الجانب فكان ذلك سببا
في الاتقياد وعدم التعصب

ومن المعلوم أن الغرض من التشريع ووضع القوانين انما هو ايقاع الناس
والالفة بين الامم والترسية ولكن لا يكفي في ذلك مجرد جمع طائفة في مدينة

واحدة بل لابد من المخالطة والاخذ والعطاء مع رعاية الادب فيما بينهم اذ بذلك
تجلم مرارة الحياة ويزول تنغيص المعيشة فلذا ادخل الجار في دوله
الجمعيات التأنسية واهم أن يحضر تلك الجمعيات النساء مع بناتهن متزيات برى
اهالى جنوب اوروا وجعل لهذه الجمعيات التى هى اشبه بمواسم صغيرة
قوانين واصولا تتبع وبالجمله فكل شئ حدث فى دولة بطرس حتى آداب
المخالطة والاجتماع انما كان باحداثه وابتداعه مع مساعدة الدهر
وتداول الايام

ولاجل أن يذيق رعيته لذة ما ابدعه من التحسينات ويميلهم الى أن يستطيعوا
هذا المشرب ابطل ما كانوا يستعملونه فى مخاطبات ملوكهم وعرضحالاتهم من
تعبيرهم عن انفسهم بلفظ عبدكم وابدله بلفظ رعييتكم ولم يترتب على هذا التغيير
ادنى شئ يخل بالطاعة بل كان ذلك سببا فى استمالة قلوب الرعايا ومحبتهم له
وفى كل شهر كان يظهر تغيير جديد وانشأ شئ نافع لم يكن فى الشهر الذى قبله
وقد أدته همته الى تحديد المسافات السفرية بوضع اعمدة ميلية من الخشب
فى طريق مدينة موسقو الموصلة الى مدينة ورونيز من كل عمود لمثله
مسافة فرسخ موسقوبى اى سبعة وخمسون قدما وانشأ فى كل عشرين
فرسخا منزلا لانه اى محطة للمسافرين

ولما اهتم على هذا الوجه بما فيه نفع الرعية والتجار وارباب السياسة ادخل
فى ديوانه نوعا من الزينة والزخرفة وهو وان كان طبعه لا يألف ذلك الا أنه رآه
مما لابد منه بالنظر الى غيره من يألفه واحداث ايضا نشان درجة مارى
أندروس وهى من رتب الافتخار التشريفية الجارية فى دواوين اوروا
واول من حظى بحوزة هذا النشان بالبلاد الموسقوية غلوين الذى خلف
لوفورت فى رتبة الاميرال اى قيودان باشا وكل من تشرف بحيازة
هذا النشان يعد ذلك من اعظم المكافأة والمجازاة وكانت علامة ذلك نشان
افتخار يلبسه الانسان ليعلم به الناس أن لابسهم ذواميازا واعتبار وكانت هذه
العلامة لا كلفة فيها على الملك وانما ينسج بها صدور من نالها من الرعية

بدون أن يكون بيده حل ولا عقد .

وقد استحسن ارباب العقول الراجحة من اهل دولته كثيرا من الابداعات والتغيرات النافعة وتلقوا ذلك بالقبول قترتب على ذلك خود نيران التشكي والتظلم عن يميل الى العوايد القديمة ويألفها

وفي اثناء اشتغال بطرس بهذه الابداعات والتحسينات التي جردها في داخل مملكته انعقدت بينه وبين الدولة العثمانية هدنة عادت عليه بالمنفعة حيث وجد في مدتها نسحة في توسيع حدود مملكته من جهة اخرى وذلك أن السلطان مصطفى الثاني لما اتصر عليه الامير اوجين في وقعة جزيرة زانته سنة ١٦٩٧ ميلادية واخذت منه المورة التي كان استولى عليها البنادقة وعجز عن المدافعة عن بحر ازاغ اضطر الى الصلح مع جميع اعدائه الذين كانت لهم النصرة عليه (وذلك في السادس والعشرين من شهر يونيو سنة ١٦٩٩ من الميلاد) وكان انعقاد هذا الصلح بمدينة كارلوتز بين بترودين و سلكن وهما محلان شهيران بهزيمة هذا السلطان فيها وبموجب الصلح المذكور صارت تمزوار (وهي بلدة من بلاد البحار) حدا بين اراضي الدولة النمساوية والدولة العثمانية وعادت مدينة كامنيك لمملكة له واما موره وبعض مدن من دلناسيا فبقيت تحت ايدي البنادقة مدة من الزمن واما بطرس فاستمر مستوليا على بحر ازاغ وعدة قلاع حوله وكان يشق عليه اذذاك توسيع مملكته من جهة بلاد الدولة العثمانية خوفا من أن قواهم العسكرية التي اجتمعت بعد التفرق قشش الغارة عليه فتهمزه واما ما كان يؤمله في شأن بحر ازاغ من المقاصد البحرية فكان من الامور الجسيمة والاغراض العظيمة ولما رأى أن بحرا انظرر لا يصلح أن تكون به دون تخا حربية وجه مقاصده نحو بحر يلبطق ومع ذلك لم يدع ما كان مشغلا به في نهر طونة ونهر الاثل من العمارات البحرية

* (الفصل الحادي عشر) *

في الكلام على حرب الموسقو مع الاسوج وذكر واقعة نزوا

قد وقعت حادثة عظيمة جهة حدود بلاد اسوج وكان افراطا كرلوس الحادى عشر ملك اسوج والد كرلوس الثانى عشر فى اطلاق التصرف وتجاوزه الحد فى الحكومة من جملة الاسباب الاصلية التى ترتب عليها سائر الفتن والتعكرات من اقليم انغريا الى مدينة درسدة يبلاد سكس وتخرب بها كثير من الممالك مدة ثمان عشرة سنة ولا بأس بآراء هذه الحادثة وذكرها كلما وجدت مناسبة لذلك لانها مما يخص الملوك والرعايا فنقول ان اهل له نزولوا عن معظم اقليم ليوونيا وعن اقليم استونيا بتمامه لكرلوس الحادى عشر الذى ورث كرلوس العاشر وكان ذلك فى وقت مشاركة اوليوا ولكن كان نزولهم عن ذلك بشرط بقاء المزايا وحفظ الخصائص حسبما جرت به العادة عندهم فلم يراع كرلوس الحادى عشر حرمة اربابها حق المراعاة ولم يعمل بهذا الشرط كما ينبغي فذهب بطقول وكان من ملتزمى ليوونيا الى مدينة استنم قاعدة ملك اسوج سنة ١٦٩٢ ومعه ستة من وكلاء هذا الاقليم لينشوا شكواهم الى الملك مع رعاية الادب والوقار فلم يحيمهم الا بالقبض على الوكلاء الستة ووضعهم فى السجن واما بطقول فامر بقتله قتله شنيعة فلم يمكث حتى يتغذ فيه هذا الامر بل فرها ربا الى بلاد وود بجمهورية السويدية ومكث بها مدة حتى بلغه أن اغسطوس منتخب اقليم سكس وعد أنه اذا تولى ملك بلاد له ليردن ما سلب ظلما من اقاليم هذه المملكة الى اربابه فسافر بطقول فورا الى مدينة درسدة ليلبى لاغسطوس بعد أن تولى ملك له أن استرجع اقليم ليوونيا من السهولة بمكان وأنه ليس عليه كبير مشقة فى أن ينتقم من ملك عمره سبع عشرة سنة فى تطير ما تغلب عليه اسلافه من البلاد والاراضى

وكان قد وقع بالصدفة والاتفاق أن الجار وقتئذ خطر له أن تغلب على كل من انغريا وكاريلية وهما اقلجان كان الموسقو استولى عليهما سابقا ثم تغلب عليهما الاسوج بالحرب والقتال فى عهد الدولة الدمتروسية الادعائية الكاذبة التى كانت حاكمة على بلاد الموسقو وبقيت تحت الحكومة

لا سوجية بمقتضى المشارات فعلى تلك الامانع من استيلاء الموسقو عليهما بموجب حروب ومشارات جديدة فسا فريضا بطقول من مدينة درسة الى مدينة موسقو ليترض الجار ايضا فكان بذلك محترضا للملكين على الانتقام له وسعى فيما يوجب التثامهما واجتماعهما على هذا الغرض وبادر الى تجهيز ما يلزم لهما في التغلب على سائر ما في شرقي اقليم فنلندة وجنوبه من البلاد والاقاليم

وفي هذا الوقت بعينه تعاهد ملك داتيمرقة الجديد وهو فرد ريق الرابع مع الجار واغسطوس ملك له وتحزبوا جميعا على كرلوس الثاني عشر الذى كان اذذاك صغير السن وكان يظهر من حاله أنه لا قدرة له على مقاومتهم واما بطقول فقد فرح بتولية حصار الاسوج حيث حاصره في مدينة ريغا قاعدة اقليم ليونينا محاصرة شديدة وكان في هذا الحصار بوظيفة رئيس رجال جهادية

وفي شهر سبتمبر بعث الجار ستيين القامن العساكر جهة اقليم أنغريا ولكن لم يكن في هذا الجيش الجزار من العساكر المتعودين على الحرب العارفين بفن العسكرية الا اثنا عشر الفا كان الجار قد باشر تعليمهم بنفسه وهم الايان من الوردان وبعض الايات اخرى وامان عداهم فكان من العساكر الغير المنتظمة التي لا معرفة لها بالحركات العسكرية فمنهم جماعة من القوزاق وطائفة من التتار الجراكسة الآن هذا الجيش كان معه مائة وخمسة واربعون مدفعا فوضع بطرس الحصار على نروا وهي مدينة صغيرة باقليم أنغريا لها مينا يسهل دخولها فكان يترأى أنها تؤخذ في اقرب وقت

هذا واهل اوربا جميعا يعلمون كيف شئت كرلوس الثاني عشر الغارة على اعدائه واحد بعد واحد ولم يكن بلغ من العمر يومئذ ثمان عشرة سنة كاملة وذلك أنه نزل بداتيمرقة وتم الغزو فيها في اقل من ستة اسابيع ثم بعث بالامدادات الى مدينة ريغا ورضع عنها الحصار ثم سار لمقابله الموسقو أمام مدينة

نروا وكان ذلك في شهر نومبر وقت الثلج والصقيع
وفي الثامن عشر من هذا الشهر ذهب الجار الى اقليم نوو غرود لانه كان
جازما بأخذ تلك المدينة واخذ معه خصيله منزقوف وكان وقتئذ برتبة
ملازم في بلوك الخبرجية بالاي بريوبازنسكي ثم ارتقى في هذا الوقت
من هذه الرتبة سرعسكر وانتظم في سلك الامراء فكان شأنه في السعد عجيبا
وامره في الاقبال غريبا فهو جدير في غير هذا المقام بالاطناب وبسط الكلام
وقوض بطرس امر العساكر والمحصرة الى الامير كرواي وكان اصله من
فلندرة دخل في خدمة الجار منذ مدة يسيرة وانا ط الامير دلغروكي بمباشرة
الجيوش فوقع بين هذين الاميرين من الغيرة والمنافسة ما لا مزيد عليه فكان
ذلك بانضمامه الى غيبة الجار عن عسكره من بجله الاسباب التي اخضت بهم الى
الهزيمة في واقعة نروا مع أن ذلك كان لا يخطر بالبال ثم ان كرلوس الثاني عشر
خرج من البحر في شهر اقطوبر هو وجيوشه على مدينة برناو باقليم
ليووتيا وسار بهم جهة الشمال حتى وصل الى مدينة رويل وكان هناك
طائفة من الموسقو نزلت بهذا الموضع فشن الغارة عليها وهزمها ثم سار
ولاقي طائفة اخرى منهم فهزمها ايضا فلما عاد المهزومون الى معسكرهم أمام
مدينة نروا اوقفوا الرعب والفرع في قلوب اصحابهم وكان ذلك في شهر نومبر
في أو ان البرد والثلج وكانت هذه المدينة قد اشرفت على التسليم مع أن محاصرة
الموسقولها لم تكن محكمة على ما ينبغي ولم يكن مع هذا الملك الشاب اعنى
كرلوس الثاني عشر من العساكر الا تسعة آلاف وكذلك لم يكن معه من المدافع
ما يقاوم به مدافع العدو اذ لم تكن مدافعه الا عشرة وكانت المدافع الموسقوية
مائة وخمسة واربعين مدفعا محاطة بالكراتك والمتاريس وجميع اخبار ذلك
العصر ونصوص سائر المؤرخين متفقة على أن العساكر الموسقوية
في واقعة نروا كانت عدتهم ثمانين الفا واما ما وصل الى في هذا الشأن من
الاخبار فصرح به أنهم ستون الفا وفي غيرها أنهم اربعون الفا فقط وعلى كل
فالمحقق المجزوم به أن كرلوس لم يكن معه الا تسعة آلاف من غير زيادة

وأن

وأن هذه الواقعة هي إحدى الوقائع الدالة على أن القوة القليلة كم غلبت قوة
كثيرة وحازت عليها النصر العظيمة وأول تلك الوقائع واقعة اربل (بين
اسكندر ودارا)

(٣٠ من
شهر نومبر)

ثم إن جكرلوس الثاني عشر لم يتردد في شأن الحملة بجيشه القليل العدد
على الجيش الموسقوي الجزار اربل انتهز فرصة رياح عاصفة وثلوج عظيمة
كانت تقذفها تلك الرياح على العدو فشن الغارة على ككرانكهم
ومتاريسهم مستعينا في ذلك بعدة مدافع محكمة الوضع فدهم الموسقو
ما صاروا به لا يميز بعضهم بعضا والثلوج متراكمة عليهم هائلة على وجوههم
واظلم عليهم الاق بالضباب والغمام وصعقوا من اصوات المدافع الاسجوية
التي كانوا يسمعونها ولا يصرونها ولم يخطر ببالهم أن عدد العدو من القلة على
هذا القدر

فقد ذلك اراد المدوق دوكرواي أن يأمر الجيش باواسر تخلص الحركات
العسكرية فابى ذلك الامير دلفروكي وامتنع من قبوله فقامت الضباط
الموسقوية على الضباط النيسلوية وقتلوا كاتبه الدوق المذكور والمير الاي
لبون وجماعة من الضباط وترك كل ذي وظيفة وظيفته ووقع الرعب والفرع
في قلوب العساكر وداخل الخوف سائر الجيش ووقع فيه الاختلال وسوء الحال
فلم ير الاسوج في العساكر الموسقوية من يصادمهم في الحرب وانما صاروا
يفتكون برجال هارين ويقتلون عساكر فارين وقد جد جماعة من الموسقو
في الفرار حتى ألقوا انفسهم في نهر نزوا وغرق فيه كثير من عساكرهم ومنهم
من ألقى سلاحه وتمثل بين يدي الاسوج جاثيا على ركبتيه يطلب الامان
واما الدوق دوكرواي والجنرال الاراد وكذلك الضباط النيسلوية
الذين كانوا لقيام الضباط الموسقوية عليهم يحشون بأسهم اكثر من الاسوج
فذهبوا جميعا الى القوتة استأبوا وسلموا له في انفسهم ونزعوا على اقدام
ملك اسوج ثلاثون ألفا من المغلوبين وألقوا سلاحهم بين يديه وجرأ أمامه
حاسرين رؤسهم وكان وقتئذ قد استولى على الطوبجية عن آخرهم وسلم له ايضا

الامير دولغروكي وسائر الجنرالات الموسقوية والتساوية ولم يعلم الموسقو
أن عدد العدو الذي قهرهم وبدد شملهم ثمانية آلاف الا بعد الهزيمة والتسليم
وكان من جملة الاسرى ابن ملك كرجستان فبعته الاسوج الى مدينة
استخلم بمجرّد القبض عليه وكان يدعى ميتيلسكي كزارويتز اى ابن
الكرزار وهو المعبر عنه بالجار ومعناه ملك زاده ويؤخذ من هذا الاسم
أن لفظة كزار او ترزار ليست مأخوذة من مادة كلمة قيصر التي هي
لقب لقياصرة الروم

ولم يقتل من عساكر كرلوس في هذه الواقعة الا الف ومائتان واما العساكر
الموسقوية فلم يزد من قتل منهم في محاصرة نروا وواقعتها ومن غرق في النهر
عند الفرار عن ستة آلاف نفس حسبا هو مسطر في الغازيطة الموسقوية
التي ارسلت الى في هذا الشأن من مدينة بتربورغ والذي اوجب لهم
ما حل بهم في هذه الواقعة انما هو عدم انتظامهم وما لحقهم من الرعب وهول
هذا الخطب وكان عدد من اسر منهم فيها بقدر عدد الغالبين اربع مرات بل ذكر
المؤلف نوربرغ أن القوتة يبير الذي اسره الموسقو لامهم على
كون من اسر منهم في هذه الواقعة أكثر عددا من العساكر الاسوجية فثمان
مرات فان صح هذا كان جملة من اسره الاسوج من الموسقو اثنين
وسبعين الفا ومن هنا يعلم أن الوقوف على حقائق الاشياء تفصيلا من حيز النادر
الذي لا يكاد يوجد هذا ومن العجيب الواقعي الذي لا ينكر أن ملك اسوج اذن
لنصف العساكر الموسقوية أن يعودوا الى وطنهم محتردين عن السلاح ولنصف
الآخر أن يعدوا نهر نروا حاملين اسلحتهم ويرجعوا الى بلادهم فترتب على
هذا الاثنان الغريب أن عادت الجوار جيوشه التي بعد تمزقها على الحركات
العسكرية آل امرها الى أن صارت مهابة يخشى بأسها وتخاف صولتها وبطشها
وقد نال كـرلوس الثاني عشر من سلب الموسقو وغنائمهم ما يناله
ملك اتبصر على عدوه وهزمه فقد غنم منهم جميع مهماتهم التي كانت في الخازن
واخذ ايضا سفن النقل وكانت مشحونة بالزاد والذخائر وكذلك جميع

الادوات التي تركوها او سلبت منهم بطريق القهر والغلبة وصارت تلك الجهة تحت تصرف الاسوج واستولوا على مدينة نزوا فهكذا كانت عاقبة تلك الواقعة ولما لم يبق للموسقو اثر في تلك الجهة صار الاقليم تمامه الى مدينة بلسكو مفتوح الابواب مسلما للطالب وظهر أن الجار ليس عنده من الطرق والوسائل ما يقدر به على مقاومة عدوه بخلاف ملك اسوج الذي غلب ملك دانيقرة وملك له وملك الموسقو وحاز النصر عليهم في اقل من سنة فانه صار يعتبر كأنه اول رجل في بلاد اوروبا مع أنه اذذاك كان صغير السن بحيث لا يجسر مثله على أن يشهر نفسه ويخرج عن طوره وينتظم في سلك الرجال الآن بطرس لقوة عزمه وشدة ثباته لم ينبطه ذلك عن تجميع شيء من مشروعاته ولم يحمله على العدول عن مقاصده واغراضه

ثم ان بعض قسوس الموسقو انشأ بعد هزيمة اصحابه استغاثة للمارى نقولاوس تتعلق بمآدهم من هذا الكرب وصارت تقرأ في البلاد الموسقوية ويستغاث بها وكان مما اشتملت عليه هذه الاستغاثة التي يعرف بها سخافة عقول الموسقو في ذلك الوقت وتدل على فرط الجهالة التي اقتدس منها بطرس أن الاسوج الممولين الخارجين عن اطوار البشر ليسوا الامهرة وكانت تتضمن ايضا بشكواهم لهذا القديس حيث لم يمد لهم برعايته ولم ينظر اليهم بعين عنايته وهذا بخلاف ما عليه قسوس عصرنا هذا فانه لا يصدر عنهم مثل هذا الامر وقد ظهر فيما بعد أن الاليق بهذه الاستغاثة أن تكون لبطرس لا للمارى نقولاوس وليس ذلك من باب انتقاص هذا القديس والقدر فيه

* (الفصل الثاني عشر) *

في ذكر ما سعى في تحصيله بطرس بعد واقعة نزوا من الوسائل والوسائل وجبر ما ترتب على هذه الواقعة من الخلل وفي الفتح الذي اكتسبه قريبا من نزوا وما ابداه في دولته من الاشغال وفي الكلام على المرأة التي اخذت

سببا في اغتنام بعض المدن ثم تلقت اذالك بلبق الايمبراطورة وفي ذكر
ما حظي به بطرس من التجاح والظفر وموكبه الحافل بمدينة موسكو
لما ترك الجار جيوشه أمام مدينة نروا في اواخر شهر نومبر سنة
١٧٠٠ من الميلاد فاصدا ملك له لاجل المفاوضة معه بلغه في اثناء
الطريق نصرة الاسوج على عساكره وكان الجار ذا عزم وثبات كما كان
كرلوس الثاني عشر صاحب جسارة وعناد فأخر المفاوضة مع اغسطس
ملك له الى وقت آخر وبادر الى ما يكون به جبر ما وقع في مصالحه من الخلل
وسعى في اصلاح ما فسد منها فاجتمعت الجيوش الموسقوية بعد تفرقها وتبدد
شملها وذهبت الى مدينة نوو غرود الكبرى ثم قصدت مدينة بلسكو التي
على بحيرة بيبوس

(سنة ١٧٠١)

ولا ينبغي أن ماصدر من الموسقو من الاستمرار والمداومة على محاربة انفسهم
والذب عنها بعد ما لحقهم من الهزيمة الفاشحة يتقم في سلك الامور العظيمة
ويبعد من الاشياء المهمة الجسمية وقد قال بطرس اني لا علم أن الاسوج
يفوقون علينا مدة مديدة ثم يقول الامر الى أن تتعلم منها كيف نعلمهم
ولما جهز بطرس ما يلزم من المواد الاولية وامر بتجنيد الجنود من سائر
جهات مملكته بادر بالذهاب الى مدينة موسكو وامر فيها بسبك
المدافع لان جميع ما كان عنده منها اخذ في واقعة نروا وكانت مادة الخليط
المسمى التوج اذالك لا وجود لها فجمع النواقيس من الكنايس والاديار
ليصنعها مدافع وهذه القلعة كما انها لا تدل على أن صاحبها ذوا وهام فاسدة
لا تدل ايضا على أنه قد احدثها وكفر بارتكابها فصنعوا من تلك النواقيس مائة
مدفع من المدافع الكبيرة ومائة وثلاثة واربعين من غيرها مما يصلح للسفر والنقل
يحمل الواحد منها ثلاثة ارطال فاكثر الى ستة من الرصاص وصنعوا منها ايضا
اهوانا ومبا وارسل ذلك كله الى مدينة بلسكو ثم انه في غير بلاد الموسقو
يأمر الملك بما يريد ثم يجري العمل على مقتضى امره بواسطة نوابه ووكلانه
بجلائف البلاد الموسقوية في ذلك الزمن فان الاحوال اذالك كانت تقتضي

أن

أن ملكها بطرس يباشر العمل بنفسه وفي اثناء اشتغاله بتحصيل اللوازم والادوات تعاهد مع ملك دانيمرك على أن يمدّه بثلاثة آليات من المشاة ومنها من الخيالة لكن لم يمكن لهذا الملك الاقدام على الوفاء بذلك وفي السابع والعشرين من شهر فبرية بمجرّد وضع القرار على هذه المعاهدة بادر بطرس بالذهاب الى ميدان الحرب وذهب الى مدينة برزان على ضواحي اقليم كورلندة ولوثيانا ليقابل فيها الملك اغسطوس ويحمّله على أن لا يزال معصمًا على ما كان عازمًا عليه من محاربة ملك اسوج حيث اقتضت الاحوال ذلك وقتنذ كما اقتضت ايضا معاهدة مشورة الديتة بمملكة له وادخالها في هذا الحرب اذ من المعلوم أن ملك له ليس الارئيس جمهورية بخلاف الجارف كان له الحظ الاوفر في مملكته من حيث نفوذ الكلمة وامتنال الامر وامامولك له وانكثرة وكذلك ملوك اسوج الآن فلا يتون امر الابدع المفاوضات فيه مع رعاياهم وقد حضر مجلس المذاكرة في هذا المعنى بطقول وغيره ممن كان من اللاهيين من حزب ملك له ووعدهم بطرس أن يمدّهم بمبلغ من الاموال وبعشرين الفامن العساكر ولوافضت مشورة الديتة الى ملكها والتأمت معه واعاته على استرجاع اقليم ليونيا لعاده هذا الاقليم الى مملكة له والتحق بها ثانيا لكن ما ابداه لها بطرس في هذا المعنى لم يغلب على ما كان عند اربابها من الرهبة والخوف بل كان تأثيره دون ذلك فان اللاهيين كانوا يخشون مضايقة اهل سكس والموسقو جميعا وكانوا ايضا يخشون بأس كرلوس الثاني عشر اكثر من ذلك فن تم عزم جمهورهم على عدم خدمة ملكهم وعلى عدم القتال رأسا قترتب على ذلك أن من بقي منهم مع ملك له فقد على من امتنع من الدخول في خدمته والافتقاد لامره وادركهم من ذلك غيظ شديد فان اغسطوس كان يريد استرجاع اقليم كبير كان قد تغلب عليه الاسوج ونشأ عن ذلك حرب داخلية بينهم ولما رأى بطرس ان حليفه اغسطوس ضعيف الشوكة وأن العساكر

(غرة شهر مارث)

السكسونية انما هي امدادات واهيعة وأن هيبه كرلوس الثاني عشر
قد انطبعت في قلوب الناس من سائر الجهات عزم على أن لا يعول في هذا
الغرض الاعلى قوام العسكرية وجيوشه الحربية لا غير
وكما أنه جاء من مدينة موسكو الى اقليم كورلندة بقصد الاجتماع على
اغسطوس رجع من هذا الاقليم الى المدينة المذكورة ليبادر بتجهيز ما وعده
فامر الامير روبرت أن يتوجه باربعة آلاف جهة مدينة ريغا على
شواطئ نهر الدوينا حيث نزلت الجيوش السكسونية
وقد ازداد الرعب والفرع في قلوب الناس حين مر كرلوس بهذا التهرمع
أن السكس كانوا وقتئذ نازلين على الشاطئ الآخر في وضع حسن وكيفية
محصنة وفاز بالنصرة التامة في تلك الجهة وقمع اقليم كورلندة وادخله
تحت طاعته على وجه السرعة وكذلك حين رأوه قد توغل جهة اقليم لوثيانيا
ورأوا أن الحزب الالهى الذى تحلى عن اغسطوس قد تقوى وتعضد هذا
الملك المنصور

واما بطرس فلم يعدل عن شئ من ما ربه بل مازال مصمما على ما عزم عليه
وكان بطقول هو الذى عليه مدارمذكرة برزان وكان قد دخل في خدمة
الجار فاحضر ضباطا نمساوية وادخلهم في خدمته ورتب الجيوش
الموسقوية واحكم نظامها وقام لدى الجار مقام الجنرال لوفورت واكمل
ما كان ابتداء هذا الجنرال وكان كل من اراد الدخول في خدمة الجار
من الضباط او العساكر النمساوية او الالهية والليونية يعطى لهم على طرفه
ما يلزم لهم من خيول البريد وجدد لهم ايضا ما يلزم من الملابس والمؤونة ولامه
الحرب كالدرع والخوذة

ثم انه يوجد على اطراف اقليم ليونيا واستونيا في غربى اقليم نوو غرود
بحيرة بيوس الكبرى التى يصب فيها من جهة جنوب اقليم ليونيا نهر
ووليك و يتفرع عنها من جهة الشمال نهر نروا المتصل بمجران تلك
المدينة التى اتصرف فيها الاسوج النصره الشهيرة وطول هذه البحيرة

ثلاثون فرسخا من الفراسخ الفرنسية المعتادة وعرضها تارة يكون
اثني عشر فرسخا واخرى خمسة عشر هذا وقد كان من اللازم أن يكون بتلك
البحيرة دونها موسقوية لتنع السفن الاسوجية من التعدي على اقليم
نوو غرود ولتيسر بها الموسقو عند اقتضاء الحال الخروج على السواحل
الاسوجية لاسيما وتكون منشأ لعاكر بحرية جديدة فلذا انشأ بطرس
في ظرف سنة ١٧٠١ مائة سفينة تسع الواحدة منها نحو خمسين رجلا
وسلح سفنا اخرى للعرب في بحيرة لادوغا وكان يدير تلك الاشغال بنفسه
فكان يباشر تعليم من تجدد من العساكر البحرية واما العساكر الذين كانوا
سنة ١٦٩٧ في بحر ازاك فكانوا يومئذ في بحر بلطيق وكان بطرس
يترك هذه المصالح في اغلب الاحيان ويذهب الى مدينة موسكو وغيرها
من الاقاليم لاجل تمكن ما شرع في ابداعه وتجديده من الامور المحدثه وتجديد
امور اخرى واستدامة ذلك والمواظبة عليه

ولا يخفى أن الملوك الذين يشتغلون في ايام الصلح بالاشغال العامة والامور
النافعة يتخذ بذلك ذكركهم على مدى الليالي والايام وذلك أن بطرس
بعد ما لحقه في واقعة نزوا من المصائب اشتغل بوصول كل من بحر بلطيق
وبحر الحزر والبحر الاسود ببعضها بواسطة خليجان اذ في ذلك من الفخار
ما يفوق فخار النصره ففي سنة ١٧٠٢ اخذ في حفر الخليج العميق الواصل
من نهر طنائس الى نهر الاثل وكان مراده أن يحفر ايضا خليجانا
اخرى لتصل بواسطة بحيرات نهر طنائس بنهر دونا وكلاهما يصب
في بحر بلطيق من جهة مدينة ريغا الا أن هذا المشروع كان متعسرا
على الجار او متعذرا حيث كان يعد عليه أن يستولى على تلك المدينة
ويدخلها تحت حكمه

وحين كان كرولس الثاني عشر يخرب مملكة له كان بطرس يجلب
منها من مملكة سكس الى مدينة موسكو رعاة واغناما للجزا صوافها
ويصنع منها الجوخ الجيد وانشأ فريقات لللاقشة ومعامل للورق وامر باحضار

الحذادين وصانعي السلك الاصفر والغوندقية والسباكين وكان اذذاك
مشتغلا باستخراج معادن سبير وكان ايضا يشتغل بمافيه ثروة مملكته
وغناها وحفظها وحمايتها

واما كرلوس الثاني عشر فلم يكن مشتغلا بالاقتوحات وكان قد ترك
جهة ممالك الجار جملة من الجيوش اعدتها لحفظ ما كان لمملكة اسوج
على زعمه من الاراضي التي تغلب عليها في تلك الجهة وكان قد عزم على خلع
اغسطوس ملك له وأن يقفوا اثر الجار ويتبعه بعساكره المنصورة حتى
يصل الى مدينة موسكو

وفي هذه السنة وقع بين الموسقو والاسوج بعض وقائع ولم تكن الغلبة فيها
للالسوج دائما بل في اوقات المصادمات التي ينجعون فيها كان الموسقو
يتمزقون بها ويتعدون على الحرب والقتال وبالجملة ففي ظرف سنة بعد واقعة
نروا تحصل عند الجار من الجيوش المتعلة المتمترنة على الحركات العسكرية
ما نهزم به اعظم جنرالات كرلوس

وذلك أن بطرس وهو بمدينة بلسكو ارسل من سائر الجهات فرقا
عسكرية لاجل هزيمة الاسوج فانهزموا وكان الهازم لهم من
جنود الموسقو لامن الجنود الاجانب وذلك أن شرمتوف وهو جنرال
موسقوبي حل على الجنرال اسلينبال وهو جنرال اسوجي جملة عظيمة
واخذ منه عدة معسكرات بقرب مدينة دربت ثم قاتله بنفسه وكان اول
ماسلبه الموسقو من الاسوج اربعة الوية ومثل هذا يعد عظيما بالنظر
لحالهم في ذلك الوقت

(سنة ١٧٠٢)

وبعد ذلك بمدة يسيرة صار كل من بحيرة بيوس وبحيرة لادوغا ميدانا
للقائع الحربية البحرية وكان للالسوج بهاتين البحيرتين من المزايا ما كان
لهم في البر من الضبط والربط والاتفاع بسائر وجوهه ومع ذلك كان الموسقو
في بعض الاحيان يقاثلون الاسوج في سفنهم وينتصرون عليهم فقد اخذ
السرعسكر شرمتوف في واقعة عامة بحيرة بيوس فرقاطة

(في شهر مايه)

اسوجية

وكان الجار بواسطة هذه البحيرة يهتدد دائما اقلبي ليوونيا واستونيا وذلك أن سفنه كانت في الغالب تأتي الى هذين الاقليمين بعدة الايات تمكث هناك ثم ان لم تكن الغلبة لهم رجعوا فيها والاتباعوا ما فيه منفعتهم واستمروا على القتال وفي شهرى يونيه ويوليه انتصر الموسقو على الاسوج مرتين في معسكراتهم مع أن النصره كانت لهم في سائر الجبهات

وكان الموسقوا كثر عددا من الاسوج في سائر الوقائع والحركات الحربية فلذا كان كرلوس الثاني عشر الذي كانت النصره له في غير هذا الوقت لا يتأثر اصلا من نجاح الجار وانتصاره عليه ولكن اكل امره بعد ذلك أن عرف أن هذه الجيوش الكثيره الموسقويه قد تمزنت بتداول الايام على الحرب والقتال وانه لا مانع من أنها تنصير خطره عليه

وفي شهر يوليه حين كان القتال واقعا بين الفريقين برآ وبجراحه اقليم ليوونيا وأنغريا واستونيا بلغ الجار أن دونت من الدونمات الاسوجية تعينت لتغريب اقليم ارتفجل فتصد هذا الاقليم فلم يشعروا الا وهو على شواطئ البحر المنجمد فتعجب الناس حين بلغهم أنه حضر الى تلك الجهة حيث كانوا يعتقدون أنه في مدينة موسكو فاخذ يسعى فيما تكون به حياه ذلك الاقليم وتحصينه وسلك مسلك الحزم والتبصر في شأن الاغارة عليه فرسم بنفسه صورة قلعة دويما الجديدة ووضع اول حجر من اساسها ثم عاد الى مدينة موسكو وسار منها الى ميدان الحرب

وحين كان كرلوس يتوغل في مملكه له كان الميخو يتوغلون ايضا في اقلبي أنغريا وليوونيا فذهب السرعه ~~سرعه~~ شرمتوف الى قتال الاسوج الذين كانوا تحت قيادة الجنرال اسلينباك فوقعت بينهما واقعة قريامان أنبالك وهونهر صغير هناك وكانت النصره فيها للجنرال شرمتوف وسلب من الاسوج ستة عشر لواء وعشرين مدفعا هذا وقد ذكر المؤرخ نوربرغ أن هذه الواقعة كانت في غرة شهر دقبر سنة ١٧٠١ وهو مخالف

لما نصت عليه غازيطة بطرس من أنها إنما كانت في التاسع عشر من شهر
يولية سنة ١٧٠٢

ثم ان شرمتوف توغل في الفتوحات وصار يضرب على كل محل فتحه مغارم
جسيمة وتغلب على مرينبورغ وهي مدينة صغيرة على حدود اقليم ليوونيا
وأثغريا ثم انه يوجد في بلاد الشمال مدن كثيرة تسمى بهذا الاسم
الآن هذه المدينة اشهر من غيرها في سيرة الامبراطورة كاترينة وان كانت
لا وجود لها الآن

وذلك أنها الماسلت بدون مشاركة اوقد الاسوج النيران في مخازنها سهوا
او عمد الخفق لذلك الموسقو وهدموها واسروا اهلها عن آخرهم وكان من
جمله الاسرى بنت اصلها من اقليم ليوونيا وكان رباها تقيس لوثراني يقال له
غلوك كان بهذه المدينة ثم صارت من يومئذ ملكة الموسقو الذين اسروها
وحكمتهم فيما بعد بقلب الامبراطورة كاترينة

نعم وان شوهد أن النساء بنات البلد اللاتي لسن من الامراء جلسن على سرير
الملك بزواج الملوك لاسبابا بالبلاد التي تزوج الملوك فيها بالنساء من رعاياهم من
الامور المتواترة العامة كبلاد الموسقو وممالك آسيا الا أن ارتقاء امرأة
اجنبية سببت في تخريب مدينة الى منصب الملوكية واطلاق التصرف في امة
اسرتها هو مما لم يسمح به الدهر لانسان * ولم يثبت في خارج العيان * ولم نر قبلها
في الكتب التاريخية * أن الفضل والاقبال يصلان بصاحبهما الى مثل هذه
الدرجة العلية * من اطلاق تصرف الارقاء في السادات * وملك زمام دولة
الاحرار لحرارية في سلطنة افريقية من اعظم الولايات

ثم ان الموسقو لم يزالوا باقليم أثغريا على الظفر والنجاح فان الدونما
الموسقوية التي كانت بحيرة لادوغا جبرت الدونما الاسوجية على أن
تذهب الى ويورغ وهي مدينة على احد اطراف هذه البحيرة الكبيرة فنظر
الاسوج منها الى الطرف الآخر فاذا الموسقو قد حاصروا فيه قلعة
نوتبورغ وكان الجار قد امر الجنرال شرمتوف بهذه المحاصرة فكان

نفع هذا المشروع اعظم مما كان يؤمل اذ بالاستيلاء على تلك القلعة صار للجار
وصلة وعلاقة ببحر بلطيق وكان ذلك من المشروعات التي كانت دائماً
مطمح نظره ولا تخرج عن فكره

وكانت هذه القلعة حصينة متينة وهي مبنية في جزيرة بحيرة لادوغا
ولما كانت بحسب وضعها مشرفة على هذه البحيرة كان لصاحبها الصولة على
يجرى نهر نوا الذي يصب في البحر (اي بحر بلطيق) وقد مكث الموسقو
في حرايتها ليلاً ونهاراً من الثامن عشر من شهر سبتمبر الى آخر شهر اكتوبر
ثم آل امرهم أن تسلقوا عليها بعد أن قبوها وجعلوا في جدرانها ثلاثة شروم
قاصدين الاغارة والهجوم وكان قد آل امر من يها من محافظي الاسوج أن
قل عددهم حتى لم يكن بها من العساكر الذين يمكنهم الذب والمدافعة الا مائة نفر
فكان من العجيب أن مثل هذه الشزيمة القليلة تدافع عن نفسها حق المدافعة
فلم تبرح عن الشروم حتى نالت من العدو شروطاً لا تغفل بشرف عرضهم
ولا تزري بعلو انفسهم وزيادة على ذلك شرط عليهم اسلينبالده حكمدار
القلعة في السادس عشر من شهر اكتوبر أنه لا يسلم فيها الا اذ رضوا بأنه
يحضر ضابطين من ضباط الاسوج من اقرب الجهات الى تلك القلعة
ليعاينوا الشروم التي بالجدران ويجتبرا سيده (يعني كرلوس) بأن من بقي
من العساكر المقاتلين وهم ثلاثة وثمانون وكذلك الجرحى والمرضى
الذين عدتهم مائة وستة وخسون فسلموا في انفسهم لجيش تام الالكونهم
رأوا أنه يتعذر عليهم حفظ القلعة والاستمرار على القتال مدة طويلة وهذا
بمفرده يدل على شدة بأس العدو الجار وعظم صولته وعلى أن بطرس
مجبور ومضطّر غاية الاضطرار الى بذل وسعه في الضبط والربط والتربية
العسكرية

ثم ان بطرس التحف ضباطه بنشانات دلائل الفخار المصطنعة من الذهب
علامة على الشرف لاعلى الرتب العسكرية وكافأ جميع العساكر بالانعام
غير أنه عاقب منهم جماعة كانوا قد هربوا عند الحملة والهجوم فامراخوانهم

من العساكر أن يصفقوا على وجوههم ويضربوا عليهم بالمكاحل حتى يذوقوا
العذاب والخزي في آن واحد

ثم اخذ في اصلاح قلعة نوتبورغ وترميمها وسماها شلوسلبورغ ومعناه
مدينة المفتاح لانها مفتاح قلبي انغريا وفنلندة وولى عليها منزيقوف
فكان اول حكمه اراتها وكان قد انتظم في سلك الضباط العظام وكان
جدير بذلك لما ابداه من الشجاعة والشهامة وهذا مما يقوى رغبة اولى الفضل
ويستميل قلوبهم وان لم يكونوا من ذوى الحسب والنسب

وبعد أن انقضت هذه الواقعة التي كانت في سنة ١٧٠٢ اراد الجار
في السابع عشر من شهر دقبر أن شرمتوف واضرا به ممن ابدى الشجاعة
في الحرب يدخلون مدينة موسكو بموكب واحتفال فكان من معهم من
الاسرى يمشى خلف المنصورين وجعلوا أمامهم اعلام الاسوج وألويتهم
وكذلك صنعوا الفرقاة الاسوجية التي اخذوها في بحيرة بيوس وكان
بطرس قد باشر بنفسه تجهيز هذا الموكب كما أنه اشتغل بالمشروعات التي ترتبت
عليها هذه الابهة والاحتفال

ومثل هذا الاحتفال مما يستدعي التنافس والغيرة والالكان من الامور
المستحجة التي لا طائل تحتها وكان كرلوس يحقر ذلك ولا يعأبه وكان منذ
واقعة نزوا ينظر الى اعدائه بعين الازدراء والاحتقار ويستصغرهمهم
ويحتقر مواكبهم

* (الفصل الثالث عشر) *

في ذكر ما حصل بمدينة موسكو من التغيير والتبديل وما اكتسبه بطرس
من النصرات وفي تأسيسه مدينة بتربورغ اى مدينة بطرس واسنيلاه
على مدينة نزوا وغير ذلك

قد اشتغل الجار في المدة اليسيرة التي اقامها بمدينة موسكو من اوائل
فصل الشتاء سنة ١٧٠٣ باجراء ما جرده من القوانين وتحسين الاصول
الملكية والجهادية وصرف اوقات حظه ودعته فجا يذيق به رعيته لذة العيش

والحياة

والحياة التي احدثها بينهم فدعا جميع امرائه دولته رجالا ونساء الى وليمة زكاح كانت لاحد السترية الخاصين به وامر أن كل من حضر هذه الوليمة يكون لباسه على العادة القديمة فحضرت الموائد على منوال ما كان جاريا في القرن السابع عشر وكان من العوايد والاوهام القديمة أن لا توقد النار في ايام اشهار الزكاح ولو في زمن شدة البرد فجرى العمل على هذه العادة في مدة الزكاح المذكور مع غاية المحافظة والتدقيق وكان ايضا من عوايد الموسقو القديمة انهم لا يشربون النبيذ وانما يتعاطون شراب العسل والعرق فامر الجار أن لا يشربوا خلاف ذلك فنشكوا اليه من هذا الامر ولم تجد شكواهم فغاب اجابهم متهمين بقوله هكذا كان اسلافكم وان العوايد القديمة اولى بالاتباع فكان هذا التهمك معينا على ازالة الاوهام من قلوب من يؤثر العوايد القديمة على الجديدة والا فلا قل من كونه يسكن ما عندهم من الحق والغيظ من الامور الخدثة ومن الامم من هو محتاج الى مثل هذا الارشاد

وبما احدثه بطرس من الامور النافعة دار الطباعة التي جعل حروفها موسقوية ولاطينية وكان قد جلب جميع آلاتها وموادها من بلاد الفانك وكان اول ما طبع فيها بعض كتب ترجت الى اللغة الموسقوية تشتمل على آداب وقنون وجدد المعلم فرغسون مدارس لتعلم العلوم الهندسية والفلكية والبحرية

وجدد بطرس ايضا ما ليس دون المتقدم في النفع وهو استبالية كبرى لم تكن كغيرها من الاستباليات التي تعين على البطالة والكسل واستدامة الفقر بل جعلها على منوال ما عاينه في مدينة امستردام من الاستباليات التي يشتغل فيها الشيوخ والشبان بحيث لا يخلو من مكث بها عن العمل والاشتغال بما فيه المنفعة

وكذلك احدث عدة ورشات وتجرد ما حصل الاشتغال بالفنون والصناعات الجديدة التي ابدعها بمدينة موسكو ذهب الى مدينة ورونيزه وامر بصنع سفينتين تحمل الواحدة منهما ثمانين مدفعا ويكون بهما صناديق مستطيلة

محكمة القفل توضع تحت مدهما السافل لتيكونا مرتفعتين عما يصادفهما
 من تلال الرمال التي يقرب مجرازاقي ولا تكونا عرضة للخطر عند المروء بها
 وهذه الصناعة قريبة مما يصنع في بلاد القبلنك لاجتياز فرع بنبوس
 (٣٠ من شهرمارث) ولما جهز ما كان يقصده من المشروعات لاجل محاربة
 الدولة العثمانية بادربالسيرالى الاسوج وذهب ليعاين ما امر بانشاءه
 من السفن في ترسانات مدينة اولوتز التي هي بين بحيرتي لادوغا واوينا
 وكان قد انشأ بها فبريقات لعمل الاسلحة فكان يترأى من حالها
 أنه عازم على الحرب وبينما كان يشتغل في مدينة موسكو بما لا يتصدى له
 عادة الا في زمن السلم والصلح مما تكون به الفنون زاهية زاهرة اذا استكشفوا
 بمدينة اولوتز منبع مياه معدنية فازدادت بذلك شهرة تلك المدينة وانتشر
 ذكرها ثم ذهب منها الى قلعة شوسلبورغ لاجل تحصينها
 وقد اسلفنا أنه كان مرامه ان يحوز لنفسه الرتب الجهادية على الترتيب وكان
 وقتئذ برتبة ملازم اول في الجبرجية تحت رياسة خصيصه منزيقوف قبل
 ان يتولى حكمدارية شلوسلبورغ فترقى الى رتبة يوزباشي تحت رياسة
 السرعسكر شرمتوف

وكان على القرب من بحيرة لادوغا قلعة عظيمة مهمة يقال لها قلعة نيازاوينا
 وهي قرية ايضا من نهر نوا وكان لابد للجار من الاستيلاء عليها حتى
 يمكنه الاستمرار على فتوحاته وتنجيز اغراضه ومشروعاته فاقضى الحال
 ان يحاصرها برا ويمنع وصول المدد اليها بجرا فالتزم ان يسير بنفسه سفنا
 مشحونة بالعتاكر لطرده السفن الاسوجية التجارية والحرية (وفي الثاني عشر
 من شهرمايه) حفر شرمتوف خنادق توصل الى تلك القلعة فسلمت واتفق
 ان سفينتين من السفن الاسوجية رستا عليها بعد ذلك بقصد اسعافها واعانتها
 فاقض عليهما الجار ونظر بهما واستولى عليهما وفي غازيطة بطرس ان
 غلوتين قبودان باشا كافأ هذا اليوزباشي الجبرجي (يعني بطرس) على هذه
 الخدمة بنشان افتخار بان لقبه بلقب شوالية ماري اندروس وكان هذا

القبودان اعظم رجال هذه الرتبة .
وبعد استيلائه على هذه القلعة عزم على بناء مدينته المسماة بتر بورغ على مصب
نهر نوا الذي على خليج فنلندة
ثم ان الملك اغسطوس لم يدرك ما كان يؤمله من الاغراض والمصالح وذلك
أن الحزب الذي كان متحزبا عليه تمكن وتقوى بما حازه الاسوج من النصرات
التواليه ببلاد له والحزب الذي كان معه حمله على أن يرد للجار
نحو عشرين الفامن الموسقو كانوا عنده بقصد اعانته وتقوية جيوشه
زعما منهم انه بجرمانه من هؤلاء العساكر الموسقوية تقطع حجة الحزب الآخر
في انضمامه الى ملك اسوج ولكن من المعلوم أن الانسان لا يجمع عدوه
ويرغم انفه الابالقوة والسلاح ولا يطعمه ويقويه الابالضعف والتساهل وكان
عساكر الموسقو المذكورون قد علمهم بطقول الفنون الحربية والحركات
العسكرية وكانوا قد خدموا في اقلبي ليونييا وأنغريا مع النفع التام حين كانت
ممالك اغسطوس آخذة في التناقص والضياع فكان هذا الامداد بانضمامه
الى تملك قلعة نيا معيننا للجار على تأسيس مدينته الجديدة مع السهولة
وذلك أنه وضع اساس هذه المدينة في فضاء تلك الارض السبخة التي لاتصل بالبر
الامن طريق واحدة وكان وضع اول اساسها في محل على ستين درجة من
العرض واربع واربعين ونصف من الطول وكان اول ابحار هذا الاساس
من آثار بعض بروج قلعة نياتز المذكورة واول ما بدئ به في جزيرة من
الجزائر التي في مياه تلك الجهة قلعة صغيرة هي الآن في وسط المدينة وكان
الاسوج لا يخشون شيئا من بناء تلك القلعة الموسقوية الحادثة لانها
موضوعة على بحيرة لا يمكن للسفن الكبيرة أن ترسو فيها ولكن عمال قيل
وأوا أن الاستحكامات الموسقوية قد تقدمت وتزايدت وأن المدينة
قد تجددت وتكاملت وأن جزيرة كرونسلوت الصغيرة التي هي تجاه تلك
المدينة قد صارت في سنة ١٧٠٤ من الميلاد قلعة حصينة لا يمكن الاستيلاء
عليها وأن الدونمات العظيمة الراسية عندها لا يخشى عليهما من العدو لان مدافع

القلعة تذب عنها وتمايح

وكان انشاء هذه المباني واجراء تلك الاشغال في وقت الحرب مع أن مثل ذلك يناسب أن يكون في زمن السلم وقد احضر الجار من مدينة موسكو وازدرهان وقازان واوقرينة ارباب حرف وصنایع على اختلاف صنایعهم وحرفهم ليستغلوا في مدينته الجديدة ولم تفترحمته في هذا المشروع بصعوبة البناء في تلك الارض الرطبة التي لا بد من تثبيتها وقسويتها حتى تتصلب وتصلح للبناء ولا يهدم ما يلزم لذلك من الاعانات والمساعدات ولا بالعوائق والموانع التي كانت تعرض وقت العمل والتصدى لكل مشروع من غير أن تكون متوقعة حتى يمكن تداركها والتبصر فيها ولا بالامراض الوبائية التي اهلكت من العملة ما جاوز حد الكثرة بل اصاب مدينة في طرف خمسة اشهر وان لم تكن انذاك الا عبارة عن عشش مجتمعة وبيتين مبنيين بالطوب ومضروب على ذلك اسوار حسبا كانت تقتضيه الاحوال وقتئذ وانما حصل تتمجها بالاستدمان وتداول الايام ولم يمض من تأسيسها خمسة اشهر الا وحضر اليها في شهر نومبر سفينة فلندسية بقصد التجارة معها والاخذ والعطاء فكوفي رئيس هذه السفينة على ذلك بالانعام عليه وعماقليل عرف الفلندك طريق مدينة بربورغ وصاروا يترددون اليها

ولما كان بطرس هو الذي يباشر ادارة النزلاء المنقولين من بلادهم للاستيطان بهذه الغزاة الجديدة كان مهتما على مدى الاوقات بما يـكون به أمنهم وذلك باستيلائه على مجاورها من الاماكن وقد حضر في هذا الوقت ميرآلى من اهل الاسوج يقال له كرونيورت على نهر سسترة وهدهذه المدينة الجديدة وارهب اهلها فاسرع اليه الجار في التاسع من شهر يوليه واخذ معه آلايين من الوردیان الاميراطورى والجماء الى اجتياز النهر نائنا والرجوع من حيث اتى ولما امن مدينته واطمأنت قلوب الاهالى بذلك ذهب في شهر سبتمبر الى مدينة اولنيتز وامر بانشاء عدة سفن صغيرة ثم عاد الى بربورغ راجعا فرقطونا جدد لها اذ ذاك ومعه ست سفن من السفن المعدة للنقل منتظرا

تمام الباقي

(شهر نومبر) وفي هذا الوقت كان لم يرل يمد بالاعانة اغسطوس ملك له فار دل له من عساكر اليلدة اثني عشر الفا ومن الاموال ثلثماية الف روبلة وهذا المبلغ يساوي من الفرنكات الفرنسية خمسة عشر الفا وقد سبق أن اراد اطار السنوي ليس الا خمسة ملايين من نفود الروبله ومثل هذا المبلغ يلزم أن يتقد فيما كان بصرفه على دونماته وجيوشه وفيما احده من الامور الجديدة فقد حصن في آن واحد تقريبا اقاليم نوو غرو وبسكو وكوويا وسولفسكو وبحر ازاق واقليم ارخفل واسن ايضا مدينة بتربورغ تحت مملكته ومع ذلك كان عسده ما يمد به خليفه اغسطوس من الرجال والاموال وقد ذكر كورنيل لوبروين الفلنكي وكان قد ارتحل الى بلاد الموسكو وتحادث معه كما هي عادته مع الاجانب أن اطارا أخبره أنه بقي في خزينة من ان نفود بعد مصاريف الحرب ثلثمائة الف روبلة

ثم انه لاجل أن تكون مدينته الجديدة بعيدة عن أن يتعدى عليها الاعداء ذهب الى البحر واخذ قياس عمقه بنفسه وعين فيه محلا لقطع كرونسلوت التي اراد انشاء هذا الغرض وصنع رسمها من الخشب واناط منزقوف بينائها بموجب الرسم وامره أن يبذل همته في ذلك ثم ذهب في شهر نومبر الى مدينة موسكو ليبحث فيها مدة الشتاء ويجري بها على التدريج ما احده من التغيير في القوانين والعوايد والاخلاق فرتب امور المالية بطرق جديدة وحث على تكميل ما امر بانشاءه على نهر ورونيزه وفي مدينة ازاق على وجه السرعة وكذلك ما امر بانشاءه على احدى الميناء التي جدد ها على هذا البحر تحت قلعة تغاروك

(شهر ينوية سنة ١٧٠٤) وقد خلق الدولة العثمانية من ذلك فرع شديد وارسلت اليه الجيا تشيكي من هذه الاستحكامات والتجهيزات فاجاب بأنه السيد المتصرف في ملكه كما أن السلطان كذلك وأن جعل الممالك الموسقوية على حالة بحيث تكون محترمة مهابة من جهة البحر الاسود لا يحل بشروط الصلح

ولا يعتقضا للعهد في شيء

ثم عاد الجار (في ٣٠ من شهر مارث) الى مدينة بتربورغ فوجد قلعة
كرونسلاوت التي كان قد أمر بإنشائها قد تم بناؤها وتكاملت فحضرها
بالمدافع وكانت مقتضيات الاحوال وقتئذ تستدعي أن يستولى على مدينة
نروا ليتقوى في اقليم أنغريا وليجبر ما لحقه من الخلل والخزي امام تلك المدينة
في واقعة نروا فاخذ يجهز مواد المحاصرة فبينما هو كذلك اذ ظهر على بحيرة
بييوس دونغا صغيرة اسوجية من سفن الصيال حضرت بقصد معارضته
في تخيير مشروعاته وما ربه فذهبت اليها مراكب الموسقو الصغيرة
وصادتها وهزمتها وغنمتها تمامها وكان فيها من المدافع ثمانية وتسعون ثم حاصر
الموسقو مدينة نروا برا وبحرا واغلب من ذلك أنهم في شهر ابريل حاصروا
ايضا مدينة دربت باقليم استونيا

ومن ذا الذي كان يظن أن بهذه المدينة مدرسة جامعة كان قد انشأها بها
غسطاوة ادولف فان هذه المدرسة لم تزد في شهرتها بل استمرت على حالها
الاول اذ لم تزل مجهولة الحال الى وقت هاتين المحاصرتين وما زال بطرس
يتردد ذهابا وايابا بين المدينتين المذكورتين لاجل التعجيل بالهجوم وشن الغارة
وملاحظة اجراء عمليات الحصار وكان الجنرال الاسوجي المسي سييلنبالك
قريباً من مدينة دربت ومعه من العساكر نحو الفين وخمسمائة

وكان الاسوج المحصورون ينتظرون اسعاف هذا الجنرال لهم بالاعانة والمدد فغن
لبطرس أن يصنع معهم مكيده حربية قل أن استعملها احد قبله في الحروب
وهو أنه امر أن يلبس آلايان من البيادة والآي من السوارى طقوم آلاي
اسوجية وبأخذوا ايضاً اعلاماً والوية اسوجية فهجم هؤلاء العساكر
بهذا الزى الاسوجي على الخنادق واظهر الموسقو الفرار والهروب فاغتر
المحافظون بهذه الحيلة وخرجوا من المدينة فعند ذلك اجتمع الهازمون
الذين ظهروا بمظهر الاسوج بالموسقو الذين اظهروا الانهزام وهجموا جميعاً
على هؤلاء المحافظين (في السابع والعشرين من شهرينويه) فقتلوا نصفهم

ورجع النصف الآخر الى المدينة فعمّا قليل اتي سيلنبالك لاعاتهم حقيقة فوجدهم قد حقت عليهم الهزيمة وفي الثالث والعشرين من شهر يولييه اضطرت مدينة دربت الى التسليم ولكن قد عزم بطرس على أن يهجم عليها هجوما عاما

ومع ما كان يخسره الجار من الخسارات العظيمة والمضايقات الشديدة في طريق مدينة تبرجورغ لم يمنعه ذلك من الاستمرار على بناء تلك المدينة ولم يثبطه عن التجهيل بتتيم محاصرة نزوا وذلك أنه بكالسفنا كان قد بعث الى الملك اغسطوس الذي كانوا يسعون في خلعه عن الملك رجالا واماوا لاجل اعاقته فلم يعد عليه هذا المدد بالمنفعة ولم يخرج منه على طائل فان الجنرال الاسوحي المسي لوانهوب هزم العساكر الموسقوية مع من انضموا اليه من اللوثيانين احزاب اغسطوس (وكان ذلك في الحادي والثلاثين من شهر يولييه) ولوجه الاسوج المنصورون همهم نحو اقليجي ليونينا وأنغريا لأمكنهم أن يعطلوا اشغال الجار ويطلوها بالكلية ولنعوده من اجتناء ثمرات مشروعاته وحرموه من ينيل ما آربه وقضاه لبساتنه بل كان بطرس اذذاك مشغولا دائما بفعل لثم خارج اسوار اسوج ولم يكن كرووس يتعرض له في ذلك تعرضا يصده ويمنعه عن الاستمرار على هذا العمل فانه كان مولعا بالبحث عما يحوز به فخارا ظاهريا وابهة صورية ولم يكن مطمح نظره المصلحة الصحيحة والفائدة الرجعية

وفي الثاني عشر من شهر يولييه سنة ١٧٠٤ امر واحد من الميرالايات الاسوجية كان قائد سرية عسكرية بانتخاب ملك جديد من اشراف المملكة له في الميدان المعدل لانتخاب المسي كولو قريبا من دوقية وارشاو فانقاد لهذا الامر الصادر من ملك لوثرياني كردينال رئيس وعدة من قسوس المملكة مع ما وقع من البيا في هذا الشأن من التسليد والدعاء بالحرمان اذا القوة تغلب على غيرها فهي تأتي الا الاستسلام والانقياد لها وكيفية انتخاب استافلامس ليكنز نسق معلومة وكذلك لا يجهل احد كيف حل كرووس الثاني عشر

جزأ عظيما من مملكته له على التصديق على انتخابه والاذعان اليه
 واما بطرس فلم يتخل عن الملك المعزول (وهو اغسطوس) بل زاد في امداده
 واعاقته حيث اشتد به الشتاء وسوء الحال وحين كان عدوه (يعني كرلوس)
 مشغولا بتولية الملوك كان هو يهزم امراءه وجزرالاته واحدا بعد واحد في كل
 من اقليم استونيا واطليم أنفريا وكان ايضا يتردد الى مدينة نروا
 لينظر محاضرتها ويشن الغارة عليها عدة مرات وكان بها ثلاثة ابراج
 تعد من غرائب الدهر كما يؤذن بذلك اسمها وهي برج النصر وبرج الشرف
 وبرج الفخار فاستولى عليها بطرس بالسيف ودخل المحاصرون المدينة
 واوقعوا بها السلب والنهب مع القسوة التي كانت اذذاك بين الموسقو
 والاسوج

ولكن فعل بطرس باهلها ما استألمهم اليه وجبب فيه هؤلاء الرعايا المستجدين
 وذلك أنه (في ٢٠ من شهر اغسطوس) طاف بفاجها وسائر جهاتها لينزع
 عساكره من سفك دمايتهم وسلب اموالهم واخذ نساءهم من ايدي السابين
 واقتكهن منهم بل وقتل منهم اثنين حين اظهروا الحق والغيط والنفرة من ذلك
 واخذ سيفه ملونا بالدم ودخل دار الحكومة وكان قد التقى اليها جهم غفير
 من الاهالي ووضع السيف على تحته هناك وقال مشيرا الى الدم الذي لطمه
 ليس هذا الدم من دمايتكم وانما هو من دم عساكري سفته حقا لدمايتكم
 واتخاذ المهجكم

(فتبينه ما ذكرناه في الفصول السابقة واللاحقة مأخوذة من غازيطة بطرس
 ومما ارسل الى من مدينة بربورغ من اللوائح بعد مقابلتها على
 اللوائح الاخرى)

* (الفصل الرابع عشر) *

في بيان كون اقليم أنفريا استقرت تحت حكومة بطرس حين كان لكرلوس
 النصر في غير هذا الاقليم وفي ارتقاء منزيقوف واطمئنان مدينة بربورغ
 وانما وتبميز ما اضمره الحار مع اتصار كرلوس عليه نصرات متوالية

لمدخل اقليم أنقريا بتمامه تحت حكومة بطرس ولى عليه منزيعوف
 وقلده حكمه وانحفه بقب الا ميرور فاه الى رتبة رئيس رجال جهادية ورجا كان
 ارباب الصكبر والاهام الفاسدة في غير هذا العصر يعتدون مثل ذلك
 من الامور المستهجنة ويجعلونه من وضع الاشياء في غير محالها حيث يرتقي مثل
 هذا الشاب الذي كان في الاصل يبيع القطير الى رتبة جنرال وحكمداروا مير لكن
 كان بطرس قد عودر عالياه على عدم استغراب ما هو من هذا القبيل من
 اعطاء كل شيء لارباب الفضل والمعارف من غير التفات الى شرف اصل
 وعلو حسب ونسب وكان من امر منزيعوف أنه في حال صغره صادفته
 العناية فترك حرقه الاولى ودخل في دار الجار فتعلم عدة السن وتمرن على
 الامور الملكية والجهادية فلما عرف ما يكون به محبوبا عند سيده ويكسبه
 الخطوة لديه سهل عليه أن يسلك مسلكا تعرف به اهميته ومنفعته فاجتهد
 في تشييد مدينة بتربورغ فبنى فيها عدة بيوت بالآجر وترسانة ومخازن وتعم
 استحكاماتها واما القصور والسرايات فلم يتحدث بها الا فيما بعد
 (١٩ من شهر اغسطس) ثمان بطرس بمجترداستيلانه على مدينة نزوا
 واستقرار حكمه عليها المدة له المعزول بامدادات جديدة فبعث اليه زيادة
 على الاثنى عشر الفا التي ارسلها له سابقا سنة آلاف من الخيالة ومثلهم من
 المشاة وامرهم بالتوجه الى حدود لوتيانا وكان قائدهم الجنرال رورين
 وكانت نزلاء بتربورغ الجديدة دائما مطمح نظره لا يرحون عن ذكره
 فتمهيناه هذه المدينة وزاد في المهمات البحرية وذهب في شهر اكتوبر الى
 ترسانات اولوتز ليجمما كان يصنع بها من السفن والفرقاطونات فلما تمت
 صانعتها التي بها الى مدينة بتربورغ
 وكان كلما دخل مدينة موسكو دخلها بالموكب والاحتفال فدخلها
 (في ٣٠ من شهر دقبر) من هذه السنة ولم يخرج منها الا ليحضر نزول اول
 سفينة له من ذوات الثمانين مدفعا في البحر وشاهد جولا نه في المياه ولكن قد امر
 بمدها في السنة الماضية على شطهر و يرونيرة

(شهر ماچ سنة ١٧٠٥ من الميلاد) ولما جاء القصل المناسب لعمل الحرب في مملكة له ذهب بطرس الى الجيش الذي كان بعثه الى اغسطوس على حدود لوثيانيا فاصدا اعانة حليفه فيبغلهو كذلك اذ قدم الى مدينة بتربورغ دونما اسوجية بقصد هدمها وهدم قلعة كرونسلوت وكانت هذما الدونما مكة من اثنتين وعشرين سفينة كل سفينة فيها من المدافع من اربعة وخمسين مدفعاً الى ستين ومن ست فرقاطونات وفجيتين موسوقيتين بمباوحتين (والحزاة سفينة مملوءة بالمواد النارية لاجل حرق المراكب) وخرج عساكر الاسوج من الدونما على جزيرة كوتان الصغيرة وكان هناك امير الاي موسقوبي يقال له تولبونغان فامر من معه من العساكر أن يلقوا بطونهم بالارض حين كان الاسوج يخرجون الى الجزيرة فلما خرجوا امرهم بالقيام على حين غفلة ورموا عليهم بنيرانهم الشديدة فاصابهم منها ما اصابهم فانهزم الاسوج واضطروا (في السابع عشر من شهر يونيه) الى العود الى سفنهم وتركوا موتاهم وثلمة اسير

ومع ذلك لم تزل الدونما الاسوجية بتلك الجهة وهي تهدد مدينة بتربورغ وترب اهلها وخرج الاسوج من سفنهم ثانياً وجبروا على الرجوع كما حصل لهم في المرة الاولى وقدمت جيوش اخرى برية من جهة مدينة ويورغ يقودهم جنرال اسوجي يسمى ميدل فاصدين جهة قلعة شولسبورغ وكان ذلك اعظم مشروع اهتم به كرولس الثاني عشر في شأن البلاد التي فتحها بطرس وانشأها (وفي ٢٥ من شهر يونيه) طرد الاسوج من سائر الجهات وصارت مدينة بتربورغ آمنة مطمئنة

واما بطرس فلم يزل يتوغل في فتوحاته جهة اقليم كورلندة وكان عازماً على أنه لا يزال كذلك حتى يصل الى مدينة ريغا فاصدا الاستيلاء على اقليم ليونيا وكان كرولس وقتئذ مستغلاً بحمل مملكة له بنجماها على الاقياد والاذعان للملك الجديد الذي ولاء عليها (وهو استانسلاس) وكان بطرس اذ ذاك بمدينة ويلنا باقليم لوثيانيا وكان سر عسكره

شرمتوف قد قدم الى مدينة ميتو قاعدة اقليم كورلندة فوجد فيها
الجنرال لوانهوب الاسوي الذي حاز الشهرة في عدة وقائع فتصادما
وتطاردا والتهمت الحرب بينهما على وجه منتظم في محل يقال له چيماورسوف
او چيماورس

ومثل هذا الامر الذي تكون فيه الغلبة لمن مارس الوقائع الحربية وتمتزن
على الحركات العسكرية كانت النصره فيه للاسوج مع قلة عددهم وحقت
الهزيمة على الموسقو وغنم الاسوج جميع مدافعهم وكانت هذه الواقعة
اعنى واقعة چيماورس هي احدى ثلاث وقائع انهزم فيها بطرس والثانية
واقعة ياكوبستادت والثالثة واقعة نزوا فخرخل هذه الهزيمات
بل وعاد عليه ذلك بالنفع فيما بعد

(وفي ١٤ من شهر سبتمبر) بعد هذه الواقعة سار بطرس بجيشه الى
اقليم كورلندة فلما وصل الى مدينة ميتو تغلب عليها وحاصر قلعتها
ودخل المدينة بمقتضى مشارطات انعقدت بينه وبين اهلهما
وكانت الجيوش الموسقوية اذذاك مشهورة بأنها اذا نظرت بالعدو سلبت
ونهبت وهي عادة قديمة عند جميع الملل قسح بطرس هذه العادة عند
استيلائه على مدينة نزوا وابطلها بالكلية وكان قد انيط جماعة من العساكر
الموسقوية بمحاولة مقابر الاكبر من دوقات كورلندة بسراية ميتو
فرأوا اجسام هؤلاء الموتى خارج القبور مجردة عما كان عليها من الخلية
وانواع الزينة فامتنعوا من محافظتها حتى يحضر ميرالاي من الاسوج
ليعين هذه المحال ويتطرحاتها فحضر ميرالاي اسوي واخذوا عليه
شهادتنامه تتضمن أن الاسوج هم الذين فعلوا هذه الفعلية ووقعوا
هذا الخلل

وكان قد شاع في جميع الدول الموسقوية أن الجار هزم هزيمة فاحشة
في واقعة چيماورس فكانت هذه الاشاعة اضرت عليه من الواقعة نفسها
وذلك أنه ترتب عليها أن بعض بقايا اوجاق الاسترليج الذين كانوا محافظين

في مدينة ازدرهان تجاسروا على العصيان والخروج عن الطاعة وقتلوا
حاكم تلك المدينة فاضطر الجار الى أن يبعث اليهم السرعسكر
شرمتوف بجيوش موسقوية ليقمعهم ويغيدهم الى الطاعة ويعاقبهم على
عصيانهم

وقد تراكمت المصائب على بطرس من سائر الجهات لما كان لعدوه كرلوس
اذ ذلك من الخط الاوفر في الاقبال وشدة البأس وما حل بحليفه اغسطوس
من المصائب والنكبات والزام مملكة داتيرقة بعدم المدخلة في الحرب
وخروج قدماء الاسترليج عن الطاعة ولغط الاهالي الموسقوية وتغبرهم
نما احده في المملكة من التغيير والتبديل حيث كانوا يتضررون من ذلك
ولا يشمون منه رائحة النفع اصلا وضيق صدورهم من تشديده في الضبط والربط
والترية العسكرية ونفاذ خرائته ومع ذلك لجميع هذه الامور لم تنبسطه
في شيء ولم تقتر بها همت لحظة واحدة بل اخذ نيران القسنة والعصيان ولما احل
الامن بالقليم أنغريا وتمكن من قلعة مبتو مع نصرة لوانوب عليه
وان لم يكن معه من العساكر من يكفي في مقاومته ومدافعته امكنه أن يمر
بالقلي سموجتيا ولوثيانا

وكان يقاسم كرلوس نخارا الاستيلاء على مملكة له قد توغل في تلك الجهة
حتى وصل الى مدينة تيكوكزين وراى فيها ثانيا الملك اغسطوس فسله
على مصابه وواعده بالانتقام له من عدوه واهدى له بعض الوية كان
منزيقوف اغتتمها من خصمه ثم ذهب جميعا الى مدينة غرودنو قاعدة اقليم
لوثيانا ومكثا بها معا حتى مضى اليوم الخامس عشر من شهر دقبر ولما اراد
بطرس الرحلة من هذا الاقليم في ٣٠ من الشهر المذكور انبى له جملة
من النقود والعساكر ثم سافر الى مدينة موسكو ليقم بهامدة على عادته
بقصد اجراء القنون والقوانين وكان ذلك بعد غزوة كابد فيها المشاق

(الفصل الخامس عشر)

في ذكر تمكين بطرس لفتوحاته وابقاع التمدن والثأنس في مملكة وفي حيازة

كرلوس

كرلوس الثاني عشر النصره عليه في عدة وقائع وتغلبه على بعض جهات من مملكة له وسكس وفي كون اغسطوس كانت تجرى عليه اوامر كرلوس الثاني عشر مع نصره الموسقو وغلبتهم وفي تغلب اغسطوس عن تحت مملكته وتسليمه بطقول الجي الجار الى كرلوس وموت بطقول والحكم عليه بعقاب العجلة اي دوسه بالعجل الى أن يموت

(سنة ١٧٠٦) لما وصل بطرس الى مدينة موسكو بلغه أن كرلوس الثاني عشر الذي حاز النصره في جميع الجهات قدم الى مدينة غرودنو لاجل قتال الجيش الموسقوي الذي اقامه باوأن اغسطوس اضطر الى الهروب من تلك المدينة واسرع بالاتجاه الى حكومة سكس مع الالايات الاربعة الموسقوية الذين يقاتلون فرسانا ورجالا وذلك يورث عساكره الجبن والضعف قصد الجار مدينة غرودنو فوجد جميع طرقها مشغولة بالعساكر الاسوجية ورأى جيشه قد تشتت وتبدد شله

فاخذ الجار في جمع جيوشه باقليم لوثيانيا وكان سشولبورغ الشهير الذي هو آخر واسطة اعانة لاغسطوس قد قدم وقتئذ الى مملكة له الكبرى ومعه اثنا عشر الفا من عساكر سكس وستة آلاف من عساكر الموسقو انتخبهم من الجيوش الموسقوية التي كان الجار آمن هذا الملك السيء الحظ عليها وانا طه بها وكان الامير سشولبورغ قد حاز الفخار بمنع العثمانية عن جزيرة كرفو ومحافظتها منهم فقدم الى تلك الجهة طامعا في محاماة اغسطوس والذب عنه فرأى أن منطرح نظر كرلوس الثاني عشر انما هو جهة لوثيانيا وليس معه من العساكر الاسوجية الا عشرة آلاف يقودهم الجنرال رانشيلد (سنة ١٧٠٦) ورأى أنهم ربما منعوه عن السير فتوجه آمنًا مطمئنًا حتى وصل الى حدود سيليزيا وهي طريق اقليم سكس من جهة لهستان العليا فلما قارب فرستاد وهي قرية على ضواحي له وجد الجنرال رانشيلد قد قدم لقتاله

ثم انى وان بذلت الجهد في أن اجتنب هنا ما وردته في كتابي المسمى تاريخ
 كـرلوس الثاني عشر الأفي رأيت أن الحاجة قد دعت الى ارتكاب ذلك
 فاقول انه كان في الجيوش السكسونية الاى من العساكر الفرنسية كان
 قد اسر في واقعة اوشسيتيت الشهيرة فآكره على الدخول في الخدمة
 العسكرية مع الجيوش السكسونية وقد نصت اللوائح التي يدي على أن الاى
 المذكور قد انيط في هذا الحرب بمحافضة المدافع ومهمات الطوبجية
 (٦ من شهر فبريه) وذكرت ايضا أن هؤلاء الفرنسيين لما دخلهم من
 التعجب من نخار كرلوس الثاني عشر وما لحقهم من الغم وانكسار الخاطر
 من خدمة سكس القوا السلاح بمجرد رؤية العدو وطلبوا الانضمام الى
 الاسوج فقبلوهم وقاتلوا معهم حتى انتهت الحرب فكان ذلك من مبادئ
 هزيمة الموسقو وقد انهزموا هزيمة فاحشة حتى انه لم يبلغ عدد الهاربين
 من العساكر الموسقوية ثلاث فرق بل كان الفارون باجمعهم جرحى وقتل من
 عداهم عن آخرهم من غير استثناء هذا وقد زعم المؤرخ نوربرغ وهو من
 القسوس أن الاسوج كانوا يلجئون في المعركة بقولهم بسم الله واما
 الموسقو فكانوا يلجئون بقولهم اذبحوا الجميع ولكن في الواقع كان الامر
 بالعكس فان الاسوج هم الذين ذبحوا الكل مستعينين باسم الله وذكر
 الجار في بعض اعلاناته أن كثيرا من اسرى الموسقو والقوزاق والقلوق
 قتلوا بعد الواقعة بثلاثة ايام وانما سرت هذه القسوة للجنرالات من العساكر الغير
 المنتظمة في الفريقين ولم يحصل مثل ذلك في اعصار التبربر والخشونة وعمايو يد
 ذلك ما اخبرني به الملك استانسلاس نفسه حيث قال انه في بعض الوقائع
 التي كانت تقع غالباً في مملكة له بين الموسقو والاسوج قدم الى بعض
 اصداقائي من الضباط الموسقوية بعد هزيمة فرقته واحتجى بي والتجأ
 الى فرما الجنرال الاسوجي المسمى استانبوك بطنجة وهو بين ذراعي
 انتهى

وهذه هي رابعة الوقائع التي انهزم فيها الموسقو من غير أن تلتفت الى ما حازه

كـرلوس

صكرلوس الثاني عشر عليهم من النصرات الاخرى في مملكة له وكانت جيوش الجمار التي بمدينة غرودنو على خطر عظيم حيث كانت عرضة لان يحتاط بها العدو من مائر الجبهات فدير الجمار طريقة حسنة في جمعها بل وزاد في عددها وكانت مقتضيات الاحوال اذ ذلك تلزمه بامرين في آن واحد وهما التبصر في امر تلك الجيوش حتى تكون آمنة من العدو وتمكين فتوحاته باقليم انغريا فسيره هؤلاء العساكر تحت قيادة منزيقوف الى جهة المشرق ومنها الى الشمال حتى وصلت الى اقليم كيويوا

(شهر اغسطوس) وفي اثناء سير تلك الجيوش ذهب هو الى قلعة شلوسبورغ ثم الى نروا ثم الى بتربورغ الحديثة العمران واحل الامن بجمعيهها ثم ذهب الى سواحل بحر بلطق ومنها الى سواحل نهر برسطين (وهو نهر الدينير) ليدخل ثانيا مملكة له من اقليم كيويوا (شهر اقطوبر) وكان مرامه أن يجعل نصرات كرلوس الثاني عشر عديمة الجدوى حيث لم يكن في وسعه منعها وكان قد استعد الى فتح جديد وهو فتح مدينة ويورغ قاعدة اقليم كارليا التي على خليج فنلندة فذهب لمهاصرتها وقصها حيث وصل اليه المدد والاعانة وقت الحاجة فترك الحصار واستولى عليها وكان خصمه كرلوس الثاني عشر مع نصراته في الوقائع لا يكسب من الفتوحات شيئا وانما كان يتبع اغسطوس في اقليم سكس ويريد دائما اذلاله واهاته ويحمله افعال مولته وعظيم غاراه وشوكته ويحاول استرجاع اقليم انغريا الذي كان قد تغلب عليه خصمه المغلوب (يعني بطرس)

فتشر الفرع والرعبي لهستان العليا وسيليزيا وسكس فذهبت عائلة اغسطوس بتمامها وهي امه وزوجته وولده بقصد الالتجاء الى داخل الامبراطورية النمساوية وكذلك مشاهير عائلات مملكة له وطلب اغسطوس الصلح واثرا أن يكون في قبضة المنهور يتصرف فيه كيف يشاء على أن يلقي الى محاميه بطرس وينزل بجماه وعقد مشاركة بمقتضاها

نزع منه تاج مملكة له ولحقه بذلك من الخزي والمعزة ما لا مزيد عليه
 وكان عقد هاسر الاقتضاء الحال اذ ذالنا خفاء هاتين جترالات الجبار الذين
 كان اغسطوس معهم بمنزلة ملتي بمملكة له وكان كرلوس وقتئذ
 يجري قوانينه بمدينة ليسيك ويحكم جميع اقليم سكس وفي الرابع عشر
 من شهر سبتمبر وضع الوكلاء المتوطون بهذا المشارطة التي جرى بها القضاء
 والقدر القرار والامضاء عليها وكانت تتضمن خلع اغسطوس عن مملكة له
 وأنه التزم أن لا يتلقب بلقب ملك عليها ابدا وأنه يذعن لاستانسلاس ويعترف
 له بالنصب الملوكة ويتخلى عن معاهدة الجار الذي له الفضل عليه ولاجل
 تمام خزيه وفضيخته التزم لكرلوس الثاني عشر أن يسلم له الجي الجار
 وهو بطول جنرال الجيوش الموسقوية التي كانت تقاتل لمحاماته والذهب
 عنه وكان قبل ذلك بمدة قد قبض على هذا الجنرال منتحكا لخرمة حقوق
 الملل ومستندا في ذلك الى تمه باطله اتهم بهذا الجنرال ولم يراع ايضا حقوق
 الدول بعضها على بعض حيث سلم فيه لعدوه ولعمري ان موته وسلاحه بيده
 كان اولى من عقد تلك المشارطة فانها زيادة على كونها جردته عن تاج ملكه
 وغدا منصبه ترتب عليها أنه صار عرضة لخطر الاسر وضياع الحرية لانه كان
 وقتئذ بين يدي الامير متزيقوف بمدينة بوسنانيا وماهيات
 الشرذمة القليلة التي كانت معه من عساكر سكس كانت اذذاك على
 طرف الموسقو

وكان أمام الامير متزيقوف في تلك الواقعة جيش اسوي انضم اليه جماعة
 لهية من حزب الملك الجديد اعني استانسلاس وكان قائده الجنرال
 مادرفيلد وكان متزيقوف لاعلم له بامر المشارطة المذكورة قتال
 لاغسطوس اتى اريد الحملة على هذا الجيش (١٩ من شهر اكتوبر)
 فلم يتجاسر اغسطوس على منعه فوقع الحرب بين الفريقين قريبا من مدينة
 كاليس بقليم بلاطينة وهي بلاد استانسلاس وكانت هذه الواقعة
 اول ولقعة منتظمة كانت النصر فيها للموسقو على الاسوج وحلر

الامير منزيقوف التمهرو الشهرة وقتل الموسقو من عساكر الاسوج
اربعة آلاف و اسرو القين وخمسة مائة وعشرين نفسا

ولا يدري كيف ساع لاغسطس بعد هذه النصره أن وضع القرار على
المشارطة التي اضاغت منه جميع ثمرات تلك النصره وكان كرلوس
وقتشني في بلاد سكس تخلف صولته ويحتج بأسه وشوكته فكان بمجرد
سماع اسمه تنطبع الهيبة والرهبه في القلوب حتى انفضى ذلك بالناس الى عدم
التعويل على ما حصل بمعونة الموسقو من الظفر والنجاح وكان ايضا
الحزب الهستاني المتحزب على اغسطس قويا البأس والشوكة وكان
اغسطس قد غشه الناصحون ودلس عليه المشيرون فوضع القرار على هذه
المشارطة المشؤمة وامضاها ولم يقتصر على ذلك بل بعث مع رسول كرلوس
المسمى فنكستان كتابا اشتهر شؤما من المشارطة يطلب فيه الصفع والمساخمة
من كرلوس في تطير فتكته بالاسوج في تلك الواقعة ونص عبارته
ان القتال في هذه الواقعة حصل قهرا عني وانما الجأني اليه الموسقو والهيبة
الذين هم من حزبي ولقد هممت حين القتال بقولك منزيقوف والتخلي عنه
ولواتهزت فرصة الهروب لكاف الغلبة الجنرال ملدريفيلد ولا بد أن ارد
لسرى الاسوج اوانتصر معاهدة الموسقو وبالجملة فانا اسى فيما يكون به
رضاء خاطر ملك اسوج حسيما يليق بمقامه انتهى وما لبدي هذا الاعتذار
الا ليكونه نجاس وغلب عساكره الاسوجية

وهذا الامر وان لم يسبق مثله والعقل يستبعده الا أنه من الامور المحققة الشابة
فانك اذا تأملت هذا الضعف الواقع من اغسطس بهذه المشابة مع عتده
من شجعان ملوك اوروپا وابطالهم رأيت أن شجاعة العقل وجودة القرينة
هي التي عليها المنابر في حفظ المملك وضياعها وورفعها وانخفاضها

وقد تمت مصيبة اغسطس باصرين كل بهما شقا وموسقو حظه وتم بهما
لكرلوس الشاق في عشر مالا مز يد عليه من السعد والاقبال احدهما الزام
كرلوس له أن يكتب لاستان سلاس كتابا ينيه فيه على المنصب الملوك

وثانيهما وهو من اقطع الامور واشدها جبره على تسليم بتقول الذي هو
الجي الجار وجزاله ومن المعلوم لاهل اوروبا جميعا ما عوقب به هذا
الالجي - في مدينة كازمير حيث حكم عليه عند اخذه من اغسطوس
بأنه يعاقب بعقاب العجلة ~~حياء~~ ~~حياء~~ كان ذلك في شهر سبتمبر سنة ١٧٠٧
من الميلاد وقد ذكر المؤرخ غوربرغ أن جميع الاوامر الصادرة في هذا
المعنى كتبها كرلوس بنفسه

وليس في اوروبا خاص ولا عام من علماء الاحكام الى الارقاء وسفل العوام
الا ويجزم بأن هذه العقوبة ليست الامن باب العدوان والتساوة الخشنة وكان
اول ذنب لهذا المسكين هو كونه تطلب قديما من ملك اسوح مع رعاية الادب
ورسوم التعظيم حقوق وطنه ومن ايا بلاده وبمعيته ستة من اعيان اقليم
ليوونيا اتخيم الاهالي لهذا الغرض ~~وكان~~ من ذنوبه ايضا قيامه
باول الواجبات عليه واعظها وهي خدمة وطنه بمقتضى الاصول والقوانين
وكان ما قامه من الجور والتعدي يستوع له أن يتخذوطنا غيروطنه حسبا
تقتضيه الحقوق الطبيعية فاتقل الى بلاد الموسيقى وصار بهاتز يلا وعند
ملكها دخيلا ثم صار بعد ذلك الجيا لهذا الملك الذي هو من عظماء ملوك الدنيا
في هذا استحق أن يعصم نفسه ويحقق دمه ولكن في هذه الصورة حكم الضعيف
على القوى غلب ما تقتضيه الطباع البشرية ولم يراع رسوم الدول ولا حقوق
الملل لاسيما والاعصر السالفة ~~كان~~ فيها مظهر الفخار ورونق الشرف بستر
عيب الخشونة والقسوة بخلاف عصرنا هذا فعيب الخشونة والجبر والتساوة
يزيل الفخار ويذهب رونقه وبهجته

* (الفصل السادس عشر) *

في ذكر ما وقع من العزم على انتخاب ملك ثالث لمملكة له غير استانسلاس
واغسطوس وفي ارتحال كرلوس الثاني عشر من سكس بجيش جرار
ومرو به بمملكة له يرفل في ثياب الفوز والنصر وما حصل اذ ذلك من القسوة
والجبر وفي ذكر سلوك الجار وبيان حاله وما حازه كرلوس الثاني عشر

من النجاج حتى قدم الى جهة الموسيقى

(سنة ١٧٠٧ من الميلاد) كان سكرلوس الثاني عشر يحنى ثمرات النجاج ويتبع بما حظى به من النصر والفلاح بمدينة ألترستند قريبا من مدينة ليبسيك فكان يأتي اليه امره الاميراطورية الالمانية البروتستانتون افواجا افواجا يهنونه ويؤدون له ما يجب من الاحترام ويدخلون تحت كتفه وحايته وكان اغلب الممالك يرسل اليه السفراء للتهنئة وغيرها وكان اميراطور النمسا يوسف الاول يسلم له في جميع اغراضه ومقاصده واما بطرس فانه لما رأى أن الملك اغسطس قد خرج عن حايته ومحالفته وتخلي عن كرسى مملكة له وأن جزءا من تلك المملكة قد باع استانسلاس واذعن اليه وكان قد عرض عليه ايولكاوة انتخب ملك ثالث لمملكة فكان له رضى بهذا الانتخاب ورآه من الصواب

(شهر يونيو) فانتقدت لهذا الغرض مشورة المدينة بمدينة لوبلين وجرى فيها ذكر عدة من حكام اقاليم مملكة له الملقين بلقب بلاتين (الويودية) أنهم يصلحون لان ينتخب منهم ملك وكان من جهة من ذكر في المفاوضات الامير راغوتسكى وهو الذى كان قد حكم عليه الاميراطور ليوبلد بالسجن من صغره ثم نازعه في كرسى مملكة الجمار بعد أن سعى في اقتضاد نفسه من الاسر ثم ان ارباب هذه المشورة جالوا في المذاكرة وتغالوا في الانتخاب حتى كاد أن يتم الامر على الملك المنتخب وأن يكون على مملكة له ثلاثة ملوك في آن واحد فان هذا الامير وان خاب آمله بعدم اجماع الآراء على انتخابه الا أن الجمار اراد أن يقلد حكومة تلك المملكة لجنرال الجمهورية اللمية الاعظم وهو سنياويسقى لما كان له من قوة الشوكة ونفوذ الكلمة حيث كان راس حزب ثالث لم يذعن لاغسطس المعزول ولا بايع استانسلاس لان المنتخب له كان غير حزبه

وفي اثناء هذا الاضطراب والاختلاف وقع الكلام في شأن الصلح كما هو العادة

في مثل هذا الامر وذلك أن بوزنواله المبعوث من طرف مملكة فرانس
الى مملكة سكس سعى في ايقاع الصلح بين الجار ومالك اسوج
لان الدولة الفرنسية ~~كان~~ كان يخطر ببالها وقتئذ أن كرلوس الثاني عشر
اذ بطل الحرب بينهما وبين الموسقو واهل له فلا مانع من أنه يوجه اسلحته
نحو الامبراطور يوسف لتكدر خاطره منه حيث كان ذلك الامبراطور يكلفه
بقوانين صعبة مدة اقامته بمملكة سكس فاجاب كرلوس هذا السفير
للفرنساوي بقوله اني اصالح الجار بمدينة موسقو فلما بلغ ذلك بطرس
قال ان اخي كرلوس جعل نفسه الاسكندر ولكنه لا يجدي دارا
ومع ذلك كانت العساكر الموسقوية لم تزل بمملكة له بل وفي مدينة وارشوا
دار ملكها وكان حينئذ الملك الذي ولاء كرلوس على تلك المملكة قريب
العهد بالبيعة وكان كرلوس اذ ذلك يفتح لعساكره ابواب الغنى والثروة بسلب
السكس ونهبهم

(٢٤ من شهر اغسطوس) ثم ان ملك اسوج ارتحل من معسكره
بمدينة ألترستاد يقدم جيشا يبلغ خمسة واربعين الفا وكان يترأى من حلة
هذا الجيش أن الجار لا قدرة له على مقاومته حيث انه انهزم في واقعة نزوا
هزيمة فاحشة وكان عدد الاسوج فيها ثمانية آلاف

(٢٧ من شهر اغسطوس) ولما مر ~~كرلوس~~ كرلوس في طريقه بمدينة
درسدة فعل امر اغريبا اوجب تعجب الخلف واستغراب الاجيال المتأخرة
وهي زياوته للملك اغسطوس كما نص على ذلك المؤلف نوربرغ ومن
وجوه غرابتها أنه بما قد عرض نفسه للخطر حيث حضر بين يدي ملك خلعه
عن مله ~~فتر~~ فتر باقليم سيليزيا (من مملكة البروسيا) ودخل الى
مملكة له

وكانت هذه المملكة قد افضى بها الحرب واختلاف الاحزاب والعصب الى الدمار
وصارت غنية للبلايا والمصائب ولما دخلها كرلوس سار من جهة اقليم
مازوفيا وآثر من طرقها اصعب المسالك وكان تلك الطريق جماعة من الالهالى

ملتجئون الى بحيرات هناك فارادوا أن يعترضوا له ولولا إلامه بدفع اجرة المرور
وكانوا نحو ستة آلاف من الفلاحين فبعثوا اليه شيخا منهم بجيب المنظر عليه
لباس ابيض ومعه من السلاح قرابيتان نخطب خطبة وعظ فيها كرلوس
وكان ضعيف الصوت فلم يسمع له كلام فهم الاسوج بقتله في اثناء
الخطبة أمام ملكهم فلما رأى ذلك الفلاحون ايسوا وذهبوا الى محالهم
وتسلخوا فعد ذلك قبض الاسوج على كل من وجدوه منهم وأزموهم
بأن يخنق بعضهم بعضا حتى بقي منهم رجل واحد فأزموه بخنق نفسه ثم حرقوا
مساكنهم عن آخرها هكذا ذكره القسيس نوربرغ ونص على أنه عين ذلك
بنفسه فلا يمكن تكذيبه ولا انكار هذا الفعل القبيح

(٦ من شهر فبريه سنة ١٧٠٨ من الميلاد) ثم ان كرلوس لم يزل
سائرا حتى صار بينه وبين مدينة غرودنو باقليم لوثيانيا عدة فراسخ
فبلغه هناك أن البحار في تلك المدينة مع بعض جيوشه فاخذ معه ثمانمائة
من عساكر الوردبان بدون مذاكرة ولا مشورة وذهب بهم سريعا الى المدينة
المذكورة وكان على احد ابوابها ضابط من الضباط النمساوية يقال له
مولقليس وكان رئيسا على فرقة من العساكر فلما ابصر كرلوس الثاني عشر
جزم بأن جيوشه خلفه فلم يعترض لمنعه بل تركه يدخل المدينة فعند ذلك انتشر
فيها الخوف والفرع وظن الناس جميعا أن الجيش الاسوجي دخل مدينتهم
فاراد من بها من العساكر الموسقوية أن يقاوموا عساكر الوردبان الاسوجي
فبدد الاسوج شملهم واخبر جميع الضباط البحار اخبارا قطعيا بأن جيشا
من الجيوش الاسوجية المنصورة تملك على الجهات العسكرية من المدينة
فلما سمع بطرس هذا الخبر خرج الى خلف الاسوار وجعل كرلوس على
الباب الذي خرج منه البحار ثلاثين خفيرا من الحرس

وفي اثناء هذا الهرج ذهبت جماعة من الطائفة اليسوعية الى بطرس ليلا
واخبروه بحقيقة الحال لما أن دارهم كانت قد اخذت لسكنى ملك اسوج
لكونها اعظم دور المدينة فعاد البحار الى المدينة وهجم على الحرس الاسوجي

ووقع القتال في الحارات والميادين وكان جيش كرلوس قد قدم الى تلك المدينة فاضطر بطرس الى التسليم وترك المدينة لهذا الغالب الذي كان يوقع الرعب والفرع في قلوب اهل له

وكان كرلوس الثاني عشر قد زاد في عدد جيوشه حين كانت باقلمبي ليوونيا وقتلده فكان يخشى على فتوحات بطرس من تلك الجهة كما أنه كان يخشى على بلاده القديمة بل وعلى مدينة موسقو من جهة اقليم لوثيانيا فكانت مقتضيات الاحوال انذاله تلزمه أن يحترس ويكون على حذر من تلك الجهات المتباعدة عن بعضها وكان كرلوس لا يمكنه أن يبحث السير جهة المشرق من طريق لوثيانيا لشدة برد الفصل اذذاك ورطوبة البلاد التي في طريقه ووخامة مدينتي وارشاو ومنسكي لما كان بهما وقتئذ من الامراض الوبائية المتولدة من قعر تلك البلاد وقطعها وكانت جيوش بطرس معسكرة في عز الانهار وحرسه وخفراؤه في المحال المهمة وبالجملة فلم يبرح يبدل وسعه فيما يكون به ايقاف عدوه وتعطيل سيره ثم سافر في شهر ابريل الى مدينة بتربورغ ليرتب بها جميع الامور وينظمها

وحين كان كرلوس يستولى على بلاد له لم ينتفع من اهلها بشئ بخلاف بطرس فانه حين استعمل ما انشاء من السفن البحرية ونزل اقليم فنلندة وتغلب منه على مدينة برغو التي هدمها وخرّبها وغنم من اعدائه مغنام عظيمة كان ذلك يعود عليه بالمنافع الجمة (٢١ من شهر مايو)

وكان كرلوس منذ مدة مديدة قد منعه نوالى الامطار عن الخروج من اقليم لوثيانيا ثم قدم الى نهر بريزين الصغير وهو على البعد من نهر الدينير ببعض فراسخ ولم يكن ثم ما يقاوم هتبه او يثبته عن مراده فوضع قنطرة على ذلك النهر فجاء الموسقو وهزم الفرقة الموسقوية التي كانت على حرم هذا الممر ووصل الى مدينة هلوسين التي على نهر واييس وكان الجبار هناك جيش جرّار أقامه في هذا الموضع لايقاف كرلوس وصده عن المبادرة وليس نهر واييس المذكور الا نهر صغيرا على ارض يابسة

لأنه عظيم التيسار سريع الجرى عظيم العمق عمده الامطار فيتسع وكان فيما وراء ذلك النهر بحيرة أقام الموسقو خلفها متاريس على البعد عنها بربع فرسخ وحصنوا تلك المتاريس بخندق واقاموا عليها بنينا حصينا وضعوا عليه مدافعهم وكان تلك الجهة من العساكر الموسقوية تسعة الايات من الخيالة واحد عشر من المشاة نازلة في محل محكم الوضع وكلها مستعدة للقتال فكان يترآى من ذلك أن عبور هذا النهر من حيز المستحيل

ولكن جهز الاسوج لاجتيازه قناطر من الخشب حسبما تقتضيه عوايد الحرب ومكايده ووضعوا الطوابي لاجل لمنهم حال الاجتياز الآن كرلوس لما كان شديد الحمية لاقدرة له على الصبر عن القتال لم يستطع أن يتأخر في هذا المقام ادنى تأخرو لم ينتظر تلك القناطر حتى تتم بل كان اقل من اجتياز النهر وهذا الامر هو احق ما يتخلل ذكره مما وقع منه في هذه الواقعة وقد اخبرني غير مرة اخبارا صحيحا السر عسكر سشورين وكان قد مكث في خدمة كرلوس مدة مديدة أنه في بعض ايام التجهيزات للحرب والقتال قال كرلوس لجنرالاته الذين كانوا منوطين بتأدية مواد التجهيز هلا تتم هذه الاشغال الواهية في مدة يسيرة

فبزل كرلوس التهر وتبعه آلاى الورديان الملوكي فسكنت الامواج لكثرتهم وكان الماء يضرهم الى اكثفهم فكان لا يمكنهم أن يستعملوا اسلحتهم فلو كانت المدافع الموسقوية الموضوعة على الحصن الوقتي مجهزة على ما ينبغي وضربت عليه صفوف الموسقو لما نجا منهم احد

(٢٥ من شهر يولية) وبعد أن اجتاز كرلوس النهر خاض ايضا البحيرة ثم اجتاز الاسوج بعدم وانتظت صفوفهم وهجموا على المتاريس سبع مرات لكن لم يسلم الموسقو الا في السابعة ولم يأخذ الاسوج منهم الا اثني عشر مدفعا وخمسة وعشرين من الالهوان ذوات الخنبرة كائن على ذلك مؤرخو الاسوج

ويؤخذ من ذلك أن الجرار كان قد نجح فيما جرده من الجيوش الحربية

التي غزت على الحركات العسكرية وأن نصرة كرلوس في هذه الواقعة
المسماة واقعة هولوزين التي حاز فيها من الفخار ما لا مزيد عليه قد أفهمته
أن مثل هذه الاقطار البعيدة تفضي عن توغل فيها الى اقتحام اخطار شديدة
ومكابدة مشاق عديدة وذلك أن جيشه كان لا يتأني له السير الا طائفة بعد
طائفة تذهب من غابة الى اخرى ومن بركة الى اخرى وهم مضطرون الى القتال
في كل خطوة غير أن الاسوج لما كانوا قد تعودوا على اقتحام العقبات
والموانع لم يخشوا الاخطار ولم يكتفوا بالمشاق

* الفصل السابع عشر *

في اجتياز كرلوس الثاني عشر نهر الدينير وتوغله في بلاد اوقرينة
وعدم حسن تدبيره وهزيمة بطرس الاكبر لبعض جيوشه وضياح ذخائره
ومهامته الحربية وتوغله في الصغرى وذكر ما وقع له في اوقرينة
(١٧٠٨ من الميلاد) ولما وصل كرلوس الى شاطئ نهر الدينير خرج
على مدينة صغيرة هناك يقال لها مويلو وفي هذا المحل عرف هل كان
مرامه التوجه في طريق الشرق الى جهة مدينة موسكو او في طريق
الجنوب الى جهة اقليم اوقرينة وكان جميع الناس من عساكروا حباب
واعداً ينتظرون سيده الى تحت بلاد الموسقو وكان بطرس منذ ارتحل
عن اقليم سمولانسكو يقفواثر كرلوس بجيش جرار في كل طريق سلكها
وكان لا يخطر ببال احد أن كرلوس يسلك طريق اوقرينة وانما رغبه
في هذا الامر الغريب مازيا هتمان القزق او القوزاق (اي حاكمهم)
وكان شيخا قد بلغ من العمر سبعين سنة ولم يكن له ذرية فكان الالبق به
أن يضي ما بقي من حياته في الهدوء والراحة وكان مقضى شكر الصنيع أن يرجع
جانب الجار ويؤثره على غيره لانه هو الذي قلده بمنصبه لكنه بمجد النعمة
وانضم سرا الى كرلوس مؤملاً أنه يحزب معه جميع اهل حكومته ويحملهم
على الخروج عن طاعة الجار اما لكون بطرس فعل معه ما حمله على
التظلم منه اوله كونه اغتر بفخار كرلوس اولانه كان يروم الاستقلال

والخروج

والخروج عن التبعية وهو الأقرب •

وكان كرلوس يجزم بأنه متى انضم إلى جيوشه المنصورة الطوائف الذين لهم ميل إلى الحرب والقتال (وهم القزق) اتصر على الدولة الموسقوية بتمامها وكان مقتضى ما وعده به مازيه أن يأخذ منه جميع ما ~~ي~~كن أن تدعوا إليه الحاجة من الزاد والمهمات والمدافع زيادة على جيشه الذي كان قادما إليه من إقليم ليوونيا تحت قيادة الجنرال لوانهوب وكان عدده ما بين ستة عشر ألفا إلى ثمانية عشر ومعه الزاد والمهمات الحربية ولم يكثر كرلوس ~~ب~~كون الجار كان مستعدا للهجوم على هذا الجيش فيحرم بذلك من هذه الاعانة العظيمة كما لم يستفهم عن حال مازيا هل له قدرة على الوفاء بما وعده وهل له كلمة نافذة بحيث يقدر على تحزيب امة القزق بتمامها التي من عادتها أن لا تقبل نصيحة احد بل لا تعول الا على نفسها وهل اذا ادركت الهزيمة كرلوس يبقى عنده من الاعانات ما ~~ي~~كفيه وهل يمكنه أن يستقل بنفسه ويعتمد على سعده وقيام حفظه في صورة ما اذا تخلى عنه مازيا اوتين ضعفه ثم ان الجيش الاسويجي قدم إلى ما وراء نهر الدنيبر جهة نهر دسنا وكان ينتظر قدوم مازيا بين هذين النهرين وكانت الطرق صعبة المسالك وكان المرور بها خطرا حيث كن هناك فرق عسكرية موسقوية متفرقة في تلك الجهات

وفي الحادى عشر من شهر سبتمبر اغار الامير منزيكوف بمن معه من الايلات وكانوا ما بين فرسان ورجال على طليعة جيش كرلوس فهزمها وبتد شملها وقتل كثيرا من الاسوج ~~و~~لم ~~ي~~كن يقدم من عسكره اكثر ممن قتل ولم يجزع من ذلك واما كرلوس فبادر إلى ميدان الحرب ولم يزح العساكر الموسقوية عن مواضعها الا بشق الانفس بعد أن خاطر بنفسه مدة حيث احدثت به جماعة من الفرسان كان يقاتلهم وكان مازيا لم يقدم إلى ذلك الوقت واخذت مؤونة الاسوج في التناقص ومع ذلك لم تفتر همهم حيث رأوا ~~م~~هم يقاسمهم في سائر ما كابدوه من الاخطار والمشاق والجماعة

الأنهم كانوا يتعجبون منه ويلومونه ويلعطون بذلك فيما بينهم
ثم ان كرلوس بعث الى الجنرال ليووانهوب يأمره أن يسير مع جيشه
ليأتى لهم بالزاد والذخائر في العربات المعدة لذلك فلم يصل اليه الامر الا بعد مضى
اثني عشر يوما ومثل هذه المدة تعد طويلة بالنسبة لحالتهم وقتئذ فتوجه
ليووانهوب لتضاء هذا الغرض فتركه بطرس ولم يتعرض له حتى اجتاز
نهر الديبير وصار بين هذا النهر والنهر الصغير الذي يصب فيه ثم تبعه واجتاز
النهر خلفه حتى لحقه وهجم عليه بالفرق الموسقوية التي كان يتسلو
بعضها بعضها وهزمه وقتل يعساكره وكانت هذه الواقعة بين نهري الديبير
وسوسا

وقد عاد منزيقوف الى الاسوج بفرقة الخيالة التي كانت تقا تل كرلوس
وتبعه الجنرال يوير وقدم ايضا بطرس بنخبة عساكره وكان الاسوج
يعتقدون أن عدد العدو اربعون الفا بناء على ما كان يصل اليهم من الاخبار
في هذا الشأن ومكثوا على هذا الاعتقاد مدة مديدة مع أن ما وصل الى
من اللوائح الجديدة يفيد أن عساكر بطرس في هذه الواقعة انما كانت
عدهم عشرين الفا وهذا القدر لم يكن يزيد بكثير على العساكر الاسوجية
ثم ان بطرس سلك مسلك الهمة والنشاط والصبر والعناد وحذا حذوه في ذلك
جيشه وكان وجوده بين اظهريهم يحرضهم على القتال فبذلوا امره
الواقعة بالنصرة بل وثلاث وقائع اخرى اعقبها ووقع القتال بين الفريقين
في تلك الوقائع عدة مرات

وكان اول ما هزمه الموسقو من عساكر الاسوج طليعة جيشهم قريبا
من قرية ليسنو التي سميت الواقعة باسمها وسفك في هذه الصدمة الاولى
دماء جليلة من العساكر الا أنه لم يثبت بها الا حرو كان ليووانهوب قد آوى الى
اجرة هنالك وحفظ فيها ما كان معه من الاحمال والاثقال فاقضى الحال في اليوم
الثاني أن الموسقو يطردون الاسوج من هذه الاجرة فناوشوهم القتال
وسفك في هذه الواقعة من الدماء اكثر مما سفك في التي قبلها وكانت النصر

ففيها للموسقو ولما رأى بطرس اختلال جيوشه في هذه الواقعة صاح عليهم أن ائتوا واضربوا بالنار على كل من قزولوكنت انا غملاوا على الاسوج (٧ من شهر اقطوبر) حتى زخحوهم عن مواضعهم ولكن لم ينهزموا

ونهاية الامر أن الموسقو جاء اليهم اعانة من العساكر يبلغ عددهم اربعة آلاف فضربوا على الاسوج بالنار فكانت ثالثة الوقائع والجأؤهم الى قرية هنالك يقال لها بروسبول ثم هجموا عليهم فيها فذهبوا جهة نهر دسنا فتبعوهم واقتفوا اثرهم ومع ذلك لم يزل الاسوج على ترتيبهم وانتظامهم لكنهم قدوا من شوكتهم ما يزيد على ثمانية آلاف رجل وسبعة عشر مدفعا واربعة واربعين لواء واسر الجار منهم ستين ضابطا ونحو تسعمائة عسكري وقبض على الذخائر العظيمة التي كانت مبعوثة الى كركوس

فكانت هذه اول مرة هزم فيها الجار بنفسه اعداءه وكانوا قد حازوا النصره على عساكره قبل ذلك غير مرة فحمد الله تعالى وشكره على ما اولاه من الظفر والنجاح وكان ذلك في السابع عشر من شهر سبتمبر لاسيما حين بلغه أن ابركسان وهو من الجنترالات الموسقوية حاز النصره على الاسوج في اقليم أنغريا بعيدا عن مدينة نروى ببعض فراسخ وان كانت في الواقع ونفس الامر دون نصره ليستو الآن توالى للحوادث النافعة قوى آماله والتي في ذهنه أن عنده من الجيوش من يتق به لدى المشروعات ويعتمد عليه في المهمات

وقد بلغ كركوس الثاني عشر خبر هذه الوقائع السيئة حين عزم على اجتياز نهر دسنا باقليم او قرينة ثم ان مازيبا قدم اليه بالايين من العساكر مع أن مقتضى وعده أن يأتي اليه ثلاثين الف مقاتل وبمقدار جسيم من المهمات والذخائر الحربية فكان الاولى أن يقال في حقه انه قدم مستحييا مستعينا لا مساعدا ومعيانا وفي الواقع أنه خرج من بلاده بخمسة عشر الفا وستة عشر كان قد افهمهم أنه قاصد قتال ملك اسوج وأنهم ان ساروا معه حازوا

الشهرة والتمخار يكونهم صدوا هذا البطل الصنديد ومنعوه عن السير ويصير
 لهم على الجار منة عظيمة اذ اهتم ادواله هذه الخدمة الجسمية
 ولما صار بينه وبين نهر دسنا بعض فراسخ اخبرهم بالحقيقة واطلعهم على
 سره فنجرد أن سمع هؤلاء الابطال ذلك نفرت منه قلوبهم وابوا أن يخونوا
 سيدهم حيث لم يصدر منه في حقهم ما يحملهم على التشكي والتظلم وامتنعوا
 من اعانة ملك اسوجي دخل ديارهم متسلحا ولا يمكنه بعد مفارقتهم أن يذب
 عنهم بل يتركهم فريسة لحيمة الموسقو وغضبهم يفعلون بهم ماشاؤا ويدعهم
 لحقد اعدائهم اللهيّة الذين كانوا يحكمونهم سابقا وتركوه وانصرفوا الى اوطانهم
 واخبروا الجار بتخلّصهم عنه ولم يبق معه الا نحو الاربعة كانت مرتبات من فيضا
 من الضباط على طرفه

وكان مازيسا اذذاك لم يزل له الحكم على بعض جهات من اقليم اوقريسة
 لاسيما مدينة بافورين دارقامته التي كانت تعتبر مقر الحكومة القوزاقية
 وهي واقعة على نهر دسنا قريبا من غابات هنالك لكنها بعيدة جدا عن المحل
 الذي غلب فيه بطرس الجنرال لوانهوب ولكن لم يزل في بعض الايات
 موسقوية معسكره تلك الناحية وقد انفصل الامير منزيقوف عن
 جيوش الجار ووصل الى الاسوج بعد أن اكثرت الطواف والمرور بتلك
 الجهات وكان كرويس لا يمكنه أن يضع الحرس على جميع الطرق لعدم معرفته
 بها وكان قد اهل الاستيلاء على مدينة استارودوب التي يتوصل منها الى
 مدينة بافورين على الاستقامة بمسافة نحو سبعة فراسخ او ثمانية من
 الغابات التي يحترقها نهر دسنا وكان لعدوه منية عليه وهي خبرته بتلك
 الجهات فلذا سافر كل من الامير منزيقوف والجنرال غالتزين حتى وصلا
 الى مدينة بافورين مع غاية السهولة واستوليا عليها من غير أن يقع منها كبير
 مقاومة ولا مدافعة فيها الموسقو وحرقوها حتى صارت رمادا وصكان
 بها مخزن للمهمات ملك اسوج واموال مازيسا وخزائنه فغفوا ذلك كله
 ثم ان القزق اتخبوا لهم همتانا آخر اقروه الجار ورضى به حاكما عليهم واراد

أن يعرفهم أن الحياة الصادرة من مازيا ذنب عظيم وامر جسيم فحكم عليه في الثاني والعشرين من شهر ثومبر مطران اقليم كيوبا ومطرانان آخرون بالاحاد والسكر في مجلس حافل على رؤس الاشهاد وحكموا عليه وعلى جماعة من حزبه بعقاب العجالة

ومع ذلك كان كرلوس الثاني عشر معه من العساكر خمسة وعشرون الفا الى سبعة وعشرين الفا ووصلت اليه بقايا جيش لوانهوب وكان معه ايضا الفان او ثلاثة من عساكر القزق الذين كان قد اتى بهم مازيا وكان لم يزل يطعم في ادخال اقليم او قرينة بتمامه تحت طاعته فاجتاز نهر دسنا بعيدا عن مدينة باقورين قريبا من نهر الدينير غير مكثرت بجيوش الجبار التي كانت محمدة به من سائر الجهات فقد كان بعضها يقفواثر طليعة جيشه والبعض الآخر منتشر افيما وراء ذلك النهر فاصدين صده ومنعه عن المرور

واستقر على سيره لكن كان طريقه في الصحارى والقفار وكان لا يمر الا بقري دارسة وبلاد محترقة خربة وكانت شدة البرد قد دخل وقتها فكانت اوائلها من شهر دقبر وقد اشتد القزق والبرد على اصحابه حتى هلك منهم نصب عينيه نحو المقيمين واما جيوش الجبار فكانت دونهم في هذه الشدة لكثرة الوسائط اللازمة لوقايتهم بخلاف عساكر كرلوس فانهم كادوا أن يكونوا محتردين عن الملابس فلذا كانوا عرضة لتأثير الفصل فيهم اكثر من الموسمو

وفي اثناء هذه الحالة السيئة نصح القوتة ببيير سيده كرلوس وتضرع اليه أن يكف عن السير والا فلا قل من أن يمكث مدة شدة البرد في مدينة رومنا وهي مدينة صغيرة باقليم او قرينة وكان هذا القوتة امين مصالح المملكة الاسوجية وكان دائما ينصح ملكه بالنصائح العظيمة ويرشده بالارشادات النافعة فبين له ثمرة نزوله بهذه المدينة وهي أنه يستريح بها هو وجيوشه ويمكنه فيها تقوية عساكره وتحصيل بعض من الزاد والمهمات الحربية باعانة مازيا فاجابه كرلوس بأنه ليس عن يلزم المدين ويجوى الإقامة فترجاه القوتة

ثانياً أن يجتاز نهري دسنا والدينير حتى يصل الى مملكة له وينزل
جيشه بالعسكرات التي يحتاجونها ويستعين بالخيل الخفيفة من فرسان
هذه المملكة حيث ان الضرورة مقتضية لذلك على كل حال ويمكن الملك
الذي ولاه على تلك المملكة ويمنع حزب اغسطوس عن التقوى والاخذ
في اسباب الاستعداد للقيام فاجابه بأن هذا فرار أمام الجار وأن الفصل
سيعود علينا بالمنفعة وأنه يلزم الاستيلاء على اقليم اوقرينة والسير الى
مدينة موسكو

(شهر ينويه سنة ١٧٠٩ من الميلاد) ثم ان الجيوش الموسقوية
والاسوجية مكثوا عدة اسابيع في الدعة والبطالة لشدة برد هذا الشهر من
السنة المذكورة فمجرد ما تمكن للعساكر حمل السلاح شن كرلوس الغارة
على جميع المحال الصغيرة التي صادفها في طريقه وكان قد اقتضى الحال أن يبعث
الى سائر الجهات جماعات لتحصيل الزاد والمؤونة فبعث جماعة الى محال بعيدة
عنه بخمسين فرسخا التهب ذلك من الفلاحين الذين بتلك الجهة واما بطرس
فلم يجهل بالقتال وانما كان يراقب حركات عدوه ويلاحظ احواله واطواره
ويتركه يسلك مسالك الردى والمهلك

هذا وما يعتذر على القارئ أن يقف على مواقع الاودية والجهات التي سلكها
الاسوج في سيرهم بتلك الاقطار فانهم اجتازوا عدة انهر لا وجود لرسماها
في الخرائط الجغرافية ولا ينبغي أن يظن أن علماء الجغرافيا يعرفون تلك
الجهات كمعرفة محال فرنسا واطاليا والنمسا لاهلها فان علم الجغرافيا
هو الى الآن من بين العلوم اكثرها احتياجا للمزاولة ومنزلة الاطلاع
والاستكشاف ومع ذلك فالاطماع لم تزل الى الآن تحمل الناس على تخريب
الارض وايتار ذلك على تخطيطها ومعرفة اوصافها

وانما نقول ان كرلوس جاب اقليم اوقرينة بتمامه في شهر فبرية
وحرق كل ما صادفه في الطريق من القرى والبلدان كما فعل الموسقو وتوغل
جهة الجنوب الشرقي حتى وصل الى صحارى قحلة يكتنفها جبال تفصل

تسار نوغابيس من قزق نهر الدون وفي شرق تلك الجبال محاريب
اسكندر فلم يشعر كركلوس الا وهو خلف او قرينة في الطريق التي
يسلكها التتار لبلاد الموسقو فرأى أنه يلزم المبادرة بالرجوع خشية
أن يحاطر بنفسه وكان اهل تلك الناحية محتفين في المفارات بمواشيهم وكلوا
في بعض الاحيان يدافعون عساكر الاسوج وينعونهم من نهب مؤناتهم
فقبض عليهم الاسوج وقتلوه وقال ان هذا النهب محدود من الحقوق
التي يقتضيها الحرب (اي فلا حظ فيه) ولنوردها عبارة ذكرها القسيس
نوربرغ ونصها قد رأيت أن اورد هنا صورة تذكرة اعطاها كركلوس بيده
للميرالاي هيلين ليعرف بها الواقع عليها تولع هذا الملك بالعدل وشدة
رغبته فيه ونص عبارتها مسيو الميرالاي قد اشرح صدرى حين بلغنى
أن الاسوج قبضوا على الفلاحين حيث قبضوا على رجل من العساكر
الاسوجية فبعد استجوابهم واقناعهم بأنهم مذنبون يعاقبون على ذلك
بما يقتضيه الحال من انواع العقاب بالموت انتهى ووضع فيما سمع وتحت اسم
بيديس انتهى ما ذكره نوربرغ فانظر الى هذا القسيس الذي هو قسيس
ملك اسوج والى درجة عدالته ومروفته وشقيقته ولو فرض أن فلاحى
او قرينة امكنهم خنق فلاحى اوستروغونيا النازلين بتلك الجهة من
الحال البعيدة لينهبوا من هؤلاء الفلاحين قوت نساءهم واولادهم مع اعتقادهم
أن لهم الحق في ذلك فهل كانت عدالة قسوس او قرينة تقتضى أن يستحسنوا
ذلك منهم ويعتدوه بما يتدح به كما فعل نوربرغ

وكان مازيسا منذ مدة مديدة يسعى في عقد المحالفة بينه وبين الزابورلوية
وهما مائة على شاطئ نهر الدينير ومنهم من يستمكن جزائر هذا النهر واهل
تلك الجزائر هم لا يتناسكون ولم يكونوا في حالة الجمعية والعشائر بل معيشتهم
من السلب والنهب وما يتحصل عندهم يجمعونه ويتركونه في جزائرهم مدة
فصل الشتاء ثم يذهبون لبيعه بمدينة بطاوا الصغيرة في فصل الربيع
واما الآخرون فيسكنون ضياعا على مينة النهر ويمسرون ويحكمكم الجميع

هتمان مخصوص ينتخبونه من بينهم وهو تابع لهتمان اوقرينة فذهب
 الهتمان الذي كان يحكمهم وقتئذ لتقابلته مازيا فتقابل هذان الاميران
 الحشنيان وكل منهما محمول أمامه ذنب فرس وعصى

ولابأس أن نورد هنا صورة المخالفة التي انعقدت بين هذين الهتمانين فان مثل
 ذلك بحسب الظن جدير بأن يذكر في التاريخ ليقف به القارئ على حقيقة
 هتمان الزاپوراوية ومعرفة حاله وحالهم فنقول ان مازيا صنع للهتمان
 المذكور وواعيان اصحابه ولية عظيمة وقدم الاطعمة اليهم في صحاف الفضة
 ولما اخذتهم نشوة السكر تحالف الهتمانان على الانجيل والمائدة بين ايديهما
 وتعاهدا على أن يمتدأ كرلوس الثاني عشر بالزاد والعساكر وبعد انقضاء
 المخالفة اخذ الزاپوراوية الصحاف وجميع اثاث محل الولية وانصرفوا فلحقهم
 السفرة حتى وقال لهم ان هذه الفعلة يحرمها الانجيل الذي حلفتم عليه واراد
 خدم مازيا أن يأخذوا منهم الاواني فتعصب الزاپوراوية وذهبوا
 باجمعهم الى مازيا يشكون له عما وقع في حقهم من الاساءة التي تزدى
 بمقامهم وتخل بشرفهم وطلبوا منه أن يسلم لهم في السفرة حتى ليعاقبوه على ذلك
 بما تقتضيه القوانين فسلم لهم فيه فاخذوا هذا الرجل المسكين وصاروا يترامون
 به فيما بينهم كالكرة ثم طعنوه بسكين في صدره

فمكذ كانت حالة معاهدي كرلوس الجديدين اللذين جبر على معاهدتهما
 وقبولهما في هذا المعنى فانخب من اصحابهما الايا والني رجل وتفرق الباقي
 وتوجهوا للقتال من انضم الى بطرس من القزق والقلوق المنتشرين
 في معسكراته

وكان في مدينة بلطاوا الصغيرة التي يأتي اليها الزاپوراوية لبيع بضائعهم
 كثير من المهمات والذخائر وكانت صالحة لأن تكون ميدان الحرب لملك
 اسوج وهي على نهر وورسكلا قرية جدا من سلسلة جبال تشرف
 عليها من جهة الشمال وعلى شرقها صحراء متسعة وارضها من جهة الغرب اشدة
 خصوبة واكثر عمراناً والنهر المذكور يصب في نهر الدينير بالبعد عن تلك

المدينة بخمسة عشر فرسخا ويمكن لمن خرج منها من الجهة الشمالية
قاصدا مدينة موسكو أن يمتد إلى طريق تلك المدينة بواسطة مسالك
ضيقة هنالك يسلكها التنار في سيرهم إلى تلك الجهة ولكن لاحتراس بطرس
صارسلوكها متعسرا ومتعذرا الآن كزولس كان لا يـ~~حترث~~ بمثل تلك
الموانع ولا يعذره مستحيلا فكان يطمع في السير من تلك المسالك إلى مدينة
موسكو بعد الاستيلاء على مدينة بلطاوا فوضع عليها الحصار في أوائل
شهر مايو

* (الفصل الثامن عشر) *

في واقعة بلطاوا

(سنة ١٧٠٩ من الميلاد) وكان بطرس ينتظر كزولس في تلك الجهة
وكان قد جعل الفرق العسكرية من جيوشه على حالة بحيث يمكنها الاجتماع
والسير جميعا إلى جهة المحاصرين وكان أيضا قد طاف بجميع الاقطار التي تكنف
اقليم اوكرينة وكذلك دوقية سوريا التي يحترقها نهر دسنا
الشهير بنصرة الجار وهو في ارض هذه الدوقية اكثر عمقا مما في غيرها وطف
ايضا بلاد بلكو التي بها منبع نهر اوكا وكذلك الصحارى والجبال التي
يتوصل منها إلى طريق بحر ازاق وتوجه إلى هذا البحر واصلح ميناء واخذ
يجدد فيها سفنا ويحصن قلعة تغروك واغتم فرصة الزمن الذي بين وقائع
دسنا وواقعة بلطاوا فصرفه فيما يعود بالنفع على ممالكه
ونجرت ما بلغه أن مدينة بلطاوا حاصرها ملك اسوج جمع جنوده
من سوارى وبيادة وعساكر تقايل فرسانا ورجالا وعساكر قزقية وقلوقية
فقدموا كلهم من جهات عديدة وكانت جيوشه مستكلمة اللوازم والادوات
فكان معها سائر انواع المدافع من كبيرة وصغيرة يمكن قتلها وكذلك المهجمات
والذخائر من سائر الاصناف وما يحتاج اليه من الادوية والاجزاء فكان بذلك
اعظم من عدوه شانا واقرى سلطانا
وفي الخامس عشر من شهر يونيو سنة ١٧٠٩ من الميلاد وصل إلى مدينة

يلطأوا يقدم جيشا تبلغ عدته ستين ألف مقاتل وكان نهر وورسكلا
بينه وبين كرلوس فكان المحاصرون نازلين في الشمال الغربي والموسقو
في الجنوب الشرقي

وفي الثالث من شهر يوليه ركب بطرس النهر وصعد فيه إلى الجهة
العليان المدينة ووضع هناك ما يلزم من القناطر واجتاز جيوشه النهر عليها واتهام
مترا سطو بلا أمام جيش العدو شرعوا فيه وتموه في ليلة واحدة فعند ذلك
ظهر لكرلوس أن هذا الملك الذي كان يحتقره ولا يعبأ به ويؤمل خلعاه عن
ملكه بمدينة موسكو له معرفة بالفنون الحربية وخبرة بالحركات العسكرية
ولما انتهى هذا التدبير أنزل بطرس عساكره الخيالة بين اجتئين هناك وسترها
بعثة حصون عليها جلة من المدافع ولما اكل هذه الاحتراسات على هذا الوجه
ذهب في السادس من شهر يوليه ليعاين معسكر العدو ويعرف كيف
يهزمه ويحوز النصر عليه

وهذه الواقعة كان عليها المدار في بئ الامر بين همالك الموسقو وله وأسوج
وفي انهاء المشاجرة بين هذين الملكين اللذين كان اهل اوروبا باجمعهم
شاخصة ابصارهم اليهما ويترقبون ما يزول اليه امرهما فقد كان أغلب الملل
للميقظة التي تعنى بالبحث عن مثل هذه المصالح العظيمة والمنافع الجسيمة
لا تعرف اين مقر هذين الملكين ولا ما هما عليه من الاحوال وانما كان مبلغ
علمهم في هذا المعنى هو أن كرلوس حيث خرج من مملكة سكس منصورا
على عدوه قائد الجيش هائل يقضوا اثر خصمه في سائر الجهات فلا ريب أنه يهزمه
ويطفر به وأنه حيث وضع القوانين على دانمركة وله والتجسا فلا بد أنه
يملي بسراية كرميلين في مدينة موسكو الشروط على الدولة الموسقوبية
ويعزل جاره ويولي عليها جارا غيره كولو في ملكا على مملكة له وقد عثرت
على هذا الرأي العام في عدة مذكرات صادرة من وكلاء الدول إلى
دواوين ملوكهم

ولم يكن امر الخطر بين هذين الخصمين على حد سواء اذ لو هلك في هذه الواقعة

كرلوس

كرلوس الذي طلما عرض نفسه للأهوال واقتحام الاخطار لما حصل الاسف عليه الامن جهة كونه من صناديد الابطال فقط فانه باقتضاء اجله يتقضى الدمار والحرب من اقليم اوقرينة ونغور اقليم لومينايا والدولة الموسقوية ويعود الى مملكة له مع الهدء والراحة ملكها الاصلى حليف الجار الذي له الفضل والمنة عليه

وقصاري الامر أن مملكة اسوج لنفاد اموالها ورجالها كانت لا يحزن عليه بل ربما كانت تجد في ذلك ما تسلي به ويحملها على العزاء والصبر بخلاف ما لو هلك بطرس فانه بفقد متفقد المصالح والاشغال الجسمية العائدة بالمنفعة على النوع الانساني من ابناء جنسه ويجل الاختلال وعدم الانتظام بأكبر مملكة على وجه الارض مع قرب عهد ها بالانتقال من تلك الأحوال واستحالة حالها الى احسن حال

ثم ان بعض الفرق الاسوجية والموسقوية وقع بينها التزال والمصادمة غير مرة تحت اسوار مدينة يلطاو (٢٧ من شهر يونية) وفي بعض تلك المصادمات اصيب كرلوس بضربة قربانية كسرت عظام قدمه فعولج هذا الجرح بعدة عمليات مؤلمة وابدى فيها ما هو عادية من الجسادة والصبر من غير اظهار تائر ولا تالم وبعد ايام قلائل اضطر الى ملازمة الفراش وادائه وهو في هذه الحالة أن بطرس لا بد أن يهزمه لكن ما كان قائما بنفسه من التولع بمعال الامور وحب التفخار حله على أن لا يمكث في داخل كرائكه وينتظر بطرس حتى يقيم عليه بل خرج منها محمولا على سريرها صداشن القارة على العدو وفي غارطة بطرس الاكبر أن الاسوج استولوا مع الجملة وفرط القوة على الحصون الموضوع عليها المدافع التي كانت وقاية الخيالة الموسقوية فتغلبوا منها على حصنين مع ما ينداه بطرس من المقاومة واستمر الضرب بالبنار عليهم ويقال ان العساكر المشاة الاسوجية الذين استولوا على هذين الحصنين ظنوا أن النصر لهم في هذه الواقعة فصاحوا النصر النصر ونادى في تلك الموزع فوز برغ الذي كان بعيدا عن ميدان الحرب في محل الاقبال والامتنعة

(حيث يكون امثاله) فزعم أن الاسوج لم يقولوا ذلك وانما صاحوا هل
النصرة لنا ام لانتهى ولا ريب أنهم لم يتالوها بل كان الضرب بالنار لم يزل واقعا
من الحصون الاخرى وقاوم المسلمون عند قوتهم مع القوة والنبات التام
ثم انهزموا مع قهائمهم على العزم والحمية ولم يقع منهم ادنى اختلال في الحركات
العسكرية بل صفهم الجار خارج الكراتك وجعلهم صفوفًا وطواير مع
الترتيب والسرعة

فعند ذلك صارت الواقعة عامة وكان بطرس قائما في جيوشه بوظيفة رئيس
رجال جهادية وكان الجنرال بوير متوليا امر مينة الجيش والامير
منزيقوف امر الميسرة والجنرال شرميتوف في القلب واستغرق القتال
بين الفريقين نحو ساعتين وكان بيد كرلوس طنبجة يذهب بها من صف الى آخر
محمولا على اعناق الحرس فاصيب احدهم بضربة مدفع افضت به الى الهلاك
وتفرقت بها اجزاء السرير فبادر الاسوج الى ملكهم وحلوه على رماحهم
حيث لا يتيسر في مثل هذا الالتحام المهول وجود سرير آخر ولا التفات لما قاله
نوربرغ في ذلك وقد اصاب بطرس بعدة ضربات فكانت في ثيابه وبريظته
وكان كل من هذين الملتكين على الدوام في وسط النيران واستقر اعلى ذلك مدة
المعركة بنجاحها وبالجملة فبعد أن مكث القتال بينهما ساعتين انهزم الاسوج
وحل بهم الخزي والوبال وركن كرلوس الى الفرار أمام ملك طلبا لازدراءه
واحترمه ووضع اصحابه على الجواد مدة هروبه مع أن هذا البطل لم يكن يمكنه
الركوب وقت المعركة ولكن اورثته الضرورة بعض قوة فكان يركض بجواده
وبه من الآلام ملامز يد عليه واشتد به الالم جدا لظهور عذوه عليه وانهزاه
شتر هزيمة وقد احصى المسلمون من هلك من الاسوج في محل المعركة
فوجدوهم تسعة آلاف ومائتين وثمانين نفسا واسروا منهم مدة القتال الفين
لوثلاثة اعلبهم من الخيالة

وقد اسرع كرلوس الفرار ومعه من العساكر نحو اربعة عشر الف مقاتل
وعدة قليلة من المدافع التي تنقل في الاسفار وشي يسير من الذخائر والمهمات

والبارود

والبارود وقصد نهر الدينير من الجهة الجنوبية بين نهرى وورسكلاد
وسول او بسول في بلاد الزابوراوية حيث يوجد فيما وراء هذا النهر صحارى
عظيمة يتوصل منها الى نغور بلاد الدولة العثمانية وقد ذكر فوربرغ أن القالين
لم يتجاسروا على تتبع كرلوس واقتفاء اثره واقطره مع ما ذكره من أن الامير
منزيقوف ظهر من اعلى نهر الدينير يقدم عشرة آلاف من الخيالة ومعه
جولة عظيمة من المدافع حين كان كرلوس يجتاز ذلك النهر مع اصحابه
وفي الثاني عشر من شهر يولية اسر هؤلاء الفرسان من عساكر الاسوج
اربعة عشر الفا وانقلبت بينهم وبين الجنرال لوفوانهوب قائد هؤلاء العساكر
الاسوجية مشاركة وضع عليها هذا الجنرال القرار والامضاء وبمقتضاها سلم
للجبار فحين كان معه من عساكر الزابوراوية الذين كانوا يقاتلون مع ملكه
كرلوس وكان من جملة من اسر من الاسوج في واقعة بلطاوا ومن اسر
بمقتضى هذه المشاركة عدة رجال من مشاهيرهم وامرائهم وهم القوتة بيير
اعظم وزرله كرلوس ومعه اثنان من كتاب للدولة الاسوجية وآخران من كلاب
الديوان الملوكى والسر عسكر رانشيلد والجنرال لوفوانهوب والجنرال
اسلينبالك والجنرال روزان والجنرال استاكيلبرغ والجنرال كروتس
والجنرال هاملتون وثلاثة جنرالات باشمعاوين وحكمدار عموم الجيوش
الاسوجية وتسعة وخمسون من عظماء الضباط وخمسة من الميرالايات منهم
الامير ويرتانبغ واسر وامهم ايضا ستة عشر الفا وتسعمائة واثنين
واربعين مائين عساكر وضباط صفوف وبالجملة فاذا ادخلنا في الاسرى خدم
كرلوس وغيره ممن كان في الجيش من الامراء بلغت عدتهم ثمانية عشر الفا
وسبعمائة وستة واربعين كلهم وقعوا في قبضة بطرس واذا قطرنا مع ذلك
الى عدد القتلى في تلك الواقعة وهم تسعة آلاف ومائتان واربعة وعشرون
والى من اجتاز مع كرلوس نهر الدينير في الهزيمة وهم القان تقريبا
وجندنا أن كرلوس كان معه في هذه الواقعة الجديدة بالذكر سبعة وعشرون
الف مقاتل

واما ما كان مع ملك اسوج حين سفره من بلاد سكس خمسة واربعون الف مقاتل وكان الجنرال لوانهوب قد احضر من اقليم ليونيا ستة عشر الفا واكثر فلم يبق لهذا الجيش الجزار اثر وكذلك ما كان معه من المدافع العديدة فقد ضاعت كلها منه مدة سيره بوقوعها وانغماسها في قاع البحيرات والاراضي المستنقعة ما عدا ثمانية عشر مدفعا من خليط المعادن واثنين من مدافع الجب واثنى عشرها وانا حاصر مدينة بلطاوا بهذه العدة القليلة وظن بها على جيش كان به من المدافع عدة مبهولة فها لا يقال انه كرلوس منذ ارتحل من بلاد ألمانيا أبدي من الهمة وفرط القوة مافاق على الحزم والتبصر في العواقب واما الجيش الموسقوبي فلم يهلك منه الا اثنان وخمسون من الضباط ومائة وستة وتسعون من العساكر وهذا دليل على أن الموسقو كانوا أحكم وضعامن الاسوج وأن نيرانهم كانت لا تخطئ المرمى.

هذا وقد زعم بعض الالجية بديوان الجار فيما كتبه في هذا المعنى أن بطرس المبلغه أن كرلوس قد عزم على الالتجاء الى الدولة العثمانية كتب اليه ينشده أن لا يفعل هذا الامر الذميمة وافهمه أن نزوله بحماه اولى من التزول بحمى اعداء دين النصرانية واخصام سائر ملوك الملة المسيحية واقسم له يشرف المعرض انه لا يحجزه عنده كالا سري وأنه ينهى ما بينهما من النزاع والمشايرة على وجه مقبول مستحسن وبعث اليه الكتاب مع سفير مخصوص فذهب بهذا السفير حتى وصل الى نهر بوغ الذي يفصل بلاد اوكرانيا من ممالك الدولة العثمانية فلم يدركه هنالك بل كان قد دخل في اراضي تلك الدولة فعاد بالكتاب الى سيد مملكته اذ كره الالجي المذكور فاثلا انه نقل ذلك عن السفير المبعوث بالكتاب وهذا النادرة وان لم يستبعد بها العقل الا أن لم اقب علمي في دفاتر يومية بطرس الاكبر ولا فيما وصل الي من اللوائح هذا ومن اهم الاشياء أن هذا هو الواقعة دون غيرها من الوقائع التي سفت فيها دماء كثيرة عادت بالنفع على الموسقو لا بالدمار والخراب كما كان يظن ذلك فان الجار تمكن بهامن ايقاع القمذن واحداث التأس في جزء عظيم من اجزاء الارض وهو

المملكة الموسقوية

وقد حصل في بلاد اوروبا من الوقائع المنتظمة الجازية على اصول فن الحرب ما يزيد على مائتي واقعة وذلك من ابتداء القرن الثامن عشر الى سنة تأليفنا لهذا الكتاب فلم يترتب على نصراتها الشهيرة التي سفكت فيها دماء كثيرة الا اخذ بعض اقاليم صغيرة بمقتضى مشارطات انعقدت لذلك ثمردت بواسطة وقائع اخرى وطال الماصدر القتال من جيوش مؤلفة من مائة الف مقاتل ولم يترتب عليها الانجراح هين وثمرات واهية تميز ولا تستقر فانت ترى الامور الهينة الصغيرة لم تحصل الا بوسائط عظيمة خطيرة ولا تجدي في وقائع اوربا الحربية المتأخرة واقعة جبرت ما نشأ عنها من الخلل والفساد بقله جدواها وحقارة منفعتها الا واقعة بلطاوا فانه ترتب عليها منافع عظيمة وفوائد جسيمة حق علينا به ان ننهي الدولة الموسقوية التي هي اعظم دولة على وجه الارض حيث كان لها تلك الواقعة في درجة الارتقاء والتجديد او فر حظ واوفى نصيب.

* (الفصل التاسع عشر) *

في ذكر ما حصل بعد نصرة واقعة بلطاوا وفي التجهاء كرلوس الى الدولة العثمانية ورجوع اغسطوس للملكه بعد ان عزله ملك اسوج وفي ذكر فتوحات بطرس الاكبر

(سنة ١٧٠٩ من الميلاد) لما قدم للجاز جميع مشاهير اسرى الاسوج وداليهم سيوفهم ودعاهم الى الاكل معه على المائدة وقد اشتهر أنه في حال تناوله الشراب على صحته (كجواهر العادة عندهم) قال اني اشرب على صحة معلى فن الحرب ولكن بعد ذلك يبسير بعث اغلب هؤلاء الاسرى الذين سماهم معلى او الضباط الصغار منهم وجميع العساكر الى اقليم سبير ليشتغلوا هنالك ولم يكن وقع بين دولتي الموسقو والاسوج اتفاق على مفادة الاسارى وانما كان الجار قد عرض ذلك مرة قبل واقعة بلطاوا فابى كرلوس وامتنع من اجابته فبذلك صار الاسوج فريسة كبر ملكهم ويiose طبعه حيث افضى بهم عتوه وعناده الى ما حل بهم

وافراطه في الكبر الذي في غير محله هو الذي جر اليه جميع المصائب التي
 حلت به في بلاد العثمانية ولعمري ان هذه المصائب كان الاحق أن يصاب بها
 مقترعات لاملك عاقل مثل كرلوس ولما قارب هذا الملك مدينة بندر نصحه
 بعض الناس واشلو عليه أن يكتب الى الصدر الاعظم في شأن النزول بحمي
 الدولة العلية كما هو العادة الجارية فابي ذلك كبرا وعنادا ورأى أن هذا يزي
 بمقامه ولا يلايم رفعة شأنه فترتب على هذا الكبر والعناد اختلال امره وسوء
 حاله عند جميع وزراء هذه الدولة فلم يكن يعمل على حسب مقتضيات الزمان
 والمكان وينظر في سلوكه الى ما يناسب كلا منهما ويلايمه

ولما شاع خبر واقعة بطاوا وانتشذرها في الجهات اضطربت العقول
 والمصالح ببلاد له وسكس واسوج وسيليزيا وذلك أن كرلوس
 حين كان يضع القوانين على الممالك ويكلف بها الدول كان قد ازم يوسف
 الاول امپراطور ألمانيا بأن ينزع من القانولية الذين بايمبراطوريته
 مائة كنيسة وخمسة ويعطيهم الاهل سيليزيا الذين هم على دين بطريقية
 اوكسبورغ اللوثرانية فلما شاع خبر هذه الواقعة وأن كرلوس هزم فيها
 استرجع القانولية اغلب الكنائس التي كانت تحت يد اللوثرانية واما اهل
 سكس فلم يقيم ~~سكس~~ كروا الا في الانتقام من الملك الذي عليهم وقهرهم واخذ
 من اموالهم حسبا قالوه ثلاثة وعشرين مليوناً من الايكو (ريال)
 ففي الثامن من شهر اغسطس بادركمهم وهو ملك له بالرجوع عن
 التخلي عن حكومته ونقض ما ازم به من النزول عن سرير مملكته طالبا العود
 الى ما خلع عنه قسرا و سلب منه اكرها وقهر افسجرت دما رضى عليه الجار
 بادر بالجلوس على سرير مملكة له واما الاسوج فحكوا مائة وهم يعتقدون
 أن ملكهم هلك ولم يمسكن لاهل مشورة السنت الاسوجية أن ينضموا
 الى حزب من الاحزاب ويؤثروه على غيره بتعريضه والاخذ بناصره لكونهم
 لم يتحققوا موت كرلوس ولم يقيم عندهم عليه دليل قطعي

ثم ان بطرس لم يهمل في اجتناء ثمرات النصر بل ارسل السرع ~~سكس~~

شرموتوف بجيش من عساكره الى اقليم ليوونيا حيث ابدى هذا الجنرال على ثغوره من الشجاعة ما اكسبه الشهرة والفخار وبعث الامير منزيكوف بطاقة عظيمة من الخيالة الى مملكة له ليعين من يها من الفرق العسكرية البسيرة ويساعد حزب اغسطوس ويطرد منها الخضم الذي هو في حكم العاصمين الخارجين عن الطاعة ويتدخل بعض الجيوش الاسوجية التي كانت باقية هنال مع الجنرال الاسوجي المسي كراسو

وفي الثامن عشر من شهر سبتمبر سافر بطرس بنفسه ومرة في طريقه باقليم كيويوا من طريق ولايتي شلم ورويلنيا العليا ووصل الى مدينة لوبلين وتفاوض مع جنرال لويانيا ورأى جيوش التاج الملوكي حتى اغسطوس وتبايعه على الطاعة ثم ذهب الى مدينة ورشاو وحظي في مدينة تورن بما لا مزيد عليه من الفخار حيث فيما تلقى الشكر والثناء من ملك رده مملكته واعاد اليه دولته وحكومته وكان ذلك في السابع من شهر اكتوبر وفيها ايضا عقد مع ملوك دانيمرك ولده والبروسيا مشاركة تضر بمملكة اسوج حيث تضمنت ما يدل على أن بطرس قد اخذ بحجي ما كان الملوك الموسقو من الحقوق القديمة في شأن ليوونيا وأنفريا وكارليا وجزء من اقليم فنلندة وتضمنت ايضا أن دانيمركة تطلب اسكانيا وملك البروسيا يطلب اقليم پوميرانيا

وقد اودى سوء حظ كرلوس بالمباني والعمارات التي كان غطاوة ادولف شيد هاسعه وقيام حفظه وكلن اشراف مملكة له بأنون الى ملكهم اغسطوس افواجا ويابيعونه ويسألونه الصفح عنهم والاغضاء عما ارتكبوه في حقهم من ذنب تركه والتخلي عنه وكان اغلبهم يعترف أن بطرس هو ظهيرهم وحاميهم

فلما رأى استانسلاس قوة اسلمة الجبار ووقف على المشاركة المتقدمة ورأى ما حل بمملكة له على حين غفلة من الهرج والاختلاف لم يجد ما يمنع به هذه الخطوب الا النزول عن سرير الملك فكتب اعلانا عاما مضمونه

أنه مستعد للتخلي عن الحكومة متى طلبت الجمهورية ذلك
ثم اتفق بطرس بعد أن تفاوض مع ملك له في جميع الامور ووضع القرار
على المشاركة التي عقدها مع الدانمركية سافر فوراً الى ملك البروسيا ليقم
معه امر المشاركة ولم تكن عادة الملوك اذ ذاك أنهم يذهبون بانفسهم الى قضاء
مثل هذه الاوطار التي هي من وظائف الالوية فكان بطرس هو اول من
سن هذه السنة التي لم يجر عليها الى الآن العمل بين الدول الا قليلاً ثم ان منتخب
براندنبورغ الذي هو اول ملك للبروسيا ذهب الى مدينة مريانو فيريدريخ
لاجل المفاوضة فيها مع الجار وهي في الاصل مدينة صغيرة في الجزء الغربي
من اقليم بوميرانيا استهبطت ثقافة الشوالية التوتونية وهي واقعة على
اطراف مملكة البروسيا منذ ان تظمت هذه المملكة في سلك الممالك المستقلة
وتلك المملكة وان كانت صغيرة فقيرة الآن ملكها الجديد لما طافها
وسافر الى اطرافها واكتافها جدد بها ما صارت به مبتهجة زاهرة وباهية زاهية
قاخرة وفي اثناء ما كان مشغولاً بتحسينها وتحصيل ما يكون به رونقها تلقى
بطرس عنده حين خرج من بلاده اول مرة بقصد التعلم في الدول الاجنبية
فلما قدم عليه هذه المرة وهو منصور على عدوه كرويس في العشرين من
شهر اكتوبر تلقاه بموكب واحتفال اعظم من المرة الاولى ثم عقد
معه بطرس في اول الامر مشاورة لا تتضمن الاحكام والمدافعة وبعد
ذلك تعاقدوا على ما يستر بالمصالح الاسوجية ويفضي بالمملكة الى الدمار
(٢١ من شهر نومبر) ولم يضيع بطرس من الزمن ادنى مدة بلا فائدة
بل بعد أن تم على وجه السرعة ما عقده من المشاركات التي تستدعي طول
المدة عادة ذهب للقاء جيوشه أمام مدينة رينغا قاعدة اقليم ليونينا
وشرع في محاربتها بضرب النار على قلعتها ووضع بنفسه النار في مدافع الجيانات
الثلاث الاول ثم وضع الحصار على المدينة ولما كان متيقناً من اخذها ذهب
الى مدينته وهي بربورغ لاجل مباشرة ما بها من الاشغال كبناء
بيوت وانشاء دونجات وفي الثالث من شهر دقبر مد بنفسه اساس سفينة تحمل

اربعة وخسين مدفعا ثم سافر الى مدينة موسكو واخذيا شرفيا ما يوجب الحظ والمسترة من اشغال تجهيزات موكب النصر الذي احده في هذا التخت وامر بعمل موكب عظيم واشتغل في تجهيز مواده ولوازمه بنفسه

(غزة شهر ينوية سنة ١٧١٠ من الميلاد) وكان اول ما بدت به هذه السنة هو هذا الموكب العظيم الذي كان عمله اذذاك من الامور الضرورية التي لا بد منها للرعية الموسقوية حيث به يعرفون مقدار شرف النفس وعظم موقعه وتستر قوسهم من رؤية من كانوا يخشون أن يدخلوا ديارهم ظافرين منصورين وذلك أن اول ما بدئ به الموكب هو المدافع الاسوجية فمزوا بها تحت سبعة قناطر او قواس ظريفة وكذلك صناعتهم واعلامهم وسرير كرلوس الذي كان محمولا عليه في واقعة بلطاوا ثم من اسر من العساكر الاسوجية فالضباط فالجنرالات فالوزراء ماشين جميعا على اصوات النواقيس والطربيطات والمدافع الكثيرة وصياح الاهالي الموسقوية التي لا تحصى عددا عند كف المدافع عن الضرب ووراءهم العساكر المنصورة راكبين خيولهم يقدمهم الجنرالات الموسقوية وكان بطرس سائرا معهم على حسب رتبته وهي كونه رئيس رجال جهادية وكان عند كل قوس من قسي النصر جماعة من الالجية على اختلاف درجاتهم وآخر الموكب جيش منتخب من شبان البيسكزادات الموسقوية متزيين برتي الرومان وكانوا يقدمون للملكهم المنصور ازار شجر الغار علامة على النصر

وبعد هذا الموسم العام حصل موكب آخر اكتسب فيه بطرس من التشريف ما ليس دون ما اكتسبه من ذلك في الموكب الاول وذلك أنه في سنة ١٧٠٨ من الميلاد كان قد حصلت حادثة اساءت بطرس وكثرت خاطره وهي ان الالجية المسمى ماتيوف كان بمدينة لندرة عند حانة ملكة الانكليز فاقترض الحمال سفره من تلك الجهة فذعه عن السفرائشان من طرف المحكمة وقبضاعليه لكون بعض تجار الانكليز ادعى عليه بمبلغ من الاموال

واحضراه بين يدي قاضي المصالحات لاجل استيفاء هذا المبلغ منه وكان تجار
الانكليز يزعمون أن مراعاة قوانين التجارة مقدمة على مراعاة مزاياء الالجية
ورسوم احترامهم واما الجي - الجار ومن انضم اليه من الالجية فادعوا أن ذات
الالجي - محترمة لا يجوز القبض عليها فلما بلغ ذلك بطرس كتب الى الملكة
حانة أن تعمل في هذه القضية بالعدل والانصاف وطلب منها ذلك على وجه
الشدة والقوة حسب ادلت عليه مكاتباته لها في هذا الشأن لكن لم يمكنها أن تعمل
بمقتضى طلبه لان القوانين الانكليزية تسوغ للتجار أن يتبعوا غرماء هم
ويقضوا عليهم اياما كانوا وليس فيها ما يدل على استثناء الالجية من عموم هذا
الحكم ولما رأى الانكليز أن بطقول الجي - الجار قد قتله كرلوس
الثاني عشر في السنة التي قبل هذه السنة تجاسروا على الغاء عادة احترام
الالجية فلم يراعوا حرمة الجي - الجار بل عاملوه اسوء المعاملة فلم يسع الجبة
الملل الاجنبية الذين كانوا بدولة الانكليز الا أن ضمنوا ماتوبوف وتكفلوا
بما عليه وغاية ما يمكن لحانة في ارضاء خاطر بطرس هو أنها ألزمت
مجلس البرلمان (وكلاء الله) بوضع قانون يتضمن أنه من الآن فصاعدا
لا يسوغ القبض على الجي - في تطريدونه فلما حصلت واقعة بلطاوا اقتضى
الحال أن تسلك في ارضاء خاطره مسلكا اعظم من ذلك فبعثت اليه من طرفها
على وجه يؤذن بتبجيله وتعظيمه سفارة حافلة تستعطفه على رؤوس
الاشهاد وكان رئيس المحفل يقال له دوو يدورت ققام في السادس عشر
من شهر فبرية بين يدي بطرس وخطب على لسان الملكة خطبة بدأها
بخطاب الجار فقال ما معنما يا ايها الاميراطور العلي - القدار * صاحب الشوكة
والاقتدار * ان من تجاسروا على اساءة الجي - وحتك حرمة * وقبضوا عليه
بقصد استيفاء ما في ذمته * قد عوقبوا بالسجن وحكم عليهم بأنهم مخدوشو
العرض اخساء النفوس * انتهى

ثم ان ما ذكره هذا الالجي - في ارضاء خاطر الجار ~~بكتي~~ بطرس فخارا
واعبارا وان لم يكن حصل في الواقع ونفس الامر فان لقب الاميراطور الذي

لم تلقبه به حانة قبل واقعة بلطوا يكتفى بمفرده في الدلالة على اعتباره وعظم شأنه في دول اوربا وكان هذا اللقب يلهم به الظنك قبل ذلك كثيرا ولم يكن ذلك مقصورا على من كان الجار معهم في ترسانات سردام ممن كانوا يحبون له الفخار وعلو المقدار بل كان يلقيه به ايضا شاهير تلك الدولة عن طيب نفس وخلص طوية وقد صنعوا له مواسم عظيمة اشهروا بها نصرته بمحضور الالحي الاسويحي الذي كان ييلادهم

وهذا الاعتبار الذي اكتسبه بطرس بالنصرة لم يزل يتزايد ويتجدد بتجدد الايام وذلك أن الموسقوا اذ كانوا محاصرين مدينة ايلبرغ وكانت من المدن المستقلة بنفسها من مدن البروسيا الملوكة بمملكة له وكان لم يزل للاسوج به عساكر يحافظون فهم الموسقو عليا في الحادي عشر من شهر مارت ودخلوها واسروا من بهامن المحافظين وكان بها مخزن عظيم من مخازن كركلوس الثاني عشر فوجد به الموسقو مائة وثلاثة وثمانين مدفعا من المعادن ومائة وثلاثة وخمسين هاونا فكانت كلها غنمة للجار ثم بادروا بالذهاب الى مدينة موسقو ومنها الى بتربورغ وبمجرد وصوله اليها ركب البحر في الثاني من شهر ابريل مصطحبا معه الدونغا التي جردها وسارت تحت حياية قلعة الجديدة المسماة كرونسلوت وحاذى في سيرة سواحل اقليم كارليا حتى وصل بالدونغا أمام مدينة ويسورغ قاعدة اقليمي كارليا وفنلندة ولم تعفه عن ذلك الفرطونات وعواصف الرياح وكانت جيوشه البرية وقتئذ قد قدمت هناك ونزلت على البحيرات المتجمدة وكان العساكر قد احاطوا بمدينة ريغا قاعدة اقليم ليونيا وضائقوها بالحصار وبعد ذلك يسير في الثالث والعشرين من شهر يونيو سلت مدينة ويسورغ بعد أن شرموا جدرانها بضرب المدافع وسلمها من بهامن المحافظين وكانوا اربعة آلاف للموسقو صلحا بشروط ~~كان~~هم لم ينالوا شرف الحرب بل اسروا والغيت شروطهم وكان بطرس يتشكى من بعض امور حصلت من الاسوج خالفوا فيها الاصول والقوانين فوعده أنه ين على هؤلاء الاسرى بالعتق

اذا ارضى الاسوج خاطره وتداركوا ما تشكى منه فطلبوا من ملكهم
كرلوس أن يأمر بعمارة في هذا الغرض وكان كرلوس من طبعه اليس
والعناد فلم يسلم في المن على اسرى الموسقو بالعقوبل استمروا على اسرهم
فكان في ذلك مثل برنسدی اورنجه وهو غليوم الثالث ملك الانكليز
حيث قبض سنة ١٦٩٥ من الميلاد على السرعسكر بوفليس مع
ما حصل اذ ذلك من المشارط بمدينة نامور ومثل هذا التعدي وقع كثيرا
ولكن المؤمل ابطاله وزواله

وبعد اخذ هذه المدينة بيسير صارت محاصرة مدينة ريجا على غاية من
الانتظام حيث تفرغ لها الموسقو واهتموا بالتشديد والتضييق عليها وقد اقتضى
الحال وقتئذ تحليل الثلوج المتجمدة التي على نهر الدوينا المتصل من جهة
الشمال بمجران هذه المدينة وكانت الامراض الوبائية منتشرة منذ مدة
في اقاليم تلك الجهة فحلت بالعساكر الموسقوية المحاصرة فاهلكت منها تسعة
آلاف ومع ذلك فلم يتبطلهم عن المحاصرة وانما طال امد الحصار ونال محافظو
المدينة شرف الحرب (٥ من شهر يولية) ولـكن كان من جملة الشروط التي
اشتروطوها أن جميع الضباط والعساكر الليوونية تمكث في خدمة الموسقو
كما انهم اضعلوا سابقا وتمزقوا واستولى عليهم اسلاف كرلوس الثاني عشر
وجردوهم بما كان لهم من المزايا والخصايص ثم ردت اليهم الآن ودخل جميع
ضباطهم في خدمة الجار فكان ذلك اعظم انتقام صدر من بطرس
في تطير قتل ملك اسوج بالجيه بطقول الليووني وحكمه عليه بالقتل
لثكونه تصدى لحماية هذه المزايا والذب عنها وكان عدد المحاقطين بتلك المدينة
فحو خمسة آلاف وبعد ذلك بقليل تغلب الموسقو على قلعة مدينة بانامونده
ووجدوا في تلك القلعة وفي المدينة ما يزيد على ثمانمائة مدفع

ولم يبق على الجار في الاستيلاء على اقليم كارليا الامدينة كيكس هولم
وهي مدينة حصينة واقعة في جزيرة بحيرة لادوغا وكان الناس يرون أنه
لا يمكن لاحد التغلب عليها ولكن بعد مدة قليلة (في التاسع عشر من شهر سبتمبر)

ضرب

ضرب الموسقو عليها المدافع فسلت في اقرب وقت وسلت لهم ايضا في طرف مـدة يسيرة جزيرة اويرل بالبحر المتصل باقليم ليونينا من الجهة الشمالية

ولم يبق على الجار ايضا في الاستيلاء على ليونينا الا برنو وريويل وهما مدينتان في استونيا الذي هو اقليم من ليونينا في الجهة الشمالية على خليج قلندة في الخامس والعشرين من شهر اغسطس سلـت مدينة برنو بعد ان حاصرها الموسقو مدة ايام قلائ وسلت لهم ايضا مدينة ريويل في العاشر من سبتمبر من غير ان يضربوا عليها مدفعا غير ان المحصورين وجدوا طريقا للفرار ففروا حين اشرف المنصورون على اسرهم والقبض عليهم وذلك ان بعض سفن اسوجية رست ليلالا على الميناقتل بها سحقوا المدينة واغلب اهلها وساروا في البحر فلما دخلها المحاصرون تعجبوا غاية العجب حيث وجدوها قفرة خالية عن الـاهل ولم يكن يخطر ببال كـرلوس الثاني عشر حين اتصرفي واقعة نروا أن عساكره تحتاج ذات يوم الى مثل هذه الحيلة الحربية

هـذا ما كان من امر هؤلاء وانما استانسلاص قانه لما رأى أن حزبه بمملكة قد حقت عليه الهزيمة ذهب الى بوميرانيا ليلقي هناك وكان الحاصـكم وقتئذ هو الملك اغسطس ومما عسر علينا الحكم فيه بشئ على سبيل القطع هو أن فخار كرلوس بعزل هذا الملك هل يفوق فخار بطرس باعادته الى منصبه اولا

وكانت الايلات الاسوجية وقتئذ اسوء حالا من ملكها وذلك أن الامراض الوبائية التي خربت اقليم ليونينا انتقلت الى بلاد اسوج وهلك بها من اهلها مدينة استنم بمفردها ثلاثون الفا ونمت خراب الاقاليم الاسوجية التي كانت خالية عن السكان حيث كان اغلب الـاهل في طرف السنوات العشرة المتوالية قد هاجروا من ديارهم ليلذوا مهجهم في الحرب تحت قيادة ملكهم وولى امرهم

ثم ان شقاء هذا الملك وسوء حظه وصل الي يوميرانيا ايضا وذلك ان عساكره
 الهيمية كانت مقبجة بهذا الاقليم وكانوا احد عشر الفا فعزم كل من الجمار
 وملك دانيبرقة وملك البروسيا وحاصكم هانورة ودوق هولستين
 وتواطئوا جميعا على الاضرار بهذا الجيش بحيث يصير عديم الجدوى خالي عن
 المنفعة وعلى الزام فائده الجنرال كراسو بالتخلي عن الفريقين بحيث لا يكون
 مع احدهما على الاخر وقد رأى ارباب مجلس النياية بمدينة استظم
 ان الاوقف بهم في هذا الوباء الذي خرب ديارهم امضاء هذا التخلي ووضع القرار
 عليه حيث اتطعت عنهم الاخبار من طرف ملكهم كرلوس ورواوا ان اقل
 ثمرات هذا التخلي هو ان بعض اقاليمهم من فرع الحرب وخلوة عن احوال
 القتال وقد ساعد في عقد هذه المشاركة القرية ايمبراطور الالمان وذكروا
 فيها ان هذا الجيش الاسويحي الذي بقليم يوميرانيا لا يمكن من الخروج
 منه للمدافعة عن ملكه في محل آخر وانخط الرأي في ألمانيا على جمع عساكر
 جديدة لتنفيذ هذه المشاركة التي لم يسبق مثلها واجراء العمل عليها وكان
 الحامل لايمبراطور الالمان على ذلك هو أنه كان وقتئذ مشتغلا بمعاربة
 الدولة الفرنسية فكان يؤمل بذلك ادخال الجيش الاسويحي في خدمته
 وقد تم امر المفاوضات في هذا المعنى حين كان بطرس مستغلا بالاستيلاء
 على ليونيا واستونيا وكارليا

وبينما كان كرلوس الثاني عشر في هذه المدة يسعى مع غاية الاجتهاد وفطرط
 الهمة من مدينة بندر الى الدولة العلية فيما يجترض هذه الدولة ويحملها
 على قتال الجمار اذ بلغه خبر هذه الحادثة التي هي عليه من اعظم المصائب
 واشد النكبات فاستغرب غاية الاستغراب كيف اقترت مشورته بمدينة استظم
 هذه الشروط التي يقتضاها ليكون جيشه موثوق الابدى لامنفعته فكاتب
 اليها وهو في هذه الحالة أنه يبحث احدى نعليه لاجل حكم المملكة
 وادارتها

ومع ذلك كان الدانيبرقة يستعدون لشن الغارة على البلاد الاسوجية وكانت

جميع ملل أوروبا. اذ ذاك مشغلة بحاربة بعضها بعضا فكان الحرب واقعا بين ممالك اسبانيا والبرتغال وإيطاليا وفرنسا وألمانيا والقلنت والانكليز في شأن وراثته كرلوس الثاني ملك اسبانيا وكانت جميع الدول الشمالية قائمة على كرلوس الثاني عشر فلم يبق إلا أن تقع مشاجرة في الدولة العلية حتى لا تكون قريبة من قرى أوروبا الا وهي عرضة للدمار والحرب وقد وقع ذلك ونالتهaid التعمير والمتازعة كغيرها من الدول حين كان بطرس في اقصى درجات السودد والفقر ولم يحصل ذلك من الدولة العلية الا لكون الجمار في الموانع ونقص الامر كان قد بلغ أوج الفقر وخاز علو الشأن ورفعة المقدار

(المقالة الثانية)

(الفصل الاول)

في الكلام على واقعة البروت

(سنة ١٧١٠ من الميلاد) قد اشهر السلطان احمد الثالث الحرب مع الجمار بطرس الاول ولم يكن الباعث على ذلك كرلوس ملك اسوج وانما كان في الموانع ونقص الامر ليجرد مصالح السلطان الخصوصية وذلك أن خان تشاراقرم كان يخشى بأس هذا الملك المجاور له (يعني بطرس) حيث رأى أن شوكة قد قويت وصولته قد عظمت وكانت الدولة العثمانية قد ارتابت منه بسبب سفنه التي في بحر ازلق والبحر الاسود وتحصينه لمدينة ازاك وارتابت ايضا من ميناء فنروك التي كانت شهيرة وكذلك مما حازره من الظفر والتجاج وما يترتب على ذلك عادة من فرط الطمع ومن يد الحرص وما يستبعده العقل بل ولا صحة له هو أن الدولة العثمانية حاربت جارا الموسقو جهة بحر ازاك متعلقة في ذلك بأن بعض السفن الاسوجية قبضت على سفينة عثمانية على كتاب من طرف الجي لم يعين فان هذا المجرد دعوى باطله وان عول عليها نوربرغ حيث ذكر أن مضمون هذا الكتاب هو أن الجمار قد عزم على قتال الدولة العثمانية وأن ذلك الكتاب ارسل الى

كرلوس الثاني عشر فبعثه الى ديوان تلك الدولة فكان ذلك حاملا لها على محاربة الجار انتهى ولاخفاء أن ذلك من قبيل الخرافات وانما السبب القوي في المحاربة هو أن خان التتار كان لجاورته لمدينه ازاك اشتمت الدولة العثمانية تازرا وخوفا من الجار فدعاها الى قتاله ولم يزل يلح عليها في ذلك حتى اجابته الى مطلوبه

ولم يكن اقليم ليوننيا بشماه تحت حكم الجار حين عزم السلطان احمد الثالث على قتاله في اوائل شهر اغسطس بل كان لا يعرف تسليم مدينة ريفال له الا بشئ الانفس ومازعه بعضهم من أن السلطان طلب من بطرس أن يدفع لكرلوس الثاني عشر مبلغا من النقود في تطهير ماضع منه في واقعة بلطاوا فهو من الهذيان كدعوى أن السلطان طلب منه ايضا هدم مدينة بتربورغ وبالجملة فكان سلوك كرلوس الثاني عشر في مدينة بندر لا يخلو عن كثير من الترهات والا كذوبات كما أنه لا يعقل صدور مثل هذا الطلب من الدولة العثمانية

ثم ان خان التتار الذي كان باغرائه اقوى سبب في وقوع الحرب بين الجار والدولة العثمانية ذهب الى كرلوس في المحل الذي التجأ اليه (شهر نوفمبر) ووقع بينهما الاتفاق والالتزام لما كان في ذلك لهم من المصلحة فان مدينة ازاك من تغور تتارستان الصغيرة وكان كل من الختان وكرلوس قد اضربه اتساع مملكة الجار اكثر من غيره ولم يكن لهذا الختان حكم على العساكر السلطانية وانما كان من قبيل امراء الالمان الخراجيين الذين خدموا الدولة الايمبراطورية وجاروا معها عساكرهم تحت قيادة الجنرال الايمبراطوري

(٢٩ من شهر نوفمبر) وكان اول ما بدأت به الدولة العثمانية من الاسباب المؤدية للحرب بينها وبين الجار هو أنها امرت بالقبض على الجيهه المسجي وتلستوى في اسلامبول وعلى ثلاثين من خدمه وسجنه في سراية يدي قله وهذه العادة الخشنة التي تعد من المشالب النخلة ولو عند الامم المتبررة كان منشاؤها وجود الجيهه الدول الاجنبية عنده هذه الدولة دائما

وعدم انقطاعهم عنها وعدم ارسالها اليه من طرفها الى الممالك الاخرى فليس
اليه ملوك النصارى عندها الا بمنزلة قناصل التجارة والاخذ والعطاء وليسوا
في الاحتقار دون اليهود بل هم عندها سواء فلذا كانت لاتراعى في حقهم حقوق
الملل بعضها على بعض مالم يجبر على ذلك ولم تزل على هذا ~~الكبر~~ والخشونة
الى وقتنا هذا

فقد اتفق أن الوزير الشهير احمد كوبروغلي الذي فتح جزيرة كريد على
عهد السلطان محمد الرابع اساء ابن الجي - فرانسوا اساءة شنيعة وتجاوز
الحسد في الخشونة حتى ضربه وسجنه ولم يحصل من لوز الرابع عشر ملك
فرانسوا في هذه المادة ادى حركة الاتغييره هذا الالجي - بالجي - آخر مع ما كان
عليه من الجمية والشم فالظاهر أن ملوك النصارية تساهلوا في حق شرف
العرض مع دولة الترك حتى جعلوه في زوايا الاهمال وان كانوا احرص الناس
على مراعاته فيما بينهم اتم المراعاة حتى تظموه في سلك الحقوق الملية
ولم يتفق لاحد من الملوك أنه اصيب في الجيته بالاساءة والاضرار مثل چار
الموسقو فانه في ظرف سنوات قلائل سجن الجيه بمدينة لندرة على ديونه
و~~حكم~~ على الجيه بمملكة له وسكن بعقاب المجلة حيا حتى يموت
بامر ملك اسوج وقبض على الجيه باسلامبول وسجن حتى كانه
جن جنابة

وقد اسلفنا أن ملكة انكلترة ارضت خاطره في نظير ما وقع لالجيه بمدينة
لندرة من الاساءة وتداركت ذلك بجبر هذا الخلل واصلاحه واما ما فعل مع
بطقول من الفعلة الشنيعة فقد زالت معرتا بمفك دماء الاسوج في واقعة
بلطاوا ول~~كن~~ لسعد الدولة العثمانية وقيام خطها لم يحصل الانتقام
منها في نظيراتها كما حرمة قوانين الملل على بعضها باساءتها لالجي - الجار
وهتكها حرمة.

(سنة ١٧١١ من الميلاد) ثم ان الجار اضطر الى ترك ميدان الحرب
في الجهة الغربية قاصدا اشهار الحرب على حدود بلاد الدولة العثمانية فكان

اول ما بدأ به في هذا الغرض هو أنه (في شهر ينوية) بعث الى اقليم البغدان عشرة الايات كانت في مملكة له و امر المارشال شرمتوف أن يرتحل من ليوونيا مع عساكره الى تلك الجهة وانا ط الامير منزيقوف بملاحظة الاشغال بمدينة بربورغ وادارتها ثم توجه الى مدينة موسكو ليأمر بما يراه في شأن هذا الحرب الذي عزم عليه

(وفي ١٨ من شهر ينوية) ترتبت مشورة النيابة واخذت الايات الوردديان الملوكي في السفر و امر الجار ابناء الامراء من البيكرادات أن يعجبوه في هذا السفر ليتعلموا فن الحرب تحت ملاحظة وجعل البعض منهم في منزلة الانتصار الآخذة في التعلم والبعض الآخر بمنزلة ضباط الصفوف وركب الاميرال (اي القبودان) ابركسين بحر ازاك وانيط بالحكم برآ وجرأ ولما تم الجار ما يلزم لهذا الغرض من الاحتراس والتدبير امر في مدينة موسكو بمبايعة القراليجة الجديدة وهي التي سببت في وقعة مارينبورغ سنة ١٧٠٢ من الميلاد وكان الجار قد طلق زوجته الاولى السماعة اودكسيالا بوكين سنة ١٦٩٦ من الميلاد وكان له منها ولدان وكان الطلاق اذذاك لم ينسخ من قوانينهم الدينية وعلى فرض أن هذه القوانين كانت تمنعه ولا ترى حله كان في وسع الجار نسخ هذا المنع وابعادة الطلاق

وكانت هذه الجارية الشابة التي سببت في مدينة مارينبورغ ومجيت كاترينة لها همة عالية فجعل عن امثالها من النساء لاسيما من اصيب بنكبة السبي مثلها فكانت على اوفق طبيعة واحسن جملة فاكسبت بذلك الخطوة والقبول حتى ان الجار كان لا يجب مفارقتها اصلا فكان دائما يستعجبها في اسفاره واعماله الشاقة فانها كانت تقاسمه الاهوال والمشاق وتسليه على ما يلزمه من التعب والسامة بما تبدي له من المبسطة والملاطفة الناشئة عن وفور عقلها ولطفها ولين جانبها وكانت لاتعرف التمتع والرفاهية كغيرها من النساء اللاتي يتخذن ذلك دأبا ودينا والذي اكسبها هذه الخطوة العظيمة عند الجار هو عدم ارتكابها ما يوجب الطمع فيها واتممكين احد من نفسها او وقوعه في مصايد

غرامها

غرامها ومكابد عشقها وكان اذا غضب الجار سكنت غضبه واخذت نيران غيظه على وجهه يزيد في عظمه وحله وبالجمله فهذه المرأة صارت مما لا بد منه للجار حتى انه تزوجها سرا سنة ١٧٠٧ من الميلاد وكانت قد ولدت له قبل ذلك بنتين وبعد زواجهما بسنة رزق منها بالثالثه تزوجها دوق هولستين في السابع عشر من شهر مارث من عام ولادتها وكان اول ما ظهر زواجهما في يوم سفره معها بقصد الظفر بالدولة العثمانية والظهور عليها حيث كان قد جهز لها تجهيزات تؤذن بنجاحه ونصرته وانا طهتان القزق بجميع التتار الذين خربوا اقليم او قريضة من اوائل شهر فبرية ثم ان الجيوش الموسقوية اخذت في السير جهة نهر نيبستر وارقتل ايضا جيش آخر من عساكر الموسقو من طريق له يقدمه الامير غالتزين وكانت مبادى هذه الغزوة تقضى بنجاح للموسقو فان هذا الامير صادف في طريقه قريبا من اقليم كيويو جماعة من التتار ومعهم جماعة من القزق وبعض من الهمية من حزب استانسلاس بل وبعض من الاسوج فقتل بهم وهزمهم وقتل منهم خمسة آلاف رجل وكان هؤلاء التتار قد اسروا عشرة آلاف من بلاد سوليو المعروفة بساحل الذهب وكان من عادة التتار قديما ان يستعصبوا معهم جبالا ~~ك~~كثرا من الاسلحة لاجل شد وثاق من وقع في ايديهم فلما ظهر عليهم غالتزين اطلق هؤلاء الاسرى وضرب اعناق من اسره منهم ثم ان الجيوش الموسقوية لواجتمعت كلها لزادت عدتها على ستين الفا ولوانضم اليها جيوش اغسطوس ملك له زادت على ذلك وقد ذهب هذا الملك في الثالث من شهر يونية لمقابلة الجار ولي نعمته في مدينة يورسلو الواقعة على نهر سان ووعد به بامدادات عظيمة ثم ان الحرب انقعد بين هذين الملكين والدولة العثمانية غير ان مشورة الديتة بمملكة له لم تقمما التزام به اغسطوس من امداد الجار اجتنابا لوقوع التفاقم والشقاق بينها وبين الدولة العثمانية وما ذاك الا لجت بطرس حيث ان حليفه اغسطوس لم ~~ي~~كن في وسعه اعانتة بوجه من الوجوه وكان

الجارب يؤمل منه الاعانة ايضا في محاربة البغدان والافلاق فخاب امه
في هذه المرة ايضا كالاولى

وكانت الدولة العثمانية تخشى بأس البغدان والافلاق وتخاف صولتهم
وبلادهم هي بلاد قدماء الداسية الذين انضموا سابقا الى الجيميدية
وارهبوا دولة الرومان وهددوها مدة مديدة حتى قعهم القيصر طرايا فوس
وادخلهم تحت الطاعة فلما كانت ايام القيصر قسطنطين الاول ادخلهم
في دين النصرانية ونظمهم في سلك الملة المسيحية وصارت بلاد داسيا
من يومئذ من اقاليم دولة المشرق الا أنهم عمال قليل سعوا في اباداة دولة المغرب
بدخولهم في خدمة الدولة الاود و اقمية والتبودوريقية

ومن وقتئذ صارت هذه الاقطار من اعمال دولة الروم حتى فتح العثمانية
القسطنطينية فحكمها ملوك مخصوصون ثم آل امرها الى أن دخلت تحت
تبعية سلطان الاسلام بالكلية وصار يولى عليها من طرفه من شاء وكان
اليوود اى الحاصك الم الذي يقلده السلطان ولاية هذه الاقطار دائمان
فصارى الروم ووربما يؤخذ من ذلك أن الدولة العثمانية ترخص في سائر الاديان
وان كان بعض جهلة الفرق من ارباب المبالغت يلومون هذه الدولة ويعيبونها
على ظلمها في هذا المعنى ثم ان من تقلد ولاية الاقطار المذكورة يدفع لتلك الدولة
الخراج والجزية والاولى أن يعتد في زمرة الملتزمين فكانت هذه الدولة تتمتع بمنصب
ولايتها من زاد على غيره في الخراج والهدايا للوزير كما كانت كذلك في تقليد
منصب البطريرقية الرومية بمدينة القسطنطينية وربما نال هذا المنصب
احد التراجمة بديوان تلك الدولة وقتل أن حاكمكم البغدان والافلاق
ويوود واحد في ذمن واحد بل كانت الدولة العثمانية تولى على كل حاكم يخصه
رغبة في الامن والطمانينة عليهم ما وكان الحاصككم وقتئذ على بلاد البغدان
دمتريوس خاتير ويأمل انه من نسل تيمورلنك لان هذا الملك كان يقال له
تيمور وكان من خانات انتشار فكان يسمى الخان تيمور ومنه كما قيل
اخذا اسم عائلة خاتير

واما بلاد الافلاق فكان يحكمها بسربا برنكوان ولم يقف احد من علماء الانساب على أن هذا الويود من نسل احد من فاتحي التتار ثم ان خاتمير ظن أنه بالتجائه الى چارالموسفو ودخوله تحت حمايته يكون قد آن وان اقتضاه من تبعية الدولة العثمانية واستقلاله بنفسه فكان اتحاده ببطرس كاتحاد مازيا بكرلوس حتى انه اغرى في مبدأ الامر بسربا ويود الافلاق على افشاء ما كان يضمه ويؤمل اجتناء ثمرته وكان غرض خاتمير من ذلك هو أن يخوز السيادة على هذين الاقليمين وكان مدار هذه الفتنة على اسقف بيت المقدس الذي كان اذذاك يسلد الافلاق فوعده خاتمير الجار بأن يمدّه بالعساكر والمؤونة ولم يف بوعده كما وقع لمازيا مع ملك اسوج

ثم ان الجنرال شرمتوف قدم الى مدينة يسي تحت بلاد البغدان لاجل معاينة ومباشرة اجراء ما ينطبه من المآرب العظيمة والاعراض الجسيمة فذهب اليه الويود خاتمير في تلك المدينة فقابله شرمتوف وسلك في ملاقاته ما يسلك عادة في مقابلة امثاله من الامراء وما ذاك الا لكون هذا الويود اظهر ما كان يضمه من الخروج عن تبعية الدولة العثمانية واما ويود الافلاق فانه عما قليل صرف النظر عما كان يؤمله من المطامع في هذا المعنى وتخلّى عن الطاقة المتعزبة واخذ يقوم باداء ما عليه من الواجبات فعند ذلك خشي اسقف بيت المقدس على نفسه من القتل وقتلها ربا واختفى عن الناس واستتر اهل البغدان والافلاق على الطاعة والخضوع للدولة العثمانية حتى ان المأمورين منهم بتأدية الذخائر والامداد للعساكر الموسقوية اذوا ذلك للجيوش العثمانية

وكان الوزير بلطغجي محمد قد اجتاز نهر الدانوب يقدم مائة الف ثم قصد مدينة يسي محاذيا في سيره نهر البروث المسي قديما نهر هيراز وهو يصب في نهر الدانوب ويكاد يكون ضواحي لكل من بلاد البغدان واقليم يسربي ثم ارسل الوزير القوتسة پونيا توسقي الى ملك اسوج

يترجاه في الحضور لديه لاجل الزيارة ومعلية الجيوش العثمانية وكان هذا
 القوت من البيس كزادات اللاهنية ممن يميل الى كركوس ويرغب
 في سعادته واعلاء شأنه فأبت نفس كركوس اجابته الى ذلك وطلب أن يأتي
 اليه الوزير اولاً لزيارته في مدينة بندر التي كان ملتجئاً بها من حجاجب الكبير
 على جانب المصلحة فعاد بونيا توسقي الى معسكر العثمانية واخبر الوزير
 بامتناع كركوس عن الاجابة فقال الوزير لخان التتار اني لا أعلم أن هذا
 الكافر العنيد المتكبر لا يجيب الى ما طلبت فكان هذا الكبر الواقع من الطرفين
 كما هو العادة بين ارباب الظهور من العظماء والاعيان مانعاً من تقدم مصالح
 كركوس وتنفيذ اغراضه فعما قليل ظهر له أن الدولة العثمانية انما تسعى
 في مصلحة نفسها دون مصلحته

وبينما كانت العساكر العثمانية تحتل زهر الدانوب اذ قدم بطرس
 من جهة ضواحي مملكة له واجتاز نهر الدينير قاصدا اسعاف المارشال
 شرمتوف وكان نازلاً في جنوب مدينة يسي على شواطئ نهر البروث
 فكان يخشى أنه عما قليل يحيط به عساكر العثمانية الذين كانوا مائة الف مقاتل
 وبعدهم جيش من عساكر التتار وكان بطرس قبل اجتياز نهر الدينير
 يخشى على كاترينة أن تصير عرضة لما يتجدد من الاخطار بتجدد الايام
 لكنها رأت أن ما خطر للبحار في شأنها يعد منقصة وعيباً بالنسبة لمحبتها اياه
 وشجعاعها وقرط قوتها فألحت عليه في استصحابها وأفهمته أنه لا بد له منها وأنه
 لا يسعه مفارقتها فكانت العساكر تراها تقدم الجيش وهي راكبة جوادها مع
 غاية الفرح والمسرّة وقل أن ركبت العربية ثم اقتضى الحال أنهم يسرون في بعض
 صحارى خلف نهر الدينير ويجتازون نهر بوغ ثم نهر تيراس المسمى
 الآن نيستر وقبل وصولهم الى مدينة يسي صادفوا في طريقهم صحراء
 اخرى على شواطئ نهر البروث وكانت كاترينة تسلك مع العساكر
 ما يشجعهم ويشرح صدورهم فكانت تبعث للمرضى من الضباط ما يليق
 بهم من الصلات والاعيان وكانت تشمل العساكر بنظرها وتبذل الوسع في الاعتناء

بشؤونهم والاهتمام بأمورهم .

(٤ من شهر يولية) وقصارى الامر أنهم وصلوا الى مدينة بسى وكان يلزمهم احداث مخازن بها لوضع المهمات الحربية وكان بسربا ويوود الافلاق قد رجع عن الخروج عن طاعة الدولة العثمانية (كما سبق) الا أنه اظهر للجبار أنه معه ويسعى في مصلحته فعرض عليه الصلح مع هذه الدولة مع أن الوزير الاعظم لم يأمره بذلك فادرك الموسقو أن ذلك مكيدة منه فلم يطلبوا منه سوى المهمات والذخائر مع أنه لا يسعه اجابتهم لذلك بل ولا يريد اعطاءهم شيئا وكان يشق على الجبار جلب ما هو لازم له من ذلك من مملكة له واما ما وعده به فاستمر بناء على امله الذي لم يصادف محلا فقد تعذر جلبه الآن من بلاد الافلاق فبذلك صار الجيش الموسقوى في اسوء حالة وزيادة على ذلك نزلت جائحة الجراد على مزارع تلك الجهة ومروجهما حيث كان ينزل عليها اسرابا اسرابا حتى تلفت وأتنت وصكانوا غالبالايجدون في طريقهم ماء لاجل الاستقاء لانهم كانوا يسبرون في صحارى قفرة تحت شمس محرقة فاضطروا الى نقل المياه للعساكر في براميل

وقد اقتضت الحكمة الالهية أن بطرس في هذه الرحلة صار قريبا من كرلوس الثاني عشر لان المسافة بين مدينة بندر ومعسكر الجيش الموسقوى الواقع بقرب مدينة بسى لم تكن الا خمسة وعشرين فرسخا مع تاد او كان بعض فرق من القزق قد توغلوا في السير حتى وصلوا الى مدينة بندر التي هي ملجأ ملك اسوج الا أن تشار القرم الذين كانوا ينتقلون في المعسكرات جعلوا كركلوس آمنا من اغارة تحصل على حين غفلة فكان ينتظر مع القلق وعدم الخوف حوادث الحرب وعواقبه

واما بطرس فانه بمجرد ما احداث بعض مخازن بادر بالسير على الشاطئ الايمن من نهر البوث وانحط رأيه على أن يمنع عساكر الدولة العثمانية التي كانت معسكرة اسفل منه على الشاطئ الايسر من ذلك النهر أن تجتازه حتى تقدم اليه وبهذه الحركة كان يثبت له السيادة على البغدان والافلاق فبعث الجنرال

ايايوس ومعه مقدمة عساكر الوردان لاجل منع العساكر العثمانية من
اجتياز النهر المذکور فلم يصل هذا الجنرال اليهم الا وهم يجتازونه على قناطرهم
التي اتخذوها من الخشب لهذا الغرض وتبعوا من كان معه من عساكر البيادة
حتى قدم اليهم بطرس بنفسه لاجل اتقاذهم منهم

وعما قليل قدمت جيوش الوزير الاعظم الى جيوش الجار محاذية النهر
وكان هناك بون بعيد بين الفريقين فان الجيوش العثمانية التي كان من جلها
عساكر التتار كانت كما قيل تبلغ نحو مائتي الف وخمسين الف رجل
واما الجيوش الموسقوية فكانت يومئذ سبعة وثلاثين الفا وكان الجنرال رتبة
خلف جبال البغدان بفرقة كبيرة من العساكر الموسقوية على نهر سيريت
وحجز العساكر العثمانية ما بينه وبين الجيش الموسقوي

ثم ان الجار تقدم منه الزاد والذخائر وبمجرد ما تبسر الماء لعساكره لنزولهم
قرى سامية بالنهر صاروا عرضة لضرب مدافع كثيرة وضعها الوزير الاعظم على
الشاطئ الايسر مع فرقة من العساكر كانت ترى عليهم بالنار داما وماذكرناه
من الاخبار الصحيحة المفصلة في هذا المعنى يدل على أن الوزير بلطجي محمدا
كان بمحزل عما ادعاه فيه الاسوج من الحق والغلبة فانه سلك في هذه الواقعة
مسلك الخزم والتبصر حيث اجتاز نهر البروث أمام عدوه وتبعه حتى ولى
دبره وقطع الوصل بينه وبين فرقة من خيالاته وضيق عليه حتى صار لا يعرف له
ملجأ يلجئ اليه وقطع عنه الماء وازاد وجعله تحت ضرب المدافع التي كان يهتده
بها على الشاطئ المقابل لمعسكره فلهذا كله يبعد صدور مثله عن رجل احمق خال
عن الرأي والفطنة

فلذا رأى بطرس أنه في هذه الواقعة اسوء حالا من كرلوس في واقعة
بلطاوا حيث كان المضيق عليه هنا جيشا يفوق بكثير على الجيش الذي كان
يضيق على كرلوس هناك وقامى من مشاق المنحصة والمجاعة اكثر منه
ولما سلك مسلكه من الوتوق والتعويل على ما وعده به امير ضعيف الشوكة
لا يمكنه الوفاء بوعده اضطر الى الالتجاء واخذ في الذهاب جهة مدينة يسي

لينظر هناك معسكرا اعظم من معسكر نهر البروث

(٢٠ من شهر يولية) فارتحل من معسكره ليلا ولكن بمجرد ما احس
العثمانية به اتفقوا انزه حتى ادركوا مؤخر خفره عند طلوع الشمس تقاومهم
الاي الورديان الملوكي مدة مديدة حيث اصطفوا وجعلوا امامهم من العربات
والامتعة متاريس تقيم من العدو ومع ذلك هزمت الجيوش العثمانية
الجيوش الموسقوية في هذا اليوم (وهو الحادى والعشرون من شهر يولية)
ومعايدل على أنه كان في وسعهم المدافعة عن انفسهم وان قيل بخلاف
ذلك هو أنهم مكثوا مدة طويلة وهم يذبون العدو عن انفسهم ولم يتحمل
تطامهم

وكان مع العثمانية ضابطان من ضباط الاسوج وهم القوتة بونياوسقى
والقوتة اسبار ومعهما بعض عساكر من القزق من حزب كرلوس
* وما وصل الى من اللوائح في هذا المعنى يفيد أن هذين القوتين اشارا على
الوزير بعدم قتال الموسقو وقطع الماء وازاد عنهم حتى يضطروا الى التسليم
في انفسهم او يموتوا * ثم بعض لوائح تفيد خلاف ذلك حيث ذكر فيها أنهما
اغرياه على أن يعمل السيف في هؤلاء العساكر الذين ادركهم النصب والتعب
والسقم وحل بهم من الجماعة والضنك ما كاد يهلكهم * وما افادته
اللوائح الاولى اليق بالاحتراس والتبصر واما البناية فهي ملائمة اتم الملايكة
لطبيعة اصحاب كرلوس

وحاصل بيان هذه الواقعة أن الوزير الاعظم ادرك مؤخر خفر الجيش
الموسقوي عند شروق الشمس وكان هذا الخفر غير منتظم فلم يدافع العساكر
العثمانية منهم اولا الاصف واجديبلغار بعجالة رجل ثم رتبوا صفوفهم في اسرع
وقت وذلك أن الجنرال الار التيساوى حازن المبادرة بترتيبهم وبما ابداه
من التدبيرات العسكرية التي بواسطتها هزموا العثمانية فحوادث ثلاث ساعات
من غير أن يجبروا على العدو عن طريقهم

ثم ان انتظام الحركات العسكرية الذي تعودت عليه العساكر الموسقوية

ليصل بطرس الى ادخله في جيوشه الا بعد معاناة ~~كثيرة~~ من التعب
والمشاق فقد سبق في واقعة نزوا أن ثمانية آلاف من الاسوج هزموا
ستين الفامن الموسقو لانهم اذ ذال لم يكونوا يحسنون تلك الحركات
بخلاف هذه الواقعة اعنى واقعة نهر البروث فان مؤخر خضرهم الذين هو فحو
ثمانية آلاف قاوم مائة وخمسين الفامن العساكر العثمانية وقتلوا منهم سبعة آلاف
والباقي هزم الى الرجوع القهقري

وبعد هذه المعركة المهولة انفصل الجيشان مدة الليل غير أن العساكر الموسقوية
لم تزل في الضنك والضيق من قلة الماء والراد حيث كانت قرية من نهر البروث
ولا يمكنها الوصول اليه اذ كان متى تجاسر بعض العساكر الموسقوية
على قصد النهر لاجل الاستقاء خرج عليهم من افواه المدافع العثمانية التي على
الشاطئ الآخر رصاص وحديد كالا طارو كانت العساكر العثمانية التي هزمتهم
لم تزل تهتدهم بضرب المدافع عليهم من جهتها

فكان من الممكن القرب الوقوع ضياع الموسقو ودمارهم نظرا الى وضعهم
وقلة عددهم عن عساكر عدوهم وما حل بهم من المجاعة والتعطش واستمرار
الاصطدام والالتحام وكان معظم خيالة الجار قد فقدوا خيولهم فلم يكن
ينتفع بهم الا اذا قاتلوا على الارض كالقراية وبالجملة فكان وضع بطرس في هذه
الوقعة مما يوجب اليأس والقنوط كما يعلم ذلك بالوقوف على شكل معسكر
الفریقين المرسوم مع غاية الضبط في آخر الكتاب اذ بالوقوف عليه يعلم أن نصرة
بطرس في هذه الغزوة من حيز المستحيل بل اما أن يهلك جيشه عن آخره
او بأسره العثمانية

وقد اطبقت جميع اللوائح والاخبار في هذا المعنى على أن الجار كان مخيرا
في قتال العثمانية في اليوم الثاني فان ذلك كان يفضي بزوجه وجيشه ودولته
وما جناه من ثمرات الاشغال الجسيمة التي ابتدعتها الى الدمار الذي كان يظهر
أنه محتم لا محيص عنه فدخل خيمته وقد اقلته الآلام حيث اعتزأ داء تشنج
الاعصاب الذي كان يعتربه في بعض الاحيان وتشاقل عليه ذلك بما لحقه من

الغم والكرب ولما رأى من نفسه أنه صار بمفرده فريسة للهم والقلق وتراكت عليه الوسواس وشغل البال ونحو ذلك من الامور الموهولة لم يرد أن يراه احد على هذه الحالة فامر أن لا يدخل احد خيمته غير أن كاترينة دخلت فهرا عن الحجاب فعلم حينئذ أن اذنه لها في صحبتها في هذه الواقعة من وفور حفظه وقيام سعه

وذلك أن هذه المرأة التي اتخمت معه الاخطار حتى كان الموت نصب عينها حيث عرّضت نفسها كغيرها لنيران المدافع العثمانية كان لها الحق في مخاطبته ومراجعته فعملته على طلب الصلح

وقد جرت العادة في سائر بلاد المشرق من قديم الزمان أن الانسان اذا اراد أن يحظى فيها بالقبول والالتفات اليه لم يزل ذلك الا بالاهداء والبذل فلذا اجعت كاترينة مقدار ايسر من الجواهر كانت قد استعجمته معها في هذه السفرة الحربية التي كانت خالية عن الرونق والزخرفة وفروين اسودين من جلود الثعالب وجعت ايضا مبلغا من النقود واعادته للكتخدا وانضبت بنفسها ضابطا صاحب رأى وفطنة واصحبه بخادمين وامرته أن يذهب بهذه الهدية الى الوزير الاعظم ثم يعطى الكتخدا هديته على وجه يكون به آسنا مطمئنا واعطاه المارشال شرمتوف كتابا من طرفه يوصله ايضا الى الوزير حسبما اتفقت على ذلك وقائع بطرس اليومية الا انها لم تنص على ما وقع من كاترينة في هذا المعنى تفصيلا وان كان ثابتا لا يكاد ينكر كما يدل عليه اعتراف الجار لها بذلك سنة ١٧٢٣ من الميلاد حين البسها التاج ولقبها بلقب الاميرة طورة حيث قال في شأنها انها كانت لنا من اعظم المعينين واكبر المساعدين في جميع الاخطار والخطوب وسائر الاهوال والكروب لاسيما وقعة البروث التي آل فيها عدد جيوشنا الى اثنين وعشرين الفا انتهى فاذا صبح أن الجار لم يكن معه من العساكر اذ ذاك الا هذا المقدار اعني اثنين وعشرين الفا وكانوا عرضة للهلال لمن الجماعة وضرب السلاح كان ما صدر من كاترينة من هذه الخدمة العظيمة موازيا لصنيع الجار معها من النعمة الجليلة والعطية

الجزيلة وفي جرنال بطرس الاكبر المكتوب بخط اليد ما يفيد أنه لم يكن عنده يوم الوقعة العسكرية وهو العشرون من شهر يولية الاحد وثلاثون الفا وخمسمائة واربعة وخسون من العساكر البيادة وستة آلاف وستمائة واثنان وتسعون من السوارى وكان اغلب الجميع مجزدا عن سلاحه وخيله فعلى ذلك تكون عدة من قدم من عساكره في هذه الوقعة ستة عشر الفا ومائتين وستة واربعين وامان قدم من عساكر العثمانية فيها فيزيد على ذلك بكثير كما تفيد وقائع بطرس اليومية وهو من الاخبار الصحيحة الثابتة فان العساكر العثمانية كانوا اذا ارادوا الحملة على العدو فهجم منهم طائفة كبيرة بدون ترتيب ولا انتظام فلذا كان الموسقى لا يخطئون المرمى ولا تخيب لهم رمية واحدة وحيث تقر ذلك حق أن وعدة وقعة البروث التي كانت في العشرين والحادى والعشرين من شهر يولية من اعظم الوقائع التي سفت في ادماء كثيرة ولم يعهد مثلها منذ عدة قرون

فعلى ما ذكرناه يلزم احد امرين اما نسبة الجار الى الخطأ حين توج كاترينة ولقبها بلقب الاميرة طورة مكافأة لها على صنعها واثنى عليها بأنها اتقذت جيوشه التي آلت عدتها الى اثنين وعشرين الف مقاتل واما تكذيب جرناله في نصه على أن العساكر الموسقية التي كانت في وقعة البروث كانت عدتها بقطع النظر عن الفرقة العسكرية التي كانت على نهر سيريت احد اثنتين الفا وخمسمائة واربعة وخسين من البيادة وستة آلاف وستمائة واثنين وتسعين من السوارى * وبمقتضى العدد المذكور تكون هذه الوقعة اشده هولا مما ذكره في شأنها جميع المؤرخين وسائر اللوائح سواء كان ذلك منهم على سبيل العدالة والانصاف او سلخوا فيه مسبك الغرض والاعتساف ولا شك أن هذا الامر لا يخلو عن غلط كما هو العادة في اخبار الوقائع الحربية لمن تصدى لبيانها واستيعاب تفاصيلها وانما الامر المحقق فيما الذي ينبغي الجزم به والتعويل عليه دائما هو الحادثة الاصلية من نصرة وهزيمة وقل أن وقف الانسان على الحقيقة في شأن اسبابهما والطرق الموصلة اليهما

ثم ان الموسقو على قلتهم كانوا يؤملون لحسن مقاومتهم الناشئة
عن مزيد بطشهم وعنادهم أنهم يلزمون الوزير الاعظم باجابتهم الى الصلح على
شروط تكسب الدولة العثمانية الشرف والفخار ويحوز بها هذا الوزير عند
السلطان الخطوة وعلو المقدار كما أنها لا تورث الدولة الموسقوية من المذلة
والعار ما تنسقط به من درجة الاعتبار فكانت كاترينة لمزيد فضلها ووفور
عقلها هي السبب في تحصيل هذا الغرض على وفق الامل في وقت كان
الجنرالات الموسقوية يرون فيه أنه لا بد أن تدور عليهم الدوائر وتحل بهم
النكبات والمصائب

وقد ذكر نوربورغ في تاريخ كرلوس الثاني عشر صورة كتاب من طرف
الجار الى الوزير الاعظم يذكر فيه ما معناه ان كان سوء حظي قد افضى بي
الى ارتكاب ما اسخط الحضرة السلطانية واساء هابدون قصد بل على خلاف
ما كنت اؤمله فيها انا مستعد لتدارك كل ما يعينها على التشكي منى ومثبي
لاصلاحه وجبرخله واني اناشدك الله ايها الجنرال الانغم والوزير الاعظم
أن تسعى فيما يكون به حقن الدماء وحفظ مهج الناس من الردى وارجو لك
أن تبادر في الحال من غير تراخ ولا امهال بمنع الطوبجية من اطلاق نارهم
الشديدة وكفهم عن ضرب مدافعهم العديدة وها أنا قد بعثت اليك رهنا
تستوثق به على ما أقول فلا تقابله بالرد بل تفضل بالقبول انتهى

وهذا الكتاب كذب صراح ومحض اختراع كما هو عادة هذا المورخ في اغلب
ما اثبتته من امثال هذه المكاتب وغيرها من الجزبيات الموضوعة التي يثبتها
بدون روية وذلك أن تاريخ هذا الكتاب ١١ من شهر يولية على حساب
زيج اغرغوار السمي بالتقويم الجديد مع أنه لم تقع الكتابة للوزير بلطيجي
محمد الا في الحادى والعشرين من هذا الشهر على حساب التقويم المذكور
بعينه ولم يكن الكتاب من طرف الجار بل من عند السرعسكر شرمتوف
وليس فيه شيء مما زعمه نوربرغ من أن الجار قال فيه ان كان سوء حظي
قد افضى بي الى ارتكاب ما اسخط الحضرة السلطانية الخ فان مثل هذه العبارة

لا يلقى صدورهما الأمن إنسان من الرعايا يطلب من ملكه الصفع عن هفوته
والغفوع عن زلته وليس فيه أيضا ما يدل على الرهن أصلا إذ الواقع أن الجار لم يبعث
رهنًا بالكلية وأن الضابط الذي عين على حمل الكتاب تسلمه والمدافع تضرب من
الجانبين وأن شرموتوف لم يتعرض في كتابه لرهن وانما ذكر الوزير ببعض
هدايا صلحية كانت الدولة العثمانية قد اهدتها للدولة الموسقوية في مبدأ الأمر
على يد بعض الألبية الانكليزية والفلمنكية حين التفت الدولة العثمانية
من الجار أن يسطل قلعة تنغروك وميناها اللتين هما السبب الأصلي
في هذا الحرب

(٢١ من شهر يولية) ولما وصل الرسول بالكتاب إلى الوزير مضى عليه
بعض ساعات ولم يأت للموسقو من الوزير جواب قطنوا أن رسولهم هلك
بضربة مدفع وأجزءه العثمانية فألحقوه بائس حرمه صورة الكتاب بعينه وعقدوا
مشورة حربية بحضور كاترينة ووضع عشرة جزالات منهم القرار على
خلاصة الشورى وصورتها إذا لم يقبل العدو ما عرض عليه من الشروط
وطلب أن نلقى السلاح ونسلم له في أنفسنا فالجزالات والألبية كلهم على رأى
واحد وهو أنهم يحترقون صفوف العثمانية ويجعلون لهم مسلكتهم
وبناء على ذلك أقاموا متاريس حول امتعتهم ومهماتهم وتقدموا جهة معسكر
العدو بنحو مائة قدم وبينما هم كذلك اذ نشر الوزير أمرًا بالكف عن القتال

وقد ذكرت الطائفة الاسوجية في اخبارهم اليومية ما يدل على أن هذا الوزير
قليل المروءة مخدوش العرض حيث قبل الرشوة كما أن كثيرا من المؤرخين
اتهموا بالقسوة بيير وزير كرلوس الثاني عشر بأنه اخذ مبلغا من
النقود من دون مارلبوروغ (الجي حانة ملكة ابريطانيا الكبرى)
ليجترس ملكه على ادمان القتال مع الجار واتهموا ايضا بعض وزراء
الفرنساوية بأنه لم يعقد مشاركة اشيلية الا بالرشوة واخذ الدراهم ومثل
هذه التهم لا تثبت صحتها الا بالبراهين الجلية والادلة الواضحة القطعية اذ يندر
أن اكابر الوزراء يسلكون تلك المسالك التي تبغض بمقامهم وتؤذن بدناءة

فوسمهم ولا بد أن يظهرها الباذله ذات يوم عاجلا أو آجلا وكذلك الدفاتر والقوائم المقيدة فيها خصوصا وكل من تقلد الوزارة هو دائما مطمح انظار الناس ومدار نفوذ كلمته والوثوق به ليس الاعلى العفة وشرف النفس اوليس أن صاحب هذا المنصب دائما ذو نزوة عظيمة وغنى تام فهو في غنية عما يقضى به الى الخيانة من ارتكاب هذا الامر الذميم

ومنصب الوزارة عند الدولة العثمانية هو اجل منصب فانه من اكثرها فائدة ومنفعة واعظمها وسيلة في جلب اليسار والسعة لاسيما زمن الحرب والقتال كيف لا وخيام بلطه جي محمد كانت محتوية على ما لا يحصى من انواع الخيرات الدالة على السعة واليسار والعظم والاعتبار بخلاف معسكر الجار فكان على غاية من الساذجية وعدم الرونق لاسيما ما حل به من القحط والمجاعة فكانت حالة الموسقو اذذاك تقضى بأن هذا الوزير يمنحهم بالعطية لأنه يأخذ منهم رشوة او هدية واما ما ارسلوه اليه من القرا والخواتم فهو امر حين اقتضاه رأى امرأة عملا بما جرت به العادة في سائر الدواوين بل في جميع بلاد المشرق فلا يصح أن يصدق عليه اسم الرشوة وما يقضى بيطلان هذه التهمة حسن سلوكه هذا الوزير وظهور استقامته فهي لم تصادف محلا وان تدنس بايرادها كثير من الكتب المؤلفة في هذا المعنى فان شافيروف وكيل القنصلير ذهب الى خيمة الوزير باحتفال عظيم وحصل بينهما ما حصل على رؤس الاشهاد كما هو المتعين وخلافه لا يصح أن يقع وحصلت المفاوضة بينهما بحضور رجل من اتباع ملك أسوج وهو خادم القوتة بونيا توسقي احد الضباط الاسوجية وكان في هذه المفاوضة بوظيفة ترجمان بين الفريقين والذي حرر بنود المشاركة هو عمر اقتدى باش كاتب دار الوزارة وكان ممن حضر هذا المجلس القوتة بونيا توسقي نفسه والهدية التي اعدت للكتخذ اوصلت اليه بمحفل على رؤس الاشهاد وبالجملة فجميع ما حصل في هذه المادة كان على حسب رسوم اهل المشرق وعوايدهم ووقع الاهداء من الطرفين ولم يكن هنالك ما يوزن بالخيانة والذي حل الوزير على تلك المشاركة هو أن فرقة الطوبجية

التي كان اميرها الجنرال ريشة كانت على نهر سيرت ببلاد البغدان
ثم اجتازت ثلاثة انهر وكانت حين المشاركة بالقرب من نهر الدانوب حيث
استولى اميرها على مدينة براهيدا وقصرها وكان فيهما من المحافظين عدد
لا يحصى وكان حاكم المدينة باشا من طرف الدولة العثمانية وكان للجار فرقة
اخرى عسكرية قدمت اليه من ثغور مملكة له والظاهر أن الوزير
لم يكن له علم بما حل بالموسقو من القحط والمجاعة اذ لم تصل اليه حسابات
ازوادهم وذخائرهم بل كانوا يتباهون أمامه ويظهرون أنهم في ارغد عيش
مع أن الواقع خلافه فانهم كانوا في أشد الضنك والضييق ولم يكن في العثمانية
ولا للموسقو من ينتقل الى معسكر خصمه ليتجسس خبره ويقف على
حقيقة امره فان اختلاف الفريقين في الملبس والدين والامتعة يمنع من ذلك
ولم يكن لهم اذذاك معرفة بالتنكر وتغيير الزي فلذا لم يقف الوزير على حقيقة
الامر في شأن بطرس وعساكره ولم يعرف سوء حالهم حق المعرفة
ثم ان هذا الوزير الذي كان لا يميل الى الحرب وان قام بشعاثه في هذه الغزوة
اتم القيام ظن أنه يفوز بالنجاح في هذه التجربة اذ هو اعاد للسلطان ما كان
الحرب لاجله من المدن والمينات وصدة فرقة ريشة المنصورة واجلاها
عن سواحل نهر الدانوب الى بلاد الموسقو وسد على الدوام مدخل بحر
بنطس والخليج القسطنطيني والبحر الاسود على ملك متولع بالمشروعات
وظن ايضا أنه ان لم يبادر باجتناء هذه الثمرات المحققة صار عرضة لخطر حرب
جديد فان اليأس قد يظهر على القوة لاسيما وقد كان قبل ذلك بيوم رأى عساكره
الاكتسارية قد جبرها العدو على الرجوع القهقري وهو يعلم أنه كم من فئة قليلة
ضلت فئة كثيرة فهذه هي الاسباب التي حملته على اجابتهم الى الصلح
وعقد المشاركة معهم وان كان خان التتار ومن حضر ذلك من ضباط
ملك اسوج لم يستحسنوا هذا الامر ولم يرضوا به لما في عدم الصلح من
المصلحة للفريقين فاما مصلحة التتار فهي تمكنهم من السلب والنهب في ضواحي
كل من دولة الموسقو ومملكة له واما مصلحة كرلوس الثاني عشر

فهي الانتقام من عدوه بطرس وكلتا المصلحتين لم تكن داعية للوزير على الحرب فانه لم يكن بينه وبين هذا الملك النصراني (الجار بطرس) ما يعثره على الانتقام منه لمصلحة نفسه ولم يكن عنده ما قام بالتنازل من حب الغنم الذي حملهم على القتال ثم ان الموسقو بمجرد وقوع الاتفاق على وضع السلاح والكف عن الحرب اشتروا من العثمانية ما كانوا يحتاجونه من الازواد والمؤنة ثم ان بنود هذه المشاركة ليست كما ذكره السياح لا موزاي الذي نقلها عنه فوربرغ وانما اراد الوزير أن يشترط على الجار أن لا يجعل لنفسه دخلا في مصالح مملكة له فدقق في ذلك القوتنة بونيا توسقي كل التدقيق لمجيئه على وفق مرامه والواقع أن الالبق بمصلحة الدولة العثمانية أن تكون هذه المملكة قائمة بنفسها لا دخل فيها لاجنبي وأن تكون ضعيفة الشوكة فمن ثم آكل امر هذا الشرط أن الجيوش الموسقوية ترحل من ضواحي تلك المملكة وتطلب خان التنازل من الموسقو اربعين الف بندقي على سبيل الجزية فوقع في ذلك جدال ونزاع مكث مدة طويلة ولم يجب الخان الى مطلوبه

وقدمت الوزير مدة مديدة وهو يطلب أن يسلم له في خاتمة كاسم الملك اسوج في بطقول وكان ذنب خاتمة هذا كذب مازيا سواء بسواء وكان الجار قد جازى مازيا على جنايته بعقاب الافيجي وهو معاقبة صورة الجاني وهو غائب ومثل ذلك لا يعرفه العثمانية اصلا كما أنهم لا يعرفون اقامة الدعوى على غائب ولا الحكم على رؤس الاشهاد بحيث ينشر ويراه الخاص والعام فنشر الاحكام مما لا وجود له عندهم كما أن عقاب صورة الغائب كذلك لان التصوير ممنوع في الشريعة المحمدية فلذا شدوا كل التشديد في تسليم خاتمة اليهم حتى يرى السلطان فيه رأيه وان لم يخرجوا من ذلك على طائل فان بطرس كتب يسده الى شافيروف وكيل القنجلير ما معناه انه ليهون على أن انزل للدولة العثمانية عن جميع الاراضي الممتدة الى ابالة كورسك (وهي من الايلات الموسقوية) ويبقى عندي

امل استرجاعها وفتحها ثانيا واما خدش العرض والذمة فلا يجبر ولا يسعني
هتك حرمة الذمام فانا معاشر الملوك لا تختص من الاوصاف الا بشرف
العرض فهو الذي عليه المدار وبدونه لا يتحقق وصف الملكية انتهى (وهو
قريب من قول الشاعر

اصون عرضي بمالى لادنسه * لا بارك الله بعد العرض في المال
احتمال للمال ان اودى فاجعه * ولست للعرض ان اودى بمحتال

وقول الآخر

المال يمكن هدمه وبنائه * واذا هدمت العرض عز بناؤه

وبالجملة فقد تمت المشاورة بتحرير شروطها ووضع القرار عليها قريبا من قرية
يقال لها فلكسان على شاطئ نهر البروث وكان من جملة بنودها
أن الفريقين اتفقا على أن مدينة ازاق وسائر اراضيها ترجع للدولة العثمانية
بما كان فيها من الذخائر والمدافع قبل تغلب الجار عليها سنة ١٦٩٦
من الميلاد وأن ميناء تغرولك التي على بحر ازاق تهدم وكذلك ميناء سمارا
التي على نهر سمارا وغدة قلاع صغيرة واضافوا الى ذلك بندا في شأن ملك
اسوج يؤذن بان الوزير مشتمز منه وحاصله أن هذا الملك اذا عاد الى ملكه
لا يتعرض اليه الجار باوهاب ولا تهديد متى اراد عقد الصلح مع بعضهما
فلهما ذلك في غير هذا المحل

فعبارة هذا البند الغريبة الاسلوب يظهر منها أن الوزير كان لم يزل يتذكر
كبر كرلوس وانفته وما المانع من أن كبر هذا الملك هو الذي منع الوزير
من ايقاع الصلح بينه وبين الجار ولا يخفى أن خسارة الجار تعود على
كرلوس بالعظم والاعتبار وكيف يسعى الانسان في رفعة رجل يتكبر عليه
ويزدريه وقصارى الامر أن هذا الملك بعد أن امتنع أولا عن الحضور الى
معسكر الوزير حين كان الحال يقتضى ملاطفته ورعاية خاطره بادر الآن
بالذهاب الى المعسكر المذكور حين كان الامر بين الفريقين قد قارب التمام
على حالة تفضى به الى اليأس والقنوط مما كان يؤمله ولم يذهب الوزير الى لقائه

بل بعث لمقابلته اثنين من الباشاوات ولم يسع الى مقابلته الا بعض خطوات خارج خيمته

ومن المعلوم أن ما وقع بينهما من المحادثة انما هو عتاب وملامة وقد ظن جماعة من المؤرخين أن ما اجاب به الوزير ملك اسوج حين لامه على أنه كان في وسعه اسر الجار ولم يفعل انما يصدر عن الغي الا حق حيث قال له لو اسرت الجار فمن يحكم عمالك بعد هكذا زعموا ولا يخفى أن هذا الجواب انما يقع من انسان في نفسه شيء من مخاطبه لاسيما وما زاده على الجواب المذكور من قوله لا يليق بالملوك مفارقة اوطانهم يدل دلالة كافية على أن الوزير كان يميل كثيرا الى قمع نزيل بندر ونغمه (يعنى كرلوس)

وبالجمله فلم يستفد كرلوس من رحلته الى بلاد الدولة العثمانية شيئا سوى تمزيقه شر والوزير بهما جزمته فتغافل عنه الوزير واغضى عن هذه الفعلة وان كان يمكنه أن يصنع بها علها ما يحمله على الندم فكان بذلك اعلى همة واكرم نفسا من كرلوس ولو كان ثم ما يفيد هذا الملك في مدته الزاهية الزاهرة وابامه الكثيرة الهرج والاضطراب أن السعد طالما ظهر على العظم وغلب على الشرف وعلو المكانة لكان ذلك هو ما وقع له في واقعة بلطاوا من أن رجلا كانت حرفته في الاصل عمل القطير جبرجيوشه على القاء السلاح وما حصل ايضا في وقعة البروث من أن رجلا آخر كان في الاصل كسار حطب فجز ما جرى به القضاء عليه وعلى الجار وجرى على يديه ما قد رلكل منهما من الحظ والبخت فان الوزير بلطه جي محمدا كان يكسر الحطب في السراية حسبما يدل على ذلك لقبه ولم يكن يعد هذا اللقب عارا ولا منقصه بل كان يفخر به ولا غرو في ذلك فان عوايد اهل المشرق مباينة لعوايد الفرنج

ثم ان السلطان وجميع اهل الاستانة العلية فرحوا غاية الفرح بما فعله الوزير في هذه الواقعة ومكثوا على الحظوظ والمسرات العامة اسبوعا كاملا وترقى كتحدا الوزير الذي ذهب بورقة المشاركة الى الديوان الى رتبة مير اخور باشا بمجرد وصوله لدى الحضرة السلطانية ولا يخفى أن مثل هذه المعاملة لا يحظى بها

من يظن به عدم الصداقة في اداء خدمته ولا من يتوهم فيه عدم القيام
بما ينيط به على الوجه المطلوب

والظاهر أن نور برغ كانت معرفته بحكومة الدولة العثمانية هينة
واهية حيث قال ان السلطان ابقى على الوزير لكونه كان يخشاه انتهى
نعم ان اوجاق الانكشارية كان في الغالب خطرا على السلاطين الا انه لم يتفق
أن السلطان يأمر بقتل وزير من وزراء دولته ويحصل ادنى توقف في امثال
الامر بل يتقذا امره مع غاية السهولة والاعتقاد وايضا لم يكن الوزير بلطه جى محمد
على حالة بحيث يسعه المعارضة والذب عن نفسه وقد ذكر في الصحيفة بعينها
ما يفيد أن الانكشارية كانوا قائمين على الوزير وأن السلطان كان
يخافه ويخشى سطوته وهو كلام متناقض لا يصح ايراده مورد التعضيد
والاستشهاد

ثم ان ملك اسوج آل امره أن صار يسلك مع ارباب ديوان الدولة العثمانية
مسلك الدسائس والفتن فانه بعد أن كان يولى الملوك صار الآن يقدم عريضات
ومكاتب لا تقابل الا بالردة فكان في هذه الحالة بمثابة رجل من آحاد الرعية
يشكو وزير الى سلطانه ويسعى في فضيخته لديه وهوانه فهكذا كان سلوكه مع
الوزير بلطه جى محمد وجميع من تولى الوزارة بعده وربما كان يخاطب
في هذا المعنى السلطنة وليدة بواسطة امرأة من اليهود او بعض الاغوات
الطواشية وقصارى امره أنه توسل في ذلك برجل سلك في هذا الغرض مسلك
المساليب ونظهر مظهر المجانين وصار يخاطب الخضر السلطاني ويراجهم عسى
أن يتقرر اليه السلطان ويتمكن من مناوئته العريضة التي كانت معه من طرف
ملك اسوج ومع ذلك كله لم يعد على كرلوس من هذا السعي نفع الاقطع
مرتبته التي سمعته بها مكارم الدولة العثمانية من أنه كان يصرف له كل يوم
من المال ما تساوى قيمته القبا وخمسة فريك من الفريكات الفرنسية
وكتب له الوزير الاعظم عوضا عن هذه المرتبات كتابا في صورة نصيحة مضمونه
الامر بخروجه من بلاد الدولة العثمانية

خالف كركوس هذا الامر وسلك في العناد اكثر من عادته وصمم على الاقامة مستمرا على طمعه في العود الى بلاد له والموسقو بجيش من العساكر العثمانية ولا يخفى ما آل اليه امر شدة وجسارته سنة ١٧١٤ من الميلاد حيث قاتل جيشا من الانكشارية والاسباهية والتتار ولم يكن معه وقتئذ من الرجال الا الكلبة والقراشون والطباخون وخدمة الخيل ثم اسروه في البلد التي حظى فيه بحسن القرى والضيافة ثم عاد الى ملكه متذكرا في رضى ساع من السعادة بعد أن اقام ببلاد العثمانية خمس سنوات ولو صح أن لهذا الملك في سلوك تلك المسالك سببا صحيحا مقبولا لوجب الاعتراف بأن هذا السبب ليس كغيره من الاسباب التي يثق بها الابطال ويعول عليها فقول الرجال

(الفصل الثاني)

فيما عقب وقعة البروث

(سنة ١٧١١ من الميلاد) قد رأينا من المفيد هنا أن نذكر واقعة تكلمنا عليها في تاريخ كركوس الثاني عشر (المسمى مطالع شمس السيف في وقائع كركوس الثاني عشر) وحاصلها انه في مدة الكف عن القتال الذي اعقب مشاركة البروث قبض اثنان من التتار على ضابطين من الطليانين كانا من عساكر الجار واراد ابيعهما للضابط من الانكشارية فعاقب الوزير التتار بين بالقتل لكونهما تجاسرا على ما يحل بالهدوء والامن العام فانظر الى هذا الوزير كيف سلك هنا مسلك الملاطفة وحسن المراعاة وان كان ذلك في ذاته من الامور الصعبة القاسية مع ما وقع منه قبل ذلك من انتهاك حرمة حقوق الملل بعضها على بعض وعدم اكثراته بها حيث امر في حارات اسلامبول بالقبض على الحية الجار المسمى تولىستوى ولكن افعال الناس مبنية دائما على اسباب متباينة واغراض متغيرة فان الوزير كان يحقد على خان التتار حيث كان لا يريد الصلح مع الموسقو فبين له بهذه الفعلة انه هو السيد المتصرف

ولما تمت مشاركة الصلح بين الوزير والجار بوضع القرار عليها سار الجار
بجيوشه من طريق مدينة بسى حتى وصل الى ضواحي ممالكه وادفنه
الوزير بفرقة من العساكر العثمانية تبلغ ثمانية آلاف ولم يكن غرضه من
ارسالها خلقه مجرد ملاحظة الجيوش الموسقوية ومراقبة حركاتها في السير
بل كان غرضه من ذلك ايضا منع همل التتار من التنغيص على
عساكر الجار

ثم ان بطرس بادرباء الشروط المقررة في المشاركة المذكورة حيث
امر بهدم قلعة سمرا وقلعة كامينسكا غير أن تسليم مدينة ازاق
وهدم ميناء تنغروك كانا اشق عليه من هدم القلعتين السابقتين حيث كانت
الشروط توجب فرز مال للعثمانية بتلك المدينة من المدافع والذخائر وتبقيته
عما كان فيها من ذلك للجار منذ استولى عليها فاطل في ذلك حاكم المدينة
فاغتاضت الدولة العثمانية من مماطلته وحق لها أن تغضب من ذلك وصار
السلطان ينتظر مع القلق مقابل ذلك المدينة والوزير يعده بها وحاكمها بما طل
في التسليم فاجب ذلك غضب السلطان على وزيره بلطه جي محمد وخلعه عن
الوزارة واستظهر عليه اعداؤه كخان التتار وغيره وكثر السخط عليه
من عدة باشاات لكن لما كان السلطان لا يعهد فيه الا الامانة والنصح لم يقتله
ولم يضبط على امواله بل ارسله في شهر نومبر الى مدينة متيلين وولاه
حكومتها فعزله بهذه المناسبة وعدم سلب امواله ولا سيما تقليده حكومة هذه
المدينة كل ذلك يقضي بطلان ما ادعاه نوربرغ من أن الوزير قبل الرشوة
من الجار

وذلك أن هذا المؤرخ ذكر ان يستانجي باشا الذي ذهب الى بلطه جي محمد
بأخذ منه ختام الدولة العلية ويعلمه بالامر ببقية قال له ما معناه انك قد خنت
سيدك وخرجت عن طاعته وبعثت للاعداء بالمال وانك قد اخطأت
في عدم مرايتك اتم الرعاية لما فيه المصلحة لملك اسوج انتهى وفيه امر ان
احدهما أن مثل هذا الكلام لم تجربه العادة اصلا عند الدولة العثمانية

وانما العادة عندهم أن الاوامر السلطانية تصدر سرّاً ويجرى العمل بمقتضاها مع الانصات والسكوت * ثانيهما أن الوزير لو ثبت ما قاله له الباشا المذكور من الخيانة والعصيان وقبول الرشوة لاستحققت القتل حسبما هو الجارى في مملكتهم من أن مرتكب مثل هذه الذنوب انما يعاقب بالقتل بدون عفو ولا مسامحة وبالجملة فلو كان عقاب الوزير انما هو لعدم رعايته لمصلحة كرلوس الثاني عشر لكان لهذا الملك في الدولة العثمانية شوكة قوية توقع الخوف والارعب في قلوب الوزراء وكانوا في هذه الحالة يبادرون الى ما فيه مصلحته ويعملون على مقتضى ما ربه واغراضه ولكن الواقع خلافه فان يوسف باشا اغاة الانكشارية الذي تقلد الوزارة بعد بلطه جي محمد كان كسلفه في معاملة هذا الملك ومراقبة سلوكه حيث كان يتباعد عن خدمته ومراعاة مصلحته ويسعى في اراحة نفسه من خطر هذا التزيل فقد قال للقوتنة بونيا توسقي الذي كان جليس كرلوس وامين سرّه حين ذهب اليه ليهنئه بمنصب الوزارة ها انا اذكرك ايها الكافر العنيد انك متى تصدّبت لا قل دسيسة او حيلة ربطت في عنقك حجرا وألقيت في البحر

فهذه العبارة التي اثبتتها القوتنة بونيا توسقي نفسه في بعض لوائح وصلت الى لا يبق معها احتمال في أن كرلوس الثاني عشر لم يكن له شوكة ولا صولة في الدولة العثمانية فجميع ما ذكره فوربرغ مما يتعلق بهذه الدولة يظهر أنه صادر عن انسان غير خلى عن الاغراض لا يثبت فيما يصل اليه من الاخبار ولا يحسن التفحص عنها فكل ما ادّعاه هذا المؤرخ بلاد دليل في شأن رشوة الوزير الاعظم يلزم نظمه في سلك الاكذوبات الناشئة عن العصبية والتجامل وحمله على التقولات البوليتيكية والادعاءات السياسية وهى تصح هذه الدعوى في حق رجل كان يتصرف في كل سنة في اكثر من ستين مليوناً من الاموال بدون أن يحاسب عليها ولم يزل الى الآن يمدى الكتاب الذي كتبه القوتنة بونيا توسقي للملك استانسلاس عقب صلح البروت يلوم فيه الوزير بلطه جي محمد على عدم مراعاته للملك اسوج وتباعده عما فيه

مصلحته وعلى قلبه ميله للعرب وعلى لينة وسهولته ولم يذكر فيه شيئاً يشم منه رائحة تهمة بالرشوة لانه كان يعرف حق المعرفة مقام الوزير الاعظم وعلو منزلته فلا يسعه أن يخطر له أن الجار اممكنه اشتراء خيانة وزير الدولة العثمانية وغشه لسيدته بالرشوة

وقدمت كل من شافيروف وشرمتوف في اسلامبول رهينة على ما وقع الاتفاق عليه بين الفريقين ولم يعاملا فيها معاملة من اشترى الصلح بالرشوة وغش السلطان بالاتفاق على ذلك مع الوزير بل مكنا في تلك المدينة مع الحزبية وعدم المضايقة وانما كان يخفهما فرقتان من الانكشارية ولما خرج الجيش الموسقو المسيحي تلتوى من قلعة يدى قلبه عقب صلح البروث ذهب الحية الانكليز والفلمنك الى الوزير الجديد وطلبوا منه العمل بمقتضى المشرطة

وقصارى الامر أن الموسقو رذوالدولة العثمانية مدينة ازاق وهدمت القلاع التي اشترط هدمها في الصلح ومع أنه يندر دخول الدولة العثمانية فيما يقع من النزاع والمشاكرات بين ملوك النصرانية داخلها وقتئذ الفرح والمسرة حيث وجدت نفسها حكام بين دولة الموسقو ومملكة له وملك اسوج وذلك أنها كانت تريد أن الجار يخرج جيوشه من مملكة له لتتخلص بذلك من خطر هذا الجوار وأن كرلوس يعود الى ملكه ليسبق كل في معزل عن الآخر ولكن لم يخطر ببالها أن تمت ملك اسوج بجيوش من عساكرها وكان التنازع لا يبعون سوى الحرب كتحرف لا يريد ترك حرقه وكذلك الانكشارية الا أن اعظم باعث لهم على ذلك انما كان بغضهم للنصارى وتكبرهم وميلهم الى الاجترار ومع ذلك فاطلبه الحية الانكليز والفلمنك من العمل بمقتضى الشروط ظهر على ما كان يريد هذا الحزب المعارض من اشهار الحرب وتحتمت شروط صلح البروث وزيد عليها انه في ظرف ثلاثة اشهر يخرج الجار جميع جيوشه من مملكة له وأن السلطان يطرد عقب ذلك كرلوس الثاني عشر من بلاد الدولة العثمانية

فهل مع هذا الشرط الاخير يصح ما قيل ان ملك اسوج كان له قوة شوكة في الدولة العثمانية كلاب الظاهر أن الوزير الحديد المسى يوسف باشا وسلفه بلطجي مجدا انما كانا يودان دماره وهلاكه وكأن مؤرخيه لم يجدوا وسيلة في اخفاء المنقصة التي لحقت من الوزير الحديد سوى كونهم يتهمون به بالرشوة كما اتهموا سلفه ومثل هذه التهم التي صدرت منهم غير مرة بدون أن يكون لها اصل يعتمد عليه او دليل يجب المصير اليه ينبغي أن يكون الاولى بها أنها مجرد لغط واشاعة من عصبية مستضعفة لأن تنظم في سلك الشهادات التاريخية ثم ان الانسان الذي لا يخلو عن الاغراض لا يسعه الا الاعتراف بالحقيقة الواقعية غير أنه يسلك في ايراد اسبابها مسلك الاعتساف ويحذو في بيان احوالها حذو والتغيير وعدم الانصاف فواء اسفاه على كون التواريخ التي دونها معاصرو حوادثها تبيل الى من بعدهم بهذه المشابة فلا يميزون غشها من سمينها ولا يعرفون صحيحها من فاسدها

* (الفصل الثالث) *

في ذكر زواج ابن الجار واشهار نكاح بطرس لكازينة بموكب حافل وعثوره هذه الاميرة على اخيها (سنة ١٧١١ من الميلاد) ثم ان واقعة البروث كانت في الشوم والاساءة اشد على الجار من واقعة نزوا لانه بعد واقعة نزوا عرف كيف يتفقع من هزيمته في تلك الواقعة ويجبر سائر ما لحقه في امن الخسارات ويأخذ من كرلوس الثاني عشر اقليم أنقريا بخلاف واقعة البروث فانه بعد أن تهدب سبها ميناء وقلاع الواقعة على بحر ازاك حسبما اقتضته مشاركة فلكسين (قرية بيلاد البغدان على نهر البروث) المنعقدة بينه وبين السلطان اقتضى الحال أن لا يكون له سلاطة ولا حكم على البحر الاسود ولكن بقي له مجال واسع ينجز فيه مشروعاته ويحصل فيه اغراضه فان ما بدعه في البلاد الموسقوية من الاحداث والمصالح كان محتاجا للتكميل والتحسين وكان يحتاج ايضا الى ادمان الفتوح في البلاد الاسوجية وتمكين الملك اغسطس

على كرمى المملكة الالهية وكذلك كان يلزمه ملاطفة معاهديه وحسن معاملتهم حتى لا ينقصوا عنه وكان ملحقه من العناء والمشقة قد اضر به حتى فاقضى الحال أن يذهب الى مدينته كرلسباد بإيالة بومبة لاجل الاستحمام بمياهها وكان في مدة الاستحمام يخارب اقليم بوميرانيا وفيها ايضا حوصرت مدينة استراسلند واخذت خمس مدائن من المدن الصغيرة

واقليم بوميرانيا المذكور هو ابعدا قليم ألمانيا الى الشمال وهو محدود من جهة الشرق ببلاد البروسيا وله من جهة الغرب باقليم برندبورغ ومن جهة الجنوب باقليم مكلنبورغ ومن جهة الشمال ببحر بلطيق وقد تولى على هذا الاقليم من قرن الى قرن عدة ولايات مختلفة وكان غسطاوة ادولف (ملك اسوج) قد تغلب عليه في الحرب الشهيرة التي مكثت ثلاثين سنة ثم آل الامر الى أن اعطى علانية للاسوج حسمما اقتضته شروط وستفاليا ماعدا اسقفية كامين وبعض قلاع صغيرة واقعة في بوميرانيا التالى لهذا الاقليم وكان الاوفق طبعا أن الاقليم بتمامه يكون ولاؤه لمنتخب برندبورغ حسمما يقتضيه شروط القرابة مع دوقات بوميرانيا لما أنه حيث اقرض نسل هؤلاء الدوقات سنة ١٦٣٧ من الميلااد وجب بمقتضى قوانين ايمبراطورية ألمانيا أن يكون لعائلة برندبورغ في هذا الاقليم حق ظاهر لا يكاد يخفى الآن الضرورة التي هي اقل الاحكام غلبت على مشارطة اوسنابروك ومن يومئذ صار معظم بوميرانيا للاسوج بشجاعتهم

الحرية

وكان مرام بطرس أن يجرد التاج الاسوجي عن جميع الاقاليم التي له بألمانيا وكان لابتدئ في تحصيل هذا الغرض من الاتحاد والاتفاق مع منتخبي برندبورغ وهانوفر وملكة دانمبرقة فكتب ما اراده من شروط المعاهدة مع هذه الحكومات وكتب ايضا جميع تفاصيل العمليات اللازمة لصيرورته سيدا على بوميرانيا

(٢٥ من شهر اوتوبور) وفي اثناء تلك المدة تزوج الجار ابنه المسمى

ألكسيس باميرة وولقبوتل اخت امبراطورة ألمانيا زوجة كرلوس السادس (امبراطور ألمانيا) وكان ذلك بمدينة تورغو وكان هذا النكاح على غاية من الشؤم حيث ترتب عليه هلاك الزوجين

وكان ألكسيس المذكور قد ولد للجل من اول زوجاته المسماة اودوكسيا لابوكين التي تزوجها على ما يقال سنة ١٦٨٩ من الميلاد وكانت وقتئذ منفية في دير بمدينة سوسدال وكانت ولادة ألكسيس في غرة شهر ملوث سنة ١٦٩٠ من الميلاد وكان عمره حين الزواج اثنتين وعشرين سنة ولم يكن هذا الامير اذ ذاك معروفاً ببلاد اوروبا وانما بعض الالوية الذي جمع لواضع تتعلق بديوان دولة الموسقو وطبعها كتب لسيد كاتبا تاريخه ٢٥ من شهر اغسطس سنة ١٧١١ من الميلاد وصف فيه هذا الامير فقال هو طويل القامة معتدل القد حسن التركيب والبنية اشبه الناس بابه خالص الطوية طيب السريرة على غاية من الدبابة والاستقامة قرأ الكتاب المقدس خمس مرات كثير التولع بمطالعة التواريخ اليونانية القديمة وأفاد أنه وجد وافر العقل سهل الادراك وذكر أنه يعرف العلوم الرياضية وأن له دراية تامة بالفنون الحربية والملاحاة وعلم سیر المياہ ووقوفها ويعرف اللسان النمساوي وأنه يتعلم اللغة الفرنسية غير أن أباه لم يرض له بتطبيق العلم على العمل

وهذه الاوصاف مبانية بالكلية للاوصاف التي ذكرها الجار نفسه بعد ذلك بمدة في شأن هذا الولد السيء الحظ فانه سيأتى لك ما يورث النفس حزنا وتألما من أن أباه لاهمه على جميع المثالب المناهضة لتلك الخصال الحميدة التي تعجب منها هذا الالجي واستغرب وجودها فيه

فليدقوس امر ذلك الى الاجيال الالوية فكم بمآثره بين انسان اجنبي سلك في الحكم على طبيعة ألكسيس وبيان اخلاقه مسلك التساهل او التملق وبين اب رأى أن الواجب عليه أن يفدى مصلحة المملكة بولده ويؤثر ذلك على حنان الابوة الطبيعي فان هذا الالجي ان لم يكن يعرف قريحة

ألكسيس حق المعرفة كما يعرف صورته فشهادته في ذلك لا غيبة لا يعتد بها وذلك أنه قال في وصفه (كما سبق قريبا) طويل القامة معتدل القدمع أن اللواتح التي وصلت الى من مدينة بتربورغ نصت على أنه لم يكن موصوفا بشئ من ذلك

ثم ان كاترينة زوجة ابيه لم تحضر هذا النكاح اصلا لانها وان كانت معتبرة جارة لانها لم تباع بهذه المنقبة على رؤس الاشهاد ولقب ألتيس (وهو عندهم لقب لمن يلى الملك في الرتبة) الذي لقبها به ديوان الجار اوقع الشبهة في رتبها بحيث كان لا يمكنها أن تضع امضاءها على وثيقة النكاح ولا ترخص لها قوانين الكنيسة الالمانية أن تكون في منزلة تلامي مقامها من حيث كونها زوجة الجار بطرس وانما كانت اذذاك (في شهرينوية سنة ١٧١٢ من الميلاد) بمدينة تورن الواقعة في البروسيا اللهية وكان الجار في مبدأ الامر قد ارسل الزوجين الجديدين الى مدينة وولفنبتول وبعد ذلك يسير بعث الجارة الى مدينة بتربورغ مع السرعة والساذجية اى عدم الابهة والاحتفال على عادته في اسفاره

ولما تزوج ابنه عقد نكاحه على كاترينة واشهره على رؤس الاشهاد بأعظم مما اشهر به نكاح ولده بحيث صار يعلمه الخاص والعام وكان ذلك بمدينة بتربورغ (في ١٩ من شهر فبريه) وقد بلغت رسوم هذه الافراح وما صنع في ذلك من المواسم اعظم درجة بالنسبة لمثل تلك البلاد القريبة العهد بالحدوث وبالنسبة لمن كانت فيه خزائن الدولة محتاجة للمال لاجل مصاريف الحرب مع الدولة العثمانية وكذا مع ملك اسوج وامر الجار بعمل الافراح واشتغل فيما بنفسه كما هو عادته وبويعت كاترينة وقتئذ على رؤس الاشهاد بأنها جارة مكافأة لها على اقتادها الزوجها وجنوده من الوقوع في الخطر

ثم ان ما اظهره الاهالي بمدينة بتربورغ من صياح المسترة في هذا النكاح وتصفيق الرضاء بهذه الافراح كان صادرا عن طيب نفس وخلوص طوية كما هو

الظاهر وان كان صدور مثل ذلك عن رعية فرحا بما صنع ملك مطلق التصرف لا يخلو دأئنا عن رية وشبهة قد ثبت فيما بعد عند ذوى العقول الراجحة من اهل اوووبا أن هذا الاستحسان كان عن سريرة خالصة حيث رأوا في أن واحد تقريرا ما شرح صدورهم من أن ولي عهد تلك الايمبراطورية الواسعة الذى لم يكن له من الفخر الاعراقته في الحسب والنسب تزوج باميرة هي كقولها وأن الفاتح المشرع رفع بالزواج الى سرير ملكه على رؤس الاشهاد امرأة دخيلة دعية مسببة من مدينة مارينبورغ لما لها من العقل والفضل واقتره على ذلك الخاص والعام بمجرد ما استنارت العقول بانوار المعارف والحكمة التى اتسعت دائرتها منذ اربعين سنة وهي حكمة عالية يسلك صاحبها مسلك التحرى والتحرز حيث تفيد أنه ارباب المظاهر والشوك لا ينجحون من التعظيم الا ما كان ظاهريا فقط بخلاف ذوى المعارف والخدم السافعة فانه بموجب هذه الحكمة ينبغى الادعاء لهم بالتعظيم الحقيقى (اى ما وافق فيه الظاهر الباطن)

وقد رأيت أن ارددهنا مع التحرى والصدق ما وقفت عليه في شأن هذا النكاح مما وجدته في تحريرات الدولة الصادرة من القوتة بسووتز وهومن ارباب المشورة العليا بمدينة ويانة (بيج) ومكث مدة مديدة في الديوان الموسقوبى بوظيفة الجنى من طرف دوقية هولستين وكان رجلا فاضلا بمكان من الاستقامة وخلوص الطوية وأبقى ببلاد النمسا سيرة حسنة ومناقب جبيلة وهالك نص تحريراته في هذا المعنى ان الجارة لم تكن ضرورية في مجرد نفاخ بطرس بل كان عليها المدار ايضا في صيانة مهجته وحفظ حياته فان هذا الملك كان يتأسف عليه لما كان يعتريه من اليمداء النشج الذى كان يظن أنه من أثر سم اسقيه وهو صغير فلم يصل احد الى ما يسكن اليه الا كاترينة فهى التى سلكت في ذلك مسلكا لا يصلح له غيرها حيث اجهدت نفسها في معالجته وتيقظت اتم التيقظ في البحث عما يكون به شفاء علته ولم تأل جهدا في بذل مهجتها لحفظ هذه النفس النفيسة السافعة لها والدولة فلما رأى الجار

أنه لا يتيسر له العيش بدونهما بالزواج إلى سرير ملكه انتهى وفي هذه العبارة من كلامه كفاية

ثم ان السعد الذي اسفر طالعه في هذا الجزء من الدنيا عن مظاهر كثيرة لا تكاد تخفى على الابصار ورفع كاترينة من حضيض الحفارة والشقاء الى اوج العلا والسعادة خدمها ايضا على وجه عجيب بعد اشهار نكاحها ببعض سنوات

ولنذكر في بيان ذلك ما وجدناه في مسودة يرغب في الاطلاع عليها الفها رجل كان في خدمة الجار وتكلم فيها على هذا المعنى بلسان المشاهد المعان فقال

ان رجلا ارسله الملك اغسطوس لديوان الجار سمع وهو راجع الى مدينة درسة من طريق كورلندة رجلا في خماره رث الهيئة يسخر منه الحاضرون بما تقتضيه رثاثة هيئته من انواع السخرية والاستهزاء يقول وقد اشتدت به النكاية والحنق منهم ولم يكن فيهم من يعرفه بل كان مجهول الحال بينهم اى لو وصلت الى الجار لما لمكن لاحد أن يعاملنى مثل هذه المعاملة السيئة وربما وجدت في ديوانه ملاذا أقوى الشوك بعيدا عن الازهان قل أن خطريال احد

فلما سمع منه رسول اغسطوس هذه العبارة تشوقت نفسه أن يسأله عن حقيقة امره فلما وقعت المحادثة بينهما ظهر لهذا الرسول من بعض ما سمعه من الاجوبة المهمة ما حمله على امعان النظر فيه حتى ظن أن له بعض شبهة بالامبراطورة كاترينة في تقاطيعه وتركيب بنيتها فلما وصل الى درسة لم يسعه أن يكتم ذلك فكتب به الى بعض اصحابه بمدينة بربورغ فوق الكتاب في يد الجار فبعث الى الامير روبين حاكم مدينة ريغا يأمره أن يبذل جهده ويعتنى اتم الاعناء بالفحص والتفتيش عن هذا الرجل المذكور في الكتاب فارسل من طرفه من يثق به في هذه المأمورية الى مدينة ميتو (تحت اقليم كورلندة) فعثره فيها فاذا هو رجل يسمى

كرلوس اسكاورونسكى كان ابوه من وجوه لوثيانا واعيانا قتل في حروب
مملكة له واعقب ابنا وبنتا في المهدي لم يتعهدا حدر يتهما وتاديهما بل نشأ
لا يعرفان من التربية الا ما يعرفه الانسان بطبيعته ويوجد فيه من اصل فطرته
فكانا في زوايا الاهمال بالنسبة لكل شئ وفارق اسكاورونسكى اخته وهو
صغير جدا ولا يعلم من امرها الا أنها سببت في مدينة مارينبورغ سنة
١٧٠٤ من الميلاد وكان يظن الى الآن انها لم تزل عند الامير منزيقوف
لما أنه كان يقع في ذهنه انها منحت من السعد والاسعاف بنصيب

ثم ان روينين بمقتضى اوامر سيده الجار في هذا الشأن احضر
اسكاورونسكى الى مدينة ريغا متعللا بأنه متهم بجناية جناها ومطلوب
لتحقيق هذه الدعوى ثم احببه بجرس عظيم وبعثه الى مدينة بربورغ
وامرهم باكرامه وحسن معاملته في الطريق

فلما وصل الى مدينة بربورغ ذهبوا به الى ناظر مطبخ الجمار المسيحي
سبليف وكان يعلم حقيقة الامر فاكثر من سؤاله والاستفهام عن حاله ثم قال له
ان الدعوى التي طلبت لاجلها جسيمة لكن ان قدمت للجار عريضة
بامك وامكنك أن تعطيه له بنفسك فزت منه بالحكم فيها على وجه العدالة
والانصاف

فلما حضر الجار في اليوم الثاني ايا كل عند سبليف احضر واين يديه
اسكاورونسكى فاكثر من سؤاله فتبين له من ساذجيته وبلاهته في الاجوبة
أنه اخو الجارة لاميالة وانما في صغرهما كانا باقليم ليونيا وأن ما ذكره له
من اجوبة اسئلته مطابق لما اخبرته به زوجته مما يتعلق بنسبها وما اصابها
في مبدأ امرها من صروف الدهر وتقلباته

فلما وقف الجار على الحقيقة وصار على يقين من هذا الامر التمس من زوجته
في اليوم الثاني أن تذهب معه عند سبليف وامر عندئذ وجههما من محل
المائدة باحضار الرجل الذي كان يسأله بالامس فحضر لانيهما وعليه ملابس
ناسفر لان الجار كان لا يريد أن يظهر بغير الزى الذي عوده عليه سوء

حاله انتهى

فأعاد عليه السؤال بحضرة زوجته ثم قال لها كن ما في المسودة ان هذا الرجل اخوك والتفت اليه قائلاً أقبل يا كرلوس وقبل يد الایمپراطورة وعانقها فانها اختك

وقد ذكر صاحب المسودة ايضا أن الایمپراطورة وقعت مغشياً عليها فلما افافت قال لها الجبل خفضي عليك فالامر سهل فان هذا السيد ختني وصهری فان كان من ذوی المعارف والفضل استخذه مناه على قدر فضله والا فلا

وهذه العبارة تؤيد كما هو الظاهر بالشهامة وشرف النفس كن ما نبني عن السهولة وعدم التكلف وان كان مثل هذا الوصف اعنى الشهامة قل أن يتصف به سائر الناس وقد ذكر صاحب المسودة أن اسكاورونسكى مكث مدة مدیة عند سبيلف وأنه عين له مرتب جسيم وانه عاش في العزلة وعدم مخالطة الناس ولم يذكر في هذه الحكاية المتضمنة مجزديان نسب كاترينة ازید مما اثبتناه هنا ولكن المعروف من طريق آخر أن اسكاورونسكى تولى قوتها وانه تزوج بامرأة من ذوات الحسب والنسب ورزق منها بنتين تزوجتا برجلين من اعظم اكابر الموسقو ثم انه ربما كان هناك بعض افراد يعلمون هذه التفاصيل فنقوض لهم امر هذه الحكاية ليميزوا صحیحها من فاسدها وينبها على اصلها الواقعي وما زيد عليه والظاهر أن مؤلف المسودة لم يكن غرضه من اثبات هذه القصة ترويح امور غريبة لمن اطلع على تأليفه فانه لم يؤلف مسودته بقصد نشرها بين الناس وانما جمع فيها ما رآه لبعض اصحابه خاصة ثم لا مانع من احتمال الخطأ في بعض مواضع منها الا أن الظاهر أن اصلها صحيح ثابت فان اسكاورونسكى لو كان يعلم أنه اخ لامرأة بهذه المنابة من الجاه وقوة الشوكة لما مكث السنين ذوات العدد وهو خامل مجهول الحال من غير أن يسعى فيما يكون به معرفته وظهور امره ثم ان غرابية تعرف المذکور باخته وان بلغت الغاية الا انها ليست اغرب من بلوغ اخته كاترينة في الخطوة والاجبال وعلو الشأن ما لا مزيد عليه وكلا الامرين دليل قوى وبرهان قاطع

على

على وجود القضاء والقدر وور بما ينتج عنهما أنه ينبغي تعليق الحكم على كثير من
الحوادث القديمة بأنهم من قبيل الخرافات بداعي بعدها عما جرت به العادة
من الامور المعهودة بين الناس التي ربما تكون دون ما وقع للايمبراطورة
كأثرية من هذا التاريخ الغريب والامر العجيب.

ثم ان ما صنع بطرس من الافراح لاجل اشهار الزواج له ولولده لم يكن
مما تنقده الخزان من الحظوظ التي تمر ولا تستقر وقل أن بقي ذكرها ولم ينس
خيرها فانه تم صلب المسدق والنشأ في الامارة البحرية وتم اصلاح الطرق
الكبيرة وتحسينها لوجدها سفنا اخرى وحفر خلجانا وتم ايضا جمع التيارات والمخازن
واخذت تجارة بتربورغ البحرية تتقوى وتتسع وامر بنقل مشورة السنت
من مدينة موسقو الى مدينة بتربورغ فانتقلوا اليها في شهر ابريل
سنة ١٧٤٢ من الميلاد وبذلك صارت هذه المدينة الجديدة كأنها تحت
يلاد الموسقو واستخدم جلة من اسرى الاسوج فيما يكون به تحسين
تلك المدينة التي كان تأسيسها ثمرة هزيمتهم.

(الفصل الرابع)

في ذكر الاستيلاء على مدينة استاتين وما وقع في فنلندة من الاغارة
والهجوم وما حصل من الحوادث في سنة ١٧١٢ من الميلاد
(سنة ١٧١٢ من الميلاد) لما رأى بطرس أن السعد قد حلقه في اموره
المتزلية وفي حكمته وحربه مع كرلوس الثاني عشر وكذلك في مشاركته
مع غيره من الملوك الذين كانوا يريدون طرد الاسوج من الارض القارة
وحصرهم على الدوام في بحيرة سكيند نلوة وجه اطماعه نحو غربي
شمال اورويا وترك بحر ازاك والبحر الاسود فلم يفتاح قطعة ازاك
بعد أن امتنع مدة مديدة من تسليمها للبasha الذي عينه السلطان لمحاظتها
ووقع السلمين الموسقو والدولة العثمانية مع ما وقع من كرلوس الثاني عشر
واحزابه في منع ذلك من الجهودات وكثرة الاحاح والداساس في ديوان
الدولة العثمانية بل ومع اغرائها على حرب جديدة مع الموسقو وافهامها

طرقه ووسايله

واما كرلوس الثانى عشر فانه استمر على الإقامة بمدينة بندر مع العناد والتصميم على عدم الخروج منها وبنما كان فيه يعلق حظه وآماله على اهواء الوزير الاعظم واغراضه كان الجار يمتد جميع اقاليمه ويرهب سائر بلادهم حيث حل ملكى دانيمة وهانورة على محازبته وكاد يحمل البروسيا على التصميم على قتاله واغرى على ذلك ايضا ملكى له وسكس

وما كان يسلكه كرلوس مع الدولة العثمانية التى كان ملتجئا اليها من الافراط في الكبر وقوة العناد سلكه ايضا مع أعدائه البعيدين عنه الذين تجمعوا به صدا عناف شوكتهم وابطال صولته فكنت تراه وهو في قرار لمجاءه بصغارى بيسرى (بوجاق) يهزأ بالجار وملوك له ودانيمة والبروسيا ومنتخب هانورة الذى تولى بعد ذلك بقليل ملكا على انكثرة واميراطور ألمانيا وكان كرلوس قبل ذلك قد اساءه حين مروره باقليم سيليزيا ظافرا من صورافا تقم منه الاميراطور في نظير ذلك بتركه له على هذه الحالة السيئة وعدم محاماته عما كان للاسوج وقتئذ بللمانيا من البلاد

وقد كان يسهل على ملك اسوج أن ينال الراحة بتبديد شمل هذه الجمعية المتعصبة عليه فانه لم يكن عليه في تحصيل ذلك الا أن يسلم مدينة استاتين لاقل ملك على البروسيا وهو فرد ديق منتخب برندبورغ حيث كان له في هذه المدينة التى هي جزء من اقليم بوميرانيا حقوق ثابتة بمقتضى الاصول والقوانين الا أن كرلوس لم يكن يعد مملكة البروسيا من الممالك القوية المتعبرة فانه لم يكن يخطر بباله بل ولا يبال غيره أن هذه المملكة الصغيرة التى تكاد تكون صحراء وكذلك انتخابية برندبورغ تصبح مخوفة مهولة فلم يرض في شأنهما بشئ يتقطع به النزاع والمشاجرة بل رأى أن التصميم على الفتك وايقاع الخلل اوفق به من المصالحة فامر بمقاومة العدو من سائر الجهات برا وبحرا وكانت بلاده قد اوشكت أن تخلو عن الرجال والاموال ومع ذلك قابلا امره بالسمع والطاعة فاعتدت مشورة السنت بمدينة استظم دونما

حربية مركبة من ست عشرة قبضا من ذوات العنابر الثلاثة وجهزت العرب جنودا من اهالي المملكة فصار رعاياه الذين هم مثل في الشقاء وسوء الحظ تقريرا كلهم عساكر متسلحة وحملهم على ذلك شجاعته وعتوه

ومن البعيد أن يظن أن كرلوس كان له في ذلك طرق مستقيمة منتظمة وانما حربه الذي كان لم يزل له ييلاد له كان يمكنه بمساعدة تثار القرم أن يحترق تلك البلاد السيئة الحظ لأن يعيد الملك استانسلاس الى سرير ملكها واما تعلق آماله بحمل الدولة العثمانية على حماية هذا الحزب وابائاته لها انه يجب عليها أن تبعث لاعائته ما في الف مقاتل معلا ذلك بأن الجار قد نصدى لحماية خليفه اغسطوس والاخذ بناصره في مملكة له فانما هو مجرد وهم كالخيال يشبه أن يكون من حيز المحال

(شهر سبطمبر) وكان كرلوس بمدينة بندر ينتظر نتيجة لما كان يديه من الدسائس الكثيرة التي لا طائل تحتها واما الموسقو والدانبرقة والسكسون فكانوا باقليم يوميرانيا واستعجب بطرس زوجته في هذه الغزوة وكان ملك دانبرقة قد تغلب على استادة وهي مدينة بحرية من دوقية بريجة وكانت جيوش الموسقو والسكسون والدانبرقة أمام مدينة استراسوند

(شهر اكتوبر) فلما رأى الملك استانسلاس أن كثيرا من الاقاليم صار على حالة يرثي لها وأن عوده الى سرير مملكة له صار من حيز المستحيل وأن غيبة كرلوس الناشئة عن عناده وعدم نساها له قدر ترب عليها عموم الاختلال ونسوء الحال في كثير من الاقاليم جمع الجنرالات الاسوجية الذين كانوا يدافعون عن يوميرانيا بجيش كان عدده ستة آلاف واحد عشر الفا وهو آخر ما كان للاسوج من الوسايط بهذه الاقاليم وعرض عليهم المصالحة مع الملك اغسطوس وانه يؤثر ذلك على مصلحة نفسه وخطهم في هذا المعنى بعبارة فرنساوية وكتبها لهم واشهد فيها تسعة من الجنرالات منهم رجل من العائلة البطقولية وهو ابن عم بطقول سبي الحظ الذي قتله

كرلوس الثاني عشر بعقاب المجلة وهالخص عبارته (بعد التعريب)
 انى الى الان بمثابة آلهة تفخر الاسلحة الاسوجية وشرفها * فلا يريد أن يكون
 سببا في خسارتها وتلفها * وها انا قد التزمت بالغزول عن سيرى ~~مملكتى~~ *
 وتحليت عما فيه نفى ومضلقى * رغبة في حفظ ذات كرلوس المحترمة *
 وروما لصيانة نفيس نفسه المكرمه * فافى لم اجد لاحضاره من محل
 اقامته سوى ذلك * ولم ارفى هذا الغرض وسيلة ~~ممكنة~~ الاسلوك تلك
 المسالك * انتهى

وبعد هذا الالتزام تأهب للسفر الى الدولة العثمانية طامعا أنه يفواته سيرى
 ملكه يستعطف من له المنة عليه ويحملة على محاربة العناد والصعوبة لكنه
 لسوء حظه صادف وصوله الى اقليم يسرى وقت أن كان كرلوس
 الثانى عشر قد سلك مسلك العناد والتصميم على المكث ببلاد تلك الدولة
 وعدم اكترائه بالترك والتسارح حتى قاوم منهم جيشا كاملا بدون معين سوى
 خدمه واتباعه وفى هذه الواقعة المشؤومة التى كانت بمدينة بندير وكان
 يسهل فيا على عساكر العثمانية قتله اقتصروا على القبض عليه واخذوا اسيرا
 وكان قبل أن يسلك هذا المسلك قد وعد السلطان بالعود الى بلاده ووصله منه
 ما يلزم لرجوعه من مال ورجال للعرس فكان وصول استانسلاس الى
 تلك الديار فى هذه الحالة الغريبة قبض عليه ايضا فبذلك صار فى اسر الدولة
 العثمانية ملكان من ملوك النصرى

وفى هذا الوقت كانت اوروپا بتمامها مضطربة فكانت قرانسا قد
 انتهت حربا ليس دون غيره من الحروب فى الهول والخطر فعلته مع جزء من
 اوروپا وكان الغرض منه تولية ابن لوي الرابع عشر الصغير على سيرى
 مملكة اسبانيا وكانت افكلتره قد عقدت الصلح مع فرانسا وكانت
 نصرة السر ~~عسكر~~ دوبرس فى مدينة دوتين بايالة فلندره
 قد اقدت هذه الايالة من اعدائها الاخرين ثمان فرانسا كانت منذ قرن
 مخالفة لمملكة اسوج فكانت تود أن محالفتها لا تحرم محالها فى الامبراطورية

الالمانية من الاملاك وتوزر ذلك على غيره وكان كرلوس لبعده مقامه لا يعرف
 بمدينة بندير ما كان يقع في فرنسا
 وكان مجلس النيابة بمدينة استعظم قدرأى أن يحاطر ويطلب اموالامن
 فرنسا مع أن هذه المملكة كانت وقتئذ قد نفذت خزائنها حتى ان لويز
 الرابع عشر لم يكن في خزينته اذذاك ما يصرفه في جامكات خدمه فارسل
 ارباب المجلس لهذا الغرض قوتة دسبار وناطوه بهذا الامر الذي لا طائل
 تحته فسا فرالى مدينة ورساي واخبر مركي دونورسي بما عليه مملكة
 اسوج من العجز عن دفع مرتبات الجيش الصغير الاسويحي الذي بقي
 لكرلوس الثاني عشر باقليم بوميرانيا حتى صار بذلك قريب التبدد
 والتفرق وأن هذه المملكة التي ليس لها من المحالفين الادولة فرنسا قد
 اشرفت على أن يضيع منها اقاليم حفظها لازم لاجل ابقاء التعادل العمومي
 وأن كرلوس الثاني عشر وان اهل في ايام نصراته ملك فرنسا بالكلية
 الا أن كرم لويز الرابع عشر بضاهي في العظم ماحل بملك اسوج من
 النكبات وسوء الحظ فاخذه أن فرنسا لا قدرة لها على اسعاف سيده
 واعاته فعند ذلك ايس قوتة دسبار من قضاء وطره ونجاح حاجته
 ولكن اسعفه بعض اعيان باريس بقضاء لباته بعد خيبة مسعاه وذلك
 أن هذه المدينة كان بها صراف ذو ثروة عظيمة يقال له سمويل برنارد وكان
 من اسباب ثروته أن الدولة كانت تبعث بالنقود الى الممالك الاجنبية على يده
 وبوكالته ومنها غير ذلك من مشروعات الاخذ والعطاء وكان لهذا الرجل
 فرط تولع بما يندران بتشبهه امثاله من الشهرة والفخار وكان يميل كل
 الميل الى ما فيه الظهور والافتخار وكان يعلم أن مركي دونورسي لا بد أن يرذله
 ولو بعد حين ما شئ فيه ويؤديه اليه بريجه وفائدته فذهب اليه ذات يوم قوتة
 دسبار ليأكل عنده فسلك معه مسلك التملق والملاطفة وعند الانصراف
 من المائدة اعطى القوتة المذكور ستمائة الف فرنك ثم ذهب الى مركي
 دونورسي وقال له اني قد اعطيت على اسمك لمملكة اسوج مائتي الف ايكو

(نوع من النقود) تقوم بدفعها الى متى امكنت
 (٩ دقير) وكان القوة دستانبوك جنرال الجيش الاسويج المتقدم
 لا ينتظر هذه الاعانة بل كانت لا تخطر له ببال وكان يرى من عساكره أنهم قد
 اشرفوا على العصيان فلما لم يكن عنده ما يذله اليهم سوى المواعيد ورأى
 أن المصائب آخذة في الازدياد وخشى أن تحيط به جيوش الموسقو
 والدانمركة والسكسون طلب رفع السلاح والكف عن الحرب لحزمه
 بأن استانسلاس سينزل عن سرير ملكه ويهضم بالاستعطاف من
 كركلوس شحمه وكبره ورأى أنه لا أقل من اعتنام الزمن في انقاذ جنوده
 بالمداولات في شأن الصلح فبعث سفيرا الى مدينة بندر ليخبر كركلوس بما
 عليه خرائته ومصالحه وجيوشه من سوء الحال وبأن الجنرال المذكور لم يقدم
 على طلب رفع السلاح الا للضرورة التي الجأته الى ذلك وأنه ان اجيب الى
 مطلوبه كان ذلك من سعده ووفور خطه فلم تمض ثلاثة ايام من خروج هذا السفير
 الا وورد الى دستانبوك من صراف باريس المبلغ المذكور اعني المائتي
 الف ايكو وكان استانسلاس الى ذلك الوقت لم يسافر الى بلاد الدولة العثمانية
 فما كان هذا المبلغ وقتئذ الا كغرسيم في بلاد خربة فقوى الجنرال المذكور
 بهذه الاعانة التي تصلح دواء لكل داء حيث رغب بها جنده وجعل عساكره ذخائر
 حتى وجد نفسه يقدم اثني عشر ألف مقاتل فعند ذلك عدل عما كان طلبه
 اتوا من رفع السلاح وصار لا يبحث الا عن الحرب والقتال

ودستانبوك هذا هو الذي انتقم للاسويج من الدانمركة بعد
 هزيمة بلطاوا سنة ١٧١٠ من الميلاد في الاعارة التي حصلت في اقليم
 اسكانيا وكان قد قدم اليهم جمعا من غير متعلمة ولا منتظمة حيث لم يكن معها
 الاحبال بدلا عن سينور الجبل فانتصر عليهم نصرة كاملة وكان كثيره من
 جنرالات كركلوس في الهمة والنشاط وشدة البأس الا أنه دنس صفه الشجاعة
 بما كان فيه من التوحش والقساوة حيث انه بعد مقاتلة حصلت بين
 الاسويج والموسقو حين امر بقتل جميع الاسرى تطرضا بطالها من حزب

الجار وقع على رصكاب الملك استانسلاس فعاتقه هذا الملك ليقية
من الهلاك قتلته دستانبوك برمية طنبجة رماه بها وهو بين ذراعي الملك
المذكور حسبا هو مسطر في سيرة كرلوس الثاني عشر فقال استانسلاس
لدستانبوك لولا ما منع اجترأى الملك اسوج وشكرى لحسن صنيعه
لشجبت رأسك

ثم ان هذا الجنرال (يعنى دستانبوك) سار من طريق ويسمار فاصدا
جيوش الموسقو والسكسون والدانيرقة المجتمعين مع بعضهم ولم يزل
سائرا حتى وجد نفسه أمام الجيوش السكسونية والدانيرقية وكانت
متقدمة على العساكر الموسقوية بثلاثة فراسخ فبعث الجار الى الملك
دانيرقة ثلاثة سفراء يعقب بعضهم بعضا ليرجوه أن ينتظر قدوم الجار
اليه وأن يفيد عما يحصل له من الخطر اذا هو قاتل الاسوج ولم يكن يفوق
عليهم في القوة العسكرية فلم يرد ملك دانيرقة أن يقامه فخار النصر التي
كان يعتقد أنه لا بد أن ينالها على الاسوج بل سار اليهم وحمل عليهم قريبا
من محل يقال له غادوبسك وظهر في هذه الوقعة ما كان بين الاسوج
والدانيرقة من العداوة الطبيعية والكراهة الجبلية فكنت ترى ضباط الملتين
يقاتلون بعضهم مع غاية الشدة وفرط الصعوبة حتى يقعوا على الارض ميتين
واجسامهم محترقة بالطنعن والضرب

واتصر دستانبوك عليهم قبل قدوم الموسقو الى ميدان الحرب وبعد
ذلك بأيام ورد اليه كتاب سيده بنسكرفيه على كل من يركن الى رفع السلاح
وابطال الحرب ويذكر أنه لا يسامح من سلك هذا المسلك الموجب للمعزة
الا اذا تداركه وجبرخله وأنه في حالتي الضعف والقوة لا بد من الظفر والهلاك
وكان دستانبوك قد تدارك بالنصرة مضمون هذا الكتاب

ولكن هذه النصره كانت اشبه شيء بالنصره التي تسلى بها الملك اغسطس
مسدة بسيرة من الزمن وهي ما ظفربه في خلال المصائب والنكبات من نصرته
في وقعة كالبس على الاسوج الذين كانت لهم الغلبة في سائر الجبهات

فان نصره كاليس لم تصكن تيجتها الا ازدياد مصائب اغسطوس
ولم يترتب على نصره غادوبسك الا تأخر المالحق دستانبولك وجهته
من الخسارة

ولما بلغت نصره غادوبسك ملك اسوج ظن أن مصالحه قد صلح خالها
وزال اختلالها حتى اتمل انه يحمل الدولة العثمانية التي كانت لم تزل تهتد الجار
بحرب آخر على اشهار الحرب معه وبناء على هذا الامل امر جنراله دستانبولك
بالتوجه الى مملكة له ظان انه بأدنى ظفر واكل نجاح تعود له ايام نزوا
واوقات تقنيته للقوانين فعمال قليل خابت هذه الآمال بمجاذبة بندر واسره
عند الدولة العثمانية

ونصره غادوبسك انما كانت ثمرتها ارتحال الجيش الاسويحي واحراقه لمدينة
أطنيا الصغيرة ليللا وهي مدينة غير حصينة كان اهلها ما بين تجار وارباب
حرف وصنائع ولم يكن هناك مقتض لتدميرها وتخريبها لانها لم تنهر على
الاسوج سلا حائط ولكنهم ابادوها ابادة كلية وهلك بالشارعة من اهلها
آخرون هربوا من الحريق عرايا ما بين شبوخ ونساء واطفال اهلكهم البرد
والعناء على ابواب مدينة همبرغ فانظر كيف يهلك غالبا بالمشاجرة بين
شخصين الوف من الناس ولم يجن دستانبولك من نصرته الا هذه الثمرة
المهولة فان الموسفو والدانيرقة والسكسون اقتفوا اثره عقب تلك
النصرة مع الشدة والحمية حتى اضطر الى طلب ملجأ يأوى اليه هو واهله
في توننج وهي قلعة هولستين

وكانت بلاد هولستين من اشد بلاد الشمال خرابا وكان واليها من اسوأ
الامراء حظا وهو ابن اخت كرلوس الثاني عشر وما وقع من كرلوس قبل
واقعة نزوا من الحرب الذي وصل فيه الى مدينة كوينهاغ انما كان
لاجل والده هذا الملك الذي كان صهره على اخته وعقد لاجله هو مشاركة
تراوندال التي بمقتضاها عاودت هولستين حقوقهم

وفي هذه البلاد من بعض جهاتها نشأت امة القميرية وقدماء النور مندية

الذين

الذين فتحوا نستريا بملكة فرانسا وفتحوا انكلترا بقامها ونابلي
وسيسليا وليست الدول الآن في الاستعداد الى الفتوح دون اهل هذه
البلاد التي هي جزء من خرسونية القبرية وهذا الجزء عبارة عن دوقيتين
صغيرتين احدهما دوقية سلسويك وهي مشتركة بين ملك دانيمرة ودوق
هولستين والثانية دوقية غوترب وهي للدوق وحده والاولى حكومة
مستقلة وبلاد هولستين جزء من الايمراطورية الالمانية المسماة بالايماطورية
الرومانية

وكان ملك دانيمرة ودوق هولستين غوترب من عائلة واحدة الآن
هذا الدوق الذي هو ابن اخت كرولس الثاني عشر وولي عهده كان من اصل
ولادته عدو الملك دانيمرة الذي اتقلبه بما لا يسعه تحمله لصغر سنه وكان
لهذا الدوق سبي الخط عم يدبر امر حـ كـ و مته مدة قصوره وهو اسقف
لوبيك فوجد هذا الاسقف نفسه بين الجيش الاسويجي الذي لم يجاسر
علي اعاقته وعساكر الموسقو والدانيمرة والسكسون الذين كانوا
يتوعدونه ويهددونه ومع ذلك اقتضى الحال أنه يسعى في اقتاذ عساكر
كرولس الثاني عشر بدون أن يغيب ملك دانيمرة الذي تغلب على تلك
البلاد وسلب جميع محصولاتها

وذلك أن هذا الاسقف الذي هو مدبر دوقية هولستين كان تحت تصرف
بارون دوغورطرز المخادع ويذعن لآرائه كل الأذعان وكان هذا البارون
اشد الناس مهارة واقداما على المشروعات وكان وافر العقل له في التحيل دائرة
واسعة لا يجيد في الاشياء ما يبعد الوصول اليه ولا يرى في الامور ما يتعذر
اوتيه عسر عليه بل كان يستسهل صعابها ويستترب بعيدها ويجمل لنفسه
مدخلية في المداولات ويجسر على الإقدام على المشروعات وكان يعرف
كيف يستميل القلوب اليه حتى تستحسن ما ابداه وبسلك مع الناس ما يحلمهم
على اقرار ما يراه وكان لحدة عقله يأخذ بمجامع الالباب بعد أن يستجلبها بسحر
لسانه وعذوبة ألفاظه وكان له على كرولس الثاني عشر من السلطنة ونفوذ

السكينة ما كان له من ذلك على مدبر هولستين ومن المعلوم أن ما حازه هذا البارون من شرف الحكم على هذا الملك الذي كان أشد الملوك ييسا وعنادا خسره بضرب عنقه بعد ذلك

(في ٢١ من نويه سنة ١٧١٣ من الميلاد) فاجتمع البارون المسدكور سرا على دستابوك بمدينة اوزوم ووعدته أن يسلم له قلعة توينج بدون أن يتهم بالمدخلية في ذلك سعيه مدبر هولستين وفي هذا الوقت بعينه افاد ملك دانيمرة افادة قطعية أن تسليمها لا يكون بوجه من الوجوه * وهكذا تكون اغلب المناولات فاته لما كانت مصالح الدول لها اسلوب آخر غير اسلوب مصالح الاهالي فكان شرف العرض عند الوزراء مقصورا على التجاح وعدم خيبة المسعى بخلافه عند الاهالي فليس الاصدق القول ووفاء الوعد

ثم ان دستابوك قدم أمام توينج فاصنع حاكم المدينة من فتح الابواب فكان ذلك ما نال الملك دانيمرة أن يسى الظن بالاستغف مدبر هولستين الآن غورطرز سعى في صدور امر على لسان الدوق القاصر مضغونه أن الجيش الاسويجي لا يمنع من دخول توينج ووضع عليه كاتب سر الدوقية المسمى استامك اسم دوق هولستين فبذلك ورت غورطرز صيلم يكن له الحق اذ ذلك في اعطاء الاوامر وسعى دفعة واحدة في مصلحة ملك اسوج الذي كان هذا البارون يريد أن يتعجب اليه ويسعى في اصككتاب الخطوة لديه وفي مصلحة سعيه مدبر هولستين الذي كان يظهر من خاله أنه لادخلية له في دخول الجيش الاسويجي في تلك القلعة واستقال الى ذلك حاكم المدينة على وجه السهولة فلم يتوقف في تسليمها للاسوج واعتذر غورطرز الى ملك دانيمرة وأقسم أن جميع ما فعل في هذه المادة حصل قهرا عنه

ثم ان الجيش الاسويجي التجأ بعضه الى المدينة والبعض الآخر أقام تحت حماية قلعتها ومع ذلك لم ينح من انظر فان الجنرال دستابوك اضطر الى تسليم

ففسه اسيرا مع احد عشر ألفا من المقاتلين كما وقع تطير ذلك ما بقا من أن فخور
 ستة عشر ألفا من الاسوج سلوا في انفسهم عقب واقعة بلطاوا
 وقد اشترط قبل التسليم أن دستابوك ومن معه من الضباط والعساكر
 لهم أن يقتدوا بالاموال فكان ما عين لعداء دستابوك من ذلك ثمانية آلاف
 ايكو من قودالايبراطورية الالمانية وهذا المقدار مع قلته لم يمكن تحصيله
 بل مكث هذا الجنرال في مدينة كوبنهاغن حتى مات
 وصارت اراضي دوقية هولستين في قبضة ملك ظافر كان قد اشتد غضبه
 عليها يتصرف فيها كيف يشاء وصار دوقها القاصر غرضا لسهام الانتقام من
 هذا الملك اعنى ملك دانيمركة على ما وقع من غورطرز باسمه من الافراط
 وتجاوز الحد فانت ترى سوء حظ كرلوس الثاني عشر قد عم جميع
 عائلته

فلما رأى غورطرز أن مساعيه قد خابت وكان دائما يحاول أن يكون له
 حظ واخر في هذا الاضطراب عاد الى ما كان يخطر بباله قبل ذلك من جعل
 الايلات الاسوجية التي بالايبراطورية الالمانية بمعزل عن التعصب
 مع احد من الدول المتباحنة

وكان ملك دانيمركة قد قارب الدخول في تونينج وكان جرحي منتخب
 هانورة يريد أن يأخذ دوقتي بريجة ووردن ومدينة استادة
 وكانت مدينة استاتين مطيح نظر ملك البروسيا الجديد المسي
 فرد ربق غليوم وكان بطرس الاول (چارالموسقو) يستعد للاستيلاء
 على فنلندة فكانت الايلات كرلوس الثاني عشر ما عدا بلاد اسوج
 بمثابة غنائم يريد الإعداء تقسيمها فهل مع هذه المطامع الكثيرة يتأني أن هذه
 الايلات تكون بمعزل عن التعصب المذكور ولكن كان غورطرز يتفاوض
 وقتئذ مع هؤلاء الامراء الذين كان لهم مصلحة في اقتسام تلك الايلات فكان
 يشغل ليله ونهاره بالذهاب من اقليم الى آخر فطلب من حاكم دوقتي بريجة
 ووردن أن يسلم هاتين الدوقيتين لمنتخب هانورة لاعلى سيدل التملك بل

يكون امرهما موقوفا حتى ينبت الرأي في شأنهما بشئ منعا للدائبة عن
الاستيلاء عليهما وسعى جهده حتى نال من ملك البروسيا أنه بالاتحاد مع
هولستين يلتزم بجعل كل من استاتين وويسمار موقوفا ايضا
ويكون ذلك واسطة في كون ملك دانيبرقة يترك دوقية هولستين في السلم
والراحة ولا يدخل تونينج ولا ريب أن خدمته لكرلوس الثاني عشر
على هذا الوجه من اغرب الخدم حيث سعى في تسليم بلاده المذكورة لاناس
كان في وسعهم ابتاعوا لانفسهم على سبيل التأييد غير أنه لما سلم لهم تلك المدن
بنائة وهينة جبرهم على أن يكونوا بمعزل عن التعصب ولومدة من الزمان بل
كان يؤمل أنه بعد ذلك يحمل هانورة وبرندبورغ على الانضمام الى حزب
الاسوج وحل ملك له على موافقته على تلك الاغراض حيث ان ابا لانه
لتعزيبها كانت الى الصلح احوج وبالجملة فقد كان هذا البارون يود أن يكون عند
سائر الملوك من اللوازم الضرورية التي لا يستغنى عنها فكان مثله مع كرلوس
الثاني عشر من حيث نصرته في املاكه كمثل وصى يتصرف في جزء من
مال القاصر ليحفظ بذلك الجزء الاخر من التلف وقاصر لا يقدر على مباشرة
مصالحه بنفسه وكل ذلك كان منه بدون توكيل ولا كفالة يعتمد عليها الا ما حصل
من اسقف لوبيك من التفويض له تفويضا كلياً على أن هذا الاسقف ايضا
كان فضوليا حيث لم يأذن له كرلوس في شئ من ذلك
فهكذا كان حال غورطرز الذي كان الى ذلك الوقت لا تعرف حقيقة امره حتى
المعرفة فانه لم يكن الا من ارباب مجلس اسقف لوبيك الخاص وصى ومع ذلك
فعل بدون اذن ولا ترخيص ما فعله كبار وزراء الدول العظيمة مثل
أوغزاستيرون (اعظم وزراء غسطاوة ادف ملك اسوج) وريشليو
(وزير لوزير الثالث عشر ملك فرنسا) وأليبروني (وزير ملك اسبانيا)
الذين اوقعوا التغير والتقلب في جزء من اوربا ومثل ذلك يعد من الغرائب
التي لم يسمع بمثلهما
(شهر يونية) وقد فجع غورطرز ابتداء في مساعيه حيث عقد مع ملك

البروسيا مشاركة مضمونها أن هذا الملك يلتزم بحفظ ما بقي من إقليم بوميرانيا لكرلوس الثاني عشر مادامت مدينة استاتين موقوفة تحت يده وبمقتضى هذا الشرط عرض غورطز على حاكم بوميرانيا (ميرفلد) أن يسلم ملك البروسيا مدينة استاتين لما في ذلك من منفعة الصلح ظانا أن هذا الحاكم الاسوجي لحاكم توننج الهولستيني في السهولة وعدم التوقف وما درى أن ضباط كرلوس الثاني عشر لم يتعقدوا على قبول مثل هذه الاوامر فقد اجابه ميرفلد بأنه لا سبيل الى دخول استاتين الا اذا قتل وتخربت تلك المدينة وكتب الى كرلوس يخبره بهذا الامر الغريب فوجده الرسول اسيرا في مدينة دمبراش بعد أن وقع له ما وقع بمدينة بندر وكان اذ ذاك لا يدري هل يبقى على الاسر عند الدولة العثمانية مدة حياته او انها تنفيه الى بعض جزائر الارخبيل او آسيا فبعث وهو في السجن الى ميرفلد بمثل ما بعث به سابقا الى الجنرال دستانبول حيث ذكر له أن الموت اولى من التسليم وامره أن يتأسى به في النبات وعدم الدين

فلما رأى غورطز أن حاكم استاتين قد افسد عليه ما ربه حيث لم يقبل شيئا في شأن التباعد وعدم التعصب ولا في شأن جعل هذه المدينة موقوفة تحت يدملك البروسيا حتى ينبت الامر في شأنها بشيء عن له أن لا يقتصر على جعل تلك المدينة وحدها بهذه المشابة بل يضم لها في ذلك مدينة استراسوند فوجد في هذا المعنى من الطرق والوسائل ما يوصله الى أن يعقد مع ملك له الذي هو منتخب سكس في شأن مدينة استراسوند مشاركة تشاكل المشاركة التي عقدها مع منتخب برندبورغ في شأن مدينة استاتين وكان يعرف حق المعرفة أن الاسوج لا يمكنهم حفظ هذين المحلين بدون اموال ولا رجال مادام ملكهم اسيرا عند الدولة العثمانية وكان يؤمل أنه بواسطة الوقف المذكور يعدم مصيبة الحرب عن بلاد الشمال بتمامها وقد اتهمى الحال بالدانيرقة أن رضوا بمشارطته واستقال اليه بالكلية الامير

منزيقوف جنرال الجار وخصيصه وبين له انه لا مانع من تسليم هولستين
لسيده واستحسن منه الجار ما ابداه اليه من أن يحفر خليجا من هولستين
الى بحر بلطق لكون هذا المشروع مما يلائم اغراض مثل هذا الملك
المؤسس واعجبه منه ايضا زيادة عن الاول ما أفاده اياه من انه يكتسب شوكة
جديدة اذا هو احب الانتظام في سلك امراء دولة الالمان وحاز حق ابداء
الرأى في مشاور الديتة التى تتعقد بمدينة راتسبون و صار بحيث
يمكنه تأييد هذا الحق ومحلماته بالسلاح

ولا يمكن لاي انسان كان أن يفوق على ذلك الرجل المتطوع بالسعى في الصلح
في سلوك طرق الحيلة ولا فيما ابداه من الوسائل المتنوعة ولا في ظهوره بظهور
التدخل كيف لا وهو بعد أن سعى في خلاص مدينة استاتين عدل عن
ذلك وسعى جهده حتى حل منزيقوف على أن يجترها ويضرب عليها بالجب
ليجبر حاكمها ميرفلد على الاجابة الى وقفها وتعليقها على الوجه السابق
فهو بهذا التدبير قد تجاسر على حط مقام ملك اسوج وهتك حرمة مع أنه
كان يريد بذلك التحبب اليه وقد حصل أن وقع عنده بمنزلة عظيمة من المحبة فعاد
عليه ذلك بالنحس والشقاء

فلما رأى ملك البروسيا أن جيشا من جيوش الموسقو يضرب بالجب
على مدينة استاتين خشي أن تضيق منه هذه المدينة وبأخذها الموسقو
حسبا كان ينتظره غورطرز وكان الامير منزيقوف اذ ذلك قد
نفذ مامعه من النقود فسعى غورطرز في حل ملك البروسيا على أن
يقرضه اربعمائة ألف ايكو حتى اقرضه اياها ثم سعى ايضا في تبليغ حاكم
استاتين مامعاه هل الاولى عندك انك ترى مدينة استاتين محترقة تحت
حكم الموسقو وتسلمها الملك البروسيا الذى يردها الى سيدك فيما بعد
فركن الى التسليم فدخلها منزيقوف ثم سلمها بسائر اراضيها الملك البروسيا
في نظير الاربعمائة الف ايكو التى اقرضه اياها فادخل فيها هذا الملك فرتين
من عساكر هولستين عملا في الظاهر بالاصول والقوانين ولم يردها هذا الجزء

من يوميرانيا فيما بعد الى ملك اسوج اصلا
فهذا الملك الذي هو نافي ملوك البروسيا وخليفة ملك ضعيف بمذروضع
في ملكه من يومئذ أساس العظم والاعتبار الذي حازته مملكته فيما بعد
بواسطة الضبط والربط والتربية العسكرية وكذلك بواسطة التدبير
ولم يمكن للبارون غوزطرز مع ما ابداه من كثرة الحيل والطرق أن ينال
من الدانيرقة ترك دوقية هولستين ولا العدول عن السعي في الاستيلاء
على توننج بل خاب سعيه في هذا الغرض الذي كان بحسب الظاهر اول
اغراضه واعظم مقاصده ولكنه نجح فيما عداه لاسيما في صيرورته من الذوات
المعتبرين ببلاد الشمال وكان ذلك هو غرضه الاصلي في الواقع ونفس الامر
(شهر سبتمبر) ثم ان منتخب هانورة تحقق من حيازة دوقتي بريجة
ووردن اللتين سلبتا من كرلوس الثاني عشر ونزل السكسون أمام
مدينة ويسمار التي هي احدى مدن ملك اسوج وكانت مدينة
استاتين بين يدي ملك البروسيا وذهب الموسقو مع السكسون
لمحاصرة استرالسوند وكان السكسون حينئذ في جزيرة روجن
ونزل الجار في اثناء هذه المفاوضات الصلحية الكثيرة بفنلندة حين
كان النزاع واقعاً في العزلة وعدم التعصب مع احد وفي القسمة وتعيين
الانصبا (في بلاد كرلوس) حيث انه بعد أن عين بنفسه محال المدافع
تجاه استرالسوند وترك ما عدا ذلك لخلفائه وللأمير متزيقوف نزل
بحر بلطق في شهر مائة راكبا سفينة من ذوات الخمسين مدفعا كان
قدمتها بنفسه في مدينة بتربورغ فاصدا فنلندة وأتبعها باثنين
وتسعين غرابا ومائتين من انصاف الاغربة وجعل في الجميع ستة عشر
ألف مقاتل

(٢٢ من شهر مائة) وكان خروج هؤلاء العساكر في مدينة ألسافورد
الواقعة في الدرجة الحادية والستين على الجزء المتوغل في الجنوب من هذه
الولاية الباردة القطر الجديبة الارض

وقد نجحوا في هذه الاغارة مع ما حصل لهم من المشقة والصعوبة حيث
اظهروا الهجوم من جهة واغاروا من جهة اخرى بعد أن خرجوا الى البر
واخذوا المدينة وتغلب الجمار على مدينتي بورغو وآبو واستولى
على جميع الساحل وظهر من وقتئذ أن الاسوج صاروا محجوزين بالكلية
عن الحول والقوة فان جيشهم الذي كان رئيسه دستانبوك كان
قد اسر في الحرب

وقد اعقب هذه المصائب التي حلت بكرلوس الثاني عشر ضياغ دوقيتي
بريعة ووردن ومدينة استاتين وجزء من پوميرانيا كما سبق
بل كان استانسلاس وكارلوس نفسه اسيرين عند الدولة العثمانية ومع
ذلك لم يزل يعلق آماله بأنه يرجع الى مملكة له قائد اجيشا من الجيوش
العثمانية ويبعد استانسلاس الى سرير هذه المملكة ويهرب
جميع اعدائه

* (الفصل الخامس) *

في نجاح بطرس الاكبر ورجوع كارلوس الثاني عشر الى ملكه
(سنة ١٧١٤ من الميلاد) كان بطرس لم يزل يشتغل بأمر الفتوحات
فكمل اصلاح عماراته البحرية وتم نظامها وجلب الى مدينة بتربورغ
اثنى عشرة الف عائلة لاجل الاستيطان بها وكان سالكا مع حلفائه مسلكا
يحملهم على التثبت بما فيه سعده ومصالحته وايثاره ومحبته مع ما كانوا عليه
من اختلاف الاغراض وتباين الآراء وكانت سفنه الحربية تهدد في آن واحد
جميع السواحل الاسوجية الواقعة على جوف فنلندة و بنية
ثم ان احد جنرالات عساكر الموسقو البرية وهو الامير غالتزين الذي
علم بطرس بنفسه الحركات العسكرية كغيره من سائر الجنرالات ارتحل
من ألسافورد التي كان الجمار قد خرج اليها من البحر وسار حتى وصل
الى وسط الاراضي بقرب البلدة المسماة نواستوس وهي مركز عسكري
يصلح للحماية بنية وكان يحامي هذا الاقليم بعض الايات اسوجية وثمانية آلاف

من عساكر الاسوج الغير المنتظمة فاقضى الحال المحاربة بين الفريقين
فاتصر الموسقو نصرة تامة وبددوا ثمل الجيش الاسوجي (في الثالث عشر
من شهر مارث) وتوغلوا في هذه البلاد حتى وصلوا الى مدينة وازا بحيث
صاروا مستولين من دذا الاقليم على مسافة ثمانين فرسخا

وبقي للاسوج جيش من البحرية كانوا يدافعون به عن البصروكان بطرس
منذ مدة مديدة يطعم في اشهار الدونما التي انشأها وكان قبل خروجه من مدينة
بتربورغ قد جمع دونما تشتمل على ستة عشر قنبا ومائة وثلاثين غرابا
تصلح للحرب في وسط العنصور المحيطة بجزيرة ألتد وغيرها من جزائر بحر
بلطيق القريبة من ساحل اسوج الذي صادف بطرس بالقرب منه
الدونما الاسوجية وكانت هذه الدونما تشتمل على سفن كبيرة ~~اكثر~~ منها
في الدونما الموسقوية بخلاف الاغربة فكانت فيها اقل من اغربة بطرس
فبذلك كانت صلاحيتها للحرب في وسط البصرا اكثر من صلاحيتها للحرب
في وسط العنصور فالفضل لقريحة الجار خاصة في هذه المزية التي امتازت
بها السفن الموسقوية وكان الجار يخدم في الدونما بوظيفة قبودان باثي
ثالث ويتلقى الاوامر من اركسين قبودان باثي وكان يريد الاستيلاء
على جزيرة ألتد ولم يكن بينها وبين مملكة اسوج الا اثنا عشر فرسخا
وكان الحمال يقتضي أن الموسقو يزور على الدونما الاسوجية فيجاسروا
على هذا الامر الخطر وفتح الاغربة الموسقوية لها طريقا في البحر تحت
مدافع الاسوج التي لم تكن قليلة الارتفاع بحيث تتمكن من اصابة تلك
الاغربة فدخل الموسقو جزيرة ألتد ولما كان معظم ساحلها
مشحونا بالعضور اهر الجار العساكر أن ينقلوا بأيديهم ثمانين غرابا مضرا
من لسان من الارض هناك الى البحر المسمى بحر هنغو وكانت فيه سفنه
الكبيرة فظن حينئذ قبودان باثي الثاني من الاسوج أنه يسهل
عليه اخذ هذه الاغربة او اغراقها عن آخرها تقدم نحوها ليعاينها فقتلته
برمي نار شديدة ~~اهلك~~ معظم من معه من العساكر والملاحين (في ٨

من شهر أغسطس) واخذ الموسقو ما كان معه من الاغربة والسفن الصغيرة التي اتي بها بل والسفينة التي كان راكبا وافر منهم في زورق لكن جرحوه فيه ثم اضطروا الى التسليم فأقوا به الى الغراب الذي كان فيه الجار وما بقي من الدونما الاسوجية فتر الى بلاد اسوج فلحق اهل اسخلم من ذلك دهشة ورعب شديد وصاروا لا يأمنون فيها على انفسهم وفي هذا الوقت بعينه ظهر الكولونيل (ميرالاي) سشو والوب نسلوف على القلعة التي لم يبق على الموسقو سواها من بلاد الاسوج وهي واقعة على السواحل الغربية من فنلندة وادخلها تحت حكم الجار مع ما بدته من المقاومة الشديدة

واقعة ألتند هذه هي بعد واقعة بلطاوا انخرما حصل من بطرس مدة حياته من الوقائع فانه صار مستوليا على فنلندة التي قلد بحكمونها الامير غالتزين وظافرا بجميع قوى الاسوج البحرية ومحتزما كل الاحترام عند محالفيه وعاد بعدها (في الخامس عشر من شهر سبتمبر) الى مدينة بربورغ حين تغير الفصل حتى صار لاتسعه الاقامة على بحار اقليمي فنلندة وبثنيه ولتنام سعه ووفور خطه وضعت الجارة حين رجوعه الى كرسى مملكته الجديدة (بمعنى مدينة بربورغ) بنشأ تمش الاسنة واحدة فأحدث من الرتب التشريعية رتبة ماري كاترينة تعظيما لزوجته واشهر ميلاد بنته المذكورة بموكب حافل دخل به المدينة وهذا الموسم كان عند الرعية اعز المواسم التي عودهم عليها وكان اول ما بدئ به الموسم المذكور هو أنهم احضروا في ميناء كرونسلوت تسع سفن من الاغربة وسبعا من السفن الصغيرة السمماة جلوكة مشحونة بالاسرى واحضروا فيها ايضا سفينة قبودان باشي ثاني المسمى ايرانشيلد

وكانت سفينة قبودان باشي الموسقوبى مشحونة بجميع المدافع والبيارق والصناجق التي غنوها في غزوة فنلندة واحضروا هذا السلب بتمامه الى مدينة بربورغ ودخلوها على هيئة اصطفافهم في الحرب وكان بها

من قوصرات النصر قوصرة كان الجار قد رسمها بنفسه على عادته من مباشرة مثل هذه الاشياء وهي من خرفة بعلامات ورموز الدالة على جميع نصراته فتر المنصورون اولاً من تحتها يقدمهم ابركسين قبودان باشي ثم الجار بوصف كونه قبودان باشي ثالث ثم سائر الضباط كل على حسب رتبته حتى انتهوا الى نائب الجار المسمى كوما دونسكي وكان في هذا الموسم بمنزلة صاحب الدولة ففرق على الضباط تقودا من تقود الذهب المسكوكة للتشريف وعلى العساكر والملاحين تقودا اخرى من هذا النوع لكنها من الفضة ثم تبعهم اسرى الاسوج فمروا ايضا من تحت القوصرة المذكورة وكان القبودان باشي الاسوجي المسمى ايرانشيلد يسير خلف الجار ولما انتهى الموكب الى سرير الملك الذي كان جالس عليه نائب الجار قدم اليه ابركسين القبودان باشي الثالث اعني بطرس وكان يطلب الترقية الى رتبة قبودان باشي ثانياً مكافأة له على ما ابداه من الخدم فوقت المذاكرة في هذه المادة ليكون الحكم فيها بموجب الاراء وبحسب الظن القوي أن الاراء كلها ساعدته على ذلك

وبعد انقضاء هذا الموسم الذي سرت به جميع الحاضرين واورث عموم الناس الغيرة وحب الوطن والرغبة في القمار خطب الجار بهذه الخطبة الجديدة بالتخليد الى الابد وهي

ايها الاخوان * ومعاشر الخللان * هل خطر لاحد منكم بئال * وقع في وهمه وخياله * منذ عشرين من الاعوام * خلت في سالف الايام * أنه سيقا تل معي في بحر بلطق * ويبد شمل العدو ويمزق * على سفن جدد تموها * وبأيديكم مددتموها * وهل كنتم توهمون الإقامة والاستقرار * فيما فتمناه بالتعب والشجاعة من هذه الاقطار * ومن المعلوم لكل انسان * أن أقدم موطن للعلوم هو بلاد اليونان * ثم انتقلت الى البلاد الإيطالية * ومنها انتشرت في سائر الاقسام الاوربية * والنوبة الان تكون للديار الموسقوية * وتخطى بلادنا تلك الامنية * اذا ساعدتموني على تمييز ما اراد من الاغراض * ولم تقابلوا ذلك

بالاشتمزاز والاعراض * وسارعتم الى الاعانة بقدر الاستطاعة * وجعتم فيها
بين الممارسة والطاعة * كيف وانتشار العلوم في البلاد * كسريان الدماء
في الاجساد * فلا مانع أن دولتها تتخذ بلاد نادارا * وتجعل لمرير سلطنتها
عندنا تمكنا واستقرارا * لتخف موطنها الاول بالآوبة * حيث طالت منها على
بلاد اليونان الغيبة * واني لاجسر على الرجاء ولا بالي * واعلق اطماعي
وامالي * اتسبكثرة اشغالنا * وتمكن نغارنا * نجعل في يوم من الايام *
اعظم الملل تمتدنا بين الانام * انتهت

فهذه الكلمات المختصرة هي مآل الخطبة الجديرة بمثل هذا المؤسس من غير
اخلال بشيء منها * وقد ضاعت حماسها في كل لغة ترجت اليها الا أن تلك
الخطبة الفصيحة تستحق مزيد الاعتبار بنسبتها الى هذا الملك المنصور الذي
أسس دولته وقنن قوانينها واحكم احكامها

ثم ان من سمع هذه الخطبة من اعيان شيوخ الموسقو كان تأسفهم
على عوايدهم القديمة اشد من تعجبهم من نغار ملكهم بخلاف شبانهم فانهم
اخذتهم لسماعها اريحية ورقة افضت بهم الى البكاء

وما اشتهرت به تلك الازمان ايضا قدوم السفراء الموسقوية من الاستانة
العلية ومعهم التصديق والقرار على الصلح المتعقد بين الموسقو والدولة
العلية (في ١٥ من شهر دقبر) وكان قد قدم قبلهم بمجدة سفير عجمي
من طرف الشاه حسين بعثه الى الجار يهدية وهي فيل وخسبة
سباع وقدم اليه ايضا في هذه المدة ارسالية من خان الاوزبك محمد يهاذر
بطلب منه الحماية من التتار الآخرين وكان كل الناس من اقصى بلاد آسيا
واوروبا يجتمعون له الاحترام الملاقى بفخاره * ثم ان مشورة النسيابة بمحنة
استسلم لما ايسر بسبب ما حل بمصالحهما من الاختلال وسوء الحال وبعد
ملكها عنها وعدم اعتنا به بشأن مملكته واشغال مصلحته صممت على انها
من الآن فصاعدا لاتساوره في شيء فسادرت عقب نصرة الجار البحرية
بطلب تذكرة مرور لضابط من ضباطها ناطقة بالمفاوضة في شأن الصلح فاجيبت

لطلوبها

لطلوبها وارسلت اليها دولة الموسقوه التذكرة الا انه في اثناء هذه المدة بلغ
الاميرة اوليريك اليونوره اخت كرلوس الثاني عشر أن اخاها قد اخذ
في اسباب الارتحال من بلاد الدولة العثمانية والعود الى بلاده ليزب عن
نفسه فلم يجاسر مجلس النيابة حينئذ على ارسال الضابط المذكور والذي
عينوه سراً للمفاوضة مع الجار في شأن الصلح بل صبروا على مكابدة المشاق
وسوء الحظ حتى يأتي ملكهم ليتدارك بنفسه ما هم فيه من العناء والشقاء
وكان خروج كرلوس الثاني عشر من بلاد الدولة العثمانية في اواخر شهر
اكتوبر سنة ١٧١٤ من الميلاد بعد أن اقام بها خمس سنين وعدة
اشهر ولا يخفى انه في هذه السفرة سلك من المسالك الغربية ما ينبغي عن افعاله
وبشعر باطواره واحواله فوصل الى مدينة استراسبورغ في الثاني والعشرين
من شهر نوفمبر من السنة المذكورة ومجرد قدومه اليها ذهب اليه
البارون دو غورطرز وكان هذا البارون سبياً في بعض ماحل بكرلوس
من الشقاء وسوء الحظ ولكنه برأ نفسه من ذلك بما ابداه لديه من طرق المكر
والخدبعة حتى علق نفسه بآمال عالية واماني واسعة وحظي منه بالوثوق
والايمان كما حظي بذلك من جميع الوزراء والملوك الذين خالطهم وتفاوض
معهم وما زال معه حتى اطعمه في انفصال حلفاء الجار عنه وعدولهم عن
معاهدته وأنه بعد ذلك يمكن عقد الصلح مع الموسقوه على وجه لا يحل بشرفه
ولا يبخس بمقامه والا فلا قل من الحرب معهم بقوة تعادل قوتهم فن يومئذ
صار لغورطرز على عقل كرلوس سلطنة لم ينلها قبله القوتية بغير
(وهو الوزير الاعظم لكرلوس الثاني عشر)

وكان اقول شيء فعله كرلوس عقب دخوله مدينة استراسبورغ هو أنه طلب
من اهل مدينة استنخلم مبلغاً من الاموال فدفعوا ما كان باقياً بأيديهم
من النقود اليسيرة حيث كانوا لا يعرفون الامتناع عن اجابة ملك لا يطلب
شيئاً الا للبذل والاعطاء ولا يسلك في معيشته الا المسالك المشاقة كاتحاد
العساكر وبعرض مهجته للاخطار مثلهم فكانت مصائبه واسره ورجوعه الى

ملكه كل ذلك كان له تأثير في نفوس رعيته بل وفي نفوس الاجانب حيث كانت
احواله تقضى بلامته ومدحه والتماله ومساعدته وكان فخاره مباحا بالكلية
لفخار بطرس فانه لم ينسج في ذلك على منواله حيث لم يجعل فخاره في ابداع
الفنون ولا في تقنين القوانين ولا في السياسة ولا في التجارة بل كان مقصورا
على ذاته بحيث يعدم بانعدامها فان فضله لم يكن الا في فرط الشجاعة المتجاوزة
الحذو وكان يدفع عن بلاده مع شرف النفس وعلو الهمة المعادين لشدة
بأسه ومثل هذا كاف في عظم وقعه في قلوب الملل واحترامهم له وكانت احزابه
اكثر من حلفائه

(الفصل السادس)

في بيان حالة اوربوا حين رجع كرلوس الثاني عشر الى بلاده وفي ذكر
محاصرة استرالسوند وغير ذلك

(سنة ١٧١٤ من الميلاد) لما عاد كرلوس الثاني عشر الى بلاده
في اوخر تلك السنة وجد الدول النصرانية من اوربوا قد تغيرت احوالها
وصارت في حالة مباينة للعالة التي تركها عليها فوجد حانة ملكة
انكلترة قد ماتت بعد ان عقدت الصلح مع دولة فرانس ووجد لويز
الرابع عشر (ملك فرانس) قد اثبت اسبانيا لحفيده وجبر كرلوس
السادس اميراطور الالمان وكذلك الفنلند على التصديق ووضع
الامضاء على صلح كان قد اقتضاه الحال اذ ذاك فكانت حينئذ مصالح
جنوب اوربوا قد اخذت في التغير الى حالة اخرى

وكانت مصالح بلاد الشمال قد تغيرت ايضا اكثر من ذلك فان بطرس صار
حكما فيها وكان منتخب هانورة الذي دعى للجلوس على سرير مملكة انكلترة
يريد توسيع بلاده الالمانية بأخذ اراض من اراضي دولة اسوج التي
لم تحزم من التزامات الالمان الاما حازته بفتوحات غسطاوة الاكبر وكان
ملك دانيمركة يريد استرجاع اقليم اسكانيا الذي هو اعظم الاقاليم
الاسوجية لانه كان للدانيمركة في سابق الزمان وكان ملك البروسيا

الذي

الذي هو وارث دوقات پوميرانيا ويذا ايضا استرجاع هذا الاقليم كله
او بعضه * ومن جهة اخرى كانت عائلة هولستين التي حاف عليها
ملك دانمبرقة وكذلك دوق مكلانبورغ الذي كان غالبا في قسنة وحرب
مع رعيته كلاهما كان يطلب الحماية من بطرس الاول وكان ملك له الذي
هو منتخب سكس يودضم اقليم كورلندة الى بلاد له فبذلك كان بطرس
ظهيرا لامراء من نهر الالبه الى بحر بلطيق كما كان كرلوس
مفرزا لهم

وقد وقعت المفاوضات والمذاكرات في المصالح منذ رجع كرلوس الى ملكه
بدون أن يترتب على ذلك ثمرة وكان كرلوس يظن أنه يمكنه أن يحصل من
السفن الحربية والقورصان مقداراً كافياً بحيث لا يخشى معه قوة الجار
البحرية الجديدة واما الحروب البرية فكان يعتمد فيها على شجاعته وقد وقع
في ذنبه غورطرز الذي صار اول وزرائه دفعة واحدة أنه يمكنه القيام
بالمصاريف اللازمة بواسطة تقود من النحاس تساوى قيمتها الاصلية سنا
وتسعين مرة وهذا من اعاجيب تاريخ الدول * ولا يمكن من شهر ابريل
سنة ١٧١٥ من الميلاد اخذت سفن الجار اوائل القورصان
الاسويحي الذي نزل في البحر وتوجه الى پوميرانيا جيش من الجيوش
الموسقوية

واجتمع البروسية والدانمبرقة والسكسون تجاه مدينة استراسوند
فرأى كرلوس انه لم يرجع من سجن دمبرطاش ودميرطوق الواقعة
جهة البحر الاسود الا ليحاصره العدو على شاطئ بحر بلطيق
وقد تكلمنا في تاريخه على ما قابل به اعداءه المجتمعين في هذه المدينة من اظهار
البطور واستبسال النفس مع فرط الشجاعة وبنات الجنان وانما ذكر هنا
من احواله نادرة صغيرة تدل اتم الدلالة على طبيعته فنقول انه بعد أن قتل
وبرح اغلب ضباطه في هذه المحاصرة كان الكلونيل (ميرالاي)
بارون دريشيل قدا عياه السهر والتعب لطول المحاربة فاستلقى على دكة

هنالك ليستريح ساعة من الزمن فدعى للخفر على المتاريس فلم يبادر بالاجابة بل واثى وصار يسخط على عناد الملك وكثرة التعب الخارج عن حدة الطاقة بدون ثمرة فسمعه كرلوس فانطلق اليه وخلص برنسه وفرشه بين يديه وقال له يا حبيبي يا ريشيل انك قد صرت لاطاقة لك على التعب واني نمت ساعة فاسترحت فتم انت هنا وانا اذهب الى الخفر عوضا عنك فاذا جاء وقت الاستيقاظ ايقظتك ثم لفه بالبرنس قهر اعنه وتركه ينام وذهب الى الخفر

(شهر اوقطوبر) وفي محاصرة مدينة استرالسوند هذه اشترى ملك انكلترة الجديد الذي هو جرجي منتخب هانورة من ملك دانمبرقة اقلبي بريرة ووردن ومدينة استادة التي كان اخذها الدانمبرقة من كرلوس الثاني عشر فزمنه بعقد البيع المذكور ان يدفع ثمانمائة ألف ايكو ألمانية فكانت دول كرلوس تباع وتشترى وهو يمانع بالتدريج عن مدينة استرالسوند وبالجملة فلم يرزل كرلوس بهذه المدينة حتى تخرت وصارت تلا من التلال فعند ذلك جبره ضباطه على الخروج منها فلما امن على نفسه (في شهر دقبر) رد احد جنرالاته المسمى دوكر تلك المدينة الخربة الى ملك البروسيا

ثم قدم الجنرال المذكور بعد ذلك بمدة الى كرلوس الثاني عشر فلامه على كونه تشارط مع اعدائه وسلمهم تلك المدينة فقال معتذرا ان فرط محبتي لغضاركم منعي أن ارتكب ما يوجب نقصا في حقك بالملك في مدينة خرجت منها حضرتمكم الملوكية وبالجملة فهذه المدينة لم تمكث مع البروسية الا الى سنة ١٧٢١ من الميلاد ثم ردوها في صلح بلاد الشمال

(سنة ١٧١٥ من الميلاد) وفي مدة محاصرة استرالسوند ايضا حصل لكرلوس الثاني عشر من الاهانة ما كان يغمه ويحزنه حزنا شديدا لو كان اتباع قلبه الى الحب والشفقة كاتبعائه الى التشبث بالفخار والشهرة وذلك أن اول وزرائه وهو القوتة بيير الذي كان شهيرا في بلاد اوروبا وكان مع ملكه دائما على الصدق والامانة (وان تكلم فيه كثير من المؤلفين غير المتبئين قلا عن لم يقف

على حقيقة امره) وكان يذل ههنا في مصلحة كرلوس الثاني عشر منذ واقعة بلباوا فلما اسره الموسقو ولم يحصل اتفاق بينهم وبين الاسوج على مبادلة الاسرى بقي على الاسر بمدينة موسقو فهو وان لم ينف الى بلاد مسير ككثير من الاسارى الا انه كان يرى لحاله ولم تكن خراش الحار اذ ذلك على ما ينبغي في الانتظام وحسن الترتيب فكانت لاتق بما يلزم من المصاريف لمصلحه الجديدة الا بشق الانفس وكان عليه للقلبك دين جسيم من النقود في مقابلة سفينتين من سقيم التجارية احرقتا على سواحل قلندة فادعى الحار أن هذا المبلغ يلزم الاسوج واراد أن يلزم القوتة ببيع بلتزام تحصيلة فاحضر من مدينة موسقو الى مدينة بتربورغ ووعد أنه ان امكنه فخريرورقة جواله على ملكة اسوج بستين الف ايكو خلى سبيله * ويقال انه في الواقع ونفس الامر يكتب بذلك الى زوجته في مدينة استنظم فلم تقم بالاداء لتعذره عليها اولكونها لم تسمع به فغضبها واماطك اسوج فلم تدعه نفسه الى دفع هذا المبلغ اصلا * وبالجمله فسجن القوتة ببيير في قلعة سلوسبرغ ولم يزل بها حتى مات بعد ذلك بسنة عن سبعين سنة وتلفت جثته الى ملك أسوج فنبهه في مشهد عظيم وجنازة حافلة فانظر كيف قابل هذا الجزاء المحزن الذي لا طائل تحته ما كبده هذا القوتة من المصائب والمينة السيئة

وكان بطرس منشرح الصدر مسرورا لخطر باستيلائه على اقاليم ليونيا واستونيا وكارليا وأنغريا التي كان يعدّها من اقاليم ملكه وكذلك بضمه الى تلك الاقاليم اغلب اقليم قلندة وكان ذلك تحت يده بمثابة رهن يستوثق به في صورة ما اذا وقع الصلح وكان قد تزوج بنت اخيه لدوق مكلانبورغ المسمى كرلوس ليوبلد في شهر ابريل من السنة المذكورة فكانت جميع اقاليم الشمال بالنسبة اليه امامين حلفائه وامين اشراقاته وغرس انعاماته * وكان لم يزل يجمع اعداء الملك اغسطوس بمملكة له فقد كان في هذه المملكة جيش من جيوشه يبلغ نحو ثمانية آلاف

فكان يفرق فيها عصابة المتعاهدين هيئد شمل المتعصين الذين كانوا دائماً
يتجددون في هذه البقعة المتسلطن فيها الحرية وعدم الحكم ولم يحتاج هؤلاء
العساكر في تفريقهم الى بذل مجهود ولا مكابدة مشقة * واما الدولة العثمانية
فكانت لم تزل محاطة على العمل بما انعقد بينها وبين بطرس من المشاركة
فلم يكن من جهتها ما يضيق عليه في شوكتها واغراضه

واغلب ايام هذه المدة الزاهية الزاهرة والحالة السعيدة الفاضلة كان
معروفا بتنظيمات جديدة بحرية وترتيبات عسكرية وتجارية وقوانين
سياسية واصول مربوطة مرعية وألف بنفسه قانونا شامه عسكرية
يخص البلدة

ففي الثامن من شهر نومبر اسس بمدينة بربورغ اكدمة بحرية اى مجمع
علماء بحرية وكان لنج المنوط بالمصالح التجارية قد سافر الى بلاد الصين
من طريق سبير وكان في ملكه مهندسون يرسمون الخرطات في سائر اجزاء
الدولة وكانت العمارة اذذاك في بيت نزهة بترسوف وفي قلاع على نهر
ارطش وكان يمنع ما كان يقع في بلاده من اهل بخارى من الصبال
وقطع الطرق وكان ايضا تتركوبان قد ارتدعوامنه وانزحروا
وكان يظهر في هذا الوقت أن الجار قد بلغ في السعد والعزاقصى الدرجات
فانه رزق في هذه السنة بولد من زوجته الجارة كاترينة وبولد آخر كان يظهر
انه يرث الملك فيما بعد ولد لابنه الامير الكسيس غير أن ابن الجارة لم يعش
بعد ولادته الا يسيرا وسيأتى أن الكسيس المذكور كان على غاية
من الشقاء فربما كان ذلك مانعا من أن ولادة هذا المولود له تعد من
السعادة والاقبال

ثم ان ولادة الجارة منعتها أن تعجب زوجها في السفر بر او بحرا كما كان ذلك
عادتها دائما فلما انقطع عنها النفاس صارت تعجبه في اسفاره كالعادة

(الفصل السابع)

في اخذ مدينة ويسمار وفي اسفار الجار الجديدة

(سنة ١٧١٥ من الميلاد) كان جميع حلفاء الجار في ذلك الوقت محاصرين لهذه المدينة التي كان يلزم ضرورة أن تكون تحت حكومة دوق مكلانبورغ وهي واقعة على بحر بلطيق على البعد من مدينة لوبك أولويخ بسبعة فراسخ وبما كانت تنافس هذه المدينة في تجارتها العظيمة وكانت سابقا من المدن العظيمة المستقلة بحكومة نفسها وكان دوقات مكلانبورغ يحرمون فيها حق الحماية أكثر من حق الحكم وكانت أيضا من التزامات ألمانيا التي كانت تحتيد الاسوج بمقتضى صلح وستفاليا ثم آل امرها الى التسليم لمدينة استراسنوند فباد وحلفاء الجار بالاستيلاء عليها قبل أن يصل اليها جنوده ولكنه لما قدم اليها بنفسه ونزل أمامها (في شهر فبرية سنة ١٧١٦ من الميلاد) بعد مشاركة التسليم التي انعقدت قبل حضوره قبض على محافظيها واسرهم وغضب من حلفائه لما رآهم قد تركوا الملك دانيروقة هذه المدينة التي تعزى لاميركان قد اعطاه بنت اخيه فكان هذا الغضب الذي باد فيه غورطرز بانهاز الفرصة أول شيء من اسباب الصلح الذي قصدا يثاقه بين الجار وكرلوس الثاني عشر

وذلك أن غورطرز اتفاد الجار بمجرّد حصول هذا الغضب أن الاسوج قد انحطت دولتهم وضعفت شوكتهم فلا ينبغي السعي اذن في تقوية الدانيروقة والبروسيا فاجابه الى ذلك واقتره على مقاصده فانه كان لا يقدم قط على حرب الاولة فيه مأرب سياسي وغرض بوليتيقي بخلاف كرلوس الثاني عشر فانه كان في الاقدام حريسا لاسياسيا ومن وقتئذ لم يحارب الجار الاسوج الا مع التأيي وعدم الحماية واما كرلوس فانه لما كان سيئ الخطب سائر اجزاء الايمبراطورية الالمانية عزم على حرب نروييج وكانت هذه العزيمة من الامور الميؤسة التي لا يحققها الا اللجاج بالفعل

ومع ذلك عزم الجار على أن يرتحل ثانيا الى بلاد اوروبا فان رحلته الاولى اليها كانت رحلة متعلم للفنون بخلاف الثانية فكانت رحلة ملك يبحث عن اسرار جميع الدواوين ليعرفها حق المعرفة فاستصحب زوجته الى

مدينة كوينهاغ ومنها الى لوبك ثم الى سشورن ثم الى فوستاد
وقابل ملك البروسيا في مدينة أويرسبرغ الصغيرة ثم قصد مدينة
هنبورغ ومنها الى مدينة ألتنا التي كان احرقها الاسوج ثم بقيت
وبعد ذلك ركب نهر ألبه حتى وصل الى مدينة استادة ثم مر بمدينة
بريمه وعمل له حاكمها الشنك والمهرجان وصنع له في سائر جهاتها وقدة
مرسومة على وجهه ينطق بهذه الكلمات وهي قد حضر مخيئا لزيارتنا
وكان ذلك في السابع عشر من شهر دقبر ثم ذهب الى امستردام ورأى
الخص الصغير بقرية سردام التي تعلم فيها فن عمارة السفن منذ ثمانى عشرة
سنة تقريبا فاذا هو قد تغير عن حاله الاصلية الى دار نظيفة حسنة المنظر
جيدة الانتظام وهي باقية الى الآن ويقال لها دار الامير

وقد حصل بطرس من اهل هذه الجهة الذين هم ما بين تجار وبحريه وكان
في مبدأ امره رقيقهم في الشغل والتعلم ما تقصر عنه العبارة من الترحيب
وحسن الملاقة وفروط المسرة لما انهم كانوا يرون أن هذا الملك الذي اتصر
في واقعة بطاوا خريجههم وتليذهم وأنه هو الذي اسس عندهم ففى
البحرية والتجارة وتعلم عندهم كيفية اكتساب الخضر في الوقائع البحرية
وكان عندهم بمنزلة انسان من اهل وطنهم ارتقى الى منصب الاميراطورية

(سنة ١٧١٧ من الميلاد) والظاهر ان معيشة بطرس الاكبر
وكرلوس الثانى عشر واسفارهما وافعالهما بينهما وبين عوايد اهل هذا العصر
من الفرنساوية يون بعيد وفرق كبير لان هذه العوايد ربما كانت زائدة
في الترفه والتنعيم فلذا كان تاريخ هذين الرجلين الشهيرين مما يشد الرغبات
ويضرم نار التولع في نفوس المخلوقات

قد مرضت زوجة الجار في مدينة سشورن ومكثت فيما مدة وهي
مریضة وكانت قد قاربت الوضع ومع ذلك فبمجرد ما تهمت من مرضها وصار
في وسعها السفر اذت أن تذهب الى الجار في بلاد القلنك فعاودها
المرض في مدينة وزل فوضعت (في ١٤ من شهر ينوية) ولدا لم يعش

اليوما واحدا ثم سافرت الى زوجها معها تلك لتجد في عوايد الفرنساوية امرأة مريضة تسافر عقب الولادة وكان وصول الجارية الى امستردام في عاشر يوم من سفرها ورأت الخصى الذي سبق ذكره بمدينة سردام التي كان الجار سابقا يستقل فيها بنفسه ثم ذهب جميعا بدون احتفال ولا اتباع سوى خدامين ليتفديا عند بعض تجارى السفن المسمى كلف وكان من اغنياء تجارى هذه المدينة وهو اقل من تاجر الى مدينة بربورغ وكان له ولد قريب عهد بالرجوع من فرانك التي كان الجار يريد السفر اليها فصار يحثهم معا وقعه في تلك المملكة وهما مصغيان الى هذا الحديث السار لهما وقد كافي غنية عن ايراد ذلك هنالك لولامبايته بالكلية لاخلق الفرنساوية وعوايدهم

وحاصله أن ابن هذا يصلو كان قد ارسله والده الى باريس ليتعلم بها اللغة الفرنساوية وكان والده يريد أنه يسلك في معيشته فيها مسلكا جيدا فأمر أن يتجرد هذا الشاب عن ملابس سردام الساذجة الخالية عن الزينة وأن تكون مصاريفه في باريس ملائمة لثروته ولا تفتقر لتعليمه وتربيته لانه كان يعرف طبيعة ابنه حق المعرفة بحيث كان لا يخطر بباله أن تغير معيشته بهذه المناسبة بذهب بقناعته ويفسد حسن طبيعته

ثم ان كلمة كلف في جميع لغات اهل الشمال معناها مجل ويسميه الفرنساوية وو فلما ذهب الشاب المذكور الى باريس سعى نفسه دى وو (اى صاحب هذا الاسم وهو قريب مما عند اذنوا العين اى ملوكهم التبابعة حيث يراد للملك في علمه وتو عظميا كذى اى صاحب هذا الاسم) ومكث هذا الشاب في مدينة باريس فيها مع نوع عظيمة وأبهة وتداخل مع اهلها وخالطهم ثم ان هذه المدينة ليس فيها اكثر من اعطاء القباب الشرف كلقب مركى وقوته لمن لا يستحق ذلك ولو بارض التزامية يجوزها بل قل أن يكون الملقب به يكرزادة والدولة لم تلتفت الى هذه العادة الذميمة قصد الاستئثار في رتب الشرف واضعاف عصاية الاشراف حتى تنقطع اسباب الحروب الاهلية والمشاكرات المدينة التي كانت قبل ذلك لا تكاد تنقطع فن ثم تشرف اناس

يلقب هو ابوسان سينور ومعناه السيد الرفيع القدر صاحب الشوكة
مع انهم ما بين دخيل في الاشراف وعامى وانما لقبوا بذلك لكونهم اشتروا
المناصب بمبالغ جسيمة من الاموال وبالجملة فالقالب مركى بدون مركية
(اى ارض يحكمها صاحب هذا القالب) و قوته بدون قوتية وشوالية
بدون رتبة والايبى (اى رئيس الرهبان) بدون دير كلها ليست مبنية على مجد
اصلى ولا شرف ذاتى

فمن ذلك أن اصحاب كلف وخدمه كانوا ينادونه دائما بالقوتة دى وو
وكان يدعى للاكل على موائد الاميرات واللعب مع دو قبيجه دبيري وقل أن
حظى بهذا الاكرام اجنبى مثله وقد وعد به بعض من كان يلازمه في هذه الحظوظ
والملاهى من اولاد الامراء المقيمين بلقب مركى أن يزوره في سردام
ووفى بوعده فانه لما قدم الى هذه القرية سأل عن بيت القوتة دى كلف
فاذا هو مصنع من مصانع السفن فيه جماعة من بعمر المراكب ورأى صاحبه
كلف لابسا ملابس ملاحى الفلنك والبلطة بيده وهو يناظر اشغال ابيه
ويديرها فما كان منه الا انه تلقى ضيفه وهو على هذه السداجة الاصلية
والحالة القديمة الاولية فلعل من اطلع على كتابها هذا من اولى الاباب
يغضى عما اوردها هنامن يسير الاستطراد الذى الجأنا اليه ذم الاعجاب بالنفس
ومدح من كانت اخلاقه بهذه المثابة

ثم ان الجار اقام ييلاد الفلنك ثلاثة اشهر وفي مدة اقامته بها حصلت امور
اهم من تاريخ كلف المذكور وذلك أن مدينة لهاية لم تزل منذ صلح
نمبغة ورسويك واوترىكت محافظة على شهرتها بكونها محلا لتدبير
مصلح اوروپا وهذه المدينة الصغيرة والاولى أن تسمى قرية هي الطف
بلاد الشمال لاسما وقد كان يسكنها جميع وزراء الدول ويأتى اليها السياحون
بقصد التعلم حتى كانت مدرسة وكان يجتد اذ ذاك امور يترتب عليها تفاقم
وشقاق عظيم في بلاد اوروپا ولعلم الجار بمبادى هذه المصائب اطال المقام
بالبلاد الواطية حتى يتأتى له معاينة ما يحصل من التدبيرات والتعصبات

في بلاد

في بلاد الجنوب والشمال فيتأهب لما يناسبه من الآراء ويمجى العمل بمقتضاه

* (الفصل الثامن) *

في ذكر بقية أسفار بطرس الأكبر ونعصب غورطرز وكيفية تلقى بطرس في فرنسا

(سنة ١٧١٧ من الميلاد) كان الجار يرى من حلقاته شدة الغيرة من قوة شوكته والغالب أن الانسان يقاسى من العناء والمشقة مع اصحابه ما لا يقاسيه مع أعدائه

وكانت دوقية مكلنبورغ من جملة الاسباب القوية في الشقاق الذي كان لابد من وقوعه بين الملوك المتجاورين الذين كانوا يتقاسمون الفتوحات وكان الجار لا يريد أن الدانمبرقة يأخذون مدينة ويسمار لانفسهم كما كان لا يرضى لهم بهدم الاستحكامات ومع ذلك فقد فعلوا الامرين جميعا

وكان بطرس يحامى دوق هذه الدوقية على رؤس الاشهاد ويأخذ بنصره على الاشراف من اهلها لان هذا الدوق كان متزوجا بنت اخيه فكان عنده بمنزلة صهره وكان ملك الانكليز يحامى عن هؤلاء الاشراف ويأخذ بنصرهم على الدوق المذكور وكان الجار ايضا قد اخذ بغضب من ملك لهستان او وزيره الاكبر وهو القوتة فلومغ حيث كان يريد فصل مملكة لهستان عن الدولة الموسقوية واخراجها عن التبعية لها التي كان حصولها ليس الافضل الجار ومنته وبشدة بأسه ووصلته

وكانت دواوين انكلترا ولهستان ودانمبرقة وهولستين ومكلنبورغ وبرندبورغ مضطربة بالدسائس والفتن وذلك أنه في اواخر سنة ١٧١٦ واول سنة ١٧١٧ من الميلاد كان غورطرز قد مل وسئم من كونه لم يكتسب الا لقب مشير هولستين ولم يكن الامر خاصا من طرف كرلوس الثانى عشر في اسراره ومداولاه حسبما نص عليه باسويتر في لوائحه وتقاريره فكان اغلب هذه الدسائس انما هو بسعيه وبسببه وعزم على أن ينتهز فرصة ذلك ليوقع الاضطراب والتفاقم في دول اوروپا وكان قصده بهذا

أنه يصالح كرلوس الثاني عشر مع الجار لاجتد قطع الحرب بينهما بل ليوقع ايضا الاتحاد والائتام بينهما ويعيد استانسلاس الى كرسى مملكة لهستان وينزع اقلي برمة ووردن من جرجى الاول ملك الانكليز بل ويسلب منه كرسى مملكته حتى لا تكون له قدرة على تلك ماسبه من كرلوس الثاني عشر

وكان في ذلك العصر من ارباب الحل والعقد من هوفى الطبع كغورطرز حيث كان يسعى في ايقاع الفتن والاضطراب في دولتي الانكليز وفرنسا وهو الكردينال ألبيروى وكان له اذذاك في اسبانيا من النفوذ والصولة اكثر مما كان لغورطرز في أسوج وكان بضاهى غورطرز في الجسارة والاقدام الا انه كان اقوى منه شوكة لانه كان رئيسا على دولة اكثر ثروة من دولة أسوج وكان لا يصرف مرائب اتباعه من نفود الخامس

فلم تمض الامدة يسيرة حتى وقع الاتحاد والاتفاق بين غورطرز وهو في سواحل بحر بلطى وبين ديوان مدريد واتفق بضاهو وألبيروى مع جميع الانكليز الذين كانوا من حزب عشيرة استوارت الملكية وخرجوا من ديارهم عند نكبة هذه العشيرة وطاف غورطرز بجميع الدول التي كان يظن أن فيها اعداء للملك جرجى (ملك الانكليز) فذهب في لوانخر سنة ١٧١٦ من الميلاد الى الالمان والفلنك وفلندرة ولورينة وباريس فاخذ الكردينال ألبيروى يبعث اليه وهوفى باريس مليوناً من النقود الفرنسية ليوارة ليشرع بها في ايقاد النار في البارود كما هي عبارة ألبيروى

وكان غورطرز يريد أن كرلوس الثاني عشر يتساهل بطرس كل التساهل ويسلمه بالكلية حتى يسترجع من اعدائه جميع ما بقى له من البلاد ويتيسر له شن الغارة على ايقوسيا بدون معارض حين كانت الاحزاب الاستوارتية تظهر التعصب في انكثرة مع الشدة وقوة

التأثير بعد أن فعلوا ذلك مراراً بدون طائل وكان من الضروري في تنجيز هذه
الاغراض أن يتخلى نائب مملكة فرنسا عن الملك الحاكم بانكلترة وقتئذ
لان هذا الملك كان معولاً عليه ومنتمياً في الحماية اليه وكان من خوارق العادة
اتفاق فرنسا مع ملك انكلترة على حفيد لوي الرابع عشر الذي
اجلسته دولة فرنسا نفسها على كرسى اسبانيا وبذلك في ذلك اموالها
ورجالها قهراً عن اعدائها التي كثيرين الشديدي العداوة ولكن كان اذا ذلك
كل شيء قد خرج عن عادته وتغير عن دأبه وطبيعته ولم تكن مصلحة نائب الدولة
الفرنساوية هي مصلحة المملكة فدبر ألبيروني من وقتئذ في شأن هذا
النائب تدبير شر وفساد وعصب عليه في فرنسا عصبية سرية وبمجرد تدبير
هذا المشروع الجسيم اخذ في اسبابه ووضع اساسه في آن واحد تقريباً وكان
اعظم رجل في امر هذه الفتنة هو غورطنز وكان قد اقضى الحال أنه يذهب
مختفياً الى ايطاليا ليتفق فيما مع متطلب المملكة بمدينة رومة ثم ينهض
الى مدينة الهاي ليرى فيها الجمار ويت الامر مع ملك أسوج
في جميع المواد

ثم ان جامع هذه الحوادث هو أعرف انسان بما اورده في هذا المعنى فان
غورطنز دعاه الى مصاحبته في اسفاره فهو وان كان حديث السن اذذاك
الا أنه كان من أول من عاين معظم تلك الدسائس والفتن

وقد عاد غورطنز الى بلاد الفلنك في اواخر سنة ١٧١٦ من الميلاد
ويده من ألبيروني اوراق حوالات وكان كرلوس الثاني عشر
قد فوض له الامر تفويضاً مطلقاً وكان مما الارباب فيه أن حزب المتطلب يقوم
اذا نزل كرلوس من زويج الى شمال ايقوسيا بقصد الاغارة على
مملكة غيره وبادتها وان كان قد عجز عن حفظ مملكة نفسه في الارض القارة ومع
اسره في مدينة دمبرطاش ببلاد الدولة العثمانية واحرق مدينة استراسوند
كان يؤمل أنه يتوج ابن ياكس الثاني كما توج استانسلاس
في مدينة وارسو

وكان الجار يعلم البعض من مشروعات غورطرز ويقتظر اتساعها بدون أن يجعل لنفسه مدخلة في شيء منها ولم يكن له علم بجميعها فهو وإن كان ميل إلى عظام الأمور الخارقة للعادة مثل كرلوس الثاني عشر وغورطرز وألبيروني إلا أنه كان في ميوله لها يسلك مسلك رجل أسس دولة وقن قوانين واستعمل في أغراضه السياسة الحقيقية بخلاف ألبيروني وغورطرز بل وكرلوس فانهم ريماءة وامن ارباب الرعونة والطيش المتولعين بالسيرة العالية والمفاخر السامية لامن الرجال اصحاب الرزاة والكياسة الذين يقولون على طرق التدبير الصالحة والوسائط الصحيحة الناجحة وربما اتهموا في صورة خيبتهم وعدم نجاحهم بالجساسة والمخاطرة

ولما وصل غورطرز إلى مدينة لهاى لم يتظره الجار ولو آه لارتاب منه كثيرا اصحابه من ارباب مجلس وكلاء الدولة الذين كانوا يميلون إلى ملك انكلترة ولم يجتمع به ايضا وزراء الجار الاخضية مع غاية الاحتراس وكانوا مأمورين من طرف ملكهم أن يصغوا إلى ما يسديه لهم غورطرز ويؤاخذوه بالاجابة من غير أن يلتزموا له بشيء اويضروا بسيدهم في امر من الامور ومع ذلك فاصحاب التبصر والنظر السيد لما رأوا ما كان عليه الجار اذ ذلك من الدعة والبطالة مع أنه كان يمكنه أن يذهب إلى اقليم اسكانيا بالدونغا الموسقوية والدانيرقية ورأوا منه ايضا فتور الهمة مع حلقائه ولا حظوا ما كان يصدر من دواوينهم من التظلم والشكى وابصروا سفره فظهر لهم أن المصالح وقع فيها تغيير عظيم سيظهر بعد ذلك بيسير

وفي شهر ينويه سنة ١٧١٧ من الميلاد خرجت ريح عاصفة على سفينة اسوجية كان فيها مكاتيب إلى القلنك فألجأتها إلى أن ترسو على نروج قبض على تلك المكاتيب فاذا في مكاتيب غورطرز ومكاتيب بعض الوزراء ما اوجب الاحتراس والتيقظ للفتنة التي وقع الاتفاق عليها فأطلعت دولة الدانيرقية دولة انكلترة على هذه المكاتيب فما كان منها الا انها قبضت فوراً على الوزير الاسوجي المسمى غيلبورغ الذي كان بمدينة بلوندره

واخذت ما كان معه من الاوراق فاذا فيها بعض اوراق من مراسلاته مع اليقوية

فمن ذلك مكتب جرجي (ملك الانكليز) (في شهر فبراير سنة ١٧١٧ من الميلاد) الى دولة الفلنك ككاتب مضمونه انه بمقتضى المشاركات الرابطة بين دولة انكلترة ووكلاء الدولة الفلنكية لاجل الطمانينة والامن العام بين الفريقين يطلب القبض على البارون غورطرز ولما كان لهذا الوزير اشراقات في سائر الجهات بلغه هذا الامر فصار فوراً فقام وصل الى مدينة ارنهم من ثغور البلاد الواطية ادركه الضباط والخفراء الذين امروا باقتفاء اثره وكانوا قد اسرعوا السير خلفه اسراعاً قل أن يوجد مثله في تلك البلاد قبضوا عليه واخذوا ما كان معه من الاوراق وعاملوه اسوأ المعاملة وكذلك كاتب سره استمك الذي زور خاتماً على صورة مختام دوق هولستين في قضية توننج قبضوا عليه واساؤا معاملته اكثر من غورطرز وقصارى الامر أن غيلبورغ الذي كان مبعوثاً من أسوج الى انكلترة وكذلك البارون غورطرز الذي كان بيده اوراق التوقيض من طرف كرلوس الثاني عشر ستملا اسئلة المذنبين احدهما في لوندرة والثاني في ارنهم وكان جميع وزراء الدول يشكون من هذا التعدي المخالف لحقوق الملل بعضها على بعض

وهذه الحقوق التي طلب العمل بها دائماً اكثر من علمها وليس لها مقدار يعرف ولا حد بوصف قد اقيمت عليها في سائر الازمان قد وقع غيره مرة أن سفراء الدول طردوا من دواوين الممالك التي بعثوا للاقامة بها بل وقبض عليهم مراراً لكن لم يتفق انهم عوملوا في تحقيق دعاويهم معاملة الرعايا من تلك الممالك غير أن اهل ديوان لوندرة ومجلس وكلاء دولة الفلنك تجاوزوا الحد في هذا المعنى لما رأوا ما يحشئ منه على عشيرة هانورة الملوكية من الخطر والضرر ولكن لما انضح الامر زال هذا الخطر ولو أنه في الحالة الراهنة فقط وما سلكه المؤرخ فوربرغ في هذا المعنى من افهام الناس أن ملك أسوج

لم يتوغل في العصبية يلزم أن يكون منشأه عدم الوقوف على الحقيقة وقلة الخبرة
بالناس والمصالح أو أن الغرض أعمام فإدع عن طريق الصواب أو أنه كان يخشى
على نفسه من ديوان أسوج بحيث منعه ذلك عن بيان حقيقة الحال
وما لحق وزيرى كرلوس من المنقصة والاساءة تقوى به عزمه حتى صمم على
أن يبذل وسعه في خلع ملك انكلترة إلا أن الحال اقتضى أن يسلك مسلك
التحيل والحداد في عمره مرة واحدة حيث أنكر ما فعله سفيره عند نائب فرنسا
الذى كان يسفحه ويمد به بالاموال وعند وكلاء دولة الفلنك التى كان يرغب
في استمالتها اليه واما جرجي ملك الانكليز فلم يرض كرلوس خاطره
مثلهما فان سفيريه المذكورين وهما غورطرز و غيلبوزغ ~~مكنا~~
محبوزين في انكلترة نحو ستة اشهر وبهذه الاساءة التى طالت مدتها
قوى عزم كرلوس في شأن ما كان يرومه من الانتقام

واما بطرس فانه في خلال هذه الاحزان والتنافس والغيرة لم يجعل لنفسه
مدخلية في شيء من ذلك بل وكل الامر لما يأتي به الزمن ولما ترتب دولة الواسعة
ترتبا كافيا بحيث صار لا يخشى شيئا في داخل مملكته ولا في خارجها عزم
على الذهاب الى دولة فرنسا ولم يكن يعرف لسان هذه الدولة فأفضى به
ذلك الى أن ضاع منه معظم عمره هذه الرحلة الا أنه كان يعلم أن في تلك المملكة
اشياء كثيرة يرغب في رؤيتها والاطلاع عليها وكان ايضا يريد أن يعرف
وهو هنالك حالة نائب فرنسا مع دولة انكلترة وهل عند هذا الامير
ثبات وتمكن ام لا

فلما وصل الى هذه المملكة قوبل فيها بما يليق به من الرسوم التشريفية حيث
بعثت الدولة الى لقائه المارشال دوتسه وجاغفيا من الامراء وفرقة من
الحباله وعربات الملك وكان قد اسرع السير على عادته بحيث وصل الى مدينة
غورنة حين كانت دائرته في مدينة البوف وصنعوا له في الطريق من
رسوم التشریف ما كان على وفق المرام وتلقوه أولا في دار المدينة المسماة
لورة وكانوا اعدوا له فيها اكبر محل منها واعدوا لاتباعه محال اخرى

فيما كان ينزل بها الأمير كوراكين. ودولغروكي والبارون شافيروف
وكيل التخليير والسياسة. وهو الذي كان في بلاد
الدولة العثمانية من التعدي في حقه على حقوق الملل بعضها على بعض وبالجمل
قد أعدوا لقري هذه الدائرة من حيث سكنها وخدمتها ما يليق باكرامها
ويؤذن برفعة مقامها لكن لما كان غرض بطرس من الحضور الى هذه
الدولة انما هو الاطلاع على ما يعود عليه بالنفع لرسوم الاكرام والتشريف التي
لا طائل تحتها بل لا تلائم ما تعود عليه من الساذجية وعدم الرفاهية وتضييع
عليه زمنا نفيسا ذهب في عشية يوم قدومه الى الطرف الاخر من المدينة
ليقيم في سراية لسدينير. وهي دار المارشال دوويل روا فعمل فيها
بما عومل به في لوورة من الاكرام وحسن القوي (٨ من شهر ماية)
وفي اليوم الثاني ذهب اليه نائب فرانساجل التسليم عليه في هذه السراية
ثم احضروا له الملك في اليوم الثالث وكان لاذالك طفلا والذي حضر به اليه هو
مؤذبه ومرييه المارشال دوويل روا الذي كان والده من قبله مؤذبا للوزير
الرابع عشر ثم انهم سلكوا طريقا بها علفوا الجار من مشقة زيارته للملك
عقب زيارة الملك فلم يذهب زيارته الا بعد يومين وقد حضر اليه ايضا امر
المدينة وأدوله ما يجب من التشريفات ثم ذهب في عشية هذا اليوم لزيارة الملك
وكانت العساكر الجهادية التي في الدار الملوكية قد استعدت واستحضرته
وجلت اسلحتها فذهبوا بالملك الصغير للاطاعة الجار حتى وصلوا به الى عريته
فتعجب بطرس بما رآه من الازدحام وكثرة الناس حول هذا الملك
الصغير فأخذوه وحمله على يديه مدة

ثم ان بعض الوزراء ممن كان تدقيقهم اكثر من سداد رأيهم اشاعوا بالكلمة
أن المارشال دوويل روا اراد أن ملك فرانساجل يأخذ يسديا بطور
الموسقوي ويمشي أمامه فتصلي الجار في ابطال هذه الرسوم حيث حمل
الملك على يديه مظهر الحنان والشفقة عليه وهذه الاشاعة لاصل لها اذا لادب
الفرنساوي وما يستدعيه مقام بطرس كلاهما بأي تغيير ما صنع له من

الرسوم التشريفية بما يتقرر النفوس فلن رسوم التكليف بالنسبة للثرفيع
 المقدار وهما جدير بالاحترام والوقار هي عبارة عن أن يصنع له من شعار
 الاجلال والتشريف كل ما تميل اليه نفسه اذا عرف منه أنه يلاحظ مثل هذه
 الامور واما السفار الایميراطور كرلوس الرابع والایميراطور سيجسموند
 والایميراطور كرلوس الخامس الى مملكة فرانسفا فانها لاتصل في الشهرة
 الى درجة سفر بطرس الى هذه المملكة واقامته بها فان ذلك يتوقف على
 امور كثيرة لم تكن موجودة اذذاك في المملكة الفرنسية حتى تستمر
 اسفارهم كشهرة سفر بطرس الاكبر لان هؤلاء الایميراطرة لم يكن
 غرضهم من السفر اليها الا مجرد مصالح سياسية ولم يذهبوا اليها في زمن
 تقدمت فيه الفنون وتكاملت بحيث تجعل زمن رحلتهم جديرا بالشهرة
 والذكر بخلاف الوقت الذي سافر فيه بطرس فلم يكن كذلك فانه حين
 ذهب للغداء عند دوق دنتين في سراية بيت بورغ التي هي على البعد
 من باريس بثلاثة فرامج رأى عند انقضاء الاكل صورته قد أخذت
 ورسمت ووضعت في المحل الذي هو فيه فوق في ذهنه أن الفرنسية اعظم
 الملل في حسن ملافاة الضيوف ذوى الاحتشام واکرام نزلهم
 وكذلك لما ذهب الى سراية لوورة لبصر فيها ضرب القطع السماء مداى
 او مداليه بالمحل الكبير المقيم به جميع ارباب الفنون والصنائع الملوكية فتعجب
 كثيرا حين رأى قطعة من هذه القطع قد سقطت فبادر اليها فاذا صورته
 منقوشة على احدى جهتيها وعلى الاخرى صورة الهة الشهرة (المذكورة
 في خرافات القدماء) واطعة احدى رجلها على الصخرة الارضية
 وبعض كلمات من كلام الشاعر ورجيل تليق بمقامه كل اللباقة ومعناها
 • كلامي وسار • اكتسب القوة والفخار • وهذا تنويه لطيف واسارة
 حسنى تلايم اسفار بطرس ونخاره ثم انهم اتفقوا هو ومن معه بقطع من
 تلك القطع المضروبة من الذهب ولما ذهب الى جهة الصنائع صاروا يضعون
 تحت اقدامه اعظم من من مصنوعاتهم ويرجعونه أن يتفضل عليهم بقبولها

وذهب الى فبريقات غوبلان (التي تصنع فيها السجاجيد العظيمة) وابصر
ايضا مصائدات فبريقة ساونورى ومصانع نقاشى الاجار والمصويرين
وصاغة الملك ومصانع آلات الرياضة وقدم اليه من طرف الملك كل ما كان فيه
اهلية للقبول لديه

وكان بطرس من ارباب الميكانيكة والهندسة وذهب الى دار العلوم
المسماة اكدمه وتزيت لاجله بجميع ما كان فيها من القرائب الا انه لم يكن
هناك اغرب منه فانه اصلى بيده عدة غلطات جغرافية رآها في خرطاط ممالكه
التي كانت بهذه الاكدمه لاسما خرطاط بجرانزر وسمعت نفسه
أن يكون من ارباب تلك الاكدمه ومن وقتئذ صار لا يقطع الوصلة بينه
وبين هؤلاء العلماء الذين رضى بأن يكون من آحادهم بل كان يرسلهم على
الدوام فى كل ما ظهر له بالتجربة والاستكشاف ولا يرى مثل هذا السباح
الا فى زمن فيثاغورس وامثاله وانخرسيس واضرايه بل هو يفضلهم
بكونه ملكا فارق ملكه رغبة فى الاطلاع والتعلم

ولابد أن اذكر هنا لقارئى كتابى هذا ما اعترى بطرس من شدة التأثر
والهيجان حين رأى قبر الكردينال دى ريشليو وذلك أنه لم يتجعب من
ظرافة نقش اجمار هذا القبر الغريب ولا من حسن صناعته بل تعجب حين
عاب تمثال هذا الوزير الذى اكنسب الشهرة وحسن السيرة فى اورپا
بما ابداه فيها من الحركة والتغير ورثة لفرانسا ما كانت فقدته من الفخار
بعد موت ملكها هنرى الرابع فعانق هذا التمثال وصاح قائلا يا هذا الرجل
العظيم كنت اود أن لواقيتك واعطيتك نصف ملكى حتى اتعلم منك ادارة
النصف الآخر

ثم انه قبل أن يرتحل من فرانسا اراد أن يزور الشهيرة مدام دوامنتون
التي كان يعلم انها فى الواقع ونفس الامر املة لوزير الرابع عشر ملك فرانسا
وكانت وقتئذ فى اواخر عمرها والذي اثار رغبته فى ذلك هو ما كان من نوع
المشابهة بين زواجه وزواج لوزير الرابع عشر المذكور وان كان بينهما فرق

من حيث ان بطرس تزوج بامرأة ذلت همة وشجاعة علانية على رؤس
الاشهاد (وهي كاثريئة) بخلاف لوي الرابع عشر فانه انما حاز سر امرأة
لطيفة انيسة (وهي المدام المذكورة) ولم تكن معه كاثريئة في هذه
السفرة لانه كان يخشى مضايقة التكليف ويخاف عليها من رغبة هذه الدولة
وتشوقها اليها حيث ان الدولة الفرنسية كانت لم تتعود ولم تعهد أن امرأة
حازت الفضل باقتحامها الاخطار يجانب زوجها لبراً وبجراً من شواطئ نهر
البروت الى سواحل فنلندة

* (الفصل التاسع) *

في رجوع الجار الى ملكه وما صدر عنه من السياسة والشغل
قد رأينا أن نورد هنا ما صدر عن السوربون (اي مجلس القسوس) من
السعي الى بطرس حين ذهب لزيارة قبر الكردينال دى ريشليو ونذكر
ذلك على حذته فنقول

ان بعض اجبار هذا المجلس ارادوا أن يجوزوا الفخر بضم الكنيسة اليونانية
الى الكنيسة اللاتينية مع أن العارفين باخبار القداماء يعرفون حق المعرفة
أن دين النصرانية انما ظهر ببلاد الشمال بواسطة يونان آسيا وأن اول
ظهوره كان ببلاد المشرق وأن اوائل القسوس وبجامع المطارنة وخدمة
القدس والتزيينات الدينية انما كانت بتلك البلاد المشرقية وانه لا كلمة من
كلمات ألقاب الشرف والوظائف الدينية الا وهي كلمة يونانية تقضى بتعيين
منشأ ما ورد الينا من ذلك كله وانما لما اتسمت دولة الرومان الى قسمين كان
لابد من أن يكون فيا دي نان عاجلا او آجلا ضرورة انها صارت دولتين
وأن يرى بين نصارى المشرق والشمال ما يرى بين العثمانية والعجم من الاختلاف
والاقتراق الديني

فقط جماعة من جمعية القسوس يناريس أن هذا الاختلاف يبطل دفعة
واحدة باعطاء بطرس صحيفة في هذا المعنى من طرفهم مع أن البابا ليون
الرايع وخلفاءه لم يتلوا هذا الغرض لابعانة توأهم ولا باعانة المطارنة بل

ولا يذلل الاموال فكان الواجب على هؤلاء الاحبار أن يعرفوا أن بطرس الذي كان له التصرف في الحكم على كنيسته هو ممن لا يعترف بالبابا ولا يقول به وكان ما عرضه عليه في الصحيفة مما لا طائل تحته حيث ذكروا فيها حقيرة الكنيسة القرساوية وذلك مما لا يعني الجار في شيء وذكروا فيها ايضا أن البابا يلزم أن يكونوا متقادين لجماع المطارنة وأن احكامهم وآراءهم لا تدخل لها في العقيدة ولا تعد من اصول الدين فلم يعد عليهم من هذه الصحيفة الاغصاب ديوان رومة وعدم قبول اميراطور الموسقو والكنيسة الموسقوية لما تطلبوه

وهذا الانضمام الذي تطلبوه كان فيه امور سياسية لا يدركونها ومواد تتعلق بمجادلات دينية يزعمون أنهم يعرفونها وكان كل حزب منهم يأتي بما يشاء من التأويل والتفسير وكان جد الهم هذا في شأن الاب والابن وروح القدس ولكن كان الجار حين سفره من باريس في شاعل عن تحقيق هذه المادة الدينية فقبل صحيفة هؤلاء الاحبار مع البشارة وطيب النفس ثم انهم كتبوا في ذلك لجماعة من اساقفة الموسقو فأحسنوا الهم الجواب ولكن اغتاضا اغلبهم مما عرضه عليهم الاحبار المذكورون

ولاجل أن يزيل الجار من قلوب الناس الخوف من انضمام الكنيستين رتب موسما مضحكا وهو موسم الكونكلاوة (اي جمعية الكردينالات لانتخاب

البابا) بعد أن طرد اليسوعية من بلاده سنة ١٧١٨ من الميلاد وذلك انه كان في ديوانه رجل هرم مختل يقال له سنوف كان قد علم الجار الكتابة وكان يظن أنه بهذا الصنيع يستحق اعظم المناصب وكان من عادة بطرس أنه في بعض الاحيان يقصد تزويج نفسه من هم الحكومة وتقل اعتبارها بمداعبة وممازحة تلاميذ كان الى ذلك الوقت لم يتم تهذيبها وتحسين حالها فوعده هذا الرجل الذي علمه الكتابة أنه يقلده بمنصب من اعظم مناصب الدنيا ثم نجح هذا الوعد فجعله كنيس بابا (وكلمة كنيس من الالقاب المتوارثة عند الموسقو نظير كلمة امير) ورتب له ماهية تبلغ التي روبلة واعطاه

بيتا في حارة التبتار بمدينة بترسبورغ وذهب به اهل الساخر من السرية الى هذا المنزل بموكب واحتفال وخطب له اربعة من اللسكن وحدث عدة كرينالات وسار في الموكب امامهم وكان كل من في هذا الموكب الديني سكران من شرب الخمر ولما مات ستوف فولى منصب البسا بعهده ضابط يقال له بتورلين وبالجملة فقد عاينت مدينة موسقو ومدينة بترسبورغ هذا الاحتفال ثلاث مرات وكان يترأى أن هذا الاحتفال لا ثمرة له مع انه في الواقع ثبت الامم الموسقوية على كراهة الكنيسة الرومانية التي تدعى لنفسها الامامة العظمى وكان رئيسها قد حكم بالحرمان على كثير من الملوك فاقام بطرس منها ومن رئيسها هذا الامر المضحك ليأخذ بشارعشرين اميراطورا من اميراطرة الالمان وعشرة ملوك من ملوك فرنسا وغيرهم مما لا يحصى كثرة من الملوك والامراء فكان ذلك هو الثمرة التي جناها مجلس القسوس من تصوره امر الاليلام السياسة وهو وضع الكنيسة اليونانية الى الكنيسة اللاتينية

فكانت منفعة سفر الجار الى فرنسا هي اتحاده والتثامه مع هذه المملكة ذات التجارة المعيرة باناس اصحاب حرف وصنائع لانضمام الكنيسيتين المتخاصمتين اللتين لا تزال احدهما محافظة على اسئلةها القديمة والاخرى على رياستها الجديدة

ولما عاد بطرس من فرنسا جاء معه بعدة من اهلها من اصحاب الحرف والصنائع كما في بمثل ذلك من انكثرة لان جميع الملل التي كان يسافر اليها كانت ترى أنها تشتري باعائته على تمييز غرضه من نقل جميع الفنون الى وطنه الجديد ومساعدته على هذا الابداع والاحداث

ومن وقتئذ سود مشاركة تجارية بينه وبين الدولة الفرنسية وسلمها السفرائه بيلاد القلنك بأتر رجوعه الى تلك البلاد ولم يتيسر لساينوف سفير فرنسا الى دولة القلنك أن يصدق على هذه المشاركة بوضع امضائه عليها الا في الخامس عشر من شهر اغسطس سنة ١٧١٧ من الميلاد بمدينة

لهاى ولم تكن هذه المشاركة في خصوص التجارة بل كانت تتضمن ايضا صلح
 الشمال وقبل كل من ملك فرنسا ومنتخب براندبورغ لقب الواسطة
 الذى لقبهما به الجار فكان ذلك منه دليلا واضحا للملك ان كلتة على أن نفس
 بطرس متميزة منه ودل ايضا على أنه لم يخيب مساعي البارون غورطرز لان
 هذا البارون وقتئذ استعد كل الاستعداد للتوفيق بين بطرس وكروس
 ولتجديد اعداء لجرى ملك الانكليز ولاعانة الكريدينال أليروفي مع
 أن كلا في طرف من اوروپا ورأى سفراء الجار بمدينة لهاى واجتمع
 بهم على رؤس الاشهاد وأخبرهم عن يقين أن في وسعه انهاء صلح الاسوج
 ثم ان الجار ترك غورطرز وأليروفي يدبران امر حيلهما وداستهما من
 غير أن يياشر شيئا منها بل جعل نفسه بحيث لا يكون بعيدا من صلح الاسوج
 ولا من حربهم وانه لم يزل على الاتحاد مع الدانيمرك واللهستان والبروسيا
 بل ومع منتخب هانوفر بحسب الظاهر

والظاهر أنه لم يكن غرضه من ذلك الاتهاماز فرصة مقتضيات الاحوال
 وانما كان غرضه الاصلى تكميل احداثاته وتحسين مبتدعاته فانه كان يعلم
 أن المشاركات ومصالح الملوك ومعاهداتهم ومحبتهم واحتراساتهم وعداوتهم
 لابقاء لها على حال واحد بل تتغير في كل سنة تقريبا على حسب تقلبات
 الزمن وأن اغلب المجهودات السياسية لا يبقى لها اثر غالبا ورجما كانت
 فريقة منتظمة تعود بالنفع على الدولة اولى واحسن من عشر من مشاركة

ولما اجتمع بزوجه وكان ينتظرها ييلاد القلنك استمر على اسفاره خابا
 معا اقليم وستفاليا ووصلا الى مدينة برلين بدون وكبة ولا اية ولم يكن
 ملك البروسيا الجديد دون جار الموسقو في كراهة القغار والتكلف والاية
 ومثل ذلك ينبغي أن يتخلق به اهل التكاليف الذين يحافظون على الرسوم واعتبار
 المقامات كأهل ميخ واسبانيا وابطاليا واصحاب الرفاهية كأهل فرنسا
 فان هذا الملك لم يجلس قط الاعلى كرسى من الخشب ولم يلبس الا كآحاد
 العساكرو كان يزهد رفاهية المطعم وملاد المعيشة

وكذلك الجار والجاره فانهما سلكا في معيشتهم ايضا مسلك الزهاده
والتقشف ولوانضم الى الثلاثة كلوس الثاني عشر رأيت اربعة اشخاص
متوجين بتيجان الملك لم يساووا في الابهة والرونق اسققا من اساقفة النمسا
ولا كردينالا من كرادلة رومة فيالهم من قدوة لم يتفق للتنعم والرفاهية
مثلهم

ولعمري ان الانسان في بلادنا (يعنى فرانسا) اذا صنع لمجرد رغبة نفسه
خس ما صنعه بطرس لنفع محاله ~~كه~~ يحوز من الاعتبار ورفعة المنزلة
مالا لم يد عليه حتى كأنه فعل امرا غريبا واصاب شيئا عجيبا ثم ان بطرس
سافر من برلين مع زوجته الى مدينة دتزيك ثم قصد مدينة مينو
وحامى فيها عن بنت اخيه دوقيحة كورلنדה التي تأبى بموت زوجها واطاف
جميع قنوحاته وقن قوانين جديدة في مدينة بترسبورغ ثم ذهب الى
مدينة موسقو وبني فيها عدة بيوت من بيوت الاهالى كانت آتلة
للسقوط وارتحل منها راكبا نهر ولغا الى مدينة كزاريزين قاصدا منع تار
كوبان عن اغاراتهم وذلك أنه وضع جله من العساكر بين نهر ولغا ونهر
تنابس المعروف ايضا بنهر تن صوبى وانشأ قلاعا من مسافة الى اخرى
ومن نهر الى آخر وفي ذلك الزمن بعينه طبع قانون الجهادية الذى قننه بنفسه
ورتب مجلس حقانية لينتظر سلوك مديري دواوينه ويلاحظ احوالهم ولينظم
امور المالية وغضاعن بعض المذنبين وعاقب البعض الآخر حتى ان الامير
منزى يقوف كان عن احتياج الى حلم الجار وكرمه ثم انه ارتكب
في الحكومة امرا كان على غاية من الصعوبة ظن أنه مجبور عليه وهو الحكم
بقتل ولده الذى ملاه سيرته الفاخرة بالنم والحزن

* (الفصل العاشر) *

في الحكم على الامير الكسيس بترى وأيتز (اى ولد بطرس) بالموت
كان بطرس في سنة ١٦٨٩ من الميلاد قد تزوج اودوكسيا نيودورة
المعروفة ايضا باسم نيودورونالا بوكين وكان سنه اذذاك سبع عشرة سنة

وكانت هذه المرأة قد نشأت متعوده على اوهاام ابناء وطنها فلم تصكّن فيها صلاحية لا كسباب ما تفضلهم به كزوجها فكانت مصدرا للمعارضات والمناقضات التي حصلت لبطرس حين اراد تجديد دولة ورجال ذوى فضل ومعارف وما ذاك الا لتسلطن الاوهاام الفاسدة عليها وتمكنها منها على ما هو الغالب في امثالها من النساء فكانت ترى أن جميع ما جددّه زوجها من الاحداثات النافعة من قبيل الكفر والاحاد كما انها كانت ترى أن الاجانب الذين كان يستخدمهم في تجهيزاً غراضه العظيمة اهل انلاف وفساد

فكان اعلانها بالتظلم والتشكى من ذلك يقوّى اهل التعصب المحافظين على العوليد القديمة ولبضالم تكن من حسن السلوك على ما يجبر به هذا الخطأ الفاحش فلم يجد الجار بدّا من طلاقها وحجزها فطلقها سنة ١٦٩٦ ميلادية وحجزها في دير بمدينة سوسدال ونظمها في سلك راهبات هذا الدير وسماها هيلانة

وكانت قد ولدت له في سنة ١٦٩٠ من الميلاد غلاما شقياسي الحظ (وهو الكسيس) حيث جاء على طبيعة له وتقوت فيه هذه الطبيعة بما سري له منها في زمن التربية حال صفه * وقد اطلعت فيما وصل الى من اللوائح في هذا الشأن على انه يسطر بحضاته وتر يته اناس من اهل الجهالة والاوهاام فافسدوا عقله افسادا لا يمكن معه الاصلاح ابدا فكان مما لاطائل تحته ظن أن هذا الظلل الذي انطبع عليه من الصغر يجبر بتقويض امر تر يته لمؤدبين من الاجانب بل وصف كونهم اجانب هو الذي زاد شدته وجوحه واكثر اشمزازه ونفوره * ولم يكن مجردا عن التريجة والعقل فانه كان يحسن الكلام والكتابة بلسان النيسا وكان له معرفة بالرسم والمام بالرياضيات ولكن كان السبب في ضياعه انما هو مطالعته لكتب القسوس الدينية حسبا وجدته في اللوائح المذكورة على وجه اثنى بصحته حيث اعتقد بمطالعته فيما أن جميع ما فعله والده يوجب اللعن والطرده وكان ثم قسوس هم رؤساء من لا يحب افعال بطرس فكان يتقاد اليهم ولا يخرج عن رأيهم

فادخلوا في ذهنه أن جميع مله الموسقى تعتقد أن جميع مشروعات ابيه ذميمة
وأن الداء الذى يعترى والده دائماداء عضال لا تقول به حياته وقالوا له ان
الوسيلة لك فى اكتساب الخطوة لدى الملل الموسقى هي أن تبارز بالقبضة
لكل ماجدده والدلم من الاحداثات نعم وان كان لم يترتب على ما أتقوه اليه من
اللفظ والصائح عصبية متظاهرة بالتعصب الا أن كل شئ كان يستدعى
حصولها وينضى اليها فان الحية اذ ذلك كانت متسلطنة على عقول الامة
فلما تزوج بطرس بكارثينة سنة ١٧٠٧ من الميلاد ووزق منها
بالذرية ازداد هذا الامر حثقا وغبطا قبذل الجمار جهده فى تسكين غيظه
وقلد دراسة نيابة المملكة مدة سنة وسلا بالاسفار وزوجه سنة ١٧١١
ميلادية فى اواخر وقعة البروث بالاميرة وولفميتل كما سبق فكان
زواجه مشهورا حيث اتهمك الكسيس على الفسق والفساد واسرف فى ملاذ
الشجوية الذميمة اذ كان عمره وقتئذ اثنين وعشرين سنة واخرط فى الميل الى
خشونة الاخلاق القديمة التى كان مواجهاها حتى عاد ذلك عليه بالفسادة
حيث اقضى به هذا الانهال الى الحق والغباوة فاحترق زوجته وازدراها
فى عينه وأهانها ولم يوف بحقوقها الضرورية فلحقها من الجزع والياس
ما لا مريد عليه واعتراها السقام وماتت كذا سنة ١٧٢٥ من الميلاد
فى غرة شهر فومبر

وأعقبته غلاما كان قريب العهد بالولادة من موتها وكان يؤقتل انه قبيح
نوبته فى ولاية العهد فيما بعد كما هو مقتضى رسوم المملكة ولكن بطرس
يحظر له أن جميع ما صنعته فى ايامه من الخيرات لا بد وأن يصير بعده فى زوايا
الاهمال بواسطة عقبه فينأثر من ذلك كل التأثر فكتب لابنه خطا يابعد موت
زوجته مشتملا على الترغيب والترهيب وختمه بقوله امهلك مدة من الزمن لا تظن
هل تتأدب وتقلع عما انت فيه والا فاعلم أنى أسومك من ولاية العهد وافصلك
عنها كما يفصل العضو الغير النافع من البدن ولا تظن أن قصدى بهذا ايجالك
وتخويفك ولا تعتمد على كونك ابني وحيلتي وذخيرتي لاني حيث اخطرت نفسى

دائما لاصلاح وطني واهل مملكتي فكيف احقن دم ولدي واني لا وثر عند
الاقتضاء تفويض امور المملكة لاجنبي يستحقها على ابني الذي ليس
اهلها انتهى

وهذا الخطاب يظهر أن صدوره منه بوصف كونه مشرعا يبحث على التمسك
بالسرايع اكثر منه بوصف كونه والدا يخاطب ولده ويتوخذ منه أن ترتيب
ولاية العهد ليلاد الموسقو ليس من الامور التي لا تقبل التغيير والتبديل
كما في غيرها من الممالك التي لا بد فيها من العمل بالقوانين المقررة التي لا تجعل
للآباء حق في منع وراثته ابنائهم لهم فالجار كان يرى أن له مزية التصرف
في دولته لاسيما هو الذي اسسها وأبدع فيها التمدن وحسن النظام

وفي هذا الزمن وضعت زوجته كازينس غلاما مات بحب ولادته سنة
١٧١٩ من الميلاد ولما بلغ خبر ولادته لاليسيس انكسر خاطره
وقرت همته وكتب لايه ما يفيد أنه نزل عن ولاية العهد وترك امل الحكم بعده
وهذا امنه ناشئ اما عن طبعه وخفة عقله او عن دسيسة دسياه بعض المفسدين
ونص كتابه عاهدت نفسي واشهدت الله على ذلك اني لا اطلب الحكم بعدك
وها أنا اسلمك اولادي واجعلهم بين يديك ولا اطلب منك الامصر وفي مدة

حياتي انتهى

فكتب اليه ابوه مرة ثانية مامعناه قد اطلعت على كتابك قرأتك لاسمكم
الافى امر الولاية بعدي حتى كافي كنت سألتك في شأنها وطلبتي منك قبولها
مع اني قد اعلمتك ما هو قائم بي من عظيم الالم وشديده التأثير من سلوكك وعدم
استقامتك منذ عدة سنوات ولم تخاطبني في هذا المعنى بشي ماصلا فكأن
انذارى لك لم يجد نفعا وقد كتبت اليك كتابي هذا وهو آخر مكاتبي اليك فباليت
شعري ماذا تصنع بعدي وقد اذريت مقاصدي في حياتي فان انت الائن
رغبت في الوفاء بما وعدت فسيعدل بك طوال الهي الى اغراضهم ويجبرونك
على اخلاف سوا عيذك فانهم معولون عليك في امورهم واثقون بك في تعيين
ما ربههم ولست الاعا فالايك جاحدا لصنيع من هو السبب في ابطال نعمة

الوجود اليك فهل حضرت يوما لاعاته في اشغاله منذ بلغت اشذك وأدركت
من العرر شذك لم تبغض كل ما مكنى فعله لصالح الامة الموسقوية فلي
حينئذ وجه في ظنك انك بعدى تهدم ما بنيت وتفسد ما اصلحت وعانيت فالقرار
القرار الى تدارك هذا الخطا والبدار البدار الى جبر هذا الخلل واسع فيما تكون به
اهلا لولاية عهدى والخلافة من بعدى والافتتظ في سلك الرهبان ولا بد من رد
الجواب في هذا الشأن اما بالتحريروا الكتابية واما بالمشافهة مع الصدق
في الاجابة والاصنعت بك ما اصنع بالاشرار وعاملتك معاملة الاشقياء
القباراته

ولا يخفى ما في هذا المكتوب من الصعوبة والتشديد فبمقتضى ذلك كان الاسهل
على الامير الكسيس أن يجيب عنه بما يفيد أنه يقطع عن سلوكه ويستجلب
رضاء والده ولا كنه اقتصر في اجابة والده على اربعة اسطر مضمونها انه يريد
الترهب

وهذا التصدي يظهر أنه لم يكن من تلقاء نفسه وكان من الغريب أن الجار
وقتئذ كان يريد السفر ويترك في المملكة ابنه على غيظه وعناده فكان هذا
السفر يدل على أن الجار لم يكن يخشى عصيانا ولا تعصبا من ولده
وقبل أن يسافر الى النيسا وفرنسا ذهب لعيادة ولده لانه كان مريضا
او متمرضا فقلقه الكسيس وهو على الفراش واقسم له بالايمان المغلظة أنه
يريد العزلة في دير من الاديار فأمهله الجار مدة ستة اشهر ليتروى فيها
ويراد نفسه ثم تركه وسافر مع زوجته

فبمجرد وصوله الى مدينة كونيهاغ بلغه أن الكسيس (كما كان
يمكن أن يظنه به) لا يجتمع الا باناس ممن لا يجهم حال ابيه وقد اظهروا له التأثير
على ما هو فيه من الغم والتغيب فكتب له الجار اما أن تحتار الترهيب في الدير
او لاية العهد والجلوس بعدى على سرير الملك فان اخترت الخلافة فاحضر الى
بمدينة كونيهاغ فما كان من اخصائه الا انهم افهموه واثبتوا عنده أن من
الخطر عليه أن يكون بعيدا عن نعمائه وبين والد غضبان عليه وزوجة ابشأنا

الجفا والقسوة فأصغى الى كلامهم واطهر أنه يريد السفر لايه في كونيهاغ
وتصدم مدينة ميخ بقصد الإقامة عند صهره كرلوس السادس اميراطور
النمسا حتى تنقضى حياة ابيه

وهذا اقرب مما وقع من لوز الحادى عشر (احد ملوك فرنسا) حين كان
ملقباً بالدوفين (اي ولى العهد) حيث ترك ديوان ابيه كرلوس السابع
(ملك فرنسا) وذهب الى دوق برغونيا ولكن كان خطأ ابن ملك فرنسا
اشد من خطأ ابن چار الموسقو فان لوز تزوج قهر اعم ابيه وجمع عليه
جيوشا وقصد الإقامة عند امير هو بالطبع عدو لوالده ولم يرجع الى ديوان
فرنسا اصلاً مع الحاج ابيه عليه في طلب العود اليه

واما ألكسيس فكان بعكس ذلك فانه لم يتزوج الا باذن ابيه ولم يحصل منه
قيام عليه ولم يجمع جيوشا ولم يلتجئ الى عدوه وعاد تحت اقدامه بمجرّد
ما كتب له بطلب حضوره اليه وذلك أن بطرس بمجرّد ما بلغه أن ولده كان
بمدينة ميخ ثم انتقل الى بلاد تيرول بارض النمسا ثم الى نابلى وكانت
اذاً تحت حكومة الاميراطور كرلوس السادس ارسل له احد
ضباط الغارديا المسمى رومنزوف وأحد المشيرين المسمى تولستوى
واعطاهما كتاباً بحرره بيده في مدينة اسبانيا تاريخه ٢١ من شهر

يوليه سنة ١٧١٧ من الميلاد على حسب التقويم الجديد فوجدا
الامير ألكسيس في شرابة سفت ايلم بمدينة نابلى فناولاه كتاب ابيه
فاذا فيه قد كتبت اليك كذاي هذا وهو آخر كتاب في اليك لاخبرك بأنك
مجبور على طاعتي وامثال ما أمرتك به على لسان كل من منزوف
وتولستوى فان اجبت بالسمع والطاعة فأقول لك ولاقول الاحقاني
قد اشهدت الله على انى لا اعاقبك وانك ان رجعت فزت منى بدوام المحبة
والاقبال والاعاملك من حيث الابوة بالغضب المؤبد حسبما يقتضيه ما جعله
الله لي عليك من القوة والاقتدار واما من حيث كوني ملكك وولى امرك
فلي في عقابك طرق كثيرة وانى اسأل الله تعالى الاعانة وارجمه أن يتولى امر

هذه الدعوى التي لم أحد فيها عن الحق
وبالجمله فتفكر أني لم اضيع لك حقاً ولم اظلمك في شيء وهل سكنت مضطراً
الى تخييرك حين وكلت لك الامر في اختيار ما تشاء اوليس اني اقدر على الزامك
بما تريد وهل عليّ في ذلك الا مجرد الامر الذي لاشك في اجرائه وتنفيذه
اتهي

ثم ان عامل الاميراطور على نابلي حسن لالكسيس العود الى ابيه
فكان ذلك ادل دليل على أن اميراطور النمسا لم يقصد أن يكون بينه
وبين الكسيس مطلق ارتباط او معاهدة وأنه يرى مما اتهمه به الجار
في هذا المعنى وكان الكسيس قد استعصب معه في السفر عشيقته
افروزينة فاخذها معه في عودته

ولامانع أن ايتار هذا الامير السفر الى مدينة بيج ونابلي على السفر الى
كوبنهاغ عنده كان ناشئ عن طيش الشبوية واغواء المقسدين فان كان
لم يرتكب الا مجرد هذا الخطا الذي لا يتخلو عنه كثير من امثاله من الشبان فهو
امر هين يساهل فيه ويغضى عن مثله لاسيما والده قد اشهد الله على نفسه أنه
زيادة على الصفح عنه يفوز منه بدوام المحبة والاقبال فمن ثم سافر الكسيس
معتمداً على هذا الالتزام الصحيح واثاب هذا الاخبار المؤكد ولكن الظاهر أنه كان
في كلام السفيرين اللذين بعثهم للاحضاره بل وفي مكتوب الجار نفسه ما يفيد
الزام الكسيس من طرف ابيه بالافصح عن مشيريه ونصحائه وبأن يبر
في يمينه التي حلفها على أنه ينزل عن ولاية العهد

فلذا كان يظهر أنه يتعذر او يتعسر الجمع بين حرمان هذا الامير من الوراثة
واليمين التي حلفها له ابوه في مكتوبه أنه ان رجع فازمنه بدوام المحبة
الا أن يقال انه تعارضت عند بطرس مقتضيات الابوة وبواعث الامارة
الملوكية فلذا اقتصر على أن يحب ولده منقطعاً في دير من الاديار وربما كان
يؤتمل بما افاده لولده الكسيس من ضياع تاج الملك منه أنه يعود الى ما يجب
عليه من البر والطاعة بحيث يصير أهلاً للولاية من بعده اذ لا يبعد في مثل هذا

الاحوال النادرة الصعبة المؤلمة أن يعتقد أن قلبي الجار وابنه اللذين هما وقتئذ على حد سواء في التفرقة والغليظ كما قبل ذلك على الالفة والاتحاد ثم ان الامير ألكسيس حضر الى مدينة موسكو في ثالث فبريه سنة ١٧١٨ من الميلاد (على حسب التقويم الجديد) وكان الجار يومئذ بها فخر على ركبتي ابيه وقبلهما واتحادا طويلا فاشاع الخبر في المدينة انها اصططها ونسياما كان بينهما ولكن في صبيحة اليوم الثاني صدر الامر بتسليح ألابات الغارديا وضرب الناقوس الاكبر بالمدينة المذكورة (وكانت هذه علامة عندهم على حصول امر مهم) وبعث للبويار (وهم اكابر الدولة واعيانها) ولارباب الديوان العالي أن يحضروا في السراية واجتمع في الكنيسة الكبرى القسوس ورؤساء الديورة واثنان من طائفة منت بازيل كانوا يعلمان العقائد ورحى بالامير ألكسيس الى السراية مجردا عن سيفه مسجونون حتى تمثل بين يدي والده وخر له ساجدا وناولوه وهو يكي كتابا مضمونه الاعتراف بما فرط منه في حق والده من الخطا والاقرار بأنه ليس اهلا للولاية بعده ولم يطلب منه سوى الابتغاء عليه وحقن دمه فأقامه الجار من الارض وأدخله في خزنة هناك وسأله عدة اسئلة وهدده بضرب عنقه اذا هو كتم شيئا من الامور التي تخص هروبه وفراره ثم أتى به الى المحل المنعقد فيه المشورة وتلى على اربابها ما سطره الجار من الاعلان في حق ابنه وكان هذا الاعلان مكتوبا قبل عقد المجلس وقد لام الجار ابنه في هذا الاعلان على ما صدر منه مما اسلفناه تفصيلا فلامه على عدم اعتناؤه بالتعلم ومخاطباته للحالفين الذين يميلون الى العوايد القديمة وعلى قبح سلوكه مع زوجته حيث قال انه نقض عهود الزوجية وخان القرائن بميله وخيانه لبنت من الرعايا في حياة زوجته ثم وان كان الجار ايضا طلق زوجته ورغبة في امرأة مسيبة الا انها كانت ذات فضل وعقل وافر وكان هو في الواقع ونفس الامر قد استمت نفسه من زوجته الاولى التي هي من رعاياه لعدم ملائمة طباعها لطباعه فكان معه الحق في ذلك بخلاف ألكسيس فانهم

اهمل زوجته رغبة في شابة مجهولة الاهل لم يكن لها من الفضل سوى الجمال
ثم ان ما ذكر الى هنا لم يظهر منه الاهفوات وقعت من شاب يلزم أن اباه يلومه
عليه او يسوغ له مسامحته منها والاغضاء عنها
ثم لامة بعد ذلك على ذهابه الى مدينة يج ودخوله تحت حماية ايمبراطور
النمسا وذكر أنه هتك حرمة والده باخباره للايمبراطور المذكور بأنه مظلوم
وانه كان في دولة المستوفو يجبر على النزول عن ولاية العهد ثم لامة ايضا
على كونه ترجى ذلك الايمبراطور في أن يحمي من ابيه بالحرب والقوة
العسكرية

ثم انه لا يتصور أن الايمبراطور بهذا السبب يحارب جار المستوفو
وكيف يمكنه أن يجعل لنفسه مدخلة في هذه المادة الا بالتوسط بالمعروف
بين أب غضبان وولد عاقبان يوقع الصلح بينهما فلذا اقتصر الايمبراطور
المذكور على تعيين محل يأوى اليه ألكسيس ثم بعثه الى والده حين بلغه هذا
الخبر وطلبه

وقد ذكر بطرس ايضا في هذا الاعلان المبني على التساوية والحقان
ألكسيس أدخل في آذان الايمبراطور أنه اذا عاد الى بلاد المستوفو لا يكون
أمنًا على نفسه وقد تحقق ذلك بما صدر من الجار في حق من الحكم
عليه بالموت بعد عودته لاسيما وكان ذلك بعد ما وعده بالعفو والمسامحة
ولكن سيأتى لنا السبب الحامل للجار على حكمه بعد ذلك على ابنه
بهذا الحكم الجدير بتخليد الذكر وبالجملة قد حصل في هذا المجلس العظيم
امر عجيب وهو أن ملكا مطلق التصرف تخاصم مع ابنه وحاول اثبات
الحق عليه

فقال بطرس ها هو ابنا قد حضر بهذه الكيفية فهو وان استحق
القتل لهروب والخوض في عرض والده الا أن شفقة الابوة جلتنا على الصفح عنه
ومسامحته من هذه الذنوب ولكن بالنظر الى ما صدر عنه من العيب القاسح
والسلوك القبيح لا يمكن أن نسمح نفسنا له بارث الملك بعد ما لما توقعه فيه من أنه

بعد موتنا يذهب قبح سلوكه بفخار الملة الموسقوية وقبحاتها الكثيرة
التي استرجعناها بأسطحتنا ولا بد أننا نتعسر وتأسف على رعايانا إذا أضربنا
بهم وتركناهم في حالة أقبج مما كانوا عليه أولا يجعل ألكسيس ملكا
عليهم بعدنا

فبالنظر لما فينا من قوة الابوة التي بمقتضاها وبمقتضى قوانين دولتنا يسوغ
لكل انسان ولومن رعايانا أن يحرم ولده من ارثه كإبشاء وكذلك بالنظر لما فينا
من الصفة الملوكية ولما فيه نجاة اهل ملكنا قد حررنا ولدنا ألكسيس من ارثه
لنا واستيلائه على سرير دولة الموسقو بعدنا لما ارتكبه من الذنوب ووقع
منه من العيوب فهو ممنوع من الولاية بعدنا ولو انقضت عائلتنا عن آخرها
ولم يبق منها سواه

وقد جعلنا ولاية العهد على دولة الموسقو لابننا الثاني بطرس وهو
وان كان صغيرا الا انه ليس لنا وارث اكبر منه

(وبطرس هذا هو ابنه من الاميرة الطورة كاترينة التي ماتت في ١٥ شهر
ابريل سنة ١٧١٩ من الميلاد كما تقدم)

واذا ادعى ولدنا ألكسيس في اى زمن من الازمنة وراثته الملك بعدنا
او تطالبنا لنفسه فقد عشنا واستحق غضبنا ونؤقتل من رعايانا اهل الطاعة
والامانة قسوسا وعوام وغيرهم ومن كافة الملة الموسقوية انهم بمقتضى
قوانيننا وادتنا يدعون لابننا بطرس المذكور الذى عيناه لولاية العهد
ويعتبرونه الوارث للملك بعدنا ارثنا شرعيا وبمقتضى امرنا هذا نطلب ايضا
من رعايانا المذكورين انهم يحفظون أمام محراب الكنيسة المقدسة على
الانجيل المقدس وهم يقبلون الصليب أن يعملوا بمقتضى هذه القوانين
ولا يخالفوها

وكل من عارض منهم في اى وقت من الاوقات رأينا هذا وتجاوز من الآن
فصاعدا على أن يعتبر أن ابننا ألكسيس المذكور هو ولي عهدنا ووارث
ملكنا اوبعينه على ذلك فهو خائن لنا وللوطن وقد امرنا بأن هذا الاعلان

ينشر في سائر الجهات بحيث لا يمكن لاحد دعوى جهله وعدم العلم به
* وقد حرر هذا بمدينة موسقو في ١٤ شهر فبرية سنة ١٧١٨
من الميلاد بمقتضى التقويم الجدي ووضعت عليه علامتنا بيدنا وختم
بختمنا التهمت

وتطاهر أن هذه الصورة كانت مكتوبة من قبل أو أنها كتبت مع غاية السرعة
فان عود الامير ألكسيس كان في ١٣ من الشهر والحكم بحرماته
من الارث والانعام به على ابن كاترينة كان في ١٤ من ذلك الشهر
وقد وضع ألكسيس اسمه على هذه الصورة واعترف بأنه اسقط حقه
في ولاية العهد حيث قال مامعناه أعترف أن ماصنعه والذي بي من حرمانى من
ولاية العهد هو في محله وهو من باب العدالة والانصاف وانى مستحق لذلك
بما وقع منى من العصيان والمخالفة واقسم بالله التقدير انى بهذا الامر بالخير
وقد اذعنت لكل ما تعلق به ارادة ابى انتهى

ولما تمت هذه الصورة بوضع الامضات عليه اذهب الجار الى الكنيسة
الكبرى وامر بقراءتها او وضع جميع القسوس علامة الصحة والامضاء على
نسخة اخرى منها ولم يسبق حرمان امير من الولاية على وجه صحيح بهذه المثابة
مثل حرمان هذا الامير بل كثير من الدول لا يعتبر مثل هذا الامر بالكلية
ولكن كانت قوانين كل من الموسقو وقدماء الرومان تجعل للوالد الحق
في حرمان ولده من ارثه ولا شك أن هذا الحكم في حق الملك اقوى منه في حق
غيره من الرعايا لاسيما اذا كان مثل بطرس الاكبر

ومع ذلك كان يخشى أن يأتى يوم يقوم فيه من حرّض ألكسيس على ابيه
وأشار عليه بالهروب والفرار ويذلون معه جهدهم في ابطال نزوله عن الولاية
لأنه انما نزل عنها بالاكراه والاجبار ويردون الى هذا الابن البكرى الساج
الذى سلب منه واعطى لابن الثانى الذى هو من زوجة الجار الثانية
وكان يتوقع من ذلك نزاع داخلى وحرب اهلى يفضى بلا شك الى ابادة جميع
ما يدعه بطرس في دولة الموسقو من التحسينات العظيمة والامور

النافعة الجسمية وبالجملة فكان يلزم انهاء هذه القضية اما بمرعاة مصلحة
ثموتمانية عشر مليوناً من الاهالى الذين كانت تحتوى عليهم دولة الموسقو
اذ ذلك او مصلحة شخص واحد لم يكن كفوا لحكمهم والولاية عليهم فلذا
كان من المهم معرفة المفسدين وتعيينهم ومن هنا هدد الجار ثانياً بولده
بالقتل اذا هو كتم عنه شيئاً واستجوبه بنفسه استجواباً جارياً على مقتضى
الاصول والقوانين ثم عين لاستجوابه جمعية مخصوصة

ومن جملة اسباب الحكم على الكسيس بالقتل مكتوب حرر بمدينة
بترسبورغ من طرف بير احد وكلاء ايمراطور النمسا بدولة
الموسقو بعد هروب الكسيس يتضمن أن العساكر الموسقوية
الجمعة بكلامبورغ حصل منها قيام وعصيان وأن عدة ضباط من العساكر
المذكورة تصادون في وضع الجارة الجديدة كاترينة مع انها
في السجن الذي كانت به الجارة المطلقة ويتكلمون في تولية الكسيس
على سرير الملك اذا وجدوه نعم كان قد حصل اذ ذاك قنة وعصيان
في تلك العساكر لكن قنعتها الجار في اقرب مدة ولم يترتب على لفظهم المذكور
أذى خلل ولم يكن في وسع الكسيس تحريضهم على هذا العصيان
ولا اعانتهم عليه فذكر الوكيل المذكور لهذا الامر في مكتوبه ليس الا لكونه
اجنبياً يفيد دولته بما يثر عليه من الاخبار والحوادث ولم يكن ذلك المكتوب
خطاباً للكسيس ولا وقع منه تحت يده الانسخة ارسلت له من
مدينة بيج

وقد اتهم الكسيس ايضا بتهمة اعظم من السابقة وهي أنه عثر على مسودة
مكتوب حررهابيده في مدينة بيج خطاباً لارباب مشورة السنت
واساقفة الموسقو سلك في عباراته ما يؤدى الى الاساءة والغضب وصورته
ان المعاملة السيئة الجارية في حقى على الدوام بدون مقتضى استحقاقها الجائز
الى الهروب والفرار ولم يكن على مجبى في دير من الديورة الا القليل فالذين كانوا
سباني مجن والذين ارادوا أن يصنعوا بى كما صنعوا بها وافي الآن تحت حماية

ملك عظيم الشأن وأرجو منكم أن لا تتركوا في الآن انتهت فكمالة الان هذه التي يمكن اعتبارها كلمة تعصب وجدت في المسودة المذكورة قد ضرب عليها ثم كتبها ثانيا بيده ثم ضرب عليها فهذا دليل على أن هذا الشاب كان مضطربا متحيرا وأنه كان مغیظا متندما في آن واحد ولم يحصل العنور من مكاتبه الا على المسودات التي لم تصل الى من حررها اليهم وذلك لأن ديوان مدينة بج مجزها ولم يوصلها الى اربابها وهذا من اقوى الادلة على أن الديوان المذكور كان لا يريد ايقاع الفتنة والتفاقم بينه وبين ديوان الموسقو ولا محاماة ابن الجار من ابيه بالقوة الحربية

وقد اتى بالشهود ليشهدوا عليه في حضوره فشهد أحدهم المسمى أماناسيف انه سمعه يقول أخبر القسوس بشئ يقولونه الخوريين وهم يقولونه لاهالي اخطا طهم فيولوني الحكم على الدولة ولوة هرا عني

وشهدت عليه ايضا نفس صاحبه السماعة افروزيه ولكن جميع التهم التي اتهم بها كانت مهمة حيث لم يعمل بما اتهم به ولم يتبع دسيسته من الدسائس ولم يحصل منه تعصب ولا تحزب ولم يظهر منه تجهيزات تدل على الاستعداد لمثل ذلك وانما غاية ما يقال فيه انه غلام من عائلة مكذبر الخاطر فاسد الاخلاق يتشكى من ابيه ويهرب منه ويتغنى موته غير أنه بالنظر الى كونه هو الوارث لا عظم الدول واوسعها كان ما يصدر عنه من المساوي يعتد من الذنوب الكبيرة

وكما اتهمته صاحبه المذكورة اتهم ايضا بأنه كان بينه وبين اتمه الجارة القديمة واخته الاميرة مارية اسرار ومكالمات قد قيل انه اسنشار والدته في امر الهروب وتكلم في ذلك ايضا مع اخته المذكورة فقبض على اسقف من اساقفة رستو كان امين اسرار هؤلاء الثلاثة واستشهد على ذلك فشهد بأن الاميرتين المسجوبتين في الدير كانتا تؤملان حصول تغيير في الدولة يكون سببا في تخليته سبيلهما وأنهما اشارتا على الامير المذكور بالهروب وبالجمله فبقدرها كان الحق فيهم طبيعيا كان امره خطرا عليهم وسيأتي آخر الفصل

ما يعرف

ما يعرف به حال هذا الاسقف وكيف كان سلوكه
وقد أنكر أن الكسيس في مبدأ الامر عدة تم من هذا القبيل فصار
بانكارها عرضة للهلاك لأن أباه كان يهتده بالقتل اذا هو لم يعترف بما وقع منه
اعترافا صحيحا

ثم آل امره أن اعترف ببعض كلام يتضمن عدم اعتبار والده وساءة الادب
عليه واعتذر عن ذلك بالغيب والسحر

ثم أن الجار كتب بنفسه اسئلة اخرى لولده وكان مضمون السؤال الرابع
منها ما معناه انك عند اطلاعك على مـكتوب بيير المتضمن أن جيش
مكلامبورغ حصل منه قيام وعصيان فرحت لذلك وانشرح صدرك
واظن انه كان لك في ذلك اغراض وما رب وانه لودعاك العصاة اليهم لاجبتهم
وانخرطت في سلكهم ولو في حال حيلاني انتهى

ويؤخذ من هذا السؤال أن الجار كان يريد أن يعرف ما كان قائما بقلب
ولده من الاغراض الباطنية التي يمكن أن يعترف بها الانسان لانيه فيزييلها
من قلبه بالنصائح وينـكرها من الحاكـم لانه لا يحكم الا بمقتضى الظاهر *
ومن المعلوم أن الامور الباطنية والمقاصد القلبية لا تنقام في شأنها دعوى
ولا يترتب عليها حدة ولا جزاء فكان يمكن لالكسيس انكارها ويسهل
عليه كتمانها اذ هو غير مجبور على كشف ضميره واظهار ما في باطنه ولكنه أجاب
بالكتابة عن هذا السؤال بما صورته لودعا في العصاة اليهم في حال حياتك لكنك
غالبا اجيبهم وانضم الى حزبهم متى كنت واثقا منهم بالقوة والشدة

ولا يتصور أن هذا الامير اجاب بذلك من تلقاء نفسه ومن الغريب ولوعند أهل
اوروبا فقط أن يحكم عليه بجزء اعترافه بخطور امر في باله معلق تنجيذه على
شيء لم يحصل وزيادة على اعترافه الغريب بهذا الامر الباطني الذي اضمـره
ولم يتجاوز سره اقيمت عليه ادلة غير مقبولة ولا يعمل بها في كثير من محاكم
البشر العادلة

وذلك أن هذا الامير لما ضاق به الخناق وغشيه ما غشيه من اليأس وحله

الخوف على قول الصدق بداهة اعترف بأن الذنب جنيته ومحله طويته
فاصدا بذلك تأييد ما يمكن أن يؤدي الى اتلافه حيث اقر أنه عند الاعتراف على
يد القسيس يا كس قال ماصورته اذا سئلت بين يدي الله اعترف بأني تمتيت
موت ابى وأن القسيس المذكور قال له ماصورته المولى يسامحك نحن جميعا
نتخى مثل ما تمتيت

وجميع ما يستنبط من هذا الاعتراف لا يعمل عليه بمقتضى قوانين الكنيسة
القانونية لأن ذلك انما هو سر بين العبد وربه يعترف به من ندم على ما فرط
منه من الخطايا وايضا قوانين كل من الكنيسة اليونانية واللاتينية
تمنع أن ما بين العبد وربه تناله احكام المحاكم البشرية الا أن يقال ان هذه
القضية كانت تتعلق بالدولة والملك ثم انه شدد على القسيس يا كس
فاعترف بأن ما اقتربه الكسيس صحيح ومن الغريب أن يرى في مثل هذه
الدعوى أن قسيس الاعتراف يتهمه المذنب المعترف على يده كما أن هذا تهمة
صاحبه ويمكن أن يزداد على غرابة هذه القضية أن المطران دوريزان وصل
اليه شئ من هذه التهم وذلك انه كان سابقا في اوائل غضب الجار على ابنه
قد خطب خطبة اظهر فيها المساعدة والمراعاة لجانب الامير الكسيس
فلما اقيمت الدعوى كان من جملة اجوبة هذا الامير اعترافه بأنه كان معقدا
على هذا المطران مع أن المطران المذكور كان رأس القضاة القسيسية الذين
استشارهم الجار في هذه القضية المتعلقة بذب ولده وسيأتى ذكر ما يتعلق
بذلك عن قريب

وهنا امر مهم ينبغى التنبيه عليه في هذه القضية الغريبة التي لم تذكر على
ما ينبغى في التاريخ الغير المألوف الذى ألفه نستيزور انوى المدعى انه
بويار (اى من اكبر اهل الموسيقى) في شأن بطرس الاكبر وهالك نصه
في هذه المادة

من جملة الاجوبة التي اجاب بها الكسيس عن اول سؤال من اسئلة ابيه له
انه اعترف بأنه لما كان بمدينة حج لم يجتمع بالامير بطور فعرض امره

على

على قوتة دوشونين حاجب ذلك الإمبراطور فقال له اعلم أن الإمبراطور لا يتركك بل يساعدك عند الحاجة بمعنى أنه بعد موت ايك يسعى في توليتك على مير الملك بالقوة العسكرية قال ألكسيس فقلت له ليس هذا مرأى وانما روم حليفة الإمبراطور انتهى ويتراءى على هذا الاعتراف أنه بديهي غير مصطنع وأنه اخبار بالواقع ولوطلب ألكسيس من الإمبراطور جيوشا لاجل عزل ابيه والاستيلاء بعده على الملك لكان ذلك منه محض جنون بل لا يمكن لاحد أن يجاسر على الامير اوجين وكيل الإمبراطور ولا على مشورة الإمبراطور ولا على الإمبراطور نفسه ويعرض عليهم مثل هذا الامر المحال * ثم ان هذا الاعتراف صدر من ألكسيس في شهر فبراير وبعد ذلك بأربعة شهور أعني في غرة شهر يوليو اشهر على هذا الامير في اثناء مدة اتامة الدعوى وفي اواخرها أن يكتب في اجوبته الاخيرة ما معناه

حيث اني لا اريد أن اتبع والدي ولا انسج على منواله في اى شئ كان يحث عن أن اخلفه على الملك باى طريقة كانت ماعدا الطريقة الشرعية الجارية في مثل هذا الامر فلذا اردت أن اخلفه بواسطة مساعدة ومعونة اجنبية ولولت هذا الامر ونجز الإمبراطور ما وعدني به من كونه يجلسنى على تخت دولة الموسيقى ولولت القوة الحربية لما توقفت في بذل شئ مما يوصلنى الى نيل هذا الغرض فلوطلب منى الإمبراطور مثلا جيوشا من دولة الموسيقى في مقابلة جيوشه التى اعاننى بها ليستعين بها على اعدائه واطلب مبالغ جسمية من النقود لاجنبته الى ما طلب بل وكنت اعطى وزراءه وجنرالاته هدايا جسمية وتحفا عظيمة واجعل على طرفى مصاريق الجيوش التى يساعدنى بها على الاستيلاء على دولة الموسيقى وبالجملة فكان لايعوقنى عائق عن تنفيذ كل ما خطر ببالى من الاغراض والمآرب

والظاهر أن هذا الاقرار الاخير كان بطريق الاجبار والاكرام لانه يظهر منه أن هذا الامير قهر نفسه على نسبة الذنب اليه وايضا ما نسبته الى الإمبراطور

من وعده اياه بالتولية على الدولة الموسمية بالقوة والسلاح غير صحيح لأن
قوتة دوشوبين انما وقع في رجائه أن الايمبراطور يمكن أن يساعده بعد
موت ابيه على اخذ حقه من وراثته الملك بعده واما الايمبراطور نفسه فلم يعده
بشيء وايضا هذه القضية لم يكن لها تعلق بعصيانه وقيامه على ولده وانما كانت
في خصوص ارثه للملك بعده اياه

وما ذكره ألكسيس في هذا الاقرار الاخير هو ما كان يظن أنه يفعله
اذ نوزع في وراثته الملك بعد ولده لانه لم يكن نزل عن حق الوراثة نزولا شرعيا
قبل سفره الى بيج ونايلي ويؤخذ من ذلك أن هذا الاقرار الاخير لم يكن
فعل مضمونه فلما واخذة عليه فيه بمقتضى الشرائع والقوانين وانما هو امر
خطري ياله وكان يمكن أن يعمل بمقتضاء عند الحاجة ومجرد الخطور بالبال
لا يؤاخذ به شرعا فقد عرفت أن ألكسيس افضح مرتين عما كان في سره
عما خطر له أن يفعله في المستقبل ولم يسبق قبل ذلك في الدنيا بتمامها أن انسافا
حكم عليه لاجل امور خطرت بباله لم يترتب عليها ثمرة ولم يفشها لاحد وليس
في اوربا بتمامها محكمة تسمع دعوى انسان يدعى على نفسه بذنوب
حدثته به نفسه بل من المأثور أن الله تعالى لا يؤاخذ من هم بسنة ما لم يصتر
على فعلها

ويمكن أن يجاب عن هذه الملاحظات بأن ألكسيس هو الذي أثبت لايه
الحق في معاقبته حيث انكر جماعة عن شاركة في ذنب الهروب باغرائهم له
على ذلك واما عفو والده عنه فكان معلقا على اعترافه اعترافا عاما بجميع ما صدر
منه وهذا انما حصل منه بعد فوات الوقت وقصارى الامر انه بعد ما حصل
في هذه المادّة ما حصل يستبعد بمقتضى الطبع البشرى أن ألكسيس
يسلم لاختيه فيما حرم منه لاجله من وراثته المملكة فلذا قيل ان معاقبة
هذا المذنب اولى من جعل الدولة بتمامها فيما بعد عرضة للخطر فصحوبة
الاحكام في هذه المادّة وافقت مصلحة الدولة

ولا ينبغي أن يمحكم على ملّة من الملل بقوانين وعوايد ملّة اخرى فليحار

بموجب قوانين المملكة حتى صحيح وان كان من الحقوق المشروعة في معاقبة ابنه
بالقتل بالنظر لاذنب الهروب قط كما يفصح عن ذلك نص الاعلان الذي عرضه
الجار في هذه القضية على جمعية القسوس والقضاة وهو

ان الشرائع الالهية والقوانين البشرية لاسيما قوانين الله الموقعية
تمنع الالهى أن يحكم الوالد منهم على ولده فيما هو من وظائف القضاة والحكام •
واما نحن فلنا القوة المطلقة في الحكم على ما وقع من ابننا ألكسيس
من الذنوب حسبا تقضيه ارادتنا بدون أن نطلب في ذلك رأى احد ولكن
حيث كان الانسان لا يعرف مصالحه الخصوصية حق المعرفة كما يعرف
مصلح غيره فان الطبيب ولو ماهرا لا يخاطر بمداواة نفسه بنفسه عند مرضه
بل يدعو لمعالجته طبيباً آخر وكنت اخشى شغل ذمتي وعدم براءتها بارتكاب
بعض المظورات عرضت لكم هذه الحالة الواقعة بيني وبين ابني طالبا منكم
دواء هذا الداء فاني اذا كنت لا اعرف داءى واردت أن اعالج نفسى بنفسى
رغبة في شفائى اخشى أن يفضى في ذلك الى البوار والخلود في النار لاسيما
بالنظر لكونى حلقت بالاحكام الربانية على العقوب عن ولدى في شأن هذه القضية
والترمت له ذلك بالمكتابة ثم اكدته بعد بالمشافهة والمخاطبة اذ هو اوضح لى
عن حقيقة الحال ولم يكتف عن شياً في المقال

ومع أن ابني هذا قد اختلف وعبدته لكن لاجل أن لا احيد في حقه عن شئ
مما يجب على ارجوكم أن تتفكروا في هذه القضية وتغنوا فيها النظر بالكلية
حتى يظهر لكم ما يستحقه ولا تملقوا الى ولا تخشوا انكم ان حكمتم عليه بعقاب
خفيف ظهر لكم انه لا يستحق غيره لم يأت حكمكم هذا على طبق مراعى
بل اقسم بالله العظيم واحكامه الربانية أنه لا خوف عليكم في ادنى شئ
من ذلك

ولا يلحقكم غم ولا تعكير من كونكم تحكمون على ابن ملئكم بل احكموا
بالعدل والانصاف بدون أن تميلوا في الحكم الى غرض او تراعوا خاطر احد
ولا تسلكوا في ذلك ما فيه هلاككم ونجاتى وبالجمله قال المول أن تكون

ذمتنا بركة يوم الموقف المهول وان لا يحصل لوطننا ادنى شئ يضر به انتهى
كلامه

وقد صدر من الجار مثل هذا الاعلان تقريبا لطائفة القسوس فكان
كل ما حصل منه في هذه القضية جاريا على طبق الاصول وقد سلك فيها مسلكا
يؤذن بشهرتها وعلما عند الخاص والعام وهذا دليل على انه محرص على
العدل والانصاف

وقد كتبت هذه الدعوى التي اقيمت على وارث دولة الموسقو بتمامها من
آخر شهر فبريه الى خامس شهر يوليه بمقتضى التقويم الجديد (وذلك
اربعة اشهر وبعض ايام) وقد سئل الكسيس عدة مرات واعترف بجميع
ما طلب منه الاعتراف به وقد ذكرنا من ذلك الاثم

وفي غرة شهر يوليه كتب القسوس ما ظهر لهم في هذه القضية من الاراء
لان الجار في الواقع لم يطلب منهم الاراء في ذلك لالحكم على الكسيس
ومقدمة ما كتبوه في هذا المعنى حرية بأن يطلع عليها اهل اوروبا وهما هي
صورتها

هذه القضية لا تعلق لها بالاحكام الدينية اصلا ولا تسلط رأى الرعية على القوة
الملوكية المطلقة التصرف ببلاد الموسقو بل الملك وحده هو الذي له التصرف
المطلق والحكم كيف يشاء بدون أن يكون لاحد من رعيته مدخل معه في ذلك
انتهت وذكروا بعد هذه المقدمة أن التوراة نصت على أن من عق والده او والدته
يقتل وذكروا أن هذا الحكم الصعب قله متى في انجيله من التوراة وبعد
أن ذكروا عدة شواهد اخرى من هذا القبيل خفوا كلامهم بهذه العبارة
المستحسنة ونصها

ان اراد حضرة الجار عقاب المذنب على حسب ذنبه فله في ذلك اسوة
مسطورة في كتب العهد القديم وان اراد الصفيح والمسامحة فله ايضا اسوة
بعيسى عليه السلام حيث قبل توبة الولد الجاني التادم على ما فرط منه وعفا
عن الزانية التي استحققت الرجم بمقتضى الشريعة فانه عليه السلام كان يؤثر

العفو على العقوبة وله كذلك اسوة بدود عليه السلام فانه اراد الابقاء على ولده
أبشولم الذي خرج عن طاعته حيث قال لتقواده وكانوا يريدون قتاله أبقوا
على ابني ولا تقتلوه فيها هو الاب قد اراد الابقاء على ابنه وان كان الحكم العدل
انفذ فيه ~~حكمه~~ وها هو قلب الجار بيد مولاة فليختر ما يصرفه
اليه انتهى

وختمت هذه الصورة باختام ثمانية من الاساقفة واربعة من رؤساء الديورة
واثنين من مدرسي القسوس واقل من ختم منهم مطران دوريزان الذي
كان له اختلاط وارتباط بالكسيس كما تقدم
ثم عرض هذا الرأي في الحال على الجار ويؤخذ من منطوقه أن القسوس
كانوا يريدون استمالة الجار الى الصفح عن ابنه فما ألفت ما ذكره
في كناية رأيهم من المقابلة التي جعلوها نصب عين والدير يد الحكم على ولده
حيث قابلوا حلم عيسى عليه السلام وفطر رأفته بصعوبة ما في التوراة
وشدته

وفي هذا اليوم سئل الكسيس ايضا وكان ذلك اخر سؤال له فأجاب
بالكتابة معترفا بما معناه انه كان في زمن صغره من اهل الاوهام الفاسدة
وانه كان بينه وبين القسوس والرهبان ألفة ومخالطة وانه صحبهم في مجالس
شراهم وسرت اليه منهم ~~كراهة~~ القيام بواجبات الدولة بل وواجبات
والله انتهى

فان صح أن هذا الاعتراف صادر عن الكسيس من تلقاء نفسه دل على
انه لم يكن له علم بما صدر عن القسوس الذين اشركهم معه في التهمة من نصيحتهم
لأبيه وحلمهم له على العفو ودل ايضا على أن الجار غير أخلاق قسوس
دولتهم وعوايدهم تغييرا يينا حيث ترقوا من درك الخشونة والجهالة في اقرب
وقت الى درجة امكنهم فيها انشاء مثل هذا التقرير للذي لو اطلع عليه اعظم اهل
خرقهم لا دزعوا اليه واستحسنوا ما فيه من الحكمة والقصاحة
وفي هذا الاعتراف ذكر الكسيس ايضا ما اسلفناه من انه كان يريد أن يخلف

والداه على المملكة بأى طريقة كانت غير الطريقة الشرعية
ويظهر من الاعتراف المذكور أن الكسيس كان يخشى أن ما اعترف به
في اعترافاته الاولى لا يكتفى في نسبة الذنب اليه ويظهر منه ايضا انه اذ وصف
نفسه بفتح الطباع وفساد المقاصد وبكونه تعلقت آماله بأشياء يفعلها لو استولى
على دولة الموسقو ليجت بذلك مع الجهد والمعاونة عما يجعله مستحقا للقتل
الذى سيحكم به عليه وقد حكم عليه بذلك في خامس يولييه وستأى صورة
هذا الحكم تفصيلا في آخر هذا التاريخ ويكتفى أن نذكر هنا القارئ أن ذلك
الصورة مبتدأة بمقدمة مثل المقدمة التى انبتها القسوس في اعطاء رأيهم فان
مضمونها أن مثل هذا الحكم لا تعلق له بالرعية اصلا وانما هو من خصوصيات
الملك الذى ليس فوق قوته الا القدرة الالهية ثم ذكر في ذلك الحكم جميع ما اتهم به
الامير الكسيس وبعد ذلك ذكر أرباب المجلس ما معناه * ماذا يقال فيما
قصده الكسيس من العصيان الذى لم يسبق بمثله في الدنيا لاسيما اذا نظر
مع ذلك الى عزمه على قتل رجل هو بالنسبة اليه ملكه من حيث كونه
رئيس الدولة وابوه من حيث النسب فهو بالنظر لذلك قد عزم على قتل نفسين
اتمى

ولعل هذه العبارة وقع فيها غلط عند ترجمتها من صورة هذه القضية التى امر
الجار بطبعها ونشرها اذ لابد وأن يكون حصل في الدنيا عصيان اعظم من
هذا العصيان ولم يظهر من افعال هذا الامير ما يدل على عزمه على قتل ابيه
ولعلهم عنوا بكامة قتل ما اقرب به عند قسيس الاعتراف من كونه تنفى قتل ابيه
وملكه ولكن الاقرار السرى بأمر باطنى وقت الاعتراف لا يصح أن يقال فيه
انه عزم على قتل نفسين

وقصارى الامر أن الآراء اتفقت على الحكم عليه بالقتل بدون أن يصرح
في صورة الحكم بنوع مخصوص من انواع القتل وعلى كثرة الحاكين بقتله
الذين كانوا مائة واربعاء واربعين نفسا لم يتفكر واحد منهم في عقاب آخر دون
القتل وقد ظهر في ذلك الوقت من الكتابات الانكليزية ما انتشرت به هذه العبارة

الاتية وهي لواقيت هذه الدعوى في مجلس البرلمان بانكثرة لما وجد في المائة والاربعة والاربعين من يحكم على الكسيس بادنى عقوبة وهذا الدل دليل على اختلاف الازمنة والامم كنه الا ترى أن منلبوس (احد قناصل الرومانيين) كان يمكن بمقتضى قوانين انكثرة أن يحكم على نفسه بالموت نظرا الى كونه قتل ولده مع أن الرومانيين مع جبرهم وقسوتهم احترموه ولم يعاقبوه وايضا قوانين انكثرة لم تعاقب على الهروب برنس دوغالس (اى ولى العهد) لانه من حيث كونه ولى عهد الدولة لاسرج عليه بل يذهب حيث يشاء بخلاف قوانين الموسقو فانها لاتسوغ لابن الملك أن يخرج من المملكة فهرا عن ابيه وكذلك خطورا خطيئة بالبال بدون فعل لايعاقب عليه صاحبه في انكثرة ولا في فرنسا ويمكن أن يعاقب عليه عند الموسقو والمخالفة اذا تعمد لها الانسان وأدمن عليها وتكررت منه لانه لا تعد عند فرنسا وية الامن باب السلوك القبيح الذى يلزم ردع مرتكبه وقعه ولكن عد ذلك عيبا عظيما وذنباً جسيما لصدوره من ولى عهد دولة عظيمة عصبانه يفضى الى الدمار ويجتر الى البوار فان ابن الجمار كان محطاً بالنسبة للموسقو جميعا حيث اراد أن يوقعهم في الظلمات التى اخرجهم منها البوه

فانظر الى الجمار مع ما كان له من التصرف والقوة المطلقة المعروفة التى كان يمكنه بها أن يقتل ولده على ذنب العقوق والخروج عن الطاعة بدون استشارة احد كيف قوض النظر في قضيته لو كلاه الملة فغن ثم كان الحاكم على هذا الامير بالقتل انما هو الملة الموسقوية ثم ان بطرس كان واثقا من نفسه بأنه في هذه المادة قد سلك جادة الانصاف حيث امر بترجتها وطبعها ونشرها وعرض نفسه بذلك ليحكم به في شأنه اهل الدنيا

وقد منعنا قانون التاريخ في حكاية هذه الحادثة الفظيعة أن نفعل بشئ منها او نذكره على خلاف ما هو عليه ولا يدرى في اوروبا اى الشخصين احق باللوم من صاحبه هل هو الامير الشاب الذى اتهمه والده ووقع الحكم عليه

بالتقتل من طرف مله كان يلزم أنه يتولى عليها فيما بعد وتصير رعية له أو ابوه
الذى كان يعتقد أنه مجبور على قتل ولده لمصلحة دولته
وقد شاع في عدة كتب أن الجار اخضر من اسبانيا ضورة قضية
دون كرويس الذى حكم عليه بالقتل ابوه فيليس الشافى (وكان من امر
دون كرويس المذكور أنه اغضب والده بعقوبة وسوء اخلاقه وافراده
في السخرية فلما رأى من ابيه الحق والقيظ انضم الى عصابة الفلنك فغثر
على ما قصده من الاغراض واقبت عليه الدعوى وحكم عليه بالموت ولا يدرى
اى نوع حكم به عليه من انواع القتل (وكان ذلك سنة ١٥٦٨
من الميلاد) ويقال ان غير فيليس كان لها في ذلك مدخلة عظيمة لانه
كان له زوجة يقال لها ايزابيل دى فرانسفا أحبها ولده وكان قد وعد بنكاحها
قبل عقد آية عليها) ولكن ~~كون~~ كون دون كرويس اقيمت عليه دعوى باطل
لاصل له بل ماسلكه بطرس الاول (جار الموسقى) مباين بالكلية لما سلكه
فيليس الثانى (ملك اسبانيا) ولم يعرف من طرف دولة اسبانيا بأى
سبب قبض فيليس على ابنه ولا بأى كيفية قتله وانما كتب في هذا المعنى
لباسبا ولا يمبراطورة ذلك العصر مكاتيب متناقضة بالكلية وقد اتهمه
على رؤوس الاشهاد برنس دورنجة (وهو لقب لولى عهد دولة الفلنك)
المسمى غلبوم بأن الغيرة افضت به الى قتل ولده وزوجته وذكر أن وصف
كونه حاكما صعبا دون وصف كونه زوجا ذا غيرة وقسوة ودون وصف كونه
أبا جافيا لاشقة عنده ولا رافة ودن وصف كونه قاتلا لابنه فاعضى عن ذلك
فيليس ولم يعارض هذه التهمة بخلاف بطرس فإنه في قضيته مع ولده
لم يعمل شيئا الا ويظهره للخاص والعام فأشاع ماملا البقاع أنه يؤثر الملة
الموسقوية على ولده وفوض امر الحكم عليه للقسوس واعين الدولة فجعل
بذلك اهل الارض فاطبة يحكمون بما يرونه في شأنه وشأنهم
ومما اشتمل عليه ايضا هذا القدر المحتوم من الامور الخارقة للعادة أن
الحجارة كاترينة مع كراهة الكسيس لها وظهر وشقاها وسوء حظها

اذا صار الامر اليه لم تسع في شئ من نكبته وسوء حظّه ولم يثبت عن احد من
سفراء الدول الذين بدولة الموصو أنّه اتهمها او ظنّ بها أنها سعت اذنى نسي
في ضرر هذا الامير مع انه ابن زوجها من غيرها وكانت منه على خطر نعم
لم يقل احد انها سعت له في طلب العفو وانما وقائع ذلك العصر لاسيما وقائع
قوتة دوبا سويتر كلها متفقة ومصرحة بأنها كانت ترى لحاله

ويبدى الآن كتابات لوزير من وزراء الدول عثرت فيما على هذه العبارة ونصها
قد كنت حاضرا حين اخبر الجبار دوق دو هولستين أن كاترينة
كانت ترجه أن يأمر بمنع قراءة ورقة الحكم بالموت على الكسيس
وقالت له يكفيك في عقابه أن تلبسه ثوب الرهبانية وتنظمه في سلك
الرهبان فان اعلان الحكم عليه بالموت يعود على حفيدك بالخزي
والمعزة انتهى

فلم يحقق الجبار رجاء زوجته ولم يقبل منها في ذلك صرفا ولا عدلا بل ظنّ
أن الالهة أن يقرأ الحكم على الكسيس علانية على رؤوس الاشهاد حتى
لا يمكنه بعد ذلك أن يناقض هذا الحكم الذي اقتره بنفسه ورضى به
ولأن يتطلب اصلا تاج الملك حيث انه بهذا الحكم يصير في حكم الاموات
ولكن لو قام لمساعدة الكسيس بعد موت ابيه حرب قوى فهل الموت
الحكمى يمنعه من الولاية والحكم

ثم ان ورقة الحكم قرئت على الامير المذكور ووجدت في الوقائع المذكورة
ما يفيد أنه اصابه تشنج الاعصاب حين سمع هذه العبارة وهي ان الشرائع الالهية
والقوانين القيسية والملكية والجهادية تحكم بالموت بدون رافة ولا شفقة
على من تجاهر بعقوق والده واساءة ابيه وملكه انتهت ويقال ان هذا التشنج
اقلب معه بدء السكنة فحاولوا افاقته فلم يبق بعد المشقة الا قليلا فطلب وهو
على هذه الحالة التي كان فيها بين الحياة والموت أن يحضر اليه والده لينظره
فأتى اليه الجبار فبكى الاثنان وتحدرت منهما الدموع وطلب الابن من ابيه
الصفح والعفو فصغح عنه على رؤوس الاشهاد ثم مسح هذا الامير المحتضر

مع الاحتفال المسحة الأخيرة (أي مسحة الموت وهي إحدى شعائر سبعة
دينية معلومة عندهم) ثم خرجت روحه بحضور أهل الديوان جميعاً في ثاني
يوم من قراءة الحكم عليه بالموت فحمل أولاً إلى الكنيسة الكبرى على نقش
مكتوف وأبجوه فيها أربعة أيام لينظره الناس ثم دفنوه في كنيسة القلعة بجوار
زوجته وشهد جنازته كل من الجار والجار
ثم إن الإنسان مجبور بالضرورة على أن يقلد الجار في مثل هذه المادة
إذا صبح إطلاق التقليد على مثل ذلك بأن يجعل جميع الوقائع التي آتت بها
كما هي حرفاً مجرد عرضة لامتحان الآراء العامة وقد هلك الفكر الصائب
وبمثل هذا النقد يتحقق أيضاً جميع ما وافر في هذا الشأن من الأخبار وتداولته
الأسنة في هذا المعنى من قبل وقال وكذلك جميع ما كتبه في هذه المادة
ثقاة المؤرخين وطبعوه وذلك أن المؤلف لتبرئ الذي هو أبعد المؤلفين عن
التصاميل والأغراض وأدقهم ومن عادته التعرّض في نقل العبارة برمتها كما هي
من محال تسجيلها من دواوين مصالح أوروبا يترأى منه أنه حاد في هذه
المادة عن جادة الانصاف وعدل عليه هدفه من تمييز الغث من السمين حيث
قال إن الجارة كانت دائماً تخشى على ولدها فلم تأل جهداً حتى جلت
الجوار على إقامة الدهوى على ولده المبكرى والحكم عليه بالموت
ومن الغريب أن الجار بعد أن عاقبه بنفسه بعقاب الكنوت (وهو عبارة
عند المومسوق عن كون المعاقب يضرب بالسوط على ظهره حتى يتمزق
جلده) ضرب عنقه بنفسه وطرح جثته في محل بحيث يراه العام والخاص
وكان قد وضع رأسه عليها وضعا محكما حتى إن الناظر لا يظن أنهم منفصلان عن
بعضهما فاتفق أن ابن الجارة مات بعد ذلك بمدة وتأسفاً عليه غاية الأسف
حتى إن الجار تعكر مزاجه وتغيرت أخلاقه لكونه قطع رأس ولده بيده
وتذكر الآن أنه يموت هذا صار أبتراً لعقب له وقد بلغه في هذا الوقت أن
الجار كان بينهما وبين الأمير منزيقوف أمور سرية غير مرضية فكان هذا
بأنضماله إلى تذكر أنها كانت سبباً في كونه قتل نفسه ابنه المبكرى بأعماله

على أن عزم أن يخلق رأسها ويحبسها في دير من الديورة كما صنع بزوجه الاولى
التي كانت لم تزل في الدير الى ذلك الوقت وكان من عادته أنه اذا تفكر
في امر او عزم على غرض قديم في صحائف صغيرة لاجل تذكره فقيده ما عزم
عليه في شأن الجارة وكانت قد استخالت اليها بالمودة جماعة من غلمان
الجار المختصين بخدمته وكان احدهم قد تعود على اخذ تلك الصحائف من
طاولة الجار المعتدة لتزيينه وتحسين هيئته ليطلع عليها الجارة فاخذ
الصحائف التي قيدها الجار غرضه في شأنها وناولها اياها فلما قرأتها اخبرت
بذلك من يقرب وبعد ذلك يوم او يومين عرض للجار مرض شديد
لم تعرف حقيقته فانضى به الى الهلاك فقبل ان هذا الداء ليس الا السم لان
المرض اصابه بغتة مع غاية الشدة وذلك لا يكون الا من السم ومثل هذا الامر
على ما يقال جار يبلاد الموسقو انتهى

وما ذكره لتبرقي في كتاباته من مثل هذه التهم قد انتشر في اوروبا وشاع
في سائر بقاعها ولم تزل منها جلة عظيمة ما بين مطبوع ومكتوب بخط اليد لا مانع
أن الخلف يقولون بها ويعتقدون صحتها

والذي اراه انه يجب على أن اورد هنا ما وقف عليه في هذا المعنى فاقول
ولا اقول الاحقا ان الذي قل عنه لتبرقي هذه النادرة الغريبة هو في الواقع
ونفس الامر مولود يبلاد الموسقو ولكن عائلته غير موسقوية ولم يكن
مقيما بهذا الديار حين حلت التكنبة بابن الجار بل كان غائبا عنها منذ عدة سنين
وكان قد سبق لي به معرفة وكان اجتماعه بالمؤلف لتبرقي في مدينة نيون
الصغيرة (من بلاد السويس) وكان هذا المواقف قد التجأ اليها وقد ذهبت الى
هذه المدينة غير مژرة واجتمعت فيها بالذي قل عنه لتبرقي فقال لي اني لم اخبر
لتبرقي الا بما كان حاصل اذ ذاك من اللغط والقبل والقال

ومثل هذا يدل على انه كثر ما كان في الصدر الاول ان الانسان
بفردة يسهل عليه أن يقع في اذهان الناس منقصة غيره ومذمته فانه
قبل ظهور فن الطباعة كانت كتب التاريخ المنسوخة بخط اليد لا يحوزها

اذ ذاك الاقليل من الناس فلم يكن هنالك طريق لنشرها بحيث يحصلها العام
والخاص ولم يكن ثم من المعاصرين من يعارضها ويتعقبها فلم تكن وقتئذ عرضة
للمناقشة من كل احد كالا ن فكان في ذلك العصر يكنى في جعل الملك مكروها
مذموما عند اهل الارض وفي تأييد مذمته وتناقل فضيخته خلفا عن سلف
وجيلا بعد جيل أن يكتب في ذلك مثل تاسيت وسويتون سطر واحد
بل كان يكنى ذلك ولو في السير المطولة والتواريخ المبسوطة

وكيف يمكن أن الجار يضرب عنق ولده بيده * ومن الذي مسح السمحة
الاخيرة بحضرة اهل الديوان جميعا فهل كان بلا رأس حين مسحوا رأسه
بالزيت * وفي اي وقت خبط رأسه بالحنة حتى التصق بها * كلابل هذا الامير
منذ تلى عليه الحكم بالموت الصادر في شأنه لم يحصل تركه ولا مفارقتة لحظة
واحدة حتى مات

وما قيل من أن اباه قتله بالسلاح يطل ما قيل انه قتله بالسهم نعم وان كان
من البعيد النادر الوقوع جدا أن الشاب يموت من اختلال مزاجه على حين
غفلة من قراءة حكم عليه بالموت لاسميا وهو يعلم وينظره الا أن الاطباء قالوا
ان مثل ذلك ممكن لا يعد حصوله

ولو صرح ما ذكره كثير من المؤلفين أن الجار سم ولده لكان ما فعله في اقامة
هذه الدعوى المشؤمة لاثبات أن له الحق في عقابه عند دول اوروبا عبثا
لا ثمة له ولا طائل تحته بل تكون حينئذ الاسباب التي بنى عليها عقوبته محلا
للاريية ويكون هو محلا للقدح والتشنيع والواقع أنه لو اراد قتل ابنه لاجرى
الحكم عليه بالموت اوليس انه السيد المنتصر ف وهل يظن بملك ذى تبصر وحزم
كان مطمعا لانتظار سائر الاقطار أن يرتكب ما يؤذن بضغفه وجبنه من سم ولده
مع أن في وسعه قتله بسيف العدالة وهل يليق بمن يسهل عليه اجراء ذلك
من غير أن يوصف عند الخلف الامجزد الوصف بالحاكم المشدد أن يرضى
تدنيس نفسه بسلك طريق اخرى في اجراء هذا الامر تكون سببا في وصفه
بالسام الغادر بابنه

وينتج مما سلفناه على ما هو الظاهر أن بطرس غلب فيه وصف الملوكية على وصف الابوة فانه من حيث كونه مؤسساً ومقنناً للقوانين اقتدى مصلحة نفسه ومصلحة اهل ملته بئذ ملهجة ولده واتلاف ثمة كعبده اذلولاً سلوكه هذا المسلك الصعب لسقط الموسقو في مهاوى التبرير والخشونة التي نسلهم من احوالها واخرجهم من غياها ولم يسع في اهلا كه كما هو ظاهر رعاية لخاطر زوجة ابشأها الجفاء والقسوة ولا رعاية لابنه منها لانه كان يهتده بجرمانه من ارث المملكة بعده قبل أن يولد له منها هذا الولد الذي كان اختلال صحته على صغره دليلاً على انه لا تطول حياته وكان الامر كذلك فانه مات بعد ذلك بقليل ولو فعل بطرس هذه الفعلة العظيمة لمجرد ارضاء خاطر زوجته لكان ضعيف الرأي خفيف العقل جباناً والواقع انه كان على خلاف ذلك قطعاً فانه تبصر ونظر في عاقبة ما تؤول اليه احداثاته وتأسيساته التي استدعها وما يصير اليه اهل ملته اذ اهم استمروا محافظين على اقتفاء اثره والنسج على منواله فقد وقع ما اخبر به من تحسين مشروعاته وتبجيز اغراضه وتكميل مقاصده حتى صارت ملته شهيرة محترمة عند دول اوروپا بعد أن كانت عنها بمعزل ولو بقي ألكسيس وتولى بعده زال كل ذلك وصار الى حيز العدم وبالجمله فتذكر نكبة هذا الامير تقشعر له قلوب اهل الرأفة والشفقة وتركن اليه قلوب اهل الجفوة والقساوة

وهذه الحادثة الجسيمة الهائلة التي هي ايضا في وقتنا هذا اقرب عهد بالحصول في الاذهان يتكلم عليها الناس غالباً مع التعجب والاستغراب حتى اوجب ذلك الرجوع الى ما ذكره مؤلفو ذلك العصر في شأنها والنظر في عباراتهم بعين التأمل الناقد الذي مر امه الوقوف على الحقيقة فمن هؤلاء المؤلفين الجلياع الذين لا يفترون الغث من السمين ويتجاسرون على الاتصاف بوصف مؤرخ بدون استحقاق مؤلف ذلك ر العبارة الاتية في كتابه الذي اهداه الى قوته دوبرول اكبر وزراء ملك له وعنوانه باسمه حتى يكون له اعتبار وقبول ونص العبارة المذكورة ان الموسقو جميعاً يميزمون بأن ابن الجار

لم يمت الابن الذي اعدته لبيدها زوجة اليه الجافية القاسية انتهى وهذه
التهمة يطلها اقرار الجار لدوق دوهولستين أن الجارة اشارت
عليه أن يجلس ولده هذا المحكوم عليه بالموت في دير من الاديبار
(كما سبق)

واما دعوى كون هذه الجارة سميت زوجها بطرس فهي ايضا واخمة
البطلان بمجرد النظر الى قضية الغلام والعكاف فانه لا يعقل أن انسانا يكتب
في صحيفة لاجل تذكاره ماضوره يلزم أن تذكر أني عزمت على حبس زوجتي
وهل ذلك من الامور التي تنسى حتى يضطر الانسان الى تقييدها لاجل التذكر
ولو صح أن كاترينة سميت زوجها وابن زوجها الصبح أن ينسب اليها ارتكاب
غير ذلك من الذنوب والخطايا لكنها لم يعهد عليها اصلا انها ارتكبت من القساوة
والجبر ما يتوجه به عليها ادنى لوم بل لم تعرف الا بالارق ولين الجانب والاعضاء
عن الهفوات

فن الواجب حينئذ أن نبين هنا السبب الاصل في سلوكه الكسيس
وهروبه وموته وموت شركائه في الذنب الذين قتلوا بيد الجلاذ فقول ان السبب
في ذلك كله هو الخطأ في الديانة واعتقاد ما ليس بدين ديننا الناشئ ذلك من
القسوس والرهبان فانهم اصل لكثير من المضار والمصائب كما يفصح عنه
بعض اقرارات الكسيس السابقة ولا سيما عبارة الجار التي ذكرها
في مكتوب كسبه لانه وهي سيعدل بك طوال اللي الى اغراضهم
ولنذكر لك هنا ما كسبه في هذا المعنى بعض سفراء الدول الذين كانوا بمدينة
برسبورخ وصورته ان عدة قسوس لم يزالوا محافظين على عوايدهم القديمة
الخشنة وعرضين اشدة الحرص على ما كان لهم من الشوكة ونفوذ الكلمة
وكانت تلك العوايد والشوكة تضيق منهم كلما تمدت الملة يرغبون كل الرغبة
في تولية الكسيس حيث كان يعدهم بأنه يعيدهم الى ظلمات هذه الجهالة
العريضة عندهم ومن جلتهم استفاد دويستو الشهي دوزيته فانه زعم
ان الماردوم تريوس اتى اليه واخبره عن الله تعالى أن بطرس لا يعيش

ثلاثة اشهر وأن اودوكسيا المسجونة في دير سوسدال التي تزهدت
وسميت باسم هيلانة كالاميرة مارية اخت الجمار تجلس مع ابنتها
(ألكسيس) على سرير المملكة وتتولى معه الاحكام فصدمت كلتاها
هذا القول الزور لضعف رأيهما وقص عقلهما وصار هذا عندهما محققا لا شك
فيه حتى ان هيلانة خلعت ثوب الرهبانية في الدير واسترجعت اسمها
الاصلي وهو اودوكسيا وأمرت أن يتخاطب بالحضرة الملوكة
وأن لا يذكر اسم ضررتها كاترينة في صلواتهم العمامة وصارت لا تلبس
الاثياب الاولية التي تلبسها الجارات عادة في المحافل والتشريفات
فعارضتها في ذلك خازنة الدير قتلتها اودوكسيا ان بطرس
قد عاقب الاسترليج على اساءتهم لأمه وكذلك ألكسيس بعاقب
كل من اساء أمه وجبستها في صومعتها ثم دخل الدير احد الضباط المسمى
اصطفان غليبو فجعلته اودوكسيا واسطة في تهجير اغراضها واستمالته
اليها بالتودد والاقبال عليه فنشر في مدينة سوسدال الصغيرة وفيما حولها
ما اخبر به دوزيته الذي يزعم انه اوحى به اليه فمضت الثلاثة اشهر ولم يصب
بطرس شئ فلامت اودوكسيا على الاسقف المذكور حيث ان الجمار
لم يزل على قيد الحياة فقال دوزيته ان السبب في ذلك خطايا والدي
وهو الآن في المطهرة (اي هو المحل الذي تكفر فيه السيئات) وهو الذي اخبرني
بذلك فاكثرت عند ذلك اودوكسيا من عمل القديس والترحم للموتى
وقال لها دوزيته ان هذا القديس حاصل منه تأثير ونفع ثم جاءها بعد شهر
وقال لها ان رأس والدي قد طهر وصار خارج المطهرة واخبرها بعد الشهر
الثاني انه خرج منها الى وسطه ثم اخبرها بعد ذلك انه لم يبق منه في المطهرة
الا قدماء ومثي خلصتا وان كان خلوصهما اصعب من غيرهما مات الجمار
بلا شك

واما الاميرة مارية التي كانت لم تزل معتقدة صحة خبر دوزيته فانها
قوضت امرها بالكلية الى هذا الاسقف بشرط أن يخرج والده من المطهرة

في اسرع وقت ويتم امر الوحي ثم ان غلبيو لم يزل على مخالطته للبحارة
القديمة

فكان هذا التبا اعظم باعث لالكسيس على الهروب فذهب الى البلاد
الاجنبية ينتظر فيها موت ابيه فبما قليل ظهر الامر وانكشف الحال وقبض
على دوزينة وغلبيو وقرنت مكاتب الاميرة مارية الى دوزينة
ومكاتب هيلانة الى غلبيو على ارباب مجلس الست وحسبت
مارية في دير سلوسبورغ وقلت الجارة القديمة الى دير اخرواما
دوزينة وغلبيو وجميع من واتهم على هذه الديسة الباطلة الناشئة
عن الاوهام الفاسدة فاذا بقوا اشد النكال والعذاب وكذلك من اسرهم
الكسيس على هروبه قدمات في العقوبة والعذاب كل من قيس اعترافه
وناظر تر بيته والاوده باشي انتهت

ومن هذا تعلم ما بذله بطرس الاكبر في شراء السعادة التي جلبها الى اهل ملته
من الثمن الغالي الذي يحزن النفوس فكهم مانع عمومي كان لا بد له من الظهور
عليه وعائق سرى يلزمه الظفر به وهو مع ذلك في حرب طويل كثير المشاق
والاخطار فان اعداءه في خارج المملكة كانت كثيرة والتعصبات عليه
في داخلها كانت صعبة خطيرة كيف ونصف عائلته كان قائما عليه واغلب
طائفة القسوس كان متحزبا على مشروعاته مع غاية العناد بل مكثت معظم
المله الموسقوية بتمامها الا ما قل وهي مغتالة منه على ما فيه صلاحها وحسن
حالتها حيث كانت وقتئذ لم تصل الى درجة ادراك منفعة ذلك ولم يكن
في وسعها ان تحس ثغرة سلوك تلك المسالك وكمن اوهاهم فاسدة كان لا بد من
ازالتهن من اذهان الامة الموسقوية واعتقادات كاسدة يلزمه محو اثرها بالكلية
وكمن غموم كان يلزمه ان يكشف عن الصدور ضباها ويميط عن القلوب حجابها
فكان لا بد له من خلق جديد يعقني بتريلته ويهيم بتحسين نشأته حتى يتمكن
مما كان يحظر له من المشروعات وينجز ما كان يعق له من حسن الابتداعات
التي توجب السعادة والفخار وتوصل الى الاعتبار وعلو القدر مما لم يمكن

لاسلافهم

لا سلافهم أن يخدموه ولم يستطع آباؤهم أن يقبلوه

(الفصل الحادى عشر)

في ذكر ما بدعه بطرس من الاشغال والمصالح في نحو سنة ١٧١٨ من الميلاد وما بعدها

لما حصلت هذه الحادثة المهزلة المهولة ظهر أن بطرس ليس الاباوطنه وأنه كان يعتبر ملته مثل عائلته * وما كان مجبوراً عليه من عقاب بعض اهالى الملة الموسقوية الذى كان يحاول منع البعض الآخر من سلوك طريق السداد حتى يكون له الحظ الاوفر في السعادة كان فدية لكافة الملة حيث اقتضت ذلك ضرورة توجع منها النفوس وتأثرها القلوب

ففي سنة ١٧١٨ ميلادية وهى السنة التى حرم فيها ولده البكرى من ولاية العهد وحقوق وراثه المملكة ومات فيها جلب الجمار (رعاياه منافع جمة وجدد لهم مصالح كثيرة مهمة حيث انشأ فيهم ما لم يكن يعرفونه قبل ذلك من حسن النظام والاصلاح العام فحدد بالانشاء او الاصلاح القنون والصنائع على اختلاف انواعها والقبريات وجدد ايضا في دولته فروعاً من التجارة التى اخذت في الراج وحفر خطبا واصلت بين الانهار والبحار وواقعت الموصلة والمخالطة بين الاهالى بعد أن كانوا منفصلين بمقتضى اوضاع بلادهم ومواقع اراضيهم * وكل هذا لا يعد من الاحداثات العجيبة التى اذا اطلع عليها عامة القارئین تعجبوا كل العجب ولا يعد من تزوير الدواوين الذى يسر خاطر اهل الشر ولا من التقلبات العظيمة التى تسر رغبة العامة في العادة وانما حق ذلك أن يعد من الامور التى يترتب عليها سعادة اهل دولته بتمامها ويظهر اليها اهل الحكمة والعقل بعين الاستبصار والتفكر

فجعل للدولة بتمامها اميرا كبيرا ضابطا عليها فيما يخص الضبطية الداخلية وعين اقامته بمدينة ترسبورغ رئيسا على محكمة مأمورة بيقاع الانتظام والضبط والربط بدولة موسكو من اقواها الى آخرها ومنع مع التشديد استعمال الزينة في الملابس وكذا لعب القمار الذى هو أشد خطرا من الزينة

وانجز تأسيس مدارس حساب بجميع مدن دولة الموسقو كان قدامها واحدتها
سنة ١٧١٦ ميلادية وكذا المارستانات المخصصة للإيتام واللقطة
التي كان قد ابتدأ في انشائها قبل الآن ولم تتم فانه تمها ورتب لها ما يلزم من
المصاريف وامتلأت من الإيتام واللقطة

ولنذكر هنا ايضا جميع الاحداثات النافعة التي كان قد عزم على تجديدها
في اقل الامر ثم انتهت وكلت بعد عدة سنين فنها أنه عتق جميع المدن الكبيرة
من الجهم الفقير الكائن فيها من الشحاذين المبعوضين الذين لا يريدون أن يتخذوا
لهم صنعة أخرى سوى قلى اهل الصناعة والشغل فهذه المثابة يعيشون
على طرف غيرهم معيشة مستحقرة تورث الخزي والخل ومثل هذا الخلل لم يزل
تقاسيه دول أخرى غير دولة الموسقو

وجبر الاغنياء على بناء بيوت منتظمة بمدينة بترسبورغ على حسب
غناءهم وسهل ذلك عليهم بسياسة مستحسنة وهوانه امر ان تنقل مهمات
البناء الى مدينة بترسبورغ بدون اجرة بواسطة السفن والعربات التي
كانت تعود قبل ذلك الى المدينة المذكورة فارغة من الاقاليم المجاورة اليها
بعد اخراج ما فيها من الوسق وقد عين مقادير الاوزان والمقاييس والمكاييل
وجعلها منتظمة مستوية في جميع الاماكن لا تغير فيها ولا تبديل كما انه
جعل الشرايع والقوانين مستوية وهذه التسوية المرغوبة بدون طائل في دول
مقتدة منتظمة من مدة مديدة قد ترتبت وجرى عليها العمل بدولة الموسقو
بدون صعوبة ولا لغط من الاهالي فالتاها لئلا ان هذه المصلحة الخيرية يشق
اجراؤها ببلاد فرنسا وقد سعا اثمان البضائع اللازمة لكل ثمان
القوانيس التي كان لويز الرابع عشر اقل من اخترعها لمدينة باريس
لم يزل الى الآن مجهولة بمدينة رومة ترتبت بمدينة بترسبورغ
وصارت تبرحاراتها مدة الليل وكذا الطلبات لاطفاء الحرائق وكذلك ابواب
المدينة المبطله الحارات مع المتانة وجميع الاشياء التي تخص الامن والنظافة
والإتظام والضبط وتسهيل التجارة الداخلية والمزايا للاجاب والاغراب

والقوانين التي تمنع ارباب هذه المزايا من تجاوز الحد كل ذلك حصل بكل من مدينة موسكو وبترسبورغ على نسق جليد حديث ونجح حسن الحار تحسينا زائدا فبريقات الاسلحة سيما القبريقة التي كان احدها على البعد من مدينة بترسبورغ بعشرة اميال وكان هو اول ملاحظ في القبريقة المذكورة فكثيرا من الشغالة كانوا يشتغلون فيها أمامه وهو يلاحظ اشغالهم وكان يذهب بنفسه لاجل أن يأمر بجميع متعهدي طواحين الحبوب والسحق ونشر الاخشاب ويأمر ايضا بفتح فبريقات الحبال والقلوع ودق الطوب وجمر الاوردواز وكذا بفتح فبريقات الاخشبة بما يلزم وكان يأتي اليه من دولة فرانسا كثير من العملة الشغالين في كل فن وكان هذا اثر ارتحالهم الى البلاد الاجنبية

واحدث مجلس تجار وجعل نصف اربابه من اهل دولته والنصف الاخر من الاغراب حتى تكون المساعدة للشغالة وارباب الحرف والصنائع مع المساواة والعدالة اهالي كانوا اواجاب وقد احدث احد القنساوية بمدينة بترسبورغ فبريقة المرائي بامدادات الامير منزقوف وحدث فرنساوي آخر شغل السجادات والبسط القائمة السداء حسبا يشتغل بفبريقة غوبلان الشهيرة التي بمدينة باريس وهذه الفبريقة لم يزل يشتغل فيها الى الان مع غاية الاجتهاد والترغيب وقد احدث ايضا فرنساوي ثالث فبريقة لشغل القصب اتخذ من الذهب والفضة ونجح في ذلك وامر الحار بأنه لا يشتغل في هذه الفبريقة في السنة الا اربعة آلاف مركة (والمركة مقدار من الذهب والفضة يساوي ثمانية اواق) وذلك لثلاث قصص الفضة او الذهب من محالكم وبلاد

وقد اعطى ثلاثين ألف روبلة اعنى مائة وخمسين ألف فرنك من نقود فرانسا وكذا جميع الادوات والآلات اللازمة للذين شرعوا في احدثان فبريقات الجوخ وغيره من اقمشة الصوف فترتب على هذا البذل النافع ان صار في وسعه ان يلبس عساكره من الجوخ المصنوع ببلاده بعد ان كان يجلب اليهم

من مدينة برلين وغيرهما من البلاد الأجنبية
فكان يصنع بيلاد الموسقو اقشة قبيسة تضاهي اقشة بلاد القنك وعند
موته وجد في مدينتي موسقو وچارسلان اربعة عشر فريقة من فريقات
القبيل والكنان

ولاشك أنه كان لا يخطر ببال احد قبل حين كان يباع الحرير في بلاور وبارتسه
ذهبا انه باقى او ان يحدث بالجهة التي خلف بحيرة لادوغا الكائنة تحت قطر
بارد ذي تلج في برك مجهولة مدينة ذات ثروة وغنا مبصطنع فيها الحرير الجمي
صناعة جيدة كما يصنع في مدينة اصفهان ففعل بطرس هذا المشروع
ونجح فيه كل النجاح ثم ان معادن الحديد كانت تستخرج جبولة الموسقو
استخراجا جيدا وذلك انهما حصل استكشاف بعض معادن الذهب
والفضة مما احدثا مشورة تخص المعادن لاثبات وتحقيق ما يستخرج
هل ينتج منه مكسب ورجح اكثر من المصاريف التي تصرف عليه

وقدر رأى انه لاجل أن تتشعب انواع الصنائع والفنون وغيرهما لا يصح
في ذلك مجرد وضع امضاه على فرمانات رخصة الصنائع والحرف ونصب
مفتشين على ذلك بل اقتضى نظره في اقول الامر أن يشتغل هو بيده ويباشر
بنفسه كما كان يفعل أولا في انشاء السفن وقطع شراعتها ونسييرها وعند حفر
الترع في الاراضي المتوحلة التي يكاد يصير العبور عليها صكنا في بعض
الاحيان يقود العملة الشغالة ويحضر معهم الارض ويعمل التراب بنفسه

وفي هذه السنة بعينها اعنى سنة ١٧١٨ من الميلاد رسم صورة ترعة
بحيرة لادوغا وسدودها ووضاها بذلك اتصال نهر فوا بنهر آخر قابل لأن
تسير السفن فيه ليسهل بذلك وصول البضائع الى مدينة بتربسبورغ ويحجب
بعد المسافة مع الطوف حول محيط بحيرة لادوغا التي هي عرقلة للقرطونك
وعواصف الرياح وفي الغالب يتعسر سير السفن فيها فعمل بنفسه تسوية ارض
تلك الترعنة ولم تزل الآلات التي استعملها في حفر الارض ونقل التربة
محفوظة الى الآن وتأسى بفعله هذا جميع اهل ديوانه وقد اسرع في اشغال

هذه الحيلة وكان يترامى لها من حيز المستحيل وقد تم بعد موته وكذا باقى مشروعاته التى عزم عليها واعترف خلفه بعد موته من المحطات قد تم ايضا

ثم ان ترعة مدينة كرونستادت الكبيرة التى يمكن تخفيفها مع السهولة وفيها تقطع السفن البحرية قد ابتدأ فى حفرها فى أثناء الزمن الذى كانت تقام فيه دعوى ابنه

وبنى فى السنة المذكورة مدينة جديدة سماها مدينة لادوغا الجديدة وعملها ليل تم بحرى ترعتها التى توصل بحر البلطيق فتلندة والبحر المحيط فكل فى اقل الامر تأتى السفن الصاعدة فى نهر ولغا (اى نهر الاتل) الى النهرين الصغيرين المذكورين اللذين وصلهما ببعض ومنها تذهب بواسطة ترعة اخرى الى بحيرة ألن ثم بعد ذلك تدخل فى ترعة لادوغا ومنها تنقل البضائع بواسطة البحر المحيط الى جميع اجزاء الدنيا

وبينما كان بطرس مشغولا بهذه الاشغال الحسيسة التى كانت تعجز بمباشرة وصلت همته الى بحيرة نيجيزرة فنجسها فى نهاية المشرق واقام قلعتين بلك الجهة الجنوبية المال من منذ زمن طويل لباقى اهل الارض وكان جماعتهم المهندسين الذين كانوا بدارسة البحرية التى احدثها سنة ١٧٤٥ ميلادية يسعون بجميع اقاليم دولة الموسيقى لرسم خرائطها مع غاية الضبط والحصة لى يطلع سائر الناس على الاراضى الموسيقية المتسعة التى اكسبها بطرس التريفة والرفاهية والغناء والثروة

(الفصل الثانى عشر فى التجارة)

التجارة الخارجية كادت أن تنقرض بالكلية ببلاد الموسيقى قبل عهد بطرس فأحيائها المذكور واعادها ومن المعلوم أن التجارة تغيرت عن عاداتها الاولى وطريقها الاعطية فى جميع الاقطار فان الجهة الشمالية من بلاد الموسيقى كانت قبل جورلنك (وهو سلطان التتار) مركز تجارة بلاد البوتلن بل وبلاد الهند ايضا واهل مدينة جنويزة هم اقل من ان تجر هذه الجهة ثم ان كلام من نهر

طنائس (ويقال له اوزى صوي) والبورستين (ويقال له تن صوي) كان
مشهورا بمجسولات بلاد اسيا ولكن لما فتح تيورلنك في اواخر القرن الرابع عشر
بلاد القرم وصار لآل عثمان الولاية على بحر ازاك اقترض ذلك الفرع التجارى
المجسيم من تجارة الدنيا فاراد بطرس احياءه من بعد أن كان في حيز العدم
باستيلائه على بحر ازاك ثم ان واقعة نهر البروث المخصوصة اعدته مدينة
ازاك وبها خبت جميع ما ربه التجارة بواسطة البحر الاسود فاضطر أن يفتح
بواسطة بحر الخزر طريق تجارة ليست في الاتساع اقل من التجارة الاصلية
المفقودة وكان في القرن السادس عشر وابتداء السابع عشر قد سعى الانكليز
في احياء تجارة ارقنجل ولكن خاب سعيهم في ذلك بالكلية فلم يجد شيئا
وقد ذكرنا سابقا أن والد بطرس الاكبر كان انشأ باعانة فلنكي سفينة لاجل
أن تذهب من مدينة ازدرهان الى سواحل الحجم بقصد التجارة وقد حرق
هذه السفينة استنكورا زين العاصي الخارج عن الطاعة فن وقتئذ خبت
جميع المقاعد التجارية التي كان يؤتمل اهل الموسقو حصولها بينهم وبين
الحجم مع الاستقامة والرشاد فن ذلك قبل بطرس الارمن الذين هم وكلاء
التجارة بسواحل بلاد الحجم في مدينة ازدرهان وجبرأهل الموسقو على
أن يسلموا لهم في جميع المزايا التجارية ومثل ذلك يفعله اهل الهند ببلادهم
مع طائفة البنيان وهكذا دولة آل عثمان وكثير من دول النصارى
بهذه المشابة مع اليهود فان من ليس له الاجهة واحدة يكتسب منها تحوجه
الضرورة الى أن يتقن تلك الجهة الضرورية لمعاشه كل الاتقان * ويلاحظها
دائما بعين العرفان * وماعدها من الامم والدول يكون محتاجا اليه مضطرا
لاستخدامه ما عارفه اللازمة في بلاده

فجر بطرس هذا التحلل الحاصل بدولته حيث عقد مشاركة مع شاه الحجم
مضمونها ان جميع الحرير الغير المغة لقبريات الحجم يعطى لارمن مدينة
ازدرهان لاجل ان يتقلوه الى بلاد الموسقو ولكن ما حصل ببلاد الحجم
من الفتن والاضطراب منع عنما قريب اجراء هذه المشاركة وسيأتى لنا

بيان ما وقع من حسين شاه الجهم حين هذبه المتعصبون وضيقوا عليه فطلب
من بطرس الامداد والمساعدة وسيلتي ايضا بيان ما حصل من بطرس
بعد ان قاوم كلام آل عثمان والاسوج في حروب شاقة صعبة ثم ذهب
الى بلاد الجهم ليستولى منها على ثلاثة آهاليم وليس المقصود هنذا كرتي موى
التجارة وانما سيأتي ذلك في محله

ثم لانه كان يظهر ان حصول التجارة بين كل من دولتي الموسقو والصين مشروع
عظيم يعود بالنفع على كلتا الدولتين وذلك لانهما دولتان عظيمتان ملتصقتان
ببعضهما تلك احدهما ما هو مقفود في الاخرى فكان يفهم ان كلامهما محتاج
بالضرورة للاخر في المعاملة والاخذ والعطاء لما في ذلك من المنافع للطرفين
لاسيما من هذا الصلح الذي اذاعه بين الدولتين المذكورتين سنة ١٦٨٩
من الميلاد

وكان مبدأ احداث هذه التجارة سنة ١٦٥٣ من الميلاد وذلك انه
ترتب على نهر طبول جمعيات تجارية من اهل اقليم سبير ومن عائلات
تسارية من بلاد بخارى مستوطنة بسبير فترهوا للقوافل بسهولة
القلوق (الكيمائية) ثم اجتازوا الصحارى حتى وصلوا الى بلاد التتار
الصينية وقازوا بمكاسب شتى غير ان ما حصل من التقلبات والفتن ببلاد
القلوق وما حصل بين اهالي دولتي الموسقو والصين من النزاع والجدال
في شأن حدود هاتين الدولتين كان سببا في التفتيش والتعكير على تلك
المشروعات التجارية

فكان من البديهي ان هاتين الدولتين بعد الصلح الذي وقع بينهما سنة
١٦٨٩ من الميلاد يتفقان على محل معلوم يتفقون بهما يكون حدا لا يختص به
احدهما دون الاخرى لتجلب فيه البضائع فان اهل سبير وكذا
من عداهم من الامم كان احتياجهم لاهل الصين اكثر من احتياج الصينيين
لهم فلذا طلب الموسقو الاذن من صاحب الصين في ارسال قوافل الى
مدينة بكين فوالوا منه ذلك مع السهولة في اوائل قريته هذا

وعما اشتهر وشاع أن كهني صاحب الصين اذن ببناء كنيسة موسقوية
 في بعض ضواحي مدينة بكين يخدمها بعض قسوس من سبير وجعل
 مصاريفها على خزينة الدولة الصينية وانما اذن البادشاه المذكور
 بنائها مراعاة لخاطر عائلات من يلاذ سبير الشرقية كان
 بعضهم قد اسير يلاذ الصين قبل الصلح الذي حصل سنة ١٦٨٩
 من الميلاد وكان البعض الآخر من الهاربين التاركين لوطانهم المنضمين لاهل
 الصين وقت الحرب ولم يرض احد منهم أن يعود الى وطنه بعد صلح نبشو
 فان قطر مدينة بكين ولين جانب اهل الصين وسهولة تحصيل عيشة راضية
 يسير من الشغل كل ذلك جعلهم على الإقامة ببلاد الصين والاستيطان بها
 ثم ان وجود كنيسةهم الصغيرة اليونانية المذكورة لم يكن مضرًا بالدولة
 بخلاف كنائس اليسوعيين فانها كانت مضرّة وايضا كان البادشاه كهني
 يساعد على حرية الديانة اى اباحة الدين بأي دين كان وهذه الاباحة كانت
 يلاذ آسيا بتمامها في جميع الاعصار بل وفي عموم الدنيا في سائر الازمان
 واستمرت الى عهد الامبراطور الروماني تاودسيوس الاول ولما امتزجت
 هذه العائلات الموسقوية بالعائلات الصينية رفضت هذه العائلات
 الموسقوية دين النصرانية لكن لم تزل كنيسةهم المذكورة متباقية
 واستقر الرأى على أن القوافل السبيرة التي ترد على مدينته بكين وتجب
 اليها الفراء وغيرها من البضائع التجارية يرخص لها في التعبد في هذه الكنيسة
 وذلك لما أن مدة الذهاب والاياب والإقامة كانت تستغرق ثلاث سنين وقد
 مكث الامير غاغرين حاكم دار سبير رئيسا على هذه التجارة حتى عشرين
 سنة وذلك لأن القوافل في بعض الاحيان كانت كثيرة الاشخاص جدا وكان
 يصعب ضبط رعايا الناس الذين كان يتكون منهم اغلب اهل القوافل
 وكانت تمر هذه القوافل على اراضي الهمبا (وهو لقب رئيس ديانة التتار) وهو
 كناية عن ملك قاطن على تهر اورخون المسمى ايضا لوتوكس وهذا الرئيس
 هو احد نواب الهمبا الاكبر الذي جعل نفسه في زمرة المملوك المستقلين القاطنين

بأنفسهم لكونه نسخ شياً في المذهب القديم الهندي القائل بتناسخ الارواح ولا يمكن تشبيه هذا الخبر بشيء أعظم من تشبيهه بحسوس النصارى اللوثريان اهل مدينتي لوبك واسنابروك ببلاد النمسا (وهم المعتزلة اصحاب لوتبر) الذين خلصوا أنفسهم من أسر البابا بتشجيعهم وخروجهم عن طاعته فأساء القوافل الادب في حق هذا الخبر المذكور التتارى وكذلك اساءوا اهل الصين فعاد الاختلال ثانياً لهذه التجارة من هذا السلوك القبيح فهتد الصين الموسقو بأنهم يفلقون ابواب دولتهم على القوافل المذكورة ان لم يداركوا هذا الخلل وكانت تجارة الموسقو مع الصين اذذاك من الامور التي يعود منها عظيم النفع على اهل الموسقو لما كانوا يجلبونه من بلاد الصين من الذهب والقضة والجواهر فان اعظم حجر من حجارة الباقوت جلب من بلاد الصين وقع بين يدي الامير غاغرين ثم بين يدي الامير متريقوف وهو الآن من جملة زينة الساج الايمراطوري ببلاد الموسقو

ثم ان مسلك الظلم والطغيان الذي كان يسلكه الامير غاغرين اضرت بهذه التجارة التي كانت سبباً في غناه ضرراً جسيماً ولما انتهى الامر بأن صار هذا الظلم الصادر منه سبباً في اهلاكه واعدامه حيث اتهم واقبعت دعواه بمجلس العدل الذي احدثه الجار وحكم عليه بضرب عنقه بعد الحكم على ابن الجار بالموت بسنة واغلب من كان بينه وبين الامير المذكور مخالطة حكم عليه بالقتل ايضاً

وفي هذا الزمن بعينه احس كهي بضعف بدنه ولما كانت التجربة اكسبته اعتقاداً أن علماء الرياضة من الافرنج اعلم من علماء الرياضة من الصينيين اعتقد ايضاً أن اطباء الافرنج اظهر من اطباء دولته فترجى الجار بواسطة الالمانية الموسقوية الذين عادوا من بكين الجديدة بتوصبورغ ان يرسل له طبيباً فوجدوا بالمدينة المذكورة طبيباً جراحاً انكليزياً عرض نفسه لهذه الغرض وسافر مع اليي جديد من بلاد الموسقو وهو لوزنتانج الشهير الذي اتى رحلته في هذه السفارة ولما وصلوا اقربوا بالتبصيل

والتعظيم ثم وجد الجراح المذكور ان البادشاه كهي في حالة الشفاء التام واشتهر بأنه طبيب ماهر وقد اكتسبت القافلة الموسقوية التي تبعت هذه الارسالية مكاسب شتى غير أن ما حصل من التعدي والاساءة من الموسقو في حق الصينيين اغضبهم غضباً زائداً حتى انهم طردوا ليج الذي كان اذ ذلك الحين الجار عند بادشاه الصين وطردوا معه ايضا جميع التجار الموسقوية

فلما مات البادشاه كهي وتخلقه ابنه بونتشير وكان في للعقل وحسن التدبير كآبيه بل يزيد عليه في الثبات والحزم حيث طرد اليسوعيين من ملكه كما أن الجراف فعل بهم كذلك سنة ١٧١٨ من الميلاد وعقد مع بطرس مشاركة مضمونها أن القوافل الموسقوية لا تجر الا على نفور الدولتين ولا يدخل مدينة يكن من اهل الموسقو سوى وكلاء التجارة المرسلين من طرف الجار اول الجارة وتكون اقامتهم في المدينة المذكورة بمنزل هنالك منع كان عينه كهي لاقامة رسل ابالة كوري ولما كانت دولة الموسقو منذ مدة مديدة لم ترسل قوافل ولا وكلاء بقصد التجارة بمدينة يكن ضعفت هذه التجارة لكن بهذه المشاركة كان قد قرب اوان احياءها بعد أن كانت كالعدم

فن وقتئذ كان يرى اكثر من ماء في سفينة من الدول الاجنبية تحضر كل سنة في ميناء المدينة الجديدة الايمراطورية (اعنى مدينة بترسبورغ) وصارت تزداد هذه التجارة يوماً فيوماً وفي اكثر من مرة ما تحصل منها من اليراد الجار كل سنة كان يزيد على خمسة ملايين من فرسكات فرانسا وهذا اليراد زاد زيادة جسيمة على ربح الاموال التي صرفت على هذا المشروع التجاري وقد نقصت تجارة ارنخيل نقصاً ينافي بسبب هذه التجارة وكان هذا هو عين مرام بطرس لصعوبة الوصول اليها وبعد ما عن جميع الللل وايضا فالتجارة التي تعمل نصب عيني ملك مشرقى اموره عن ساعد الجدة والاجتهاد يعود منها فجع جسيم جذوا ولما تجارة ليونيا فقد مكنت على حالة واحدة لم يحصل فيها ازدياد

ولا نقصان

ولا نقصان وبالجملة فقد نجت دولة الموسقوف في بيعها وشرائها واخذها وعطاها
اذ في كل سنة كان يرد على مينائها من السفن التجارية الق سفينة فصاعدا الى
الف ومائتين فانظر الى بطرس كيف جمع بين النفع والفخار

* (الفصل الثالث عشر) *

في الاصول والقوانين

حين المعلوم أن الاصول والقوانين الطيبة نادرة والعمل بها اندراذ كلما كانت
الدولة متسعة واهاليها من ملل مختلفة تعسر جعلهم تحت قانون واحد وشريعة
واحدة وكان والد بطرس الاكبر قد رتب قانونا ثمانية وسماه اوليچيني بل
وطبع وانتشر الا انه كان يلزمه كفايته لدولة الموسقوف امور اخرى كثيرة من
هذا المعنى

فلذلك جمع بطرس في اسفاره من المواد ما يلزم لتشييد هذه العمارة الجسيمة
التي آت للسقوط من سائر الجهات بدولة الموسقوف حيث جمع من دول دانيمركه
واسوج واندكتره والنيما وفرانسا ما رأى انه يلحق باهل دولته من
الاصول والتعريفات وكان في دولة الموسقوف مجلس اربابه من البويارد تفصل
فيه الخصومات ويحكم فيها اربابه الحكم الاخير الذي لا يقض وكان لا يدخل
في زمرة اربابه الامن كان له درجة اعتبار وصاحب حسب ونسب مع انه كان
يلزم في ذلك النظر للعلم والمعرفة فلذا ابطال بطرس المجلس المذكور

ونصب وكيلًا مجموعيًا في المملكة وضم اليه اربعة نواب في كل حكومة من
الحكومات الاربعة التي بدولة الموسقوف وناطهم بملاحظة سلوك القضاة الذين
هم فرع من فروع مشورة السنت التي احدها وكان يدكل من هؤلاء القضاة
نسخة من كتاب الشرائع والقوانين بعد تهذيبه وتحريره بالتغيير والتبديل
والزيادة اللازمة وكان ما حصل فيه من التغيير المذكور امرًا وقتيا حتى يتيسر
وضع كتاب كامل في الشرائع والقوانين

ومنع هؤلاء القضاة من اخذ المحصول على الدعاوى وكل من اخذ من ذلك شيئا
كان عقابه الموت نعم وان كان المحصول يلاذ فرانسا شيئا جرتنا هينا الا أن

الاولى عدمه واما المصاريف الجسمية التي تدفع في فصل الدعاوى ببلاد فرنسا فانها هي اجر المحضرين ونحوهم من اهل المحكمة وعادة تكثر الكتابات التي هي عادة تقيله لاسيما في الدعاوى الشرعية حيث يجعلون كل سطر مشتملا على ثلاث كلمات فقط هي مما يوجب ضعف وتوهين اموال الاهالي فمثل الاوراق الكثيرة التي تستند عليها كثرة الكتابة بالنسبة لاموالهم كمثل عبء ثميل لا يستطاع حمله فمن ثم اهتم الجار بجعل المصاريف المذكورة هينة جدا وباجراء العدل على وجه السرعة ورتب للقضاء والكتاب ماهيات من خزينة الدولة وصاروا بذلك لا يشترطون مناصبهم

وكان وضعه لهذه القوانين سنة ١٧١٨ من الميلاد مدة اقامة دعوى ابنه واغلب ما جلبه من القوانين كان مستمدا من شرائع مملكة اسوج وقوانينها ولم يتوقف قط في أن يدخل في محاكمه اسرى الاسوج العالمين باحكام بلادهم الشرعية الذين تعلموا اللغة الموسقوية وارادوا الإقامة بهذه الدولة

ثم ان فصل خصومات اهل كل اقليم كان من وظائف حاكم ذلك الاقليم وتوابه وكان يسوغ لصاحب الدعوى أن يرفع دعواه الى مشورة السنن فاذا حكمت هذه المشورة على انسان وظن انه مغدور في حكمها عليه فله أن يرفع امره الى الجار نفسه لكن يكون عقابه الموت في حالة ما اذا ظهر أن شكواه من المشورة باطله في غير محلها غير أنه لاجل تخفيف هذا القانون الصعب نصب الجار بأش عرضا لجلي ليأخذ العرضا لالت عن لهم في مشورة السنن وغيره من المماكم الصغيرة دعوى لم تنص عليها الشريعة بخصوصها

وقصارى الامر أن الجار تتم سنة ١٧٢٢ من الميلاد فانوشامة الجديد الذي رتب ومنع جميع القضاء أن يعدلوا عنه وأن يعمل بمقتضى رأيه بدلا عن القانون العام والاعوقب مرتكب ذلك بالموت ونشر اعلانات بهذا الامر الخوف ولم يزل الى الآن في جميع محاكم الدولة الموسقوية وبالجملة فاحداثات الجار عمت كل شئ حتى ان ايقاع الربط والاجتماع

في دولته كان بفعله واختراعه كيف لا وقد جعل الناس رتبا ودراجات على حسب وظائفهم وذلك من رتبة الاميرال (امير العساكر البحرية) والمارشال (امير العساكر البرية) الى رتبة البيرقدار ولم يلتفت في ذلك الى حسب ولا نسب ولما كان دائما في ذهنه أن الخدم في المصالح مقدمة على الحسب وكان يريد ادخال ذلك في اذهان اهل ملته جعل للنساء ايضا درجات معينة حتى ان كل من جلس في غير مجلسه المعتدله عوقب بدفع غرامة ووضع ايضا قانونا نافع من ذلك وهو ان كل عسكري ارتقى الى رتبة ضابط ينظم في سلك ارباب الشرف وكل بويارد (اي شريف) ارتكب ما اوجبت بسببه القوانين تزدليه بصير بذلك من رعاع الناس وعامتهم وبعد وضع هذه الاصول والقوانين ترتب ضرورة على اتساع دائرة التجارة وزيادة المدن واتساع الثروة واليسار وعمار الايمبراطورية بالاهاالي والمشروعات الجديدة وتجديد الوظائف كثرة الامور الجديدة والحوادث التي لم تكن متوقعة الحصول وكان منشأ هذه الامور والحوادث كلها هو نجاح بطرس فيما احدثه في دولته من الترتيب والاصلاح العام وقد تمت الايمبراطورية ايليزايطه بمجموع الاصول والقوانين الذي كان قد ابتداء ابوها من قبلها ووسرى لطف حكومتها الى تلك القوانين حتى زالت عنها وصمة الثقل والتشديد

* (الفصل الرابع عشر) *

في الكلام على الدين

قد اشتغل بطرس في هذا الوقت بعينه اكثر من غيره من الاوقات بهذيب الطائفة القسيسية واصلاح حالها فابطل وظيفة البطريرك ولم يترتب على هذه الفعلة الصادرة عن قوة النفوذ والشوكة ميل القسوس اليه ولا انعطاف قلوبهم عليه وكان يريد بذلك أن الادارة الايمبراطورية تكون لها الشوكة المطلقة وأن الادارة القسيسية تكون محترمة ومتقادة للاوامر الايمبراطورية وكان قد عزم على أن يجدد مشورة تخص الدين وتكون باقية على الدوام وتابعة للملك بحيث

لا ترتب للكنيسة من القوانين الا ما يستجيبه صاحب الدولة التي هذه الكنيسة
جزء منها واعانه على هذه العزيمة مطران من ولاية نوو غرود يقال له تيوتان
بروكوب ويسمى ايضا بروكوب وتز اى ابن بروكوب
وكان هذا المطران بكان من العلم والعقل * وباسفاره الى جهات مختلفة من
اوروپا عرف ما فيه من المثالب والعيوب ولما كان الجار قد عاين ذلك
بنفسه كان له في جميع احداثه مزية عظيمة وهي جلب ما فيه المنفعة واجتناب
ما فيه المضرة بدون أن يعارضه في ذلك معارض وقد بادر الاشغال بنفسه مع
هذا المطران في سنة ١٧١٨ وسنة ١٧١٩ من الميلاد فرتب
مجما مستمرا اعضاؤه اثنا عشر من الاساقفة ورؤساء الاديار اتخيمهم هو بنفسه
ثم زاد عددهم الى اربعة عشر

وقد بين الجار الاسباب التي استند اليها في احداث هذا المجمع في خطبة
خطبها قبل أن يذكر الغرض الاصلى المقصود له من هذه الخطبة فكان اقوى
تلك الاسباب واهمها هو انه اذا كانت الطائفة القسيسية تحت ادارة مجمع
مؤلف من عدة قسوس فلا يخفى في هذه الحيلة من القيام والفتن التي يمكن
حصولها اذا كانت هذه الطائفة تحت ادارة رئيس واحد من القسوس وأن
الامة التي تميل دائما الى الاوهام الفاسدة اذا رأت رئيسا على الدولة ورئيسا آخر
على الكنيسة اعتقدت أن هناك شوكتين مستقلتين واستدل على ضرر ذلك بما
وقع من التفاسم والشقاق بين الدولة وطائفة القسوس وترتب عليه سفك الدماء
في عمالك كثيرة

وكان بطرس يرى ويقول على رؤس الاشهاد ان القول بالشوكتين المبني
على رمز السيفين الموجودين عند الحوارين هو من الاقاويل الباطلة
والاعتقادات العاطلة

وقد جعل الجار لهذا المجمع الحق في ترتيب ما يخص امر الضبط والربط
في النظام القسيسى وفي اختبار الاخلاق واتقاد الاحوال وفي النظر
في صلاحية من يعينهم الى الامر للوظائف الاسقفية وامتحانهم هل هم اهل

لتلك الوظائف ام لا وفي الحكم على سبيل البت فيما يخص الامور الدينية التي كانت قبل ذلك ترفع للبطرق وفي معرفة ايرادات الديورة وتوزيع الصدقات

وقد لقب هذا المجمع بالمجمع المقدس وكان قبل ذلك لقباً للبطارقة وبذلك اعاد الجار في الحقيقة منصب البطرق وانما وزعه الى اربعة عشر قسماً كلهم تابعون لولي الامر وبايعوه على الطاعة والاقتصاد بخلاف البطارقة فكانوا لا يبايعونه على الطاعة وكان لارباب هذا المجمع المقدس حال اجتماعهم مالارباب مشورة السنن من المكاتبة وعلو المتزلة ولكنهم مع ذلك كانوا تابعين لولي الامر كأهل مشورة السنن المذكورة

ثم ان هذه الادارة الجديدة وقانونتامة القسيسي الجديد لم يجر العمل بمقتضاها ولم يستقر على حالة ثابتة الا بعد ذلك باربعة سنين اي في سنة ١٧٢٢ من الميلاد وذلك أن بطرس في مبدا الامر أمر أن ارباب المجمع يعرضون عليه كل من راؤا فيه اهلية اكثر من غيره لمنصب الاسقفية فصار هو ينتخب من يريد تقليده بهذا المنصب وارباب المجمع يلبسونه شعاً وذلك المنصب وكان بطرس في الغالب يحضر في هذا المجمع بوصف رئيس الجمعية فاقضى الحال ذات يوم أن يعرض عليه رجل لينتخبه لمنصب الاسقفية فأبدى ارباب المجمع انه الى الآن لم يعرض على الجار في هذا المعنى الارجال جهلة فقال بطرس لا ضرر وانما ينتخب الخيارات ان الخيرية تساوى العلم

ومما ينبه عليه أن الكنيسة اليونانية لم يكن فيها من يسمى باسم رؤساء الرهبان الديويين (اي المجتردين عن الزهد والتشف) ولا صغار رؤساء الرهبان بل كانت تعدهم من قبيل الهز والسخرية وذلك من العبث وحيث ان كل ما كان في الدين من هذا القبيل معدود من العبثيات فمن العبث ايضا عند هذه الكنيسة انتخاب الاساقفة من طائفة الرهبان وقد كان رهبان الصدر الاول دنيويين وكان بعضهم متدينا وبعضهم يتجاوز الحد في الهمة الدينية وكانوا يحتلون

للعادة في الصاري ثم جمعهم الماريازيل وقتل لهم قانونا وأزمو انفسهم
بالرهبانية والانتطاع اليها وصاروا في آخر درجة من الدرجات القسيسية
فكانت درجتهم هذه اول درجة لمن اراد الارتقاء منها الى ما فوقها من المناصب
والوظائف القسيسية فمن كانت بلاد اليونان واسيا مشحونة بالربان
كما انهم كانوا في بلاد روسيا كالجراد المنتشر وكانوا بمكان من اليسار
والاقتدار ومع بلوغهم في الجهل النهاية كانوا حين تولى بطرس منفردين
بمعرفة الكتابة لا يعرفونها غيرهم الا القليل ثم لما اخذ بطرس في الاحداثات
التي عمت كل شئ في بلاده استعملوا الكتابة في العنيت (حيث استعملوها
في ذمه والتشنيع عليه) فانهم صاروا يستغربون ويستقبحون هذه الابتداعات
فاضطر سنة ١٧٠٣ من الميلاد الى منع اعطاء الرهبان شيئا من المداد
والانلام فكان لا يعطى احد منهم شيئا من ذلك الا بضمان رئيسهم واذنه
وقد اقتضى رأى بطرس أن هذا المنع لا ينسخ وكان قد عزم اولا على انه
لا يدخل في زمرة الرهبان الا من بلغ سنه خمسين سنة لكنه رأى أن هذا السن
بطيئ جدا لأن عمر الانسان قصير فلا يجد صاحب هذا السن فحجة يتعلم فيها
ما يصلح له لمنصب الاسقفية فعدل عن ذلك ورتب مع ارباب المجمع انه لا يسوغ
الدخول في زمرة الرهبان الا لمن بلغ سنه ثلاثين سنة كاملة ومنع العساكر
واهل الزراعة أن يدخل احد منهم في الدير لاجل الرهبانية الا باذن صريح
من الجار او المجمع وكذلك منع أن لا يدخل الدير للرهبانية احد من
المستزوجين ولو طلق زوجته الا اذا ترهت هي بالطوع والاختيار ولم يكن
معهما اولاد وكذا كل من كان في خدمة الدولة لا يجوز له الترهيب الا باذن
صريح ورتب ايضا أن كل راهب يجب عليه أن يباشر بنفسه عملا من الاعمال
الصناعية وأن الراهبات لا يسوغ لهن الخروج من الديرة اصلا وأنهن
لا يقصرن شعورهن الا في سن خمسين سنة كما كان عليه الشماسات في مبدأ
دين النصرانية واذا طلبن الزواج قبل تقصير الشعر اجبن الى ذلك بل ينبغي
ترغيبهن فيه ولا شك أن هذا القانون على غاية من الحسن في مثل تلك البلاد

التي

التي هي اخرج الى الاهالي من الترهيب في الاديار
وقد اقتضى رأى بطرس ايضا أن هؤلاء البنات المترهبات السيئات الحظ
اللاتي خلقهن الله لتكثير اهل دولته وتعمير بلاده وتسعين في قطع نسلهن
بانقطاعهن في الديورة لما يزن عن انه عبادة يكون لهن ولو بعض نفع العملة التي
غدرن بها بانقطاعهن عنها فامر أن يشتغلن جميعا بشغال يديه تناسبن
والترمت الحجارة أن تحضر من بلاد برانت والفلنك نساء صناعية
لاجل تعليمهن فلما حضرن وزعنهن على الاديار فحما قليل صنع في تلك الاديار
ما تزينت به الحجارة وغيرها من خواتين دائرتها

ولامانع أن يقال انه لاشئ اعظم من هذه الترتيبات غير أن الجدير بان تلتفت
اليه القرون كلها من ترتيبات الجار هو القانون الذي وضعه بنفسه
وعرضه على الجمع سنة ١٧٢٤ من الميلاد وكان قد اعانه
عليه تيوفان بروكوب وترز وتعرض فيه للترتيب القسيسى القديم فكشف
الغطاء عن غوامضه وبين حقيقته بيان العالم الخبير وشنع فيه على ما كان
عليه الرهبان من الدعة والبطالة واقام على ذلك البراهين الجلية والادلة القوية
ولم يقتصر فيه على التوصية والترغيب في العمل وترك البطالة بل امر بذلك
على سبيل الالزام ونص على أن اهم الاشغال هو نفع الفقراء والقيام بشؤونهم
فامر أن العساكر السقط يوزعون على الاديار وأن يعين لهم من الرهبان
من يتعهدهم ويقوم بخدمتهم وأن اقوياء الرهبان يزرعون اراضي الاديار وامر
بتظير ذلك في ديورة البنات فعين اقوياء هن لخدمة البساتين وغيرهن لخدمة
المرضى من النساء والبنات اللاتي يوثقن الى الديورة من المحال المجاورة
لهن او بين هذه الخدم يباشرن اشيا وفصل ما جل منها وما قل اتم تفصيل وعين عدة
اديار من اديار الذكور والاناث لدخول الايتام وتربيتهم فيها

ومن قرأ قانون بطرس هذا المؤرخ في ٣١ من شهر يونيو سنة
١٧٢٤ ميلادية ترى له أن هذا القانون كانما اشترك في وضعه
أحد وزراء الدولة وأحد آباء الكنيسة

ثم ان عوايد الكنيسة الموسقوية تكاد تكون كلها مخالفة لعوايد كنيسة رومة فان من رسوم كنيسة رومة أن الانسان متى صار نائب شماس حرم عليه الزواج فإثم بسعيه في تكثير اهل وطنه بخلاف الكنيسة الموسقوية فان من رسومها أن الانسان بمجرد ما صار نائب شماس يؤمر بالزواج على سبيل الالزام ولا يمنع ذلك من الترقى الى رتبة القسيس ورياسة القسوس وانما يلزم الترهيب والعزوبة في منصب الاسقفية.

وقد منع بطرس الخوريين (والخوري امام المحلة) أن يشرك الخوري منهم معه في خدمة الكنيسة اكثر من واحد من اولاده خوفا من أن كثرة عائلته تحجب بأهل محله ما لم يطلب ذلك اهل المحلة انفسهم وبالجمله فمن تأمل هذه القوانين القسيسية وجد أن كل مادة منها ولو هيئة جدا لا تخلو عن مصلحة للدولة وأنه قد حصل استفراغ الوسع فيما تكون به خرقة القسوس محترمة غير خطرة ومجردة عن وصفي الخسة والقوة.

وقد رأيت في بعض اللوائح الغريبة لواحد من الضباط كان له عند بطرس الأكبر منزلة عظيمة أن الجمار قرئ عليه ذات يوم باب من التاريخ معنون بباب المتفرج الانكليزي يشغل على المقابلة بينه وبين لويز الرابع عشر (ملك فرنسا) فقال بعد أن سمع هذا الباب اني لا استحق ما ائتموه لي من تفضيلي على هذا الملك وانما لي الحظ الاوفر في امرهم فقدت فيه عليه وهو اني أزلمت الطائفة القسيسية بالاثقياد والاذعان والهدد وعدم التعكير بخلاف لويز الرابع عشر فانه اهل في ذلك حتى صار لها سلاطة عليه.

ولا يخفى أن مثل هذا الملك الذي استغرق الايام في مكابدة مشاق الحروب والليلالي في تقنين قوانين كثيرة واستغرق زمنه في جلب التأنس والتمتدن الى دولة متسعة جدا وفي ادارة اشغال كثيرة في مملكته التي تبلغ مسافة ألفي فرسخ لابتد له من ترويح نفسه لاسما والخطوط والمسرات كانت في وقته اطعم واعظم مما كانت عليه قبل ذلك فلا غرو أن الجمار كان يتروح بموسمه المعروف بموسم الكردينالية الذي اسلفنا ذكره وبعض حظوظ اخرى من هذا

هذا القبيل كان يقصدهم في بعض الأحيان الصخرية من الكنيسة الرومانية
لانه كان يكرهها لودنيته في كراهته لمخفوت نظر الى انه كان متمسكا بشعائر
الكنيسة اليونانية والى انه كان يريد الاستقلال بالرياسة في بلاده وكان
يعمل ايضا العباد من هذا القبيل بقصد للصخرة من قدماء رهبان وطنه واما
الرهبان الحديثون فكان يقوم اودهم ويصلح شأنهم

قد سبق انه قبل اعلان قوانينه القيسية ونشره لقلد احد المجانين الذين
كانوا عنده بمنصب بابا وأنه عمل موسم الكردي نالية وكان هذا المخبون
المسمى ستوف يبلغ من العمر اربعاً وعشرين سنة فظهر للجار أن يزوجه
بامرأة تضاويه في السن ويشهر نكاحهما شهرة عظيمة فقاط بالدعوة اربعة من
المكن وبزفافها شيوخا هري جدا وعين لاشغال الفرح التي تستدعي الخفة
وسرعة الحركة اربعة من اغلظ الموسقوا منهم وحمل المويسيقى على عربة
يجزها ادياب كانوا ينحسونها بمناسخ من الحديد فتعوى عواء يلايم الحان
تلك المويسيقى والذي دعاه الذين العروسين بالعركة في الكنيسة الكبرى قيس
اعنى اصم ~~ر~~ كتب له عيون من زجاج وبالجمله فكان الزفاف والزواج ووليمة
العرس ولباس نومهما باللا واحتفال ادخلهما الى فراشهما كل ذلك كان من
الاخصوكت للملايمة لما قصده الجار من المباسطة والقشاعة

ومثل هذا الموسم يترأى أنه من الامور المنكرة التي لا يستحسنها العقل ولكن
اذ انطوت الى ما يفعله الا فرج في عيد الرافع من المباسطات وتفرحات البالي
وجدت هذا الموسم من هذا القبيل وهل ثم اطرف في المنظر والفرجة بما يصح
في هذا العيد حيث ترى خبيثة شخص عليهم الوجوه المستعارة المشعة
وملابس الصخرية يستغفرون الليل كله وهم في طفور ووثوب في قاعة كبيرة
ملازمين للصمت الى الصباح

وهل المواسم القديمة يلاذ اوروبا المعروفة بجواسم المجانين ولجار وراهب
الدبلة كانت اعظم من هذه المباسطة وهل كانت الالعب المعروفة
بكونيديات الام تشمل على مليل على الذكاء والفطنة اكثر من ذلك

• (الفصل الخامس عشر) •

في بيان المفاوضات والمذاكرات التي حصلت في جزيرة الاند وذكروا
كرلوس الثاني عشر وصلح نوستاد

ما سبق من اشغال الجمار الجسيمة وما ذكرناه تفصيلا بما يتعلق
بالامبراطورية الموسقوية وقضية الامير ألكسيس المحزنة كل ذلك
لم تنحصر فيه اعمال الجمار فانه في مدة اشتغاله بالاحداث وتنظيم الامور
الداخلية كان لابد له من الاحتراس والتحفظ من الدول الاجنبية حيث كان
الحرب مع دولة اسوج لم يزل مستمرا وان كان حصوله مع الفتور والبطء
وتراخي ايضا لما كان يؤمل من حصول الصلح عن قريب

وذلك انه في سنة ١٧١٢ من الميلاد كان كل من الكردينال ألبيروني
وهو اعظم وزره فيليبس الخامس ملك اسبانيا والبارون غورطز
الذي استولى على عقل كرلوس الثاني عشر (ملك اسوج) اراد تغيير احوال
اوروبا بالتوفيق بين بطرس وكرلوس المذكور وبخلق جورجي الاول
ملك انكلترة عن سرير ملكة الانكليز وباعادة استانسلاس الى سرير
ملكة بولونيا وبكون ألبيروني بقلده سيده فيليبس بنياية فرانسا
وكان غورطز كما تقدم قد اطلع الجمار على ما في ضميره وكن ألبيروني
قد افتتح المذاكرة في هذا المعنى مع الامير كوراكين شفير الجمار بمدينة
لاهابة وكان الواسطة بينهما الجي اسبانيا (بهذه المدينة) وكان يقال له
باريتي لودي وكان في الاصل من مدينة ماتوه ثم هاجر منها وتوطن
اسبانيا فهو تزل اسبانيا مثل الكردينال ألبيروني

فكان هذان الاجنبيان (يعني غورطز وألبيروني) يريدان تغيير الاحوال
من اجل ساداتهما وان لم يكونا بحسب الاصل من رعيتهما بل الاولى أن يقال
انما تصد بالذل من اجل انفسهما وقد استحسن كرلوس الثاني عشر جميع
اغراضهما واكتفى الجمار بكونه بلا حفظها وبخبرها هل توافق ام لا وكان
منذ سنة ١٧١٦ من الميلاد لم يسذل في شأن قتال الاسوج الا

مجهودات هينة وكان جل غرضه من ذلك انما هو جبرهم على شراء الصلح معه
بتسليمهم له ما يقصده من اهلهم لانتقم اعيانهم واعمالهم
ثم ان البارون غورطرز توصل بنشاطه ومهارته الى أن جعل الجار على
أن يبعث وكيلين من طرفه الى جزيرة ألاند لاجل المناقضة في شأن هذا
الصلح وكان وصول هذين الوكيلين وهما بروسه الايقوسى الذى هو الرئيس
الاكبر على الطوبجية الموسقوية والشهير اوسترمان الذى صار من وقتئذ
ييده ادارة المصالح الى مجلس المذاكرة في نفس الوقت الذى قبض فيه على ابن
الجار في مدينة موسكو وكان غورطرز وجيلابورغ قد وصل الى
المجلس المذكور قبلهما من طرف كرلوس الثانى عشر وكان كل منهما
يرغب كل الرغبة في التوفيق بين كرلوس المذكور وبترس وفي الانتقام
من ملك انكلترة ومن الغريب انعقاد مجلس المذاكرة بدون عقد مهادة بين
الفرقتين فان دونما الجار كانت تطوف بسواحل الاسوج وتتهب
ما تنظر به منهم وكان الجار يظن أن هذا الاعتماد يحمل ارباب المجلس على
المسارعة الى عقد صلح كان لا بد منه للاسوج ويعود بالفخر التسلم على الظافر
بهم (وهو الجار)

ومع ما كان حاصل الى ذلك الوقت بين الفريقين من حركات الحرب الهينة ظهر
للصلح بينهما سلاسل وعلامات دلت على قرب انعقاده فان مبادئه كانت من
اعمال المروءة واثار الكرم فكانت اعظم موقعا من الامضاء ووضع القرار وذلك
أن الجار خلى سبيل المارشال رانشلد ومن عليه بدون فداء وكان هو
الذى اسره بنفسه وكذلك ملك اسوج من على الجنرال ترويتسكوى
والجنرال غولوبين وردهما الى ديارهما وكانا اسيرين فى اسوج منذ
وقعة نزوة

وكانت مذكرات الصلح قد قاربت الانتهاء وكانت احوال بلاد الشمال قد
اشرفت على أن تستحيل كلها الى احوال اخرى فقد عرض غورطرز على
الجار أن يشتري دوقية مكلانبورغ وكان دوقها المسمى كرلوس قد

تزوج احدى بنات الجار اوان اكبر اخوة الجار بطرس وكان
اشرف هذه الدوقية قد قاموا على الدوق المذكور وجر جواعن طاعته وكان
لبطرس جيش في تلك الدوقية وكان يعد نفسه من حزب هذا الدوق لانه كان
بعده من اصابه واما ملك انكلترا الذي هو منتخب هانوة فكان من
حزب هؤلاء الاشراف وكان مما يرغم ان هذا الملك أن دوقية مكلنبورغ
تثبت لبطرس الذي كان اذ ذاك مستوليا على ولاية ليونييا وكان قد
اشرف على أن يكون اقوى منتخب في ألمانيا وكان من جملة ما حصلت فيه
الذكرتان يعطى لدوق مكلنبورغ في نظير هذه الدوقية دوقية كورلندة
وجز من بلاد البروسه وكان هذا مما يضرب بملكة بولونيا وأن يرجع الى
هذه المملكة ملكها استانسلاس وأن تكون دوقية بريجة وولاية وردان
لدولة اسوج ولكن كان لا يمكن اتراءهما من جورجي الاول ملك
انكلترا الابوة السلاح فيؤخذ من ذلك أن غورطرز كان مرامه كاذرنا
أن بطرس وكولوس الثاني عشر لا يقتصران على مجرد الصلح بل يتحالفان
على الحرب وشن الغارات ويبعثان جيشا من طرفهما الى ايقوسيا وكان
مما ذكرنا فيه ايضا أن كولوس الثاني عشر بعد أن بفتح مملكة زوج
يذهب بنفسه الى ابريطانيا الكبرى وكان كولوس يطمع أن يجعل عليها
ملكا جديدا بعد أن يصنع بملكة بولونيا مثل ذلك والتزم الكريديال
أليروني لبطرس وكولوس أن يمدهما بالاموال وكان يظهر أن نكبة الملك
جورجي تجر الى نكبة حليفه نائب فرانس لان متى تجرد عن النصير صار
تحت قبضة دولة اسبانيا الطاغرة وفرنسا القائمة العاصية
وكان أليروني وغورطرز يظنان انهما قد اشرفا على تغيير احوال اوروبا
من اولها الى آخرها ولكن خاب ظنهما حيث انعكست جميع هذه المقاصد
بكلمة زويت بالصدفة من مدفع كبير في ابراج فريديريشال بملكة زوج
قتلت كولوس الثاني عشر وهزم الانكلترا الدونما الاسبانيولية وظهر
امر العصبة التي كانت دائمة بفرانس وتبدد شملها وطرده أليروني من

اسبانيا وضربت غنق غورطلزه في مدينة استخلم ولم يبق على قوته من هذا الحزب المهول الذي كان قد اخذ في اسباب الاجتماع والحزب الا البحار بطرس فانه لما لم يتعرض لمضرة دولة من الدول اجرى قوانينه واحكامه على الدول المجاورة له

وبعد موت كرلوس الثاني عشر تغيرت جميع التدابير في أسوج وذلك أن هذا الملك كان مطلق التصرف في دولته فلم ينتخبوا اخته اوليريقه للولاية بعده على المملكة الابشرط أن لا تكون مطلقة التصرف مثله وكان كرلوس قد اراد أن ينضم الى البحار ليحكم ونامعا على انكلترا وحلفائها فلما تولت اخته انضمت دولة اسوج الجديدة الى حلفائها وتجزوا جميعا على البحار

وفي الواقع أن مجلس المذاكرة الذي انعقد في جزيرة أالاند لم ينسخ غير أن دولة اسوج لما تحزبت مع دولة انكلترا املت أن بعض الدونمات الانكليزية تذهب الى بحر بلطق وتسمى لها في صلح يكون اتم فعلا واعظم فائدة فدخلت عساكر هانورة (من طرف دولة الانكليز) في بلاد دوق مكلانبورغ فطردتها منها عساكر البحار (وكان ذلك في شهر فبراير سنة ١٧١٩ من الميلاد)

وكان للبحار ايضا فرقة عسكرية في بولونيا (لهستان) كان يخشى بأسها كل من حزب اغسطوس واستانسلاس وكان ايضا قد أعد للاسوج دونمات شتى الغارة على سواحلهم وتجبير دولتهم على أن لا تسعى في تعطيل مجلس أالاند عما انعقد بسدده وكانت هذه الدونمات عبارة عن اثنتي عشرة سفينة كبيرة مما يسمى قباوعدة سفن من النمرة الثالثة ما بين فرقتين وغراب وكان البحار نفسه نائباً عن اميرالها (اي قبودانها) المسي ابركسين وكان البحار دائما يقود العساكر البحرية تحت اوامره

ثم ان فرقة من هذه الدونمات حازت في مبدأ الامر الشهرة والامتياز في قتال

فرقة من الدونما الاسوجية حيث سلبت من سفن الاسوج بعد القتال الشديد سفينة وفرقتين فانهم بطرس على ضباط هذه الفرقة بستين ألف فرتك من النقود الفرساوية وقطع من الذهب تعرف بالمداليات واكثر لهم من علامات الشرف والامتياز وكان من عادته دائما تشجيع الدونما التي احدها بجميع ما يمكنه من الوسائط والطرق

وفي هذا الوقت بعينه دخلت الدونما الانكليزية بحر بلطق لاعانة الاسوج وكان قائدها الاميرال نوريس وكان بطرس واثقا كل الوثوق بدونماها الجديدة فلم يقع في قلبه للانكليز هيبة ولا خوف بل تجارى على أن شغل البحر بسفنه حتى سدد عليهم المسالك وبعث الى الاميرال الانكليزي يسأله هل قدومه ليجرد كونه من احباء الدولة الاسوجية او قدم معاديا للدولة الروسية فاجابه بأنه الى هذا الوقت لم يرد اليه امر بشئ معين ومع هذا الجواب المهم لم يزل الجار شاغلا للبحر

والواقع أن الانكليز لم يقدموا الالبوا انفسهم للجار فبهذه ذلك على أن يصالح الاسوج على شروط مقبولة وفي شهر يولييه سنة ١٧١٩ ميلادية ذهب الاميرال نوريس الى كوبنهاغن واثار الموسقو بعض اثار في بلاد الاسوج قريبا من مدينة استخلم التي هي قاعدة ملكهم وانلقوا فيها مصانع الحديد وحرقوا من مساكنهم نحو خمسة عشر ألف بيت وفعلوا معهم من الاساءة والمضرة ما يحملهم على تمنى انعقاد الصلح بدون تراخ ولا مهلة

والواقع أن ملكة اسوج عجلت بتجديد المفاوضة والمذاكرة في شان الصلح حتى ان اوسترمان نفسه بعثه الجار بهذا الصدد الى مدينة استخلم ومكنت الامور على هذه الحالة مدة سنة ١٧١٩ بتمامها

ولما صار في السنة التي بعدها اميرة هيسة زوج ملكة اسوج ملكا على هذه المملكة من نفسه لكون زوجته كفت يدها عنها كان اول ما بدأ به حكمه هو أنه بعث من طرفه رسولا الى مدينة بترسبورغ لاجل تعجيل

(سنة ١٧٢٠ ميلادية)

هذا الصلح المرغوب فيه كل الرغبة غير أنه في أثناء المفاوضات كان الحرب لم يزل مستمرا

وانضمت الدونمخا الانكليزية الى الدونمخا الاسوجية ولكن لم يحصل منهما في هذه المرة ايضاحرب ولم يكن حصل بين دولتي الانكليز والموسقو اعلان بالمقاطعة والعداوة فلذا عرض الاميرال نوريس أن سيده يريد التوسط في الصلح بين الاسوج والموسقو ولكن كان عرضه هذا معصوبا بالقوة والعنفوان فكان ذلك سببا في تعطيل المفاوضات وتأخيرها وكانت سواحل اسوج وسواحل الاقاليم الجديدة التي للموسقو على بحر بلطيق على حالة بحيث كانت الاولى يسهل الاغارة عليها والثانية يصعب الوصول اليها وقد ظهر اثر ذلك (في شهر يولييه سنة ١٧١٩ من الميلاد) حيث كشف نوريس غطاء الإدارة وانضم الى الاسوج وشنوا جميعا الغارة على جزيرة صغيرة للبحار من ولاية استونيا يقال لها زرجان وارقوا منها كونا (وهو بالضم بيت من القصب) واما الموسقو فانهم في هذا الوقت شنوا الغارة قريبا من وازا (وهي قلعة على اربعة فراسخ من مدينة استنم) وارقوا من قرى تلك الجهة احدى واربعين قرية ومن المساكن اكثر من ألف بيت ووقعوا في جميع البلاد من المضارمات قصر عنه العبارة وضبط الامير غالتزين من سفن الاسوج على اربع فرقينيات واركبها عساكره فكان الامير الانكليزي لم يات الاليغين درجة الهول والصولة التي وصل اليها الجار الدونمخا الموسقوية فانه تقريرا لم يصنع شيئا سوى كونه اظهر نفسه في تلك البحار التي ذهب منها الموسقو بالفرقينيات الاربعة الاسوجية علامة على نصرتهم الى ميناء كرونسولوت تجاه مدينة بترسبورغ وبالجملته فالذي يظهر في حق الانكليز هو أن يقال انهم ان كانوا في تلك الحركة متوسطين في الصلح بين الاسوج والموسقو فقد افرطوا وان كانوا معادين للموسقو فقد غرطوا

وقصارى الامر أن ملك أسوج الجديد طلب (في شهر نومبر سنة

١٧٤٠ من الميلاد) المتاركة والمهادنة فلم يجد طلبه ذلك ففعا لما وقع من دولة انكلترة في هذا المعنى من الارهاب والتهديد لدولة الموسقو فتوصل الى نيل مطلوبه بدوق اورليان نائب مملكة فرانساً وجعله واسطة في الصلح فبعث هذا الامير من طرفه وكيلامرخصا يقال له كبريدون الى مدينة برتسبورغ ومنها الى مدينة استظم وفي شهر فبراير سنة ١٧٤١ من الميلاد انعقد المجلس لاجل المفاوضة في الصلح بمدينة نوستاد وهي مدينة صغيرة من اقليم فنلندة غير أن الجار امتنع من المتاركة حتى يشرف ارباب المجلس على بت الامر وعقد الصلح ووضع القرار عليه فكان له جيش في فنلندة مستعد للاستيلاء على بقية هذا الاقليم واستقرت دونها على تهديد الاسوج وارهابهم فلزم أن لا ينعقد الصلح الا على مقتضى رأيه واغراضه وقصارى الامر انه لم ينحط قرار الصلح الا على ما اراد فقد نزلت له دولة الاسوج نزولا مؤبدا عن كل ما فتحه من بلادهم وذلك من حدود كورلندة الى نهاية جون فنلندة وما وراء ذلك من ممتد بلاد ككسهولم بل وحاشية فنلندة الممتدة من انكاف ككسهولم الى جهة الشمال فثبت له بهذه المشاركة التلك على ولايات ليونيا واستونيا وانغريه وكارليه وبلاد ويورغ والجزائر المجاورة لها التي تمكنهم ايضا من الاستيلاء على البحر كجزائر ويزيل وداغو ومونه وكثير من الجزائر الاخرى وكانت مسافة الجميع تبلغ اطوالها ثلثمائة فرسخ معتاد في عروض مختلفة وقد تكون عماد كرمملكة كبيرة بذل في تحصيها من الجهد والمشق ما استغرق عشرين سنة

وكان وضع القرار على هذا الصلح المعروف بصلح نوستاد في عاشر سبتمبر سنة ١٧٤١ من الميلاد وكان توقيع هذه المشاركة على اسلوب في الكتابة حديث ونسق في الانشاء جديد والذي وضع الامضاء عليها اوسترمان وزير الجار والجنرال بروسه وقدسرت بطرس لذلك غاية المسرة حيث رأى انه بهذا الصلح قد تخلص من

ضرورة اجناء جيوش كبيرة جهة اسوج ومن شغل باله بدولة انكثرة
وما جاوره من الممالك فرأى حينئذ انه صار في وسعه التفرغ للاصلاح
والتحسين في ايمراطوريته وقد كان اقولا شرع في هذا الاصلاح شرعاً عامداً
وابتداءً ابدياً حسناً ورأى ايضاً أنه صار يمكنه التفرغ لان يجعل الفنون
والتجارة التي صرف الهمّة في ادخالها يلاذه مع كثرة اشغاله على حالة
بحيث تكون زاهية زاهرة

وفي ابتداء نشوة فرحه كتب لوكيليه المذكورين مامعناه انكم حررتم مشاركة
الصلح تحريراً واقع مناموقعه حتى كأننا نحن الذين حررناها وبعتنا بها
اليكم ليضع الاسوج عليها القرار والامضاء فحين لا تزال لهذا الامر
الفاسخ ذاكرين ولا تبرح لحسن موقعه متفكرين

وما حصل وقتئذ في سائر اجزاء الايمراطورية الموسقوية لاسيما مدينة
بترسبورغ من الاعياد والمواسم على اختلاف انواعها كان دليلاً على فرح
الاهالي وطيب خاطرهم فان ما صنعه الجار من مواكب النصر في ايام
الحرب لم يواز ما تابى اليه الآن جميع الاهالي مع غاية الفرح والسرّة من
المواسم المذكورة التي كانت محظوظيتها حاصله مع الهدوء والسكون
وبالجملة فكان هذا الصلح اعظم نفع للجار كيف لا وقد فعل ما هو اعظم
مسرّة من تلك المواسم الفاخرة وهو العفو العام عن جميع المدينين المسجونين
وابطال ما على الناس من المغارم الخزيته في سائر اجزاء ايمراطوريته الى يوم
الاعلان بالصلح فاطلق من الحبوس عدد اعظم من المساكين ماعد اللصوص
والقاتلين والمدينين في حق ذاتهم الملوكة

وفي هذا الوقت لقبته مشورة السنت والجمع بهذه الاقارب وهي عظيم
وايمراطور وابو الوطن وبعد أن تكلم التخليير (ديوان اقتدى) المسمى
كولفكين في الكنيسة الكبرى على لسان طوائف الدولة كلها صاح ارباب
مشورة السنت قائلين ثلاثاً ابني الله ايمبراطورنا وابانا ثم صاح الاهالي
بعدهم بمثل ذلك وفي هذا اليوم هناء سفراء فرنسا وألمانيا وهولستان

ودائبرقه والفنك ولقبوه باللقاب المذكورة واعترفوا له بلقب الامبراطور
الذى كان قد حصل الاعلان بتلقيبه به في بلاد القلمنة عقب وقعة بلطارا
وكان لقب اب ولقب عظيم من الالقاب الفاخرة التى كان لا يمكن
لاحد فى اوروپا منازعته فيها ومزاجته عليها وامالقب امبراطور فهو
لقب تشريفى تجرت به العادة لايمبراطور ألمانيا كلقب ملك الرومان الذى
يلقب به بمجرد التشريف ثم ان مثل هذه الالقاب يستدعى مدة طويلة حتى
يجرى استعمالها رسميا فى اقلام قنجليريات الدواوين لمائه ينظر فيها لمجرد
الرسوم دون الفخار الذى هو بالنسبة اليها شئ آخر مغاير لادوار الرسمية فلذا
اعترف بطرس بلقب امبراطور بعد ذلك بمدة جميع دول اوروپا ماعدا
دولة لهستان فان التفاهم كان دائما يوقع فيها الاختلاف وعدم الاتحاد
وما عدا البابا ايضا فانه منذ قد ديوان رومة سطوته وقوة شوكته
تتقدم الملل فى المعارف وتزورها بانوار العلوم على التدريج صار رأيه كلا شئ
بحيث لا يتوقف عليه امر من الامور

* (الفصل السادس عشر) *

(فى فتوحات الجار يبلاد العجم)

ليعلم أن بلاد روسيا على حالة بحيث لا بد لها من مراعاة مصالحها مع
جميع الامم القاطنة بموقع الدرجة الخمسين من العرض وحين كانت هذه البلاد
رديئة الحكومة كانت بالتعاقب مغنا لتنتار والاسوج واللهية
ثم صارت مخوفة عند جميع الملل لما قويت حكومتها وصارت ذات ثبات ومثانة
وكان بطرس فى اوائل حكمه قد عقد مع دولة الصين مشاركة فيما تقع
لدولته وقايل الاسوج والعثمانية معا وآل الامر الى أن قاد جيوشه
الى بلاد العجم

وكانت بلاد العجم اذ ذاك قد شرعت فى السقوط والانحطاط الى الحالة السيئة
التى لم تزل عليها الى وقتنا هذا وان اردت أن يكون لك الملم بما اصابها من
النكبات الشنيعة فتخيل ما وقع فى ألمانيا من الحرب المعروف بحرب

الثلاثين سنة وما وقع ايضا الفرائشا من حرب القروند (اي المقلع)
ويوم سنت برتلى (الذى ذبح فيه البروتستان بمدينة باريس) وتذكر ايضا
ايام الملك كرلوس السادس وايام الملك يوحنا بمملكة فرنسا وكذلك
حروب انكلترا الاهلية وطول مدة تخريب التتار لبلاد الموسو
بقلمها وتخريبهم ايضا البلاد الصين

ويكنى في ايقاع مملكة بنجامها في مثل هذه المصائب والنكبات أن يكون
ملكها ضعيفا غير مهتم بالمصالح واحذر عيتها اذا اقتدار واقدام وجرأة وذلك
أن حسين الصغرى شاه العجم الذى هو من ذرية الشاه عباس الاكبر
كان في ذلك العصر ملكا على بلاد العجم وكان منهمكا على التعم
والزاهية وكان يضعفه مقرا وزيره على ما ارتكبه من المظالم والجبر والقساوة
فهذا هو اصل المقتلة التى استغرقت اربعين سنة

ولا يخفى أن دولة العجم كالدولة العثمانية لها اقاليم مختلفة الحكومة
تجدد لها رعايا يحكمها الملك مباشرة وعمالا وامراء خراجيين بل وامما تدفع لها
الدولة خراجا بعنوان مرتب او اعانة كام غاغستان القاطنين على فروع
جبل قوقازة في غربى بحر الخزر وكانت بلاد هذه الامم في قديم
الزمان جزءا من ألبانيا القديمة ويقال لهم الآن اللزجية وذلك
لان جميع الامم تغيرت اسماءهم وحدود بلادهم وهؤلاء الامم جبليون
والاولى أن يقال في حقهم انهم تحت حاية دولة العجم لا تحت حكمهم
فان هذه الدولة كانت تدفع لهم اعانات من النقود في نظير محافظة الحدود
وحاية النغوز

وكان امير قصبه القندهار في الطرف الاخر من سلطنة العجم جهة بلاد
الهند وكان قائدا على عساكر أغان وكان من عمال دولة العجم
كما أن ويوودات الافلاق والبغدان من عمال الدولة العثمانية
وليس عمالته متوارثة بل هى اشبه شئ بالالتزامات القديمة التى احدثها
في اوروبا التتار على اختلاف اصنافهم الذين قلبوا نظام الامبراطورية

الرومانية * وعساكر الاغان الذين يحكمهم الامير المذكور هم عساكر
الالبسا الذين يسكنون سواحل بحر الخزر بجوار الداغستان وهم
اخلاط من الجركس والجورج كقدمات المالك الذين تغلبوا على مصر
وتسميتهم بالاغان فيها تحريف وتغيير وكان تيمور المعروف ايضا بتيمورلنك
قد اخذهم وتوجه بهم الى بلاد الهند فاستوطنوا اقليم القندهار وكان
هذا الاقليم نارة بعد من ملحقات الهند واخرى من ملحقات العجم وهؤلاء
الاغان واللزجية هم منشأ الفتنه والخروج عن الطاعة ببلاد العجم

وذلك أن قبيب اقليم القندهار المعروف باسم ميرويتز او ميرويتز
كان منوطا بخصوص جباية الخراج فقط قتل امير هذا الاقليم وحرّض
عساكر الاغان على القيام وتغلب على الاقليم حتى مات سنة ١٧١٧
من الميلاد فخلفه عليه اخوه بدون أن يحصل في ذلك ادنى حركة ولا اضطراب
لكونه دفع لدولة العجم خراجا هينا غير أن ابن ميرويتز كان في الطمع كايه
فعدا على عمه قتلته واراد ان تثبت بفتح البلاد وكان يسمى مير محمود الا انه
لم يعرف في بلاد اوروپا الا باسم ولده الذي هو اقل من سن تلك الجبهة
سنة العصيان والخروج عن الطاعة ثم ان محمود اضم الى من معه من عساكر
الاغان كل من امكنه جمعهم من الجووير (ويقال لهم ايضا كبر) وهم
طائفة من قدمات الفرس بدد شملها عمر (بن الخطاب رضى الله عنه)
في ايام خلافته وهي دائمة على دين المجوس الذي كان له ظهور ورونق
في عهد الملك قيروس وهم في السراعداء للعجم الحديثين * ثم ان محمودا
سار في مائة الف مقاتل داخل بلاد العجم

وفي هذا الزمن حين رأى اللزجية أن دولة العجم لا يسوغ لها الماحل
بها من مصائب الدهران تدفع لهم النقود المرتبة لهم على سبيل الاعانة نزلوا من
جبالهم متسلحين على هذه الدولة فاشتعلت نيران الحرب بها من طرفيها حتى
سرت الى تحتها

فغرب اللزجية جميع البلاد الممتدة على الشاطئ الغربي من بحر الخزر

الى مدينة دريند ويقال لها ايضا باب الحديد وفي هذه النواحي التي
خربوها يوجد مدينة شماني البعيدة من بحر الخزر بخمسة عشر
فروسخا من القراخ العتادة ويقال انها دار اقامة الملك قيروس قديما
وسماها اليونان باسم قيروبوليس اي مدينة قيروس لان اوضاع هذه
البلاد واسماها لا تعرف عندنا الا بواسطة واسكن حيث ان القرس لم يكن
لهم ملك حقيقى سموه قيروس كذلك لم يكن لهم مدينة تسمى قيروبوليس
فغسل اليونان كثر اليهود الذين تصدوا للتأليف حين استوطنوا بمدينة
الاسكندرية فقتلوا مدينة تدعى اسقوثوبوليس حيث قتلوا ان
الاسقوطية بنوا قرب بلاد يهوذا مدينة فهل كان الاسقوطية وقديما
اليهود يعرفون اليوناني ويسمون المدن باسماء يونانية

ومدينة شماني هذه كانت ذات ثروة وغنى وكان الارمن المجاورون
لكورتها يعبرون فيها تجارة عظيمة وكان قدرتها بها بطرس الاكبر على طرفه
جمعية تجار موسقوية اخذت في الراج ففهم الزجعية على المدينة المذكورة
على حين غفلة ونهبوها وذبحوا جميع من بها من الموسقوية ممن كانوا
يبيعون ويشتررون تحت حماية شاه حسين وسلبو جميع حواصلهم التجارية
التي بلغت قيمة ما فيها نحو اربعة ملايين من الريالات الموسقوية

فارسل بطرس لشاه حسين وكان اذذاك ينازع في اخذ تاج ملكه من
الطاعى مير محمود الذى تغلب ظلما كما ارسل لمحمود المذكور يطلب رضا
الخاطر الرسمي في تطهير ما حصل من الاساءة في حق رعاياه فاعتذر حسين شاه
بانه لا يقدر على انصافه واما مير محمود فأبى وامتنع بالكلية فعزم بطرس
على أن يتصرف لنفسه وينتقم منهما فاتهم لذلك فرصة التغلبات التي كانت
حاصلة وقتئذ بلاد العجم

وكان مير محمود اذذاك لم يرل يجتهد ويسعى في تكميل فتوحاته ببلاد العجم
ولما بلغ الشاه حسين أن اميراطور الموسقو كان يتجهز للدخول ببحر الخزر
لاجل أن ينتقم في تطهير رعاياه الذين ذبحوا بمدينة شماني ارسل اليه

سفيرا رمى الجفنس بترجاء سرا أن يكون حضوره ببلاد الحجم ليس لمجرد
الانتقام بل لمساعدة الحجم واتخاذهم من صولة مير محمود
وكان مطمح نظر بطرس منذ مدة مديدة الاستيلاء على بحر الخزر
وأن يوطن فيه دونما جسيمة موسقوية ويجعل تجارة بلاد الحجم وبعض
بلاد الهند تمر ببلاده وكان قد جس عمقه واختبر سواحه ورسم خارطات
بذلك مع الدقة ثم سافر لتقاء بلاد الحجم في ١٥ شهر مايو سنة ١٧٢٢
من الميلاد وقد صحبته زوجته في هذه السباحة على عادتها ونزل في نهر الاثل
حتى وصل الى مدينة ازدرهان ومن هناك اسرع في تشهيل عمليات
الخلجان التي كان الغرض منها اتصال كل من بحر الخزر وبحر
بالتق والبحر الابيض ببعضها وحصل ذلك في عهده لكن بقي منه جزء انتهى
في عهده

وبينما كان بطرس يدير هذه العمليات اذ حضرت جيوشه البيادة وكذا
الذخائر على بحر الخزر فكان عنده في هذه الغزوة اثنان وعشرون الفا
من عساكر البيادة وتسعة الاف من الخيالة المسماة ازدرهان وخمسة عشر
الف من القوزاق وثلاثة آلاف من البحرية ارباب دراية بالحركات العسكرية
لهم مقدرة على القتال حال الهجوم كالعساكر البرية فتوجه الخيالة بزا
من النصارى الخالية عن المياه غالبا ولما اجتازوا هذه النصارى وجب أن يعبروا
بوغاز جبال قوقازة اى جبال الجراكسة الذي يقدر نحو ثلاثمائة شخص
من اهلها أن يوقفوا جيشا بتمامه لكن عدم انتظام الحكومة ببلاد الحجم
اذ ذلك مما يسوغ التجاسر على ارتكاب امثال ذلك

وقد سار بطرس في نهر الاثل المذكور من جنوب مدينة ازدرهان
وقطع نحو مائة فرسخ حتى وصل الى المدينة الصغيرة المسماة اندريهوف
فحصل التعجب من اسم اندرى الذي يدل على معنى نصرانى على شاطئ
بحر اوقانيا وليس ذلك بعجيب فان فرقة من الجرح الذين كانوا سابقا
من النصارى بنوا هذه المدينة ثم حصنها بالحجم فاخذها بطرس مع

السهولة

السهولة ومن هذه الجهات توغل في السير بزا في بلاد داغستان وقشر بها
اعلانات محترمة بالفارسية والتركية ولكن سلك فيها مسلك الادب مراعاة
لما طرد الدولة العثمانية حيث كل من رعاياها غير المحركس والمخرج المجاورين
للك الجهات بجملة من الحكام ذوي القوة والاعتبار خراجين لها دخلوا
عما قريب في حمايتها

ومن جملة هؤلاء الحكام حاكم دوشوكه كان يدعى محمودا او تمخج كان سلطانا
قصباسر على الهجوم على جيوش ايمبراطور الموسقو فهزم هزيمة كلية
وقد ذكر في جرنال تلك الوقائع أن بلاده صارت شتلكا وسوار يخ

(١٤ شهر سبتمبر سنة ١٧٢٢) وعما قريب وصل بطرس
الى مدينه دربند وسميها العجم والترك تيمورقو اعنى الباب الحديد
وسمي بذلك لان لها في الواقع باب من الحديد بجهتها الجنوبية وهي مدينة
طويلة ضيقة متصلة من احد طرفيها بشعبة من جبل قوقازة صعبة
المرتقى ومن الطرف الاخر متصلة اسوارها بامواج البحر الذي يعلو عليها
في اوان القروطونات ولا مانع من أن تعد اسوار هذه المدينة من جملة عجائب
الاقدمين فان ارتضاعها اربعون قدما وعرضها ست اقدام محصنة بارج
مرتفعة الشكل مسافة بعد البرج عن الاخر خمسون قدما ويظهر للناسظر
ان هذه المباني كأنها قطعة واحدة لانها مبنية بالخفاف المتخذ من حجر
البلاط والودع المسخوق فتيج من ذلك جرم اكثر صلابة من الزخام ويمكن
الدخول فيه من البحر واما من جهة البر فيظهر أنها حصينة منيعة ولم يزل
الى الآن يوجد في تلك الجهة آثار سور قديم يضاى سور بلاد الصين الذي
بناء الصينيون في الازمان الخالية وامتداد ذلك السور من شواطئ بحر الخزر
الى شواطئ البحر الاسود والظاهر أن الذي بناء انما هم قدماء ملوك العجم
لذنب عن ملكهم من هجوم الامم المتوحشة الساكنة بين هذين البحرين
ومن المتواتر بين القرس ان مدينة دربند رجم بعضها الاسكندر وحصنه
وقد ذكر كل من المؤرخ اريين وكينت كورس أن الاسكندر في الواقع

ونفس الامر عمر هذه المدينة واعادها كما كانت نعم قد زعم هذان المؤرخان ان هذا الترميم كان على شواطئ نهر تن صوي غير أن اليونان في عهد المؤرخين المذكورين كانوا يطلقون اسم تن صوي على نهر قيروس الذي يمر بقرب مدينة دربت فيكون بناء الاسكندر لباب بجزر الخزر على هذا النهر الذي مصبه في بحر بنطش من الامور المتقوضة

وكان لبحر الخزر في سابق الازمان ثلاثة ابواب اواربعة في اماكن مختلفة والغرض من بنائها واحد كما هو الظاهر لان الامم الساكنة في غربي هذا البحر وشرقيه وشماله كانت دائماً تبريرة مهينة عند من عداها من الامم ومن هذه الجهات انتقل الجثم الغفير من المغيرين اصحاب الفتوحات الذين استولوا على كل من آسيا واوربا

واذا ابيح لي أن ابدى هنا بعض ملحوظات فأقول كثر ما غش المؤلفون في سابق الزمان العامة واستحسنوا ايقاع الناس في الخطأ وآثروا زخارف الكلام وفصاحته على الحقيقة فان كينت كورس نسب الى قدماء التتار خطية عجيبة مشحونة بالعدل والحكمة فأفاد أن تتار تلك الاقطار كانوا اهل حكمة وعقل وان الاسكندر لم يكن من طرف دول اليونان لقتال ملك القرص الذي هو صاحب جزء عظيم من بلاد التتار الجنوبية وبلاد الهند وكذلك فصحاء المؤلفين حيث ارادوا تقليد كينت كورس بذلوا جهدهم في افهامنا ان الامم المتوحشة سكان جبال قوقازة والصغاري المتهمكن على السلب والقتل اهل عدالة وحق اكثر من غيرهم ووصفوا الاسكندر الذي اتقم لليونان وغلب من اراد ان يسترقه انه من قطاع الطريق يطوف الدنيا بدون موجب وبدون حق

ولم يتفكروا ان هؤلاء التتار لم يكنوا سوى مبيدين للامم ومخربين للبلاد وان الاسكندر شيد مدنا في نفس بلادهم فلذا يسوغ لي ان اتجاسر واشبه بطرس الاكبر بالاسكندر فانه كان مثله في الهمة والاجتهاد ومحبة القنون النافعة بل واشد منه اعتناء بوضع القوانين والشرائع واراد ان يغير مثله تجارة

وبني واصلح من المدن بقدر ما بنى إسكندر
وحين قربت الجيوش الموسقوية من مدينة دربند لم رد حكمداها أصلاً
الحفاظة ما لكونه ظناً لم يكن في طاقته الذب عن نفسه وأما لكونه رأى أن
حماية الإمبراطور بطرس الأكبر له أولى من حماية الطاغى مير محمود فأجبر
مفتاح المدينة ومفتاح القصر الذى فيها وكانت من اللصة فدخلت الجيوش
الموسقوية بمدينة دربند صلحاً ونصبت عراضها على شاطئ البحر
ثم إن الطاغى محمود الذى كان اذذاك يحكم على جزء عظيم من بلاد العجم
اراد أن يتدارك الجار ويمنعه من الدخول بمدينة دربند لكن لم يجد
سعيه في ذلك شيئاً فتهيج التتار المجاورة لتلك الجهة على ذلك بل وبأدرب نفسه
لتنع جيوش الجار لكن كان قد سبق أن مدينة دربند
سلك للموسقوية

ولم يسغ لبطرس وقتئذ أن يتقدم في الفتوحات لبلاد العجم لما أن السفن
الموسوقة بالذخائر والعساكر الجديدة والخيول قد غرقت بقرب مدينة
أزدهان وكان فصل الشتاء قد أقبل فعاد إلى مدينة موسقو ودخلها
بموكب حافل وأخبر فيها على رؤس الأشهاد وكيله السمي رومادونوسكى
على حسب عادته بما حصل له في هذه الغزوة من أولها إلى آخرها التي هي
أشبه بمحاكاة نادرة غربية جديدة بأن يحكى أمام كافة ملوك الأرض
كما ذكر ذلك في مدح بطرس الأكبر في خطبة تليت في مدينة باريس
بجمعية العلوم

ولم تزل دولة العجم إلى ذلك الوقت منقسمة بين الشاه حسين والطاغى
محمود وكان الأول يسعى في أن يتعضد بإمبراطور الموسقو وأما الثانى
فكان يخشى من أن الإمبراطور المذكور يتقم منه ويسلب منه ثمره خروجه
وعصيانة فبذل محمود جهده لاجل تخريض الدولة العثمانية على قتال
بطرس الأكبر حيث أرسل ألبية إلى الاستانة العلية لهذا الغرض وكان
أمره ذاغستان الذين هم تحت حماية السلطان قد أساءتهم أهل الموسقو

بقوتهم الحربية وسلبوهم فطلبوا من الدولة العلية أن تنقسم لهم من الموسقو
في نظير ما صدر منهم في حقهم ~~وكان~~ ديوان الدولة العثمانية أن ذلك يقتضى
ايضا اتجارة الموسقو على بلاد كرجستان التي يعدها آل عثمان
من ملكهم

فاشرف السلطان على اشهار الحرب مع الموسقو لكن منعه من ذلك كل
من ديوان مدينة ~~بيج~~ وباريس حيث اعلن ايمبراطور النمسا بان
الدولة العثمانية اذا هجمت على الدولة الموسقوية يصير هو مجبورا على الذب
عنها وقد صدق ماركي دوبونك الحى فرانس باسلامبول بما صدر منه
من الاعتمادات الرسمية على كلام النمسا للدولة العلية وافهمها أن من جملة
مصلحتها كونها لا ترضى أن انسا ناعاصيا قائما على دولة التجم بمن طريقة
عزل المولوك وأن ايمبراطور الموسقو آذى ما كان يجب على السلطان فعله

ويتنما كانت المذاكرة حاصلة في هذه التدابير الصعبة اذ قدم مير محمود
على ابواب دريند وخرّب البلاد المجاورة لها وقصده بذلك أن الموسقو
لم يجدوا ما يفتاؤون به ونهب من ارقانيا القديمة الجزء المعروف الآن بلسم
جيلان فيفس اهلهم فدخلوا من تلقاء انفسهم تحت حاية الموسقو لما كانوا
يرون انهم معتقوهم

فاقتدى اهل هذا الاقليم في ذلك بشاه حسين الصفوى فان هذا الملك
السيى الخط كان قد اوسل بطرس الاكبر مقبرا من طرفه بطلب منه
جهرة المساعدة والامداد فبينما كان هذا السفير في اثناء الطريق اذ استولى
العاصى مير محمود على مدينة اسقهان وقبض على صاحبه وهو ابن
شاه حسين الصفوى

فما كان من ابن شاه حسين المذكور الذى عزله الطاغى محمود واسره
وكان يدعى طهمااسب الا أن ابق من هذا الطاغى وجيش بعض جيوش
وقاله ولم تقتصره بل فعل كآييه في المبادرة بطلب الحماية من بطرس الاكبر
وارسل للسفير الذى كان ارسله والده بطرس يخبره من طرفه بنفس

الاعلانات التي كانت من طرف والده شاه حسين

(شهر اغسطس سنة ١٧٢٣) قبل وصول السفير المذكور المسي
اسماعيل بك فنجح الامر المرسل بصدده فانه لما رسي على مدينة ازدرهان
علم ان الجنرال الموسقوي المسي ما توفكين متي للسفر بجيوش جديدة
لامداد الجيوش الكاشة بداغستان ولم تكن تأخذ الموسقو الى ذلك
الوقت مدينة باكو التي يضيف العجم بمر الخزر اليها فيسعونه
بمر باكو فاعطى هذا السفير للجنرال المذكور مכתوبا من طرفه
لاهل هذه المدينة يرغهم فيه عن لسان سيدهم بانهم يسلمون انفسهم لايامر طور
الموسقو بدون توقف ثم توجه السفير المذكور لتقاء مدينة بطرسبورغ
واما الجنرال ما توفكين المذكور فانه ذهب الى مدينة باكو ليحاصرها
فحاصرها واخذها فاصادف وصول السفير المذكور ليدوان الموسقو أن وصل
خبر اخذه المدينة المذكورة

ومدينة باكو على اقرب من مدينة شماني التي ذبح فيها اللزجية
التجار الموسقوية وليست في العمار والعره كدينة شماني لكنها شهيرة
بما يخرج منها من النفط الى كافة بلاد العجم وقد تم عقد المشاركة المرسل
بصددها اسماعيل بك المذكور ولم يتفق عقد مشاركة بهذه المثابة
في اقرب وقت

(شهر سبتمبر سنة ١٧٢٣) ولاجل أن يتقم الاميراطور بطرس
في نظير قتل رعاياه ولا مداد طهماسب الصفوي ومساعدته على الطاغى
محمود وعدائه فيضرب بلاد العجم مع جيوشه فاما كان من امر هذا
الشاه الجديد الآن وعده في نظير ذلك بانه لا يكتفي باعطائه مدينة باكو
ودربند بل يعطيه ايضا اقليم جيلان ومازندران واستراباد
ثم ان اقليم جيلان هو نفس بلاد ارقانيا الجنوبية كما اطلقنا ذلك واطليم
مازندران المتصل بجيلان هو عين بلاد المرو واطليم استراباد متصل
بمازندران وهذه الاقاليم الثلاثة هي الاقاليم الاصلية التي قد سلمها ملوك

عراق العجم وادريجان فهذه المثابة رأى بطرس نفسه سيدا على
أولى عمالك قبروس بمقتضى الشروط التي عقدت بينهما بين العجم
ولأبائنا هنا أن نذكر أنه في بعض بنود هذه المشاركة قد ذكروا ائتمان ما يباع
من المأكولات اللازمة من بلاد العجم للجيش الموسقوية فكان
ثمن البعير الواحد لا يزيد عن ستين فرنكا من نقود فرانس (وهذا عبارة
عن اثني عشر ريالاً من عملة الموسقو) ورطل الخبز لا يصل إلى خمسة ليرات
(تسعة انصاف مصرية تقريباً) ورطل اللحم البقري يساوي تقريباً ستة
ليارات وهذا السعر هو أوضح دليل على أن محصولات تلك الجهات بلغت
حد الكثرة وهذه محصولات الارضية هي في الواقع وقص الاموال
حقيقية ودليل ايضا على ندرة النقود التي ليست الا مجرد اموال عرفية
بين الناس

فكان لسوء حجت بلاد العجم أن السبي الحظ طهاسب الصفوى الذي
كان ساجداً بملكه راجلاً لا تزال لا تقفاه العاصي محمود اثره بعد أن قتل والده
شاه حسين واخوته اضطر الى أن يتحالف مع كل من الدولة الموسقوية
والدولة العثمانية على أن يقبل كل منهم جزءاً من ملكه لاجل بقاء الجزء
الآخر له وحفظه

فاتفق كل من الاميراطور بطرس والسلطان احمد الثالث والصفوى
طهاسب على أن الدولة الموسقوية تأخذ من بلاد العجم الثلاثة اقاليم
التي اسبقنا ذكرها وأن تأخذ الدولة العثمانية اقليم كسبان وقرس وايروان
زيادة عن ما كانت متشبثة باخذه والتغلب عليه وقتئذ من الطاغى محمود
فهذه المنسبة تمزقت دولة العجم الطريفة وتقسماها كل من الموسقو وآل
عثمان واهلها

فهذه المنسبة حكم الاميراطور بطرس من بحر بلطيق الى خلف الحدود
الجنوبية من بحر الخزر الى ان مات واستمرت بلاد العجم على كونها
عرضة للفشل والتدمير وآل امراهلها الذين كانوا قبل ذلك اهل ثروة وغناء

ولطف وادب الى أن جاز عليهم حكم الفقر والخشونة بخلاف دولة الموسقو فانها انتقلت من حالة الفقر والخشونة الى الثروة والتذّن والادب بهمة شخص واحد كونه كان ذاعقل قوى ثابت ورفع وطنه بعد الانحطاط بخلاف ملك العجم فانه لكونه كان ضعيفا قليل الهمة اسقط وطنه بعد الارتفاع

والى الآن لم تقف جيدا على جميع تفاصيل المصائب التي دمرت بلاد العجم مدة مستطيلة فقد قيل ان الشاه حسين السي الحظ افضى به الحبن حتى اذاه الى أن يضع بنفسه تاجه الموكى على رأس الطاغى محمود ويقال ان محمود اهدى هذا المختل عقله بعد ذلك فهذه المشابة تصرف شخصان احدهما مغفل والاخر مختل العقل في امر اها الى دولة العجم كثيرين ويقال ايضا ان محمودا في وقت دور جنونه المتقطع قتل بيده جميع اولاد الشاه حسين واولاد اخوته وكان يبلغ عددهم مائة نفس وامر بأن يتلى على رأسه انجيل ماري حنا لاجل ان يخلص ويشفى وهذه الحكايات المتعلقة بشاه العجم المذكور نشرها القسوس الفرنسيون وطبعوها بمدينة باريس ثم ان هذا الطاغى الذي قتل عمه آل امره الى أن قتله ابن اخيه المسمى خسرو وهو في القساوة والظغيان يضاهى محمودا

واما الشاه طهماسب فلم يزل يطلب المعونة من الدولة الروسية وطهماسب هذا او طهماس هو بعينه الذي كان يساعده الشاه قولى خان واعاده الى منصبه ثم عزله بعد ذلك

ثم ان القسائل والحروب التي عادت الدولة الروسية فيها الدولة العثمانية واتصرت عليها وتسليم القرم الثلاثة اقاليم بعد تخليتها التي فقدت فيها الدولة الموسقوية اكثر مما يتحصل لها منها ليست من الحوادث التي تخص تاريخ بطرس الأكبر فانها لم تحصل الا بعد موته بعدة سنين وانما يكفي أن نقول ان بطرس المذكور انهى حروبه بضم ثلاثة اقاليم لدولته بالشارطة مع دولة العجم بعد أن اخذ ايضا ثلاثة اقاليم اخرى من حدود مملكة اسوج

* (الفصل السابع عشر) *

في تنويج الایمپراطورة كاترينة الاولى وتبريك القسيس عليها بالمسحة
وفي موت بطرس الاكبر

لماعاد بطرس من غزو بلاد العجم رأى نفسه انه الحاكم المفوض ببلاد
الشمال على الدوام فألزم نفسه بان يكون محاميا لعائلة نفس كرلوس الثاني عشر
الذى كان عدوا له من منذ ثمانى عشرة سنة فاحضر بدوياته دوق هلستين
ابن اخت كرلوس المذكور وعين له بنته البكرية للزواج وجهز نفسه من هذا
الوقت للمعاماة عن اثبات مال هذا الدوق من الحقوق على دوقية هلستين
سلويك (في شهر فبريه سنة ١٧٢٤ ميلادية) بل ألزم نفسه بذلك
في شروط مخالفة عقدها مع مملكة اسوج

وتمادى بطرس في الاشغال التى ابتدأها بملكه الى آخر بحيث جزيرة كجتها
ولاجل حسن ادارة هذه الاشغال رتب بمدينة بطرسبورغ جمعية علوم
فزهت بها الفنون وازهرت في ملكه بكل جهة وقويت الصنائع وصارت
مرغوبة وزادت القوة البحرية وكذا الاعتناء بشأن الجيوش ولوحظت
القوانين والنرائع فكان يتمتع مع الهدوء والصلح بفخاره واراد ان يتقسام
هذا الفخار بطريقة جديدة مع كاترينة التى ساعدت بحبرها لخلل مصيبة
هزيمة جيبوشه بواقعة نهر البروث على حصول هذا الفخار له كما قاله
بطرس المذكور

(١٨ شهر مايو سنة ١٧٢٤) وكان تنويج بطرس لزوجه
كاترينة وتبريكها بالمسحة بمدينة موسكو بحضور كل من دوقية
كورلاند بنت اخيه البكرى ودوق هلستين الذى اختاره حمراله
على نفسه والاعلان الذى نشر في هذا الخصوص حرى بان يلتفت اليه فانه
هذ كرفيه ماصدر من عدة ملوك من ملوك النمساوى في تنويج زواجهم
ومثل بكل من بازيليد وجوستينانوس وهيرقليوس وايون الفيلسوف
قياصرة دولة بنرطيا وبين ايضا تفاصيل المنافع التى صدرت من

كاترينة لدولة الموسقوسيا ماصدر منها في حرب الموسقوس مع آل عثمان من المداهنة والمداخلة لما آل امر الجيوش الى الاضعلال والتقصان حتى وصلت اثنين وعشرين الف نفس وامامهم بمن يحاربهم من العساكر العثمانية ما ينيف عن مائتي الف نفس كما قاله بطرس ولم يعترض في هذا الامر الصادر بالتتويج الى كون الايمبراطورة المذكورة يلزم أن تحكم دولة الموسقوس بعده لكنه بالتحافها بالتجليل والاحتقال على هذا الوجه الذي لم تجربها العادة في ملكه التي في أذن الناس كونها مستحقة لان تخلفه في الحكم ومما يستوغ اعتقاد ان كاترينة كانت معينة في ذهنه اسير الملك بعده هو ان نفس الجار ساراماهاراجا يوم تتويجها بصفة يوزباشي على فرقة جديدة سماها اورطة شوالية الايمبراطورة اى اورطة التشريف

ولما دخل الموكب الكنيسة وضع بطرس التاج على رأسها فارادت عند ذلك أن تقبل ركبته فمنعهام من ذلك ولما خرجوا من الكنيسة امر بجعل عصا الملك والكرسي الملوكية امامها فكان جميع ما فعل في هذا الموسم جدرا بان يصدر من مثل بطرس الأكبر فقد صدر منه في بعض الاوقات في مقلم المواكب من الابهة والرواق والزينة بقدر الجول والسازجبة التي كان يستعملها في معيشته الخصوصية

ولدت زوجة عزم على تزويج بنته البكرية حاتابترونا بدوق هلاستين وكانت هذه الاميرة اشبه بابيها فكانت رشيقة القمعة تدله القوام بارعة الجمال فتزوجت بالدوق المذكور لكن حصل ذلك بدون اية عظمية وقرح جسيم فانه في ٢٤ شهر نومبر سنة ١٧٤٤ ميلادية قد احس بطرس بمحصول تغير عظيم في صحته وكان به غم بدائنة للترزية ولربما كان هيج هذا الغم الذي مات به فبذلك صارت اواخر ايامه من الدنيا غير لا ثقة بابية المواسم والاافراح

وذلك ان كاترينة كان لها شاب حاجب يدعى موانس دولاكروا مولود

بيلا دالموسقو من عائلة فلنكية وكان جيل الصورة وكانت اخته
مدام دويلك ماشطة الایمپراطورة وكان كل منهما يدير منزل الجار
فوشی بهما عنده فوضعهما فی السجن وامر بتحقیق قضیتهما بخصوص قبولهما
الهدایا وكان قد منع من سنة ١٧١٤ ميلادية كل من كان ذا وظيفة
من قبول الهدایا واعلن أن كل من حصل منه ذلك فعقابه بالجرسة والفضيحة
والقتل وقد تجدد الامر باجراء ذلك مرارا

فحققت قضیتهما وحصل اقناعهما فی صحة ما اتهم به وذكرفی جرنال الحكم
عليهما عدد من اعطوا الرشوة والبرطيل فی تطيرتحصيل الوظائف والمناصب
ماعدالدوق دو هليستين ووزير ذلك الدوق المسي لوكت زوباسويتز
فانه لم يذكرا معهما فانه وان صدق العقل ان هذا الامير اعطى لمن ساعده فی نجاح
زواجه بنت الجار بعض هدايا لكنها لم تعد ذبا

فحكم علی الحاجب المذکور بضرب عنقه وحكم علی اخته التي هی خصیصة
الایمپراطورة بان تضرب احد عشر سوطا بالسوط المسي عند الموسقو
كنوت وهو سوط عذاب عندهم وصار عزل ولدی هذه الماشطة الذي كان
احدهما ايضا حاجبا والاخر من جملة الغلمان المحتصين بخدمة الجار
وارساليهما فی الجيوش الموسقوية بيلا دالجيم بوظيفة اقرار

ثم ان مثل هذه القساوة التي تنفر منها طباع فرنسا وية ربما كانت ضرورية
بيلا دالموسقو التي اجراء القوانين والشرائع فيها وحسن رعايتها كان
يستدعي شدة تخويف وازعاج فطلبت الایمپراطورة من زوجها العفو عن
ماشطتها فأبى ذلك لغيظه وكسر عند تسلطن القبط عليه مرآة عظيمة من
مدينة ونديق وقال لزوجته هلا ترين انه لا يلزم سوى ضربة من يدي
لاستحالة هذه المرأة الى التراب التي خرجت منه فنظرت اليه كاتريشة
عند ذلك بعين الحزن والشفقة وقالت له انت كسرت المرأة التي كانت مزينة
لسرايتك فهل تظن ان السراية الآن اطرف مما كانت فحمد غضب هذا
الایمپراطور عند سماع هذه الكلمات وغاية ما يمكن أن يسمع لها به من العفو

عن هذه الماشطة هو كونها لا تضرب سوى نجسة بالكنوت عوضا
عن احد عشر

وما تصدبت لذكر هذه القضية الا لكون القوتة دوبا سويتز وزير دوق
هلسين عاينها بنفسه بل واعطى هدايا لكل من الاخوين المذكورين
وربما كان لهذا الوزير باعطا لهما الهدايا مدخل فيما حل بهما من المصائب
وسوء الحظ وهذه الحكاية كانت سببا في تجارب ارباب الطويات السيئة
بالحكيم على الشيء بما هو منطوق في طبائعهم حيث اشاعوا ان كاترينة
اسرعت في موت زوجها حيث كانت تخشاه لدى غيظه اكبر من أن تعترف له
بالشكر في تطعيمه ما له عليها من الآلاء والنعم

وايد هذه التهمة الصادرة من ارباب القلوب الجافية كون كاترينة قد بادرت
باسترجاع ماشطتها عقب موت زوجها واقبلت عليها كل الاقبال ومما يجب على
المؤرخ من حيث هو مؤرخ ذكر مثل هذه الاشاعات العامة التي شاعت
وانشرت في كل العصر والدول عند موت الملوك قبل حلول الاوان الطبيعي
فكأنهم يعتقدون ان قدرة الله تعالى لا تقبض الانسان قبل العمر الطبيعي
لكن مما يجب على المؤرخ ايضا أن يذكر للعامة ان اللفظ يمثل هذه الامور
واشاعتها كثيرا ما يكون من باب الرجم بالغيب وعدم مراعاة قانون الانصاف
وتم فرق جسيم بين الغضب الوقتي الذي يميز ويتقضى الشئ من زوج ذي
قساوة وبين اضممار السوء في كون الزوجة المذكورة تعطى السم لزوج وسيد
له الفضل عليها في كل الامور ولو كان الامر كذلك لكان اضممار الشرع
في هذا المذمور خطرا عظيما كما ارتكاب الذنب بالفعل وعند موت الجار
ظهر حزب عظيم متعصب على كاترينة مساعدا ومتصرا الحفيد بطرس
ابن الكسيس المقتول ويريد تقليده بالملك بعده ومع ذلك لم يتم هذا
الحزب بل ولا احد من رجال الدولة كاترينة بانها سمت الجار وانما هذا
اللفظ القارح الذي شاع لم يكن الا نطق بعض الغرباء الجاهلين حقيقة الحال
الذين دأبهم المسيرة بالشر ولا اعتقادهم بدون اصل صدور الكبر من يظنون

ان لهم مصلحة في ارتكابها وهذه المصلحة التي كان يظن انها تعود على كاترينة بعد موت الجار بالمنفعة هي المصالحكم بعده مع ان كاترينة كانت لا تثق بذلك حيث لم تكن جازمة بانها تختلف الجار في الحكم على الدولة نعم انها قبل موته ليست ناج الايمراطورة لكن هذا مجرد كونها زوجة الايمراطور لا يرسم كونها تصير حاكمة على الملك بعده

والاعلان الذي اعلن به بطرس لتتويجها لم يعنون فيه موكب التتويج الا برسم كونه مجرد احتفال تفرح ولم يعنون ذلك بكونها لها حق في الحكم بعده لاسيما وان مذكور في هذا الاعلان ما صدر من الايمراطورة الرومانية الذين تزوجوا زوجاتهم ولم تحكم واحدة منهم على الدولة بعد زواجها وبالجملة ففي مدة مرض بطرس ظن جماعة كثير من الاميرة حان باترونا (بنت بطرس) هي التي تحلقه مع زوجها دوق هاستين أو أن بطرس يعين للخاف بعده حفيده فحينئذ من البعيد كون كاترينة لها مصلحة في موت الايمراطور وانما مصلحتها التي كانت تحتاجها هي بقاؤه على قيد الحياة

ومن المحقق ان بطرس كان مصابا بمدة مديدة بدمل وبعسر البول وتجنب له من ذلك الام شديدة وكان يتداوى بالاغتسال من مياه مدينة اولوتيتزا المعدنية وغيرها ومع ذلك لم تجد نفعا في شفائه فن ابتداء سنة ١٧٢٤ ميلادية ظهر ان بنيته كانت تضعف ضعفا محسوسا وان اشغاله التي لم تقهره من عجز اذات مرضه حتى جاء وقت انقضاء اجله وكان يظهر عليه علامات الموت عاجلا وفي شهر ينويه سنة ١٧٢٥ ميلادية احس بحجارة شديدة كانت عسبا في كونه يقضى اغلب اوقاته في الهوس والتخريف وفي خلال الاوقات التي كانت تشاركه منها هذه الآلام اراد ان يكتب وصية لكن لم تستطع يده الا كتابة حروف عشرة القراءة جدا فلم يكن أن يقرأ منها الا ما معناه باللسان الروسي اعطوا كل شيء الا

ثم صاح قائلا احضروا الاميرة حان باترونا وكان مرامه بذلك أن يعلمها ان لها حضرت هذه الاميرة امام فراشه وجدت انه قد قوت الكلام وصار يعالج

سكرات الموت واستقر محتضرا ستة عشر ساعة ولم تكن تترك كاترينة وسادته مدة ثلاث ليال وبالجملة فأتى الجمار بين ذراعين في ٢٨ شهر يونيو في الساعة الرابعة بعد نصف الليل

وتقلوا جثته في الايوان الكبير الذي بالسراية وكان وراءه جميع العائلة الايمبراطورية وارباب مجلس الحكومة وجميع الذوات وكثير من الاهالي وطرحوه على سرير كعادتهم وابع لكل الناس الدنومنه وتقبيل يده الى وقت تجهيزه للدفن وكان ذلك في ١٠ شهر مارس سنة ١٧٢٥ ميلادية او في ٢١ من الشهر المذكور في السنة المذكورة بحسب اختلاف التقاويم الجديدة والقديمة

وقد ظن الناس انه اوصى زوجته كاترينة بوراثة الملك بعده ونشر هذا الامر وطبع لكن في الواقع ونفس الامر لم يفعل الجمار وصينامة ولم تظهر له وصينامة وصدر هذا الاهمال من المغفل للقوانين عن مثل بطرس الأكبر امر عجيب يدل على انه لم يظن ان داءه يفضي به الى الهلاك

وفي ساعة خروج روحه لم يعلم احد من مجلس على سرير الملك بعده وقدمات عن حفيده السمي بطرس وهو ابن ألكسيس المقتول وعن بنته البكرية دوتيجيه هيلستين (زوجة دوق هيلستين) وكان هناك حزب عظيم مساعد لحفيده الشاب في وراثة الملك بعد جده ثم ان الامير منزيقوف الذي كان متحدا دائما مع كاترينة تدارك جميع ما يمكن صدوره من المتعصين والمضمرين شيئا في هذا الشأن فانه لما قرب خروج روح بطرس احضر منزيقوف كاترينة بايوان بالسراية وكان قد اجتمع فيه اجمعها وصار قتل الخزينة بالقلعة واستوثقوا من الخنزير وقدر في الامير منزيقوف مطران نوغروود لاجل مساعدة الايمبراطورة في تولية الملك ففقدت كاترينة مع المجتمعين مشورة سرية وكان كاتب السر فيها انسان كتوم يحفظ الاسرار يسمى مكاروف وحضرها ايضا وزير دوق هيلستين ولما خرجت كاترينة من هذه المشورة عادت لزوجها الذي كان يعالج

في خروج الروح فخرجت روحه بين ذراعيها فعند ذلك بادار باب مشورة
الحكومة والمجلس بالانتداب الحضور في السراية فخطبت كاترينة خطبة ذكرت
فيها ما ذكرت فاجابها متريقوف عن لسانهم وتذاكروا في شأن ولايتها
مع عدم حضورها حسب الرسوم فاعترف المطران بان الامير اطور بطرس
قبل توبيخها قال انه لم يتوجه الا لتكون ولية عهده بعده فليبعها اهل المجلس
وكتبوا صورة مبايعتها بوضع عليها جميع اهل الجمعية امضاءهم وخلقت
كاترينة زوجها من يوم موته

وقد تأسف اهل الموسقو على موت بطرس الاكبر لما بدعه في الدولة
من الامور النافعة واهل الجليل الذي اعقب المتسكين بالعوائد القديمة من
اهل الموسقو احبوا بطرس المذكور واتخذوه اباهم ولما رأى اهل
البلاد الاجنبية ان جميع عذاته التي ابتدعها بدواته متينة مستديمة تعجبوا
منه ~~كل~~ العجب واعترفوا بان ما فعله مما بعد من الامور العجيبة كان من
باب حسن التدبير البليغ لا عن قصد فعل عظام الامر لمجرد الرياء والسعفة
وقد تبين عند اهل اوروبا بانه احب القنصار والسعة وانه جعل جميع فخاره
في فعل الخير وان عيوبه لم تضف صفاته الجيدة فمن حيثية كونه بشرا كان
ذاعيوب ومن حيثية كونه ملكا كان على الهمة فغلب العوائد في كل الامور
اعنى عوائد رعاياه وعوائد نفسه في البر والبحر لكن غلبه لاصلاحها وتحسينها
في القنون التي غرسها يده في ممالكه وكان بعضها اذ ذلك وحشيا فامرت
وشهدت له بركاء عقله واوجبت تخليد ذكره والايترامى انهما اصله في هذه
البلاد التي جلبها اليها وقد تقوت وكنت على حسب اغراضه وما آربه القوانين
والاحكام والسياسات والترية العسكرية والبحرية والتجارة والتعديقات
والعلوم والقنون المستطرفة * ومن غريب ما اتفق ولم يسبق بمثله انه جلس بعد
هذا الامير اطور على سرير ملك الدولة الموسقوية اربع نساء على التوالي
حافظن على العمل في جميع ما بدعه وكنن وحسن جميع ما شرع في فعله
وقد حصل بعد موته بعض فشل في السراية الاميراطورية لكن لم يعد على

الحكومة من ذلك شيء قط وقد ازداد انقصار هذه الدولة في عهد كاترينة الاولى
فاجترأت الدولة المذكورة بعد هاقستال آل عثمان والاسوج في عهد
جانايترونا وفتحت البروسيا وجزاً من اقليم بوميرانيا في عهد ايليزابطة
ومتعت الدولة المذكورة بالهدوء والصلح وفي عهد كاترينة الثانية زهت
العلوم بها وابتعت

ومن وظائف المؤرخين من اهل الموسيقى أن يبينوا جميع تفاصيل
ما اسسه بطرس الأكبر بملكه من شرائع وقوانين وحروب ومشروعات
فبشاهارهم جميع الرجال الذين ساعدوا هذا الامبراطور في اشغاله الحربية
والسياسية من ابناء الوطن بشوقون ابناء وطنهم ويمثونهم على الاقتداء
بهم ويكني من اجنبي مثلي متولع بهذا الامبراطور خلى اغراض في كتابة
التاريخ كونه اجتهد واطهر ما صدر من هذا الرجل الجليل القدر
الذي تعلم من كرلوس الثاني عشر ما غلبه به وخرج من ملكه مرتين لإجل
أن يتعلم كيفية الاحكام على احسن حال واتم منوال واشتغل بيده في اغلب
القنون الضرورية ليكون قدوة لرعاياه وحسبه انه كان مؤسس الملكية
والبالطينه

وبالجملة فكانه جعل ملوك الدول المتحذنة منذ مدة مديدة يقول بعضهم لبعض
بلسان الحال اذا كان بالاقطار المتجمدة التتارية قديماً هذا الانسان الذي
لم يكن له مساعد سوى عقله فعل اشياء عظيمة جليلة فماذا ينبغي أن نفعل
بمما لبكالى نكاثرت بها مصنوعات عتية قرون وصيرت كل شيء
سهلاً علينا انتهى

(صورة الحكم على ألكسيس بالقتل)

في ٢٤ شهر يونيو سنة ١٧١٨ ميلادية

انه بمقتضى الامر الصريح الصادر من جناب الجار الموضوع عليه امضاه
بخطه المؤرخ في ١٣ شهر يونيو الاخير بخصوص تحقيق دعواه على
ابنه ألكسيس بترويتز بمصدر منه من المخالفات لولده الذي هو ايضا
ولى امره وارتكاب الذنوب في حقه كان من امر الواضعين امضاءهم في هذا
ادناه من وزراء وابواب مشورة الحكومة جهادية وملكية انهم بعد
ان اجتمعوا عدة مرات بمجلس الحكومة بمدينة بطرسبورغ وسمعوا
بانفسهم غير مرة قراءة نسخة اشهادات على ألكسيس وما هو ملخص منها
سمعوا ايضا قراءة مكاتيب الموعظة المحزنة من طرف الجار لابنه
واجوبتها التي اجاب بها ألكسيس المذكور المحزنة بخطه وغير ذلك
من الاوراق المتعلقة بهذه القضية وما حصل من تحقيق ما صدر منه من
الذنوب التي ارتكها وكذا ما اعترف واقر به على نفسه عما هو بخطه او مما شاع به
سيده ووالده وذكره ايضا امام الواضعين امضاءهم في هذا الجرنال المعينين
من طرف الجنب الجارى لخصوص هذا التصديق اعترفوا لى المذاكرة بانه
وان كان بمقتضى قوانين الدولة الروسية ليس لهم حق بجملة كافية نظرا لكونهم
وعلماء من اصل الخلق للدولة الجارية في تحقيق مثل هذه القضية المهمة التي
لحقها أن يفوض امرها للارادة الايمبراطورية المطلقة التصرف التابعة
للالادة الالهية الفاعلة المختارة بدون شرط ولا قيد الا انهم امتثالا لذلك الامر
الصادر من الدولة الجارية المستولية المقوضة لهم الراى في بت الحكم في هذه
القضية بعد أن تأملوا كل التأمل وتفكروا كل التفكير بدم نصرانية بدون
خوف ولا عتق ولا مراعاة لحاظ الدولة الجارية ولم يكن نصب عينهم
سوى ما يوافق هذه القضية من الاحكام الالهية المنصوصة في التوراة
والانجيل واناجيل الحواريين والاحكام الدينية والقوانين المجمع عليها في المجامع
الجمهورية بمعرفة المطارنة ورؤساء دين النصرانية وبعد أن استنصتوا ايضا

من الاساقفة والقسوس المجتهدين بمدينة بطرسبورغ بامر الجار واجيبوا
بما يوافق الاحكام القسيسة وراعوا قوانين الدولة الموسقوية سيما القوانين
الجهلدية واستأنسوا بمواقفة قوانين كثير من الدول مثل قوانين قدماه
الايمبراطرة الرومانية واليونانية وغيرهم من ملوك التصارى استقر رأى
بين الواضعين امضاءهم فيه بدون منقضة ولا مخالفة على ان ابن الجار الذى
هو ألكسيس يتروى يستحق القتل وحكموا عليه بذلك نظرا لما ارتكبه
من الكيان المذكورة ولما صدر منه من الموبقات الجسيمة فى حق سيده
ووالده حيث انه ابن للدولة الجارية ثم ان الذات الجارية وعده بمقتضى الامر
المرسى من طرفها اليه مع كل من مسبو تلسوى مشتار الجار
والنيوزباتى رومانزوف المكتوب بمدينة اسيا المورخ فى ١٠ شهر
يولية سنة ١٧١٧ ميلادية المذكور فيه بان الجار سامحه بما صدر
منه من الهروب اذا عاد من المحل الذى كان به بالبطوع والاختيار كما اعترف
بذلك ألكسيس المذكور مع ما صدر منه من الشكر فى مكتوبه الذى
حزبه بمدينة نابلى فى ٤ شهر اوقطوبر سنة ١٧١٧ جوابا
عن المكتوب المذكور وذكر فيه الشكر والثناء على الحضرة الجارية للعفو
الذى حصل له منها عن هروبه فقط لانه من ذلك الوقت صار غير مستحق
للعفو المذكور لمعارضته لمقاصد والده ولما تجدد منه من المعصية واستقر
عليه كاهومذكور مع الاطناب فى الاعلان الذى نشرته الذات الجارية فى ٣
شهر فبريه سنة تاريخه وايضا صار غير مستحق للعفو لكونه لم يرجع من
تلقاء نفسه من المحل الذى كان فيه

ومع ان الذات الجارية يوم حضور الجار زاده بمدينة موسكو بتقرير
يعترف فيه بجميع ما ارتكبه من الذنوب وطلب فى المدينة المذكورة العفو
من والده عن هذه الذنوب رث لحاله وشفت عليه كاهوشان الاب مع ابنه
وفى الوقت الذى اذن له بان يستمع منه ما يحضره به فى ايوان بالقصر الذى بهذه
المدينة فى نفس يوم حضوره بها وكان ذلك فى ٣ من شهر فبريه وعده

بان بسامحة من جميع ما صدر منه من العصبان وعدم الطاعة لكن لم يعده
بهذا المعفو الا بشرط صريح وهو أن يخبر على رؤس الاشهاد ويعترف بدون
شرط ولا تعليق ولا كتمان بجميع ما ارتكبه وما اتفق على فعله من التعصبات
على الذات الجارية لغاية اليوم المذكور وأن يخبر أيضاً بجميع من اغراه
من الناس على ارتكاب ذلك وبشركائه في الذنوب وبالجملة ان يخبر بجميع من
علموا بعض شيء من مقاصده وما آربه ودسائسه لكن اذا سكت عن بعض الناس
او كتم بعض شيء من ذلك كان المعفو الذي وعده الجار ملغى كالأشياء فسمع
وقتشد ألكسيس. كل ذلك ورضي به ولوظاها وسانت عيناه بالدموع شكراً
لوالده على منيعه واقسم في وعده أن يخبر بكل ما حصل منه بدون حفظ
ولا كتمان ولتحقيق هذا الوعد وتأكيده لثم الصليب والكتب المقدسة
الموجودة في الكنيسة الكبرى

وكذلك الذات الجارية اكدت ما وعدت به ألكسيس من العفو حيث
وقعت بخطها في اليوم الثاني على بنود الاسئلة التي سئل عنها ألكسيس
المذكور في هذه القضية ماصوره

حيث صدر مني البارحة مسامحتك بشرط أن تخبرني بجميع احوال هروبك
وما يتعلق به ولكن اذا كتمت شيئاً من ذلك حرمت من الحياة وحيث شافهتني
بالاقرار ببعض اشياء فلاجل اتمام رضاء خاطري ولبراءتك ايضا يلزم أن تكتب
ما شافهتني به كما هو مبين ادناه

وفي آخر هذه الاسئلة كتبت له الذات الجارية يدها في البند
السابع ماصوره

اخبرني بجميع ماله تعلق بهذه القضية ولو لم يكن مذكورا هنا ونزه نفسك
وخلصها كما يفعل الانسان حين الاعتراف لله تعالى بما ارتكبه من الذنوب
لكن اذا كتمت شيئاً واستبان فيما بعد فانت الخائف على نفسك فلا تنسب الى
شيء مما يجعل بك لانني قد تعهدت لك البارحة امام الخاص والعام بانه ان صدر
منك ذلك فالمسامحة التي حصلت لك تكون ملغاة لا يعا بها

ومع ذلك فاذكره الجار زاده في اجوبته واعترافاته مجرد عن الاخلاص
والصدقة بالكلمة حيث لم يكتف بكم اناس كثيرين بل ارتكب ايضا كتم
امور جسيمة وكم ما صدر منه من العصيان ايضا لاسيما مقاصده التي كان
متشبثا بها لاجل الخروج عن طاعة والده وسيدته والخروج عليه وما صدر منه
من الافعال السيئة التي دبرها واستقر عليها مئة مستطيلة لاجل بذل جهده
في اغتصاب سرير ملك والده ولومدة حياته بساكنة طرق مختلفة قبيحة مخجبة
في ذلك بحجج رديئة ولكن مؤسسا لعله وعشمة في قتل والده وسيدته على اقرار
رعاع الاهالي ومساعدتهم له في ذلك

وقد استكشف والده كل ذلك فيما بعد وظهر ادى تحقيق هذه الدعوى بعد
ان ابى الكسيس من أن يقر هو بنفسه كما ظهر ذلك اعلاه

ومن المعلوم انه يقتضى ما صدر من الجار زاده من السلوك ومن التعهدات
التي تعهدت على نفسه كلبية ومشافهة لاسيما العهد الذي تعهد به اخيرا في ٢٢
شهر يونية سنة ثار يخه انه تخلى عن ولاية العهد وأن يكون وارثا
لتاج الملك بعد أبيه بالشروط التي اراد والده ان يشترطها حسب اصول العدالة
والاحكام الالهية لكنه بعد أن تنازل عن هذا الامر رغب فيه ونوى
الوصول اليه ولو في حال حيلة والده وسيدته مقرر عنه ولم يكتف في سعيه
بالحصول لذلك بما اضرت من تقديم العصاة المتحزبين على والده بل استعان
بأعيان طور ألمانيا كرلوس السادس له واستعان بجيوش اجنية واضمر
ان يجفلها لتجيبه الى نيل مقصوده ولولزم على ذلك خراب الدولة الموسمية
والتبرع بجميع ما يطلب منه من الدولة المذكورة في نظير هذه
المساعدة والامداد

فاذا استبان مما ذكرناه تفصيل ان الكسيس بكم جميع مقاصده الخفية
المضرة وسكونه عن بيان كثير من الانحطاس الذين كانوا متفقين معه على
الخروج كما صدر منه ذلك الى آخر تحقيق هذه القضية والى وقت اقتناعه كل
الانواع في جميع دولته لم يزل محرضا في ذلك الوقت على اضمحلال طرق

بستعملها

يستعملها في المستقبل لاجل ازالة مقصوده عند انتهاء الفرصة في رجوعه
الى انهاء اغراضه وما ربه الشريعة التي نوى على فعلها في حق والده وسيد
بل وفي حق جميع الدولة الموسقوية

فبذلك صار الكيس غير مستحق لحلم والده وسيد ولسماح الذي وعده به
وقد اعترف بنفسه امام كل من الذات الجارية وكافة القسوس على اختلاف
درجاتهم وبحضور اهل الجمعية المجتمعة لهذه القضية واعترف ايضا كتابة
ومشافة امام الواضعين امضاءهم المعينين للحكم عليه من طرف الذات الجارية
بان ماصدر منه مما هو مذكور اعلاه هو صحيح ظاهر يقتضي ما ثبت
من الحوادث

فحينئذ حيث ان الشرائع الالهية والقوانين القيسية التي اسلفنا ذكرها
بل والقوانين الجهادية والملكية لا تقتصر في الحكم بالقتل على من صدر منه
البحث عن قتل والده وسيد و ثبت تعاطي اسباب ذلك عليه بمقتضى امور
ظاهرة بل تحكم ايضا بالقتل على من صدر منهم اضرار ذلك مجرد العصيان او مجرد
نية قتل الملك او اغتصاب ملكه فبالك بقصد العصيان الصادر من الكيس
الذي لم يسبق بمثله في الدنيا وانضمام ذلك الى مقصد شنيع وهو قتل والده
وسيد فلهذا ذنب مضاعف اذ ابطار ابوانه من جنيتين احدهما انه
ابوه من جهة الوطن والاخرى انه ابوه بمقتضى البشرية (وهو ايضا قد ادى
الابوة حقها حيث ربي ابنه من وقت ما كان في المهدي مع غاية المهمة الزائدة عن
المهمة الابوية مع ما يظهر من رقة القلب والرافقة في جميع الاحوال وبذل جهده
في تعليمه وتربيته واخذه ما يلزم للانسان العقل الحكم على الملك وكذا في تعليمه
مع غاية المشقة والعناء واجتهد كل الاجتهاد معه في فن العسكرية ليكون
بذلك ذا اهلية لان يحلقه في الدولة الموسقوية الجسمية) فهل صاحب مثل
هذا المقصد لا يستحق أن يحكم عليه بالقتل عقابا له من جميع الازمة

فبقلب حزين وعيون فائضة بالدموع قد قضينا مع صيكونتنا خدمة ورعيا
بهذا الحكم معتقدين انه ليس من وظيفتنا بهذا الوصف أن يكون لنا مدخل

في فصل مثل هذه القضية العظيمة والحكم فيها لاسيما وان هذا الحكم هو على ابن مولانا الجبار الذي هو ملك عظيم القدر وكثير الحلم والرافة ومع ذلك حيث ان ارادته اقتضت أن تفصل هذه القضية فتعلن في هذه الخلاصة رأينا الصحيح ونحكمكم هذا الحكم بذمة خالصة مسجية ونعتقد انه في وسعنا الاجابة عنه ان سئلتنا بين يدي الله العادل المتزه عن الاغراض في يوم المحضر العظيم الذي هو يوم هول وفزع

ومع ذلك فيعرض هذا الحكم الصادر منا على الارادة الحاكمة الجارية صاحب العفو والسماح ليطلع عليها ويجري ما تقتضيه ارادته الملوكية

* (صورة الامر الصادر من الاميراطور بطرس الاول) *

• في شأن تويج زوجته الاميراطور يجه كاترينة

من الحضرة الاميراطورية المتولية على جميع الدولة الموسقوية الخ الى جميع الطوائف القيسية والضباط الملكية والجهادية والاهالي الروسية من الرعايا الموصوفين بالامانة لا يخفى على احد منكم العادة المستمرة الجارية بالممالك النصرانية التي بمقتضاها يتوج الملوك زوجاتهم كما هو جار الآن وكما صدر عدة مرات في الازمان الخالية من ملوك النصارى التابعين للديانة اليونانية الاصلية كالقيصر بازيليد الذي توج زوجته زينوبيا والقيصر يموستيانوس الذي توج زوجته لويسينا والقيصر هركليوس الذي توج زوجته مريتنا والاميراطور ليون القيسوف الذي توج زوجته ماريامهم وكذا جماعة غيرهم من القياصرة ودوضعوا التاج الاميراطوري على رؤس زوجاتهم لان ذكرهم هنا ولو ذكرناهم لطلال شرح ذلك

ومن المعلوم ان ساطمنا خطرنا بنفسنا واتجمعنا شدا انذالاهوال مدة الحرب الاخير الذي مكث احدى وعشرين سنة على التوالي لحفظ وطننا وقد أنهينا هذا الحرب بعون الله تعالى مع الشرف الكامل والمنفعة الزائدة لدولتنا وبالصلح الذي لم يسبق بمثله للدولة الروسية ولم تحزن من القصار قدر

ما حازته بهذا الحرب وحيث ان الامبراطورة كاترينة التي هي زوجتنا
العزيزة قد حصل لتأمينها كل المساعدة والاعانة في الخلاص من ربة هذه
الاطوار في هذه الحرب كما ساعدتنا ايضا في غزوات اخرى محبتنا فيها بالطوع
والاختيار بالنصح والاشارة على قدر الامكان مع ما جلبت عليه النساء من
الضعف سيما في الواقعة التي حصلت بيننا وبين الدولة العثمانية على نهر
البروت حيث قد اضطلع فيها حال جيوشنا وآل امره الى اثنين وعشرين
الف مقاتل وكانت عساكر الجيوش العثمانية المقاتلة مائتين وسبعين
الف فقد اظهرت الامبراطورة في هذه الحالة الكريمة التي كان لا يؤمل فيها
النجاح غيرة عظيمة بمصادر منها من الشجاعة الزائدة عن طاقة النساء كما هو
معلوم عند جيوشنا وبدولتنا بالنظر لذلك وبمقتضى التصرف والنقوذ
الموهوب لنا من الله تعالى قد عز مناعلي تشریفها بالتاج الامبراطورى
شكرا لصنيعها ومكافأة لها في تطير ما كابدته من المشاق وبمنه تعالى بصير
انجاز هذا التتويج في فصل الشتاء من هذه السنة بمدينة موسقو
وهذا اشعار منافي شأن هذا الامر الذي عز مناعليه لعايانا المحبين ارباب
الامانة الذين لم تزل محبتنا الامبراطورية لهم بدون نقص ولا تغيير

* (ذكر نوادر في مناقب بطرس الاكبر) *

بطرس الاول لقب بالاكبر لانه شرع في فعل امور حسنة وفعلاها وكان لا يخطر
ببال احد من سلفه فعل شيء منها وكان اهل ملته قبله مقتصرين على الصنائع
الاولية البسيطة التي كانت تبعثهم على فعلها الاحتياجات الضرورية
ولا يخفى ان ما تعود عليه الناس تسلطن عليهم وتطبعوا به ومن الصعوبة ازالته
منهم فلا تستاق انفسهم الى مزاوله ما لا يعرفونه وايضا عقول البشر لا تقسع
الامع الصعوبة وتعطل قوتها الفاعلية عند وجود ادنى مانع لذلك ومما
يتصوره العقل مع التسليم ان جميع الملل مكنت في حالة الخشونة وعدم
التدب مدة آلاف قرون واستمرت على ذلك حتى ظهر فيها اناس مثل الجبار
بطرس وكان ظهورهم في الاوان الذي يلزم حضورهم فيه

قد اتفق بالصدقة ان شابا من مدينة جنيوره كان يدعى لوفورت
وكان بمدينة موسقو بمعية الخي من مملكة دانيمارقة في سنة ١٦٩٥
ميلادية وكان عمر الجار بطرس اذ ذاك تسعة عشر سنة فاجتمع بهذا
الشاب وكان قد تعلم في يسير من الزمن اللسان الروسي وكان يتكلم بجل السن
اوروبا فاجب هذا الشاب الجار ودخل في خدمته وعما قريب صار من
اخصائه فافهمه هذا الشاب ان هنالك طريقة اخرى في المعيشة وفي الحكم
خلاف الطريقة السيئة الجارية في جميع الازمان بمملكته التسعة فلا مانع
من ان دولة الموسقو كانت تمكث في حالة الخشونة وعدم التمدن لولا وجود
هذا الشاب الجنبوري المولد

فلا بد ان هذا الجار مولود مع علو الهمة حتى انه صدق من قول وهلة ما اخبره
به انسان اجنبي ويترك العقائد الفاسدة المتطبع بها هو ورعيته وقد ادركه
الجار بانه يجب عليه تمدين دولته وتعليم رعيته لكن لم يكن عنده ما يستعين به
على هذا الامر فتوى من وقتئذ على الخروج من ملكه والذهاب الى البلاد
الاجنبية لاستعارة المعارف واقتباسها من الخارج لاجياء وطنه كما يحكي
عن برومي في الجاهلية انه صور صورا من التراب والماء وادان بنفخ فيها
الروح بنار سماوية فذهب بطرس الى البلاد الفنلنك ليجلب منها ما يحجي به
اجسام اهل ملكه من المعارف وكانت تلك البلاد الفنلنكية مثل البلاد
الموسقوية مجردة عن المعارف قبل ذلك بثلاثة قرون لكن لم يمكنه ان يبادر
باجراء هذا المشروع بمجرد ما نوى عليه لما ان الحال كان مقتضيا وقتئذ
لان يحارب ويقاوم آل عثمان التتار وكان ذلك سنة ١٦٩٦ ميلادية
فتجلب حتى غلبهم ثم خرج من مملكته ليتعلم بنفسه جميع الفنون التي كانت
اذ ذاك مجهولة الحال يبلاد الموسقو واقام نحو سنتين بمدينة امستردام
وقربة سردام يبلاد الفنلنك ويسمى نفسه بالاسطى بطرس مجازيلوف
واشتهر بهذا الاسم وكان ينادى به وقد نفسه بمخبرة امستردام الشهيرة
التي كانت تعطى السفن لاجلب عمالك اوروبا وكان يشتغل بالبلطة البيكلار

وعند

وعند فراغ شغلهم من المنجزة كان يطالع علم الجغرافيا والهندسة والتاريخ
وفي اوائل اقامته بالقرية المذكورة كانت تزدهم عليه الناس فكان
في بعض الاحيان بنهر منهم من يتناقل عليه فكانوا يتحلمون منه ذلك على
خلاف عادة الفلنكية واقل لسان نعله من الالسن الاجنبية هو اللسان
الفلنكي وبعده اجتهد في معرفة اللسان النيساوي حيث ظهر له انه لسان
عذب الالتقاط واراذا ان يكون لسان ديوانه

وقد تعلم ايضا شيئا من اللسان الانكليزي في مدة سياحته الى لندرة ولم
يتشبث تعلم اللسان الفرنساوي بجهل كافية ومع ذلك فقد صار لسان اهل مدينة
بطرسبورغ في عهد الايمبراطورة ايليزابطة عذب تمتد دولة الموسقو
وكان بطرس الاكبر طويل القامة بلوح على صورته علامة النجم
والهبة والوفار لكن كانت صورته تشبه تارة بما كان يحدث في وجهه من
تشنج الاعصاب حيث كان يغير قاطيع وجهه ويقال ان هذا الداء الذي كان
يعتري اعضاءه متسبب عن تحريك سم اعطته له اخته صوفية لكن في الواقع
ونفس الامبرليس السم الذي كان يجسمه غير ما كان يتعاطاه من النيذ والعرق
ويشرب منه مقدارا اذا على الحد غالب المعتمد في ذلك على قوة بنيه

وكان يميل طبعا للمصادفة مع لرباب الفنون وكان يميل ايضا الى مكالمة امراء
الجيوش فلم يكن في طبعه كلئسان خشى لا يفرق بين مقامات الناس ولا كلك
مخالط ومواس لكل الناس يريد ان يعصب الى رعاياه ويستميلهم كان يخالط
لمجرد تحصيل المعارف وكان يألف النساء بحد ما كان خصمه كرلوس
الثاني عشر ملك اسوج يقر منهن وكان يستوى عنده القبيح والحسن
في الطعام والملحح وكانت بغيته كثرة الشرب بدون ان يهتم بجودة المشروب من
النيذ ويقال ان معقني القوانين والملوك ينبغي لهم اجتناب الغضب ومع ذلك
فليس ثم انسان منهم غضوب قليل الشفقة كبطرس الاكبر وهذا العيب
اذا كان في ملك من الملوك لا يعتد من العيوب التي تساع اذا اقتر بها واعترف على
انه كان مقرا بان فيه هذا العيب حتى انه قال لما حكم من بلاد الفلنك بمدة

سياحته الثانية اتي هذبت اخلاق رعيته ولم يمكن أن اهدب اخلاق قسي
 نعم ان القساوة التي كان يلام عليها بطرس الاكبر كانت قد جرت بها العادة
 بدوان الايمراطور بمدينة موسقو كما جرت بها في ديوان سلطان قاس
 فلم يكن من الغريب كونه قد شوهد انه ضرب بيده الملوكة مائة سوط بالسوط
 المتخذ من عصب النور احد اكبر الضباط المختصين بخدمته الخصوصية على
 اكافه وهي عريانة واحد من النساء ربات الوظائف بالسراية الملوكة خزانة
 لما صدر منها من التقصير فيما يجب عليها من الخدمة في حال سكرهما وليس
 ايضا من الغريب كونه شوهد انه جرب سيفه في عنق انسان استحق القتل
 فضربه فاطار رأسه في الهواء وقد صدر من بطرس بعض افعال مثل هذه
 الافعال الشائعة ببلاد الموسقو لكن كان لوفورت بعض الاجبان
 بصده عن أن يضرب نفسه لما كان له من نفوذ الكلمة لديه غير أن لوفورت
 لم يكن مع الجار على الدوام

ثم ان سياحته ببلاد القلمك وكذلك ميله الزائد للفنون كان سببا في حصول
 بعض تهذيب لاخلاقه لان من خواص العلوم والفنون تحسين اخلاق
 الناس وكان يذهب في الغالب عند احد علماء الجغرافيا يرسم معه خارطات
 بحرية وكان يمضي اياما كاملة عند الشهير هويسك الذي هو اقل من اخترع
 حقن المجارى البدنية بالمائعات وترتب على ذلك تقدم علم التشريح وازالة
 الامور الكريمة التي كانت تمتاز بها النفوس وكان هذا الايمراطور يربي
 نفسه بنفسه وعمره اثنان وعشرون سنة تربية كريمة اب من ارباب الصنائع
 من اهل القلمك لابن له يتوسم فيه الاستعداد والذكاء وهذا التعليم لم يسبق
 بمثله لملوك روسيا وكان يرسل في هذا الزمن شبانا موسقوية يسبحون
 في جميع بلاد اوربا ويتعلمون بها العلوم والفنون ولم ينح في هذه
 الارشالية الاولى حيث ان التلامذة فيها لم يتأسوا بملكهم حتى ان من ارسل
 الى مدينة ونديق لم يخرج قط من الاودة التي كان بها مدة اقامته بهذه
 المدينة خشية أن يلام على مشاهدة بلاد اخرى خلاف بلاد الموقو

وهذا الوهم الذي هم عليه سرى لهم من زعم القسوس الموسقوية أنه من
الكبار تكون نصراني يسافر إلى البلاد الأجنبية قيسا على ما هو مذكور
في التوراة من أنه لا يباح لأهل فلسطين أن يتعدوا وبعاثد من جاورهم
من الأمم عن هواغنى وأمهر منهم

وفي سنة ١٦٩٨ ميلادية توجه الخار من مدينة امستردام إلى
بلاد الانكليز لاكتجار من المشتغلين بإنشاء السفن ولا تلك بل بوصف
بوابار (مثل البيك) يحجوب البلاد ليتعلم العلوم والفنون وقد شاهد الخار
كل شيء هناك حتى أنه ذهب للاطلاع على الكومدية الانكليزية (الغالب
هزلية) مع أنه لم يفهم منها شيئا لعدم معرفته اللسان الانكليزي بالكلية
اذ ذلك ووجد فيها لاعة تسمى مدموازيل غروفت احبها واصلته غير
أنه لم يصلها بجزيل العطاء

وقد جهز له غليوم ملك الانكليز بيتا قابلا لسكنى مثله ومثل هذا البيت
عظيم شيء بالنسبة للبيوت في مدينة لوندرة لان السرايات ليست كثيرة
بها مع اتساعها حيث اكثرت بيوتها واطية خالية من الحيشان والبساتين
ضيقة الابواب كالبواب دكاكين فرانسا ومع ذلك فقد وجد هذا البيت
اخرى من أن يسكن فيه فتأى عن السكنى به وسكن بجارة النوبة ليسهل
عليه التقدم في فن البحرية حتى أنه في اغلب الاحيان كان يتزيا برى فوقي
ليخالط البحرية ويستخدمهم في مملكته

وقد رسم في مدينة لوندرة بنفسه صورة ترعة توصل نهر الاثل بنهر
تن صوبي حيث ضمهم على ذلك بل كان هرامه أن يوصل نهر دويتا بهذين
النهرين بواسطة ترعة يجتدها ايضا وبذلك يتواصل البحر المحيط والبحر
الاسود وبحر الخزر ببعضها ومن احضرهم معه من المهندسين الانكليزية
لم يجدهم بنصح في هذا المشروع العظيم وكذا آل عثمان اخذوا
منه بحر ازاق سنة ١٧١٢ ميلادية وتعرضوا له تعرضا زائدا فامنع
عن تنفيذ هذا المشروع الجسيم

وقد نفذت منه النقود وهو بمدينة لوندرة فذهب اليه جماعة من التجار وعرضوا عليه مائة ألف أيكو (قطعة من النقود) ليأذن لهم بإدخال الدخان في بلاد الموسقو فكان هذا من جملة الاحداث الكبيرة في هذه الدولة حتى ان ذلك عاد على الديانة الموسقوية بالمنفعة فان البطريق الموسقوي كان قد حكم بحرمان كل من شرب الدخان لما أن آل عثمان الذين هم اعداء الموسقو يشربونه وطباقة القسوس كانت ترى انه من جملة المزايا العظيمة لها منع الملة الموسقوية من شرب الدخان فاخذ الجار مبلغ المائة ألف أيكو وتكفل بتكليف خرقه القسوس ايضا بشرب الدخان وكان مضمر الهم على احداث خلاف ذلك

ثم انه من رسوم الملوك مهلدة مثل هذا السياح فاتحفه الملك غليوم بتحفة ظريفة لاثقة بالجاين وهي سفينة صغيرة ذات خمسة وعشرين مدفعا من أعظم السفن مذهبة المقاعد كأنها محراب من محاريب هياكل رومة وفيها الزاد والذخيرة على اختلاف اصنافهما واراد من فيها من البحرية بالطوع والاختيار أن يكونوا من جملة التحفة فعاد الى بلاد القلنك راكبا هذه السفينة وجعل نفسه أول نوفي فيها واجتمع في هذه البلاد بنجار به المستغلين بإنشاء السفن ثم توجه الى مدينة بيج (ويانة تحت مملكة النمسا) وكان ذلك في اثناء سنة ١٦٩٨ ميلادية وكان عازما على أن يقيم بهذه المدينة مدة دون التي اقامها بمدينة لوندرة لما أن ديوان المهيب ليوبولد امير بطور النمسا كان كثير الاحتفال وحفظ الرسوم وكانت قاعدة ملكه خالية من الامور التي يلتفت اليها في التعليم وبعد أن شاهد مدينة بيج كان مراده الذهاب الى مدينة ونديق ثم الى مدينة رومة لكنه جبر على الرجوع الى مدينة موسقو على جناح العجلة لما بلغه من حصول قننة داخلية بملكه متسببة عن غيابه وعن ترخيصه شرب الدخان وذلك ان وياق الاسترليج وهم قدماء جنود الموسقو كانوا غير منتظمين واشبه بوجاق الانكشارية في اضرار نيران الفتن وعدم الانتظام ودونهم في الشجاعة ومثلهم في الخشونة

فلما هذا اثاروا الخروج والعصيان بواسطة بعض قسوس ورهبان نصفهم يوناني والنصف الاخر روسي حيث قالوا ان الله تعالى قد اشتد غضبه من شرب الدخان يبلاد الموسقو فافقوا بذلك الفتنة والعصيان بالدولة وكان قد تدارك الجار ما يمكن وقوعه من الرهبان والاسترليج واعتد نفسه اقمعهم فكان عنده جيش منتظم متكون اغلبيه من العساكر الاجنبية المرتب لهم ماهيات جسيمة وكانوا دائما منسولين ومستعدين للقتال وكانوا يشربون الدخان بمقتضى اوامر الجنرال غردون لهم وكان ينتظر هذا الجنرال الحرب ولا يحب الرهبان وقد قصر السلطان عثمان في تجهيز نفسه واستعداده مثل ذلك حين اراد ان يهذب اخلاق عساكره الانكشارية مثل بطرس الاكبر حيث لم يمكن لهذا السلطان ان يتعرض لهم في ادى شئ ولم يهذب اخلاقهم بل خنقوه

وقد ترتب جيوش الجار وقتل بجيوش ملوك اورپا وقد اندشأ سقنا بمعرفة من بخدمته من الانكليز والفلنك في مدينة ويريوتز الكائنة على نهر تن صوي بالبعد من مدينة موسقو باربع مائة فرسخ وكان يشغل بحسين المدن وتنظيمها و يفعل ما فيه اطمئنانا و اراحة العباد والبلاد ويحدد طرقا عظيمة امتدادها خمسمائة فرسخ وينشئ فبريقات لتشغيل جميع الانواع ومما ليدل على شدة جهل اهل الموسقو في ذلك الوقت هو ان اول فريقة حدثت عندهم هي فريقة الابروالدبايس مع انه الان يصطنع بمدينة موسقو القطيفة المنقوشة وأقمشية المقصب والمفضض فانظر كيف يكون لانسان واحد سطوة عظيمة وفهو قووي اذا كان رئيسا حسن الادارة والرأى

ثم ان حربه لكرلوس الثاني عشر ملك اسوج لاسترجاع الاقاليم التي كانت اخذتها ملكة الاسوج سابقا من الدولة الموسقوية لم يمنعهم وان لم ينجح فيه من أن يستمر على تغيير واصلاح عوائد اهل ملكه وديانتهم وفي اواخر سنة ١٦٩٩ ميلادية امر بان القسام يكون اشتداؤه

شهر ينويه لاشهر سبطمبر وقد تعجب اهل الموسقو حيث كانوا
يعتقدون ان الله تعالى خلق الدنيا في شهر سبطمبر من أن چارهم له اقتدار
عظيم على تغيير صنع الله تعالى وقد ابتدأ هذا التغيير في صدر القرن سنة
١٧٠٠ بموسم عظيم عينه الجار بنفسه وكان قد ابطال منصب
البطريقة وكان يفعل بنفسه الامور المنوطة بصاحب هذا المنصب وما يقال
من أنه امر بوضع بطريق الدولة الموسقوية بمارستانات المجانين بمدينة
موسقو فهو غير صحيح وكان من عادته اذا اراد أن ينشر حرق عقاب انسان
يقول له هذه العبارة قد جعلتك مجنوناً فالذي يلقب بهذا اللقب الجوفى كان
مجبوراً ولو كان من أعظم اكابر الدولة على حمل قضيب الجنون بما فيه
من الاشياء الهزينة ولبس ثوب قصير بحيث يكون على ركبته ويعلق في رقبته
بجلجل ويحيط اهل الديوان برسم كونه مجنون الذات الجارية ولم يقلد بطرس
البطريق بهذه الوظيفة اصلاً بل اقتنع بنسخ رتبة البطريقة لان كل من تولاها
الى ذلك الوقت يتجاوز الحد حتى كان يصدر منه جبر چارات الموسقو على
أن يمشوا أمامه مرة في السنة قابضين على عنان حصان البطريق وقد تخلص
بطرس الاكبر من فعل هذا الاكرام للبطارقة

ولاجل أن تكثر اهل الى مملكته اراد أن يكون بها قليل من الرهبان فأمر بانه من
الآن فصاعداً لا يمكن لانسان الدخول بدير لاجل الرهبانية الا اذا بلغ من
العمر خمسين سنة فمن ذلك حصل ان في عهده قل بمملكة الرهبان دون غيرها
من الممالك لكن بعده قد كثر هذا الجنس الذي كان قد قطع دابره وسبب كثرته
سخافة عقول رؤساء الدين وهو كونهم يريدون ازدياد اهل خرقتهم وهناك
سبب اخر وهو ايضا الضعف القائم بالحكام وسخافة عقولهم من كونهم
يحملون هذه الخرقه الرهبانية

وقد وضع الجار قوانين محكمة لمصوص الموظفين بالسكائس ولتهذيب
اخلاقهم وان كانت اخلاقه لا تتحول من الفساد والشذوذ لكن كان يعلم
أن ما يتساهل فيه الملك لا ينبغي أن يتساهل فيه لقسيس ثم ان النساء قبل بطرس

كأن لا يظهرن على الرجال ولم يكن يسعم بدولة الموسقو ان خاطبها شاهد قبل عقد الزواج مخطوبته بل كان لا يعرف الزوج مخطوبته الا في الكنيسة ومن جلة هذا العرس التي يرسلها الزوج لمخطوبته مقدار من المعصى بقدر قبضة اليد ايقاظا لها بانة عند اول فرصة توجب عقابها ينالها من زوجها تأديب خفيف وكان من قانون المملكة اذا قتل الرجل امرأته لا يقتل فيها واما الزوجات اللاتي يقتلن ازواجهن فانهن يدفنن احياء

وقد ابطال بطرس عادة ارسال هذا المقدار من المعصى وجرم قتل الرجل زوجته ولاجل حصول الوفاق بين الزوجين ودفع مضار الزواج احدث سيلاد الموسقو عادة اكل الرجال مع النساء وان تعرض الرجال على البنات قبل اشهار الزواج وبالجملة فانه احدث كل شيء وأبدعه بملكه حتى جمعيات المسامرة والتوادد فانه معلوم عند الناس القانون الذي وضعه بنفسه لاجل الزام اكابر دولته رجالا ونساء بعمل جمعيات عندهم وكل من صدر منه بهذه الجمعيات شيء يحل بالادب الموسقوي فخرأوه شرب قدح عظيم من العرق بحيث جميع اهل الجمعية المحترمين كانوا يرجعون منها سكارى مجتردين عن تهذيب الاخلاق وانما احدثت مجالس المسامرة عند اهل الموسقو الذين كانوا لا يعرفونها اصلا هو امر جسيم حتى انه كان يلعب في هذا الدولة في بعض الاحيان ألعاب تياترية فان الاميرة تتالبا احدى اخوات بطرس ألقت باللسان الروسي مقامات تياترية من هذا القبيل تتعلق بذكر الحوادث المحزنة وكانت اقرب شها بما ألفه الشهير ساكسبيار الانكليزي فان موضوع تلك الاعاب حكاية سير الظالمين وتقليد أحوال الماسحين والآلات الالحان الموسيقية هي الكنجات الموسقوية التي كانت تضرب بعصب الاثوار وصار الان في مدينة بطرسبورغ استاوات يلعبون التياترو من القرنساوية ومن الطلياسانية باللغتين فقد حلت الظرافة والرفقة في كل الامور سيلاد الموسقو محل الخشونة والتبر الذي كان عندهم ومن جملة المشروعات الشاقة الصعبة التي أبدعها هذا المؤسس في ملكه تقصير ثياب رعاباء وحلق لحاهم وقد كان ذات

في مبدئه سببا في حصول لفظ جسيم وضجر عظيم منهم والواقع أن من اعجب ما وقع كونه أزم الملة تنجماها بلبس ملابس كلبس اهل ألمانيا وجبرهم على تشغيل الامواس في لحامهم دفعة واحدة وقد اجري ذلك بوضع خياطين وحلاقين على ابواب المدن لاجل قص ثياب وحلق لحا الذين يدخلون من الابواب المذكورة وكل من حصل منه توقف وعدم تسليم في ذلك يدفع مغرمبا ساوى تسعة قروش من القروش المصرية فمما قرب رضى الناس بفقد لحامهم دون فقد دراهمهم وقد صدر من النساء مساعدة الجار في هذا الاصلاح والتحسين اذ كن يكرهن من الرجال لحامهم فلا يحبون الا الامرء او الاجرد وكن ايضا اشراكات صنيع الجار على كونه منع عنهن ضرب الرجال لهن وجعلهن يجلسن في الجمعيات مع الرجال وعلى كونه كل السبب في كونهن صرن يتزوجن بالصو والحسنة عندهن بخاوة هامن الشعر

وفي اثناء ما كان مشتغلا بما يوجب انشراح خاطره ابداع هذا التحسين بملكه والاصلاح جسيما كان اويسيرا وكذا في اثناء الحرب المهول الذي كان بينه وبين كلوس الثانى عشر وكان موجبا للاشتغال ففكره قد وضع أساس كل من مدينة بطرسبورغ ومينائها ولكن ذلك سنة ١٧٠٤ ميلادية في وسط بركة لم يكن بها وقتئذ من المباني خص واحد وقد اشتغل بطرس بنفسه في بناء اول بيت أسس بهذه المدينة ولم تكن همته في ذلك من شئ قط اذ جبرت العملة على أن تحضر بهذا المحل الذى هو شاطئ بحر بطلق من بعيد كنفور ازدرهان وشواطئ البحر الاسود وبحر الخزر فهلك في بناء هذه المدينة اكثر من مائة ألف نفس بالاشتغال الشاقة والقطع الذى حل بهم لكن قد تمت المدينة المذكورة وهى الآن موجودة على احسن حال وقد انشأ ايضا مينات ارقنجل وازدرهان وازاق وورونيتو

ولاجل ابداع كثير من المصالح الجسيمة ببلاد الموسيقى وتمصيل دونجات بحر بطلق وتجهيد مائة ألف عسكري من الجيوش المنتظمة كان يلزم صرف مبالغ جسيمة مع ان الدولة الموسقوية لم يكن لاهلها الايراد اذ ذلك

الاخوة عشرين مليوناً من الفرنكات وقد شاهدت دقة ذلك مع انسلن كان
الجبيا بمدينة بطرسبورغ ولـكن ايا جبر العملة المدين كانوا يشتغلون
بمدينة بطرسبورغ كانت على النسبة لايراد الدولة ويلزم أن يعترف
الانسان بان تكاليف بناء اهرام مصر لم يتكاف على ملوكها سوى ما كان
ياكله العملة من البصل مدة اشتغالهم بتشييدها وأقول ان الملوك لا يتكلف
عليهم الشئ في الحقيقة سوى ارادة فعله والامر به ولا يأمرون بهين
ولما اخرج الجار رعاياه بالتربية من العدم الى الوجود رأى انه يساح له
فعل ما كان يميل اليه من عقد النكاح على معشوقته كاترينة التي صاحبته
وكانت جديرة بأن تكون زوجته فعد عليها على رؤس الاشهاد باطلاع
الخاص والعام سنة ١٧١٤ ميلادية واصل كاترينة الشهيرة انها
كانت بتساينمية ولدت بقرية رنجمان بلقليم استونيا وكفلها قسيس
هرطقي من اتباع لوتير يدعى غلوك وكان يطعمها من الصدقات ثم
تزوجت بـرجل عسكري من اقليم ليونيا فأسرهما بعد زواجهما يومين جماعة
من العساكر فدخلت في خدمة كل من الجنرال بوير وبيرموف ثم
في خدمة منزيقوف وهو شاب صبي فطاطري اغتنى وصار من الاكابر ثم من
الامراء واقب بلقب پرنس ونال المظرة في الدولة حتى صار اول رجل من
رجال الدولة الموسقوية فاتمى الحال الى أن صارت كاترينة ايضا زوجة
لبطرس الاكبر ثم بعد موت هذا الجار خلفته على سهرير الملك واصلت
ايمراطورية الدولة الموسقوية وصاحبته بالوراثة وهي جديرة بذلك فقد
حسنت كثير الخبلاق زوجها وكان على يديها تخليص كثير من الناس من
الضرب بالكنوت (سوط عذاب عند الموسقو) وخلعت من القتل بالبلطة
اكثر مما نجا على يد لوفورث فكانت محبوبة مكرمة عند اهل الموسقو
وهذه المرأة لو عرضت على احد من به حسب ونسب من اعدائنا في ألمانيا
او على احد من وكلاءنا من حكام ألمانيا لما رضى بزواجه الا ان بطرس
الاكبر لم يكن يعتقد أن فضلي الانسان يلزم له ائتمن وثلاثون طبقة من انساب

الشرف فان الملوك يعتقدون أن لا اشرف من الرتبة التي يشرفون بها اتباعهم
وان جميع الناس تستوى درجاتهم أمام الملوك ومن المحقق ان الحسب
لا يقتضى الفرق بين درجات الناس في الانسانية كما انه لا فرق بين حارين
احدهما كان ابوه يحمل النجاسة والاخر كان ابوه يحمل الاشياء التي تترك بها
من آثار الصالحين وانما الحري بتميز درجات الناس انما هو الادب وحسن
التربية وكذا المعارف تجعل فرقا عظيما بين العالم والجاهل لكنهادون المال
فهو عظيم وقد تربت كاترينة عند القسيس المذكور الذي هو من اقليم
استونيا تربية عظيمة كترية جميع اكابر النساء الموسقوية اللاتي بمدينة
موسقو وارقبجل وكنت من اصل النطرة صاحبة ذكاء وفطنة قابلة لتكسب
المعارف وعاء الهمة ثم من فاتها نظمت كلا من بيت الجنرال بوير
وشرموف أحسن نظام بدون أن تعرف القراءة والكتابة والغالب ان
الانسان الذي يعرف أن يدير بحسن الادارة منزلا جسيما يقتدر على ادارة
مملكة بتمامها ولر بماظهر للانسان ان هذا الامر من اغرب الامور ولكن
في الواقع ونفس الامر ان العقل المدبر لمائة نفس يمكنه أن يدير ايضا عدة آلاف
من النفوس

ثم ان ألكسيس الجار زاده الذي يقال انه تزوج كاترينة بجارية وتغرب
منه سرا لم يحصل له في هذين المشروعين نجاح كما حصل لايه بل ترتب على
ذلك اعدامه لكونه اقتدى بأبيه اقتداء في غير محله وما حل به من القتل عبرة
عظيمة في القساوة التي لم يصدر مثلها من ملك من الملوك في حق ابنته لكن
بما يشرف سيرة الامير اطوريحة كاترينة هو انهم لم يكن لها مدخل قط
في الخنة التي حصلت لهذا الامير الذي هو ابن الجار من زوجة غيرها
ولم يكن يجب شأط مما كان يحبه ابوه ولم تتهم كاترينة بأنها فعات
بالكسيس مشأنه أن يصدر من زوجة الاب التي شأنها القساوة والخفاء على
ابن زوجها وأعظم ذنب ارتكبه هذا الامير هو أنه كان محروما كل الاحراس
على بقاء طباع ادل الموسقو وانه كان يكره ما كان يصدر من ابيه من

الامور الجسدية التي تتخذ ذكره لفصلها الملة الموسقوية وقد سمع ألكسيس ذات يوم بعض ائامن من الموسقوية يشكون من الاشغال التي تنكل عنها القوى مما اقتضاه الحال لانشاء مدينة بطرسبورغ فقال لهم صبرا فان هذه المدينة لا تمكث مدة طويلة ولما كان يلزم الحال لان يتبع اياه في اسفاره البعيدة التي كان يسافرها في اغلب الاحيان وبعده عن المملكة بخمسائة فرسخ فاكثر كان يمارض و يأخذ من المسهلات مقادير جسيمة لتخفيف هذا المرض الذي في الواقع ونفس الامر لم يكن قائما به وكذلك وجود الاطباء حوله وما كان يتعاطاه من العرق بكثرة كل ذلك تسبب عنه تغيير في صحته وعقله وكان في اول امره لميل طبيعي لتحصيل المعارف فكان له وقوف على الهندسة والتاريخ وكان قد تعلم اللسان النيمساوي لكنه لم يكن يحب الحرب وهذا ما كان يلومه عليه ابوه كل اللوم وقد تزوج هذا الامير بالاميرة ولقائوتيل اخت الاميراطورة زوجة كرلوس الرابع اميراطور النمسا سنة ١٧١١ ولم يقع بين الزوجين راحة لانه كان يهجر الامير المذكور فراس هذه الاميرة حيث كان منهمكا على القسق وعلى شرب العرق كان مصاحبا معشوقته افروزينة وهي بنت من اقليم فنلندة طويلة القامة لطيفة الشكل مألوفة وقد زعم بعضهم ان الاميرة زوجة الجار زاده افضى بها الغم الى الموت ان كان الغم يقتل وان الجار زاده المذكور تزوج افروزينة في السرسنة ١٧١٣ حين ما وضعت كاترينة غلاما من الجار صار احاله وكان غنيا عنه لانه يخشى أن يعكر عليه في ولاية الملك بعداياه

وقد اشتد الغيظ على مدى الايام بين كل من الجار وابنه حتى ان الجار من سنة ١٧١٦ هدد ابنه بأنه يحرمه من وراثته الملك بعده فاجابه ابنه بأنه يريد أن يكون راهبا

وفي سنة ١٧١٧ قد جدد الجار سياحاته لغرض سياسي ولشاهدة ما كان متولعا بمشاهدة بالبلاد الاجنبية واتهى الحال بانه ذهب الى مملكة

فرانسا فلو كان مرام ابنه العصيان عليه أو كان هناك في الواقع ونفس
الامر حزب مساعد له على ذلك لكان وقتئذ فرصة ظهور هذا الحزب
واشتعال نار العصيان والخروج على ابيه لكن عوضا عن أن يمكث
الجارزاده ببلاد الموسيقى مدة غياب ابيه ويستميل قلوب اناس لاجل
الحزب معه خرج من الديار الموسقوية وكابدا كابد في تحصيل بعض آلاف
من الزبالات الموسقوية اقترضها في السر والتجأ عند الامير اطور كرلوس
الرابع الذي كان عدله ومكث بمدينة بيج محتفيا مدة من الزمن ثم توجه
الى مدينة نابلي وأقام بها نحو سنة ولم يكن يعلم الجار ولا غيره من
اهل الموسيقى الخجل الذي التجأ به هذا الامير

ومذ كان الجارزاده محتفيا بهذه الجهات كان ابوه بمدينة باريس التي
صار تلقيه فيها بنظير الاحترام الذي حصل له بغيرها من البلاد التي ذهب اليها
لكن كان هذا التلقي مع التلطيف والاصحرام الذي لا ييسر وجوده سوى
في مملكة فرانسا فكان اذا ذهب لم يتفرج على فريقة من الفريقات ورأى
بعض الاشياء المصطنعة فيها وأعجبه وأحسق بصره اليه اكثر من غيره
اهدى له منها في الغد وقد اتفق انه مضى للعشاء عند دوق دتين في سرايته
التي على البعد من باريس بثلاثة فراسخ فأول شيء رآه في السراية هو صورته
عند هذا اللوق مرسومة بالرسم الكبير وعلمها الكسوة التي كانت عليه وقتئذ
ولما ذهب الى ضريحه التذكراتمة ضربوا أمامه من كل انواعها وأهدوه بها
حتى انهم ضربوا قطعة من هذه النقشات وألقوها على قدميه ليلقطها
قتناولها فاذا فيها صورته منقوشة بأكل حال ومرسوم على احدى جهتيها
مامعناه بطرس الاكبر وعلى الاخرى صورة تمثال الشهرة (الذكورة)
في خرافات القدماء وعلى دائرة هذه القطعة منقوش بعض كلمات من
كلام الشاعر ورجيل ومعناها

* كلما منى وسار * اكتسب القوة والنخار *

ولاشك ان عنوان هذا التلميح بصديق عليه * ويدل على اتناء القنار اليه

لان هذا الملك كان يزيد في خييل نفسه في الواقع ونفس الامر باسفاره
في المسالك واطلاعه على غرائب الممالك

ولما رأى في باريس قبر الكردينال دوريشليو وتمثاله المصطنع
صناعة جيدة تليق بهذا الوزير الذي كان شكله على شكل هذا التمثال
تهجد ونفس الصعداء وقال عبارة لا تصدر الا من اناس مولودين ليكونوا
ابطالا عظاما اذ صعد على القبر ولثم التمثال وقال يا ايها الوزير العظيم القدر
لو وجدت في عهدي لا عطيتك نصف ملكي كي أتعلم منك تدبير النصف الآخر
فكان ثم انسان من الحاضرين اقل حماسا من الجار فسأل عن معنى هذه
الكلمات التي قالها باللسان الروسي فأفهموه معناها فاجاب بأنه لو أعطاه
نصف مملكته بالطوع والاختيار لم يبق له النصف الآخر من مخطوطه بلا

وبعد أن طاف الجار بمملكة فرنسا التي كل ما فيها يحسن الاخلاق
ويعلم الحلم والتغاضي عاد الى وطنه ورجع الى ما كان عليه من الجفا
والقساوة فدعى ابنه للعود من مدينة نابلي الى بطرسبورغ ومن هذه
المدينة اتى به الى مدينة موسكو واحضر أمام والده الجار وابتدأ
بجرماته من وراثته سرير الملك وولاية العهد بعده وألزمه بأن يكتب على نفسه
وثيقة أمام الخاص والعام ويضع عليها امضاءه بأنه تنازل عن وراثته الملك
بعده اياه وفي آخر شهر ينويه سنة ١٧١٨ وعده ابوه بأنه لا يقتله حيث
انه أسقط حقه في ولاية العهد

ولما كان العقل لا يستبعد ان مثل هذا الاسقاط يلغى ولا يعمل به ذات يوم
من الايام فلاجبل تقويته نسي بطرس حقوق البنوة وتذكر انه مؤسس
لدولة جديدة يخشى عليه من ابنه اذا حكم بعده أن يغمسها نائيا في بحار البربرية
والخشونة التي اخرجها ابوه منها فامر الجار بان يجرى على رؤس الاشهاد
تحقيق قضية ابنه هذا حيث كتم في اعترافه الذي ألزم به في قول الامر
بعض امور كان حقها الافشاء

وقد وجد القسوس والاساقفة والمدرسون العالمون بعلم اللاهوت الذين اجتمعوا

اذنك للحكم على ألكسيس بما صدم منه في التوراة ان من عقى والديه
جرائمه قتله وان داود عليه السلام سابع ولده ايشولم الذي خرج عن طاعته
لكن لم يسامحه الله تعالى بل أنفذ حكمه فيه فهذا ما ابدوه من غير أن يحكموا
عليه بشيء أصلا لكن ما ذكره هذا هو في الواقع ونفس الامر كناية عن الحكم
على ألكسيس بانه يستحق القتل وفي الحقيقة لم يعق ألكسيس والده أصلا
ولم يخرج عن طاعته كما خرج ايشولم حيث لم يخن فراش ابيه بجهره وانما
سافر بدون اذن والده وكتب لاصحابه مكاتيب ذكر فيها انه يؤمل أن يتذكره
ذات يوم يسلاد الموسقو ومع ذلك فالمائة واربعة وعشرون قسيسا الذين
تخصصوا للحكم على ألكسيس لم يظهر من بينهم واحد الا وحكم بقتله
ومن لم يعرف يكتب اسمه منهم أذن بالكاتب عنه على جرنال الحكم عليه بالقتل
ومما شاع ببلاد اوروبا وطبع في كثير من التاليف هو أن الجار امر
بان يترجم له من اللغة الاسبانيولية الى اللغة الموسقوية جرنال الحكم على
دن كرلوس ولي عهد مملكة اسبانيا حيث وضعه ابوه فيليبش الثاني
في السجن ولبث به حتى مات صبورا ولم يعلم بأى كيفية كان موته هل مات
حتفا انه او بالقتل ولم يكن بطرس الاكبر الذي هو أعظم الملوك رخصة
في الاحكام وتصرفا في اجراء النقض والابرار مفقرا للتأسي في قتل ابنه
باحد من السالفين ولا بسلول منهاج غيره من المتقدمين ومع ذلك فن الثابت
الحق في التواريخ ان ابنه قضى عليه في فراشه ثاني يوم الحكم عليه بالقتل
وان الجار كان عنده بمدينة موسقو اجزاخانة من أعظم اجزاخانات
اوروبا ولكن الظاهر ان الامير ألكسيس حيث انه ولي عهد اكبر دولة
في الدنيا واتقت كلمة رعايا والده الذين كان يحتمل أن يصيروا رعاياه ذات يوم
على الحكم عليه بالقتل انما مات بما اعتري جسمه من التغير حين بلغه الحكم
عليه بالقتل وهو حاكم غريب ومهول وقد ذهب ابوه لمشاهدته في حال
احتضاره ويقال انه بكى وزرقت عيناه بالدموع ومع ذلك فقد صار تعذيب
احباب ألكسيس الذي حكم عليهم الجار بالقتل معه بالتقطيع

بجولات القتل وامتلات تلك العجلات من قطعهم وقد امر بضرب عنق صهره
قوتة لابوشين وهو اخ زوجته اوتوكيز الابوشين التي طلقها وخال
الامير الكسيس وكذا قسيس الاعتراف الذي كان يعترف الكسيس
على يده قد ضرب عنقه نعم ان دولة الموسقو قد تمدت وامتدتها اشترت
التدن باغلي غن

ثم ان ما بقي من عمر الجار بعد قتل ولده لم يصرفه الا في تكميل اغراضه
العظيمة وما ربه الجسمة واشغاله الملكية واعماله العسكرية التي كان يظهر
منها انها تحت ما كان عليه من القساوة المفرطة التي لا مانع من انها كانت
ضرورية لبلاد الموسقو وكان في الغالب يخطب اهل ديوانه واهل مشورته
ويعظهم وقد قال في خطبة من خطبه أنه اعدم ولده لاجل سلامة مملكته
واتخاذ البلاد والعباد

وبعد الصلح الذي عقده مع مملكة اسوج وارث الفخار دولة الموسقو
واستولى به على اقليم ليونيا واستونيا وأنجرمانيا ونصف كاريليا
وويبورغ لقبه اكابر الموسقو بلقب الاكبر وابي الوطن واميراطور
وكان الوكيل عن هؤلاء الاكابر المذكورين في ذلك مشورة السنث (مشورة
الحكومة) فاعطته هذه المشورة الانقلاب المذكورة عن اسان الاعيان
على رؤس الاشهاد بحضور كل من قوتة دوكنسيكي سفير امبراطور
النمسا ومسيو كبرودن سفير فرانسبا بدولة الموسقو وألجية مملكة
البروسيا والفلنك ثم تعود ملوك اوروبا شيأفشيأ على تلقيب ملوك
الموسقو بلقب امبراطور لكن هذه الرفع لا تمنع من كون ألجية فرانسبا
مقدمين في التشريفات على ألجية الموسقو في سائر دواوين الملوك

ولاشك أنه يجب على اهل المملكة الموسقوية اعتقاد أن الجار أعظم جميع
الناس فانه من بحر يطلق الى تغور مملكة الصين فعلى ما يوجب
أن يكون به بطلاهما ما ولكن هل يعد من الابطال عند القرناوية
وهل يضاهي في الجسارة والشجاعة ابطال هذه المملكة من امثال كندى

ويولار وهل يشابه في المعارف والعقل والاختلاق لاحد من الرجال
الموجودين بفرانسا في عصرنا هذا وجواب ذلك انه ليس من هذا القبيل
وانما كان ملكا غير مهذب ولا مؤدب الا انه قد فعل ما لم يكن في طاقة أي ملك
لوحلوا محله أن يفعلوا ما فعله اذ كان متصف بقوة النفس التي من شأنها أن تجعل
الانسان متسلطنا على ما كان حوله من الاوهام الفاسدة التي كانت موجودة
ببلاد الموسقو قبله فغلبها وقهرها فغلبه كعمار بنى ببلاد الموسقو ما بناه بالطوب
والقراويد ولو كان في غيرها البني بالرخام اذ لو حكم بطرس بملكة فرانسا
لا وصل الفنون من الحلة التي عليها الى اعلى الدرجات فكان يتعجب منه لكونه
كان له بحر يلقى خمس وعشرون سفينة من كبار السفن بخلاف ما اذا كان
هذا الجار بملكة فرانسا فلو كان بها لكان له ميمانتها ما تناسفينة
فانظر ما فعله الجار بمدينة بطرسبورغ فبالك لو كان بمدينة باريس
ماذا يكون فعله بها والذي اتعجب منه كل العجب هو قوله بجاه النوع البشري
فانهم كانوا لا يصدقون بظهور انسان بمدينة موسقو مثل الجار بطرس
فان الانسان كان يرضى أن يراهن على ان مثل هذه القرية المحالفة لقرايح
اهل روسيا لا توجد في انسان من اهل هذه البلاد بشرط أن يدفع في حالة
ما اذا وجدت هذه القرية مبلغا يساوي عيده من عروا بلاد الموسقو
في جميع الازمنة وأن يأخذ من غريمه القاتل بالوجود واحدا فقط وكان
الانسان يرضى ايضا يراهن غيره على أن يدفع له ستة عشر مليون عيده اهل
الموسقو اذ ذاك ويأخذ واحدا من الاحاد على ان الجار بطرس يتصف
بهذا العقل وحسن التدبير لا يجده من يراهنه على ذلك ومع ذلك فقد اتصف
الجار بما كان يعتد من قبيل المستعيل على مثله ولا غربة في ذلك فانه قبل
اختراع الحراث مضى احوال عديدة وتوارت الحوادث في مدد مديدة
وتداولت القرون والعصور والازمنة والدهور حتى أوجد مدبر الكائنات
لحسن التوفيق مخترع هذه الآلة الزراعية لتقي الخلق من المجاعة كما أوجد ايضا
مخترع فن الحياكة القماشية للملابس البرية والا ن حيث داخل بلاد الدولة

الموسقوية القتن بالتدريج لا يمتحجون من تقدمهم في الفنون والصنائع
فانهم تعودوا عليها في دون خمسين سنة بل من رأى بلادهم وماهم عليه
الآن لا يقول الا بكون هذه الصنائع قديمة عندهم متوارثة عن سلفهم
والى عهدنا بهذا الميزل باقطار افريقية المتسعة الارحاء ممالك يفتقرا لها الى
رجل عظيم يدخل فيها الحضارة والعمران كما فعل بطرس الأكبر فيما حكمه
من البلدان ولا مانع أنه يظهر فيها مثله ولو بعد الوفاء من السنين لان الشيء
المطلوب يتأخر حصوله ولو بعد حين

يقول مترجمه من الفرنسية الى العربية احمد محمد عبيد افندي الطهطاوى *
بعد حمد غافر المساوى * قد صرفت في ترجمته على صعوبته الهمه * وسهرت
في مطالعته وفهمه الى المدا لاهمه * واستغنت فيما حواه من المشكلات *
وما اشغل عليه من المضلات * بمراجعة صاحب الرفعة رفاعة يبك ناظر
قلم الترجمة * وتصحيح غالبه بمعرفة العلامة الشيخ محمد قطة العدوى بخاء
ترجمته على حسب الطاقة متقنة محكمة * ولا اقول مع ذلك انه خلى من الخلل *
او عرى من الخطل * فان ذلك ليس في طباعة الانسان * الجاهل في اشتقاقه
حروف النسيان * لاسيما مثل فانه غريب في ذلك اللسان * مع ما يضاف الى
ذلك من كون هذا التاريخ معدود من التواريخ السياسية * المشحونة
بالوقائع والحوادث البوليتيكية * وان مؤلفه من كبار المتفلسفين من العيسوية
* ومن عظام ضحايا الدولة الفرنسية * ومن ذا الذي يجهل خطابه * وتير
الشهير * وان له في كل فن تأليفًا يعجز عن فهمه الصغير والكبير * والحمد لله قد تم
على اكل حال * وأعظم منوال * في ايام الاصحى الاكرم * الصدر الاعظم *
ولي النعمة * ورب الهمم الجية * من انجلا بطاعته ظلام الظلم وتلاشى *
سعادة افندينا الحاج عباس پاشا * باغه الله تعالى ما يشا وما شا * وانعش
بفائض جوده وجود المعارف اتعاشا * امين فهو جد پر بان يخل عند ذكر
جنابه الشريف * وتلاوة اسمه المنيف * بقول الشاعر
انا لنبتني على ما شيدته لنا * اياؤنا الغرم عز ومن كرم

انى وان كان قومي في الورى علماء * فاننى علم في ذلك العلم
حفظه الله وادامه * وخلد ايامه وابداحكامه * وحفظ الهامه واسدل
على سائر الرعية انعامه * بجاه ختام المرسلين * صلى الله عليه وعلى آله
وصحبه اجمعين *

وقد كل اتمامه بالطبع الجليل * وحسن الرسم والتمثيل * بدار
الطباعة العامرة * الكائن ببولاق مصر القاهرة * في اول
العشرة الاواخر * من شهر ربيع الآخر * سنة ست
وستين وما تين بعد الالف * من هجرة من كان
برى من الامام كبرى من الخلف * صلى الله
وسلم عليه * وعلى آله واصحابه المتقين اليه
في مدة ناظرها المتوكل على مولاه
المعيد المبدى * على جودة
افتدى * فرحم الله من
نظر فيه واليه *
وستر على ما عثر
عليه *

104



HDI



HW 72K1 -